

صمويل چونسون
أوسكار وايلد
أوسكار وايلد

الوادی السعید
شبح کانترفیل
صورة دوریان جرای



الطبعة الثانية

لؤلؤة عوَض

روایات مترجمة

2/265

روایات مترجمة

(الوادی السعید، شبح کانترفیل، صورة دوریان جرای)

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٢/٢٦٥

- روايات مترجمة:

(الوادي السعيد، شبح كانترفيل، صورة دوريان جراي)

- صمويل جونسون، أوسكار وايلد

- لويس عوض

- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة ثلاث روايات:

- 1- Rasselas, Prince of Abissinia
by Samuel Johnson
- 2- The Canterville Ghost
by Oscar Wilde
- 3- The Picture of Dorian Gray
by Oscar Wilde

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت. ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel 27354524-2735426 Fax. 27354554

روایات مترجمة

(الوادی السعید، شبح کانتربیل، صورة دوریان جرای)

تألیف: صمویل جونسون

أوسکار وایلد

ترجمة: لويس عوض



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٦٢٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: 1 - 280 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع مصر للطيران

نهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا نعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المقدمة

- ١ -

فى عام ١٩٤٦ اتفقت مع دار الكاتب المصرى ، وكان مستشارها يومئذ الدكتور طه حسين ، على ترجمة روايتين عن الإنجليزية من اختيارى لتصدرتا ضمن مطبوعات الدار المذكورة ، وكانت دار الكاتب المصرى قد أصدرت الطبعة الأولى من ترجمتى لرواية أوسكار وايلد الشهيرة « صورة دوريان جراى » التى اختارها للدار الدكتور طه حسين ، وقد ترجمتها برغم احتجاجى على هذا الاختيار ، نزولا على إرادة أستاذنا طه حسين ، وقد أمتت هذا الاعتراض على اعتبارين : الاعتبار الأول أن أوسكار وايلد هو زعيم مدرسة « الفن للفن » فى الأدب الإنجليزى ، وبرغم تقديرى لموهبته واعترافى بمكانته فى الأدب الإنجليزى كنت أؤثر أن أخصص جهدى ووقتى لترجمة أديب آخر ممن يؤمنون مثلى بالأدب فى سبيل الحياة . أما الاعتبار الثانى فهو أنى ، من حيث المبدأ ، لا أحب أن أتصدى لعمل يمكن لغيرى أن يتقنه ، ولم أكن أرى فى عمل أوسكار وايلد صعوبة خاصة تحتاج إلى علم أستاذ فى الجامعة مختص فى اللغة الإنجليزية وآدابها . وحين عرضت على طه حسين أن أترجم لدار الكاتب المصرى « الفردوس المفقود » للشاعر ميلتون ، ضحك أستاذنا وقال : إنك تريد أن يفلسوا ، لا تنس أن الناشرين تجار .

وبعد أن صدرت « صورة دوريان جراى » ، كان لابد أن أختار ما يليها ، وبعد تفكير قررت أن أقوم بدور المعلم بطريقة عملية . لقد كان فن الرواية فى مصر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية قائماً على الاجتهاد ، كان هذا الفن قد

اجتاز مرحلة الخطر ، ما بين « زينب » وبدايات نجيب محفوظ عبر توفيق الحكيم وطه حسين ، وكانت « الترجمة » الفنية في الفن القصصى تكاد أن تكون مقصورة على جهود محمد السباعي في نقل القصة القصيرة الأوروبية ، وخاصة عن موباسان وتشيكوف ، إلى اللغة العربية ، أما « الترجمة » الفنية للرواية فلم تعرفها العربية في تلك الفترة إلا في ترجمة الزيات « لآلام فيتر » و ترجمة أحمد الصاوي محمد لروايتي أناتول فرانس « تاييس » و « الزنبقة الحمراء » ، ولم يكن أحد يعد ترجمة « البؤساء » لفكتور هيجو ، ولا ترجمة المنفلوطي « لمجدولين » الفونس كار و « بول وفيرجينى » لبرناردان سان بيير ترجمة بأى معنى حقيقى . كانت « بؤساء » حافظ إبراهيم عملاً رائعاً حقاً ولكنها كانت عمل حافظ إبراهيم لا عمل فكتور هيجو ، وكان حجمها نحو واحد على مائة من النص الأصيل ، أما مترجمات المنفلوطي فقد كانت نصوصاً رائعة في الثر العربى ، وكانت الغذاء اليومى لشباب العشرينات ، وربما لشباب الثلاثينات ، ولكنها أيضا كانت « بقلم » المنفلوطي لا بقلم مؤلفيها الحقيقيين ؛ من أجل هذا كانت هذه الآثار العظيمة نماذج رائعة في فن « الاقتباس » لا في « الترجمة » .

ولا شك أن العربية خلال العشرينات والثلاثينات عرفت عشرات من النماذج في ترجمة الرواية من نقولا يوسف إلى عمر عبد العزيز أمين ، عرفت ترجمة الرواية بالمعنى المتعارف عليه ، غير أن هذه الترجمات عن إسكندر دumas وميشيل زيفاكو وتشارلز ديكنز وكونان دويل والكونتيسة أوركزى . . إلخ كانت إما نقلاً تغلب عليه العجلة والركاسة لبعض روائع الأدب العالمى ، يختفى فيه « الأدب » ولا يبقى إلا السرد والحوار والوصف ، وإما نقلاً لروايات المغامرات المثيرة التى يقبل عليها الناس لإزجاء الفراغ ولكنها عديمة القيمة من الناحية الأدبية ، ومع ذلك فقد كانت هذه الروايات المثيرة هى المدرسة الأولى التى

تعلم فيها المصريون « فن الرواية » أكثر مما تعلموه من جهود حافظ إبراهيم والمنفلوطي لأنها برغم قصورها ، حافظت على هيكل الروايات المنقولة ، ومن خلالها تعلم من يريد أن يتعلم كيف يكون السرد ، وكيف يكون الحوار ، وكيف يكون الوصف ، وكيف يكون بناء الشخصية . من خلال هذه المترجمات الساذجة لنصوص بعضها ساذج وبعضها شامخ ، تعلم من يريد أن يتعلم « تكنيك الرواية » كما يمارسونه في التقاليد الأوروبية التي أخذنا عنها فن الرواية .

ومع هذا فقد بقيت الرواية مظلومة ، فقد بقي أن يظهر لها رعييل من المترجمين الفنين الذين لا يتصلون إلا للروائع الأدبية من ناحية ، ولا يشاطرون الروائيين تأليف رواياتهم حين يترجمونها من ناحية أخرى ، كما فعل محمد عثمان جلال وحافظ إبراهيم والمنفلوطي . ثلاثة أركان كان ينبغي أن تتوافر : اختيار روائع الرواية في الأدب العالمي ، وأمانة النقل في حرص شديد ، وورعة العبارة العربية أو جودتها على أقل تقدير ، بحيث تدخل الترجمة في إطار الأدب كما دخل النص في إطار الأدب في لغته الأصلية ، بهذا وحده يمكن للروائي العربي الناشئ أن يتعلم شيئاً كثيراً عن فن الرواية دون إحاطة باللغات الأجنبية .

بعبارة أخرى : كنا بحاجة إلى تجديد التقاليد الأدبية التي أرساها في فن الترجمة العربية أحمد حسن الزيات وأحمد الصاوي محمد . إن محمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين لم يكونوا بحاجة إلي « نماذج » من الرواية مترجمة إلى العربية لينشئوا ما أنشأوا في فن الرواية لأن طريقهم إلى الأصول كان طريقاً مفتوحاً نسيجة لإتقانهم اللغات الأجنبية ، أما الأجيال الجديدة من الأدباء الشباب الذين لم يتح لهم علم هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين فقد كانوا بحاجة حقيقية إلى هذه النتائج ، إن لم يكن لحسن الإنشاء فلحسن التلوق على أقل تقدير .

وهذا كان دور دار الكاتب المصري : فتح هذه المدرسة الجديدة لشباب الأربعينات ، وكان طه حسين خير رائد لهذه المدرسة ، بتوجيهه نشرت دار

الكاتب المصرى نماذج من آثار فولتير وستندال ودوستويفسكى وأوسكار وايلد وأندريه جيد وهـ . ج . ولز والدوس هكسلى وسانت أكز وييرى وغيرهم . ولو أتيح لهذه الدار أن تستمر أكثر من عامين لفعل بها طه حسين فى الأربعينات من القرن العشرين ما فعله الطهطاوى بمدرسة الألسن فى الأربعينات من القرن التاسع عشر .

وكان أهم درس تلقيته فى تجربة تقديمى لأوسكار وايلد هو أنى بعد أن قدمت للدارسى الأدب عملاً نموذجياً يمثل مدرسة الفن للفن ، كان من واجبى أن أقدم لهم أعمالاً نموذجية تمثل بقية مدارس الأدب : الرواية الكلاسيكية ، والرواية الرومانتيكية ، والرواية الطبيعية ، والرواية الواقعية ، والرواية القائمة على تيار الوعى . وبدأت بالرواية الكلاسيكية فاخترت نموذجاً لها هذه الرواية التى نسميها « الوادى السعيد » لصمويل جونسون ، وهى من آثار القرن الثامن عشر فى الأدب الإنجليزى ، واسمها الأصلى : « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » وبعد أن أنجزت ترجمتها فى باريس فى صيف ١٩٤٦ ، اخترت عملاً آخر يمثل نموذجاً من المدرسة الطبيعية ، أو الناتورالية كما يسمونها ، وكان هذا العمل هو رواية ضخمة فى خمسمائة صفحة ، هى رواية « إستر ووترز » Esther Waters لجورج مور George Moore ، من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد فرغت من ترجمتها ، إذا لم تخنى ذاكرتى ، فى ربيع ١٩٤٧ ، أو قبيل ذلك ، وقد بدأت بالنموذج الكلاسيكى ثم بالنموذج الناتورالى ، لأن الرواية الكلاسيكية والرواية الناتورالية كانتا حتى ذلك الوقت مجهولتين تماماً فى العربية ، وأجلت النموذج الرمانتيكى لأن قارئ « آلام فيتر » The Sorrows of Werther لجوته Goethe كان يستطيع أن يجد فى ترجمة الزيات مثلاً حياً منها يعينه على تفهم منهج الرومانسيين فى بناء الرواية ، وبعد أن وقعت عقد « إستر ووترز » مع دار الكاتب المصرى أغلقت الدار أبوابها فى ظروف غير طيبة ، وصفت مطبوعاتها ، وتنازلت فى صفقة التصفية عن كل مخزونها من الكتب وعن عقودها مع

الترجمين والمؤلفين لمكتبة الخانجي ، وبعد فترة شرعت مكتبة الخانجي في نشر « إستر ووترز » لجورج مور تحت اسم تجارى هو « المعذبات فى الأرض » ، وبعد أن طبعت نحو ثلثمائة صفحة ضاع منها نحو خمسين صفحة من مخطوط هذا الكتاب فتوقفت عن الطبع ، وكنت يومئذ فى أمريكا فكتب إلى نجيب الخانجي يستأذن فى استئجار مترجم يترجم الصفحات الضائعة حتى يتمكن من طبع بقية الرواية ، ولكنى رفضت رفضاً باتاً خشية أن يرزأنى بمترجم جاهل بأسرار اللغة الإنجليزية يدسّ على أخطاء فى الترجمة تسيء إلى سمعتى واستمهلته فى إتمام طبع الكتاب حتى عودتى من أمريكا ، فلما عدت بعد سنة أو نحوها اكتشفنا أن المطبعة قد أضاعت المائتى صفحة الباقية فى المخطوط وهكذا أسدل الستار على ترجمتى « لإستر ووترز » لجورج مور وعلى محاولتى تعريف الناس بالمدرسة الناتورالية فى الآداب الأوروبية ، ولكن لعل هناك بعض العزاء فى أن رسول الناتورالية وسيدها الذى لا ينازع ، ألا وهو إميل زولا Emile Zola ، صاحب « الأرض » La Terre و « جيرمينال » Germinal و « بنت الحان » L.Assomoir (حَرْفِيًّا : « مفقدة الوعي » ، يقصد الخمر » وبقية دراساته الروائية فى الوراثة المعروفة بسلسلة « روجون ماكار » Rougon Macquart ليس غريباً عن شطئان مصر أو عن قراء العربية .

أما « الوادى السعيد » ، أو على الأصح « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » ، فقد نجت من الضياع ؛ لأننى لم أكن قد تعاقدت عليها بعد ، حين صفيت دار الكاتب المصرى ، فألقيت مخطوطها فى أدراجى نحواً من خمس وعشرين سنة ، بين ذاكر وناس ، أحفل بها ولا أحفل لأننى من أولئك القوم الذين لا يلتفتون كثيراً إلى الوراء ، بل يؤثرون دائماً النظر إلى الغد قبل الأمس ، حتى قبض الله لها دار المعارف لنشر صحائفها المطوية ، فعسى ألا نكون قد ارتكبنا وزراً عظيماً بنش هذا الماضى البعيد ، وقد ترجم هذه الرواية الأستاذ الدكتور مجدى وهبة ونشرت ترجمته دار المعرفة منذ نحو عشر سنوات :

وصمويل جونسون Samuel Gohnsou مؤلف « راسيلاس » Rasselas ،
أى « الرئيس إيلاس » هو أعظم ناقد فى تاريخ الأدب الإنجليزى بلا منازع ،
أما فى باب الأدب الإنشائى فليس له إلا شعر قليل متوسط القيمة ، وهذه الرواية
القصيرة ، وهى من ضرب « النوفيلو nouvello » وهى كذلك متوسطة القيمة
برغم أنها تمثل علامة من علامات الطريق فى تاريخ الرواية الإنجليزية .

ولد صمويل جونسون فى بلدة ليتشفيلد Lichfield بمقاطعة ستافورد شاير
Staffordshire بإنجلترا فى ١٨ سبتمبر ١٧٠٩ وتوفى فى لندن فى ١٣ ديسمبر
١٧٨٤ عن ثلاث وسبعين سنة ، وكان أبوه مايكل جونسون Michael Johnson
من مواطنى ليتشفيلد البارزين ، المرتاحى الحال ، فقد كان ينتمى إلى الطبقة
المتوسطة التى لا تعرف الثراء الفاحش ولا خصاصة العيش ، وكان وراقاً ،
أى صاحب مكتبة ، ذكر عنه ابنه جونسون فيما بعد أن وراقته ، أو مكتبته « درت
عليه شيئاً ولكن لم تدر عليه ما يكفى » كذلك كان الأب مايكل جونسون
مأموراً لبلدة ليتشفيلد وقت ولادة صمويل ، وكان الأب رجلاً متديناً محافظاً ،
ذا ميول سياسية متشعبة للملكية المطلقة ، قيل عنه إنه كان من أشياع الملك
المعزول جيمس الثانى James II الذى خلع فى ثورة ١٦٨٨ لأنه أحيا نظرية حق
الملوك الإلهى فى حكم إنجلترا وجنح بالكنيسة الإنجليزية إلى شىء قريب جداً
من الكاثلكة ، فاجتمعت كلمة حزب « التورى » Tory (المحافظين) وحزب
« الهويج » Whig (الأحرار) على خلعهم فى الثورة البيضاء عام ١٦٨٨ ، تلك
الثورة التى عرفت فى تاريخ إنجلترا « بالحل الوسط العظيم » أو « التوفيق
العظيم » Grand Gompromis لأنها قامت على تراضى المحافظين والأحرار على
صيغة وسطى هى إقامة حكم البلاد على « الملكية المقيدة » بدلا من إقامته على
الملكية المطلقة أو إقامته على النظام الجمهورى ، وبذلك نزل المحافظون عن
تطرفهم ونزل الأحرار عن تطرفهم والتقوا فى منتصف الطريق .

أما أم صمويل جونسون فقد كان اسمها سارة Sarah ، بنت كورنيليوس فورد Cornelius Ford وهو من صغار الملاك فى مقاطعة واريكشاير-Warwick-shire ، وكانت امرأة تقية تميل إلى الكالفينية فى الدين Calvinism وهو مذهب متطرف من مذاهب البروتستانتية أسسه المصلح الدينى كالفن Calvin يقوم على الإيمان بالجبر ويرفض أن يكون الإنسان مختاراً فى هذه الدنيا ويعلق كل شيء ، حتى الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة ، على ما يسمى « نعمة الله » . والام هى التى قامت على تنشئة ولدها صمويل من الناحية الدينية .

وكان صمويل جونسون منذ طفولته معتل الصحة قليل البصر ، وكان مصاباً بداء كان يسمى « داء الملك » وهو سل فى غدد الرقبة ، وكان من الخرافات الشائعة وقتئذ أن هذا الداء يشفى بلمسة من الملك ، وهكذا حملت مسز جونسون طفلها صمويل ، وكان يومئذ فى الثالثة من عمره ، إلى لندن عام ١٧١٢ ، ومثلت فى حضرة الملكة آن Queen Anne التى تفضلت على الطفل باللمسة الملكية ، ولكن دون أثر إلا ما بقى فى خيال صمويل «جونسون من ذكريات غامضة عن طفولته الباكرة عن « سيدة مرصعة بالماس تلبس كبوداً أسود طويلاً » ثم التيمة الذهبية التى لفتها الملكة حول عنقه وظل يحملها إلى يوم وفاته .

وفى ١٧١٧ دخل الغلام صمويل جونسون مدرسة ليستشيلد-حيث بدأ تعلمه اللغة اللاتينية ، وأبدى استعداداً للتعلم عظيمًا برغم ما أثر «لله» من كسل وميل للتسويق فى أداء واجبات المدرسة ، فلما انتقل إلى الدراسة الثانوية كان أستاذه فى اللاتينية ناظر المدرسة ، توماس هنتر Thomas Hunter ، وكان جهلاً فى مادته ولكنه كان مؤدباً قاسياً يجلد تلاميذه بالسياط « لينقذهم من المشقة » كما كان يقول . قال صمويل جونسون عنه فيما بعد : « كان أستاذى يجيد جلدى ، ولولا هذا ، ياسيدى ، لما حققت شيئاً » .

وبعد أن أتم جونسون دراسته الثانوية تفرغ لمعاونة أبيه فى ماله ، ولكنه كان يزاول القراءة فيها أكثر مما كان يزاول البيع والشراء ، وقد ساءت هذه فترة

تكونه الحقيقية ، وكان يغوص فى كتب القدماء ، لا يجذبه من الكتب إلا كل جاد ورفيع . قال : « لا كتب الرحلات والأسفار ياسيدى ، ولكن كلها أدب فى أدب ، كلها من كتب القدماء ، كلها من أعمال الرجال » ، فلما التحق بجامعة أكسفورد عام ١٧٢٨ ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره كان يعرف أكثر من أقرانه .

واللغز فى حياة صمويل جونسون هو : كيف أتيح للكتبى المتواضع مايكل جونسون أن يدخل ابنه جامعة أكسفورد التى كانت ولا تزال معقلا من معاقل الأرستقراطية الإنجليزية وسراة القوم ؟ ومهما يكن من شىء فقد بدأت متاعب صمويل جونسون المالية تتجلى وهو فى أكسفورد وظهرت عليه الخصاصة ، ثم عجز نهائيا عن استكمال دراسته بسبب سوء حالته المالية فترك الجامعة فى ديسمبر ١٧٢٩ بعد عام وبعض العام من الدراسة ، تركها بغير شهادة جامعية أو أى مؤهل يعينه على الحياة ، وكسدت تجارة أبيه ثم توفى فى ١٨٣١ فلم يرث صمويل جونسون من تركته إلا عشرين جنيهًا نرح بها إلى برمنجهام بعد تجربة مريرة مر بها كمدرس مساعد فى مدرسة أولية ، وفي برمنجهام عاونه صديق من أصدقائه على ترجمة كتاب من الفرنسية إلى الإنجليزية لقاء خمسة جنيهات ، وكان هذا الكتاب هو : « رحلة إلى الحبشة » بقلم الأب جيزوم لوبو Jerome Lobo وفى أثناء مقامه فى برمنجهام تزوج جونسون فى ١٧٣٥ من أرملة اسمها إليزابيث تكبره بعشرين عامًا ، جاءت بدوطة قدرها سبعمائة جنيه ، فأنشأ فى بلدة قريبة من مسقط رأسه مدرسة داخلية يتعلم فيها أبناء الأشراف اليونانية واللاتينية ، وكان بين تلاميذه الممثل العظيم دافيد جاريك David Garrick ، ولكنه أغلق مدرسته بعد عامين لقلة التلاميذ .

وقرر جونسون أن يترح إلى لندن طلباً للعيش والمجد ، فترح إليها عام ١٧٣٧ مع تلميذه دافيد جاريك الذى سطع اسمه فى عالم المسرح كما سطع اسم جونسون فى عالم الأدب ، وفى لندن بدأ جونسون جهاده الأدبى فساهم فى

تحرير مجلة جديدة يومئذ اسمها « جتلمانز ماجازين » Gentlemans Magazine
أى « مجلة الجتلمان » أسسها عام ١٧٣١ رجل يدعى إدوارد كيف Edward
Cave وفى أوائل ١٧٣٧ عاد إلى ليتشفيلد حيث أتم تراجيديا باسم « إيرين »
Irene كان قد بدأها أيام مدرسته ورجع بزوجه إلى لندن ، و « إيرين » مأساة
استقاهها جونسون من « تاريخ الترك » لرتشارد نولز Richard Knowles حول
قصة السلطان محمد الثانى (الفاتح) مع عذراء يونانية اسمها إيرين .

وهكذا اشتغل جونسون الصحافة فى صدر حياته وفى ١٧٣٨ نشر غفلا
من التوقيع قصيدته المعروفة : " لندن " ، وهى هجاء للفساد السياسى فى عصره
على غرار هجائيات الشاعر اللاتينى الكبير جوفيتال Juvenal فنجحت نجاحاً
عظيماً ، وامتدحها پوب Alexander Pope سيد شعراء العصر ، وصدرت منها
ثلاث طبعات ، ولكنها لم تعد على جونسون إلا بعشرة جنيهات ، ولم تكن
حياة الصحفى فى ذلك العصر تنقذ صاحبها من الفاقة ، فحاول جونسون أن
يعود إلى التدريس والمحاماة ، ولكنه فشل لفقدانه المؤهل الجامعى اللازم لهذه
أو ذاك ، وكان يعاون « مجلة الجتلمان » فى تدوين خلاصة لمحاضر جلسات
مجلس العموم ومجلس اللوردات فكان « يفبرك » هذه المحاضر فى لغة أدبية
رائعة وينسب إلى رجال السياسة أقوالاً وخطباً من تصوره وكان شديد الاحتقار
للأسرة المالكة - أسرة أورانج Orange ثم أسرة هانوفر Hanover (الهولندية
ثم الألمانية) الأجنبية التى آل إليها ملك إنجلترا بعد طرد ورثته الشرعيين من آل
ستورات Stuart أى بعد خلع جيمس الثانى James عام ١٦٦٨ ، كذلك كان
جونسون يمتح حكم الوزير الشهير روبرت والبول Robert Walpol رئيس وزراء
إنجلترا الذى أثر عنه قوله المعروف بالإشارة إلى أعضاء البرلمان البريطانى : «
لكل ثمنه » وكانت آراء جونسون السياسية تسبب لمجلة « جتلمانز ماجازين »
بعض الحرج .

وفى السنوات العشر الأولى من إقامة جونسون فى لندن ، نشأت بينه وبين الشاعر ريتشارد سافدج Richard Savage صداقة عميقة ، وكان سافدج شاعراً وممثلاً وشريكاً لجونسون فى كثير من آرائه السياسية وأخاً فى الفقر والمسغبة ، وما أكثر ما كانا يتجولان الليل الطويلة حول الميادين المحيطة بوستمنستر Westminster مقر البرلمان البريطانى لا يملكان أجر سرير فى بلروم ، فلما مات سافدج سنة ١٧٤٤ جاشت عاطفة جونسون فى دراسته الشهيرة « سيرة ريتشارد سافدج » The life of Richard Savage التى نشرها غفلاً من التوقيع فى ١٧٤٤ ، وكانت فيما بعد نواة لكتابه الأشهر « سيرة الشعراء الإنجليز » Lives of the English Poets وهذه السيرة من أروع ما خط بيان كاتب فى باب السير فى جميع اللغات وفى كل العصور . وقد وصفها الروائى العظيم هنرى فيلدنج Henry Fielding بأنها أروع رسالة فى اللغة الإنجليزية عن فضائل الإنسان ورذائله ، كذلك ظهر اهتمامه بالمرح ، وكان تلميذه الممثل جارى قد شق طريقه فى عالم الأضواء بسرعة سريعة ، فلمع فى ١٧٤١ ، وما حل عام ١٧٤٧ حتى كان جاريك صاحب امتياز مسرح « دورى لين » Drury Lane ، أشهر مسارح لندن فى ذلك العهد وفى ١٧٤٥ نشر جونسون دراسته الشهيرة « ملاحظات على تراجيديا ماكبث » وهى الدراسة التى ذهبت مثلاً بين النقاد على موقف النقد الكلاسيكى من الدراما الشكسبيرية ، وساعد جاريك أستاذه جونسون على عرض مسرحيته وهى مأساة « إيرين » عام ١٧٤٩ ، وقد استمر عرضها تسع ليال ، ولم يتجاوب معها الجمهور لأنها من مسرحيات الخاصة .

وفى ١٧٤٦ كان جونسون قد اكتسب هبة بين أهل العلم والتعليم ، برغم ضآلة موارده المالية ، فاتفقت جماعة من الناشرين على اختياره لإعداد « قاموس اللغة الإنجليزية » يشتركون جميعاً فى تمويله ووقعوا مع جونسون عقد هذا القاموس عام ١٧٤٦ ، وفى العام التالى نشر جونسون « خطة القاموس » وفى ١٧٤٩ أيضاً أصدر جونسون قصيدته الثانية المعروفة « عبث أمانى الإنسان »

The Vanity of Human Wishes وصور فيها أن كل مسعى إنسانى فى الحرب والسياسة والعلم والفلسفة هو باطل الأباطيل وقبض الريح ، كما كان يقول سليمان الحكيم . . ولم يكف عقد القاموس ولا المجد الأدبى الذى أصابه فى تحسين حالته المادية ، فأصدر فى ١٧٥٠ ولمدة عامين مجلة دورية باسم « ذا رامبلر » The Rambler ، أى « الجوال » أو « الجواب » ، وكانت هذه المجلة عبارة عن فرخ واحد من الورق يصدر مرتين كل أسبوع ، ويحتوى على مقال واحد بقلم جونسون غفل من التوقيع ، وكانت المجلة تباع بينسين ، ولم يكن هذا شيئاً مستحدثاً فى تاريخ الأدب ، لأن كل من درس تاريخ الصحافة يعرف أن الكاتين الإنجليزين الكبيرين أديسون Addison وستيل steele قد سبقاه إلى ذلك بسنوات حين أصدرتا مجلتهما الشهيرة « ذا سبكتاتور » The Spectator على هذا الغرار ، أى بالمقال الإنشائى عماداً للصحيفة أو المجلة ولا شىء آخر غير ذلك ، فوضعا بروعة الإنشاء أساس ما يسمى « بأدب المقال » وهكذا حذا جونسون حذوهما ومضى ينشر العدد بعد العدد من مجلة « ذا رامبلر » حتى انطوى عامان ، وكان يكتب فى موضوعات الأخلاق والاجتماع والسياسة والأدب ، فيطالب آنأ بإلغاء عقوبة الشنق على اللصوصية ، أو يصف بؤس حياة البغايا أو يصور أحداث الحياة الأدبية . . إلخ ، وتوقفت « الرامبلر » ، وساءت صحة جونسون وأصيب بنوبة من الكآبة عندما ماتت زوجته إليزابيث ، ولا أحد يعرف كيف كانت حياته الزوجية مع هذه المرأة التى كانت تكبره بعشرين عاماً ، ولكن يظن أن هذا الزواج غير المألوف كان يقوم على الحب الهادئ والإعجاب المتبادل ، ويظن أن زوجته إليزابيث عندما تقدمت بها السن أدمنت الشراب وبعض المخدرات ، ولا شك أن هذا كله كان مصدر انزعاج شديد لجونسون ، وبعد أن توفيت زوجته بثلاثين عاماً وضع جونسون على قبرها شاهداً من رخام يقول باللاتينية : « Formosa, Gulta, Ingenuosa, Pia » أى « جميلة ، مهذبة ، ماهرة ، وتقية » فلما سئل فى ذلك أجاب : « فى النقش على شاهد القبر لا يؤدى المرء يمين الشهادة » .

أما وضع « قاموس اللغة الإنجليزية Dictionary of the english Language » فقد استغرق ثمانى سنوات ونصف سنة ، وفرغ منه جونسون عام ١٧٥٥ بمعاونة عدد من السكرتيرين ، والقاموس لا يشتمل إلا على ٤٠,٠٠٠ مادة ، ولكنه فى إتقانه وضبط معانيه وخصوصية شواهد وذكاء شروحه وتعليقاته كان درة القرن الثامن عشر . و« قاموس » جونسون لا يذكر اليوم إلا للتندر بما ورد فيه من طرائف تقوم مقام الشروح مثل قوله فى تعريف القرطم : « نوع من الحبوب يقدم عادة للخيال فى إنجلترا ، وتأكله عامة الناس فى اسكتلندا » ، وحين صدرت الطبعة الأولى من القاموس كانت جامعة أوكسفورد قد منحت جونسون درجة الماجستير فى الآداب تقديراً له على مقالاته فى مجلة « الرامبلر » فتوج هذا المحروم من المؤهل الجامعى صفحة الغلاف من قاموسه بهذا اللقب الأكاديمى يزدان به اسمه ، وكان اللورد تشسترفيلد Lord Chesterfield وهو من صفوة النبلاء الأدباء أصحاب التأملات والأساليب فى القرن الثامن عشر ومن رعاة الأدباء فى عصر التنوير ، قد أبدى اهتماماً برعاية « قاموس » اللغة الإنجليزية فى بداية وضعه ، ولكنه لم يلبث أن أهمله تماماً ، ولم يعن صاحبه بشيء ، فلما صدر الجزء الثانى (والأخير) من « القاموس » حياه اللورد تشسترفيلد بمقالين فى مجلة « ذا وورلد » The Wolrd أى (العالم) تحية سخية ، ووصف جونسون بأنه « الدكاتور الأعظم للغة الإنجليزية » بمعنى أنه سيدها الذى لا ترد له كلمة ولا يخالف له رأى ، فبعث إليه جونسون برسالة شهيرة تفيض بالمرارة والتهكم يقول فيها لسيدي اللورد : « إن الاهتمام الذى تفضلتم وأسبغتموه على جهودى ، لو أنه تجلّى مبكراً لكان عطفاً ، ولكنه تأخر حتى فقدت اكترائى به ، ولم أعد أغتبط له ، تأخر حتى بت وحيداً فلا أجد من أحدثه عنه ، حتى غدوت مشهوراً فلا حاجة بى إليه » .

وهكذا غدا جونسون علماً من أعلام العلم والأدب فى إنجلترا ، ويرغم هذا لم تنقله شهرته من حياة الضنك التى كان يحياها . وفى مارس ١٧٥٦ قبض عليه

فى دىن قىمته خمسة جنىهات وثمانىة عشر شلنًا ، ولم ىنقذه من السجن إلا الروائى صموىل رىشاردسون Samuel Richardson ، صاحب « بامىلا : أو جزاء الفضىلة » Pamela, or Virtue Rewarded ، وأحد أقطاب الفن القصصى فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر ، فقد أرسل إىله رىشاردسون ستة جنىهات ، فلم ىجد جونسون مناصًا من العودة إلى مزاولة الصحافة ، وأخذ ىكتب المقدمات لكتب عدىمة القىمة لقاء المال ، ومضى لسنوات ىكتب المقالات فى السىاسة والأدب والأخلاق والإصلاآ الاجتماعى ، بعضها لمجلة « ذا لىترارى ماجازىن » The Literary Magazine لمجلة « ذا يونىفرسال كرونىكل » The Universal Chronicle (شىء قرىب من « أخبار العالم ») تحت عنوان جامع هو « ذا اىدلر » The Idler (أى المتسكع) ، وكانت بعض آرائه السىاسىة ثاقبة ومتمردة على روح عصره ، فقد كان كثر التندىد بالاستعمار الإنجلىزى والاستعمار الفرنسى ولاسىما فى أمرىكا ، وكان ىصف خلاف إنجلترا وفرنسا حول المستعمرات الأمريكىة بأنها « شجار بىن لصىن على سلب المارة » . ولم ىر فرقًا بىن المستوطنىن فى سلام والمستعمرىن بقوة السلاح ، ولخص الفرق بىنهما بأنه الفرق بىن « نشال ىخرب ىتىك فى صمت ونهاب ىغتصب بالقوة » ولم ىخف أن ىعلن أن الاستعمار الفرنسى كان أقدر من الاستعمار الإنجلىزى على اختىار الحكام الصالحىن للمستعمرات .

وفىما كان جونسون مشغولا بمقالات « المتسكع » (الأىدلر) جاءه النبأ بأن أمه مرىضة مرض الموت ، وبرغم رقة حاله بعث لها باثنى عشر جنىهًا فى ١٣ ىناىر ١٧٥٩ ، ولكنه كان ىعلم علم الیقىن بأنه سوف ىحتاج عاجلا إلى مزىد من المال لمواجهه نفقات جنازة أمه ، فأرسل إلى الناشر سترهان Strahan ىستعطفه أن ىزوده بثلاثىن جنىها ثمنًا لروایة ىكتبها اسمها « اختىار الحىاة أو سىرة أمىر الحبشة » ، وكانت هذه روىة « راسىلاس : أمىر الحبشة » Rasselas, Prince of Abyssinia

أو الرأس إيلاس » ، هذه التى يجدها القارئ بين يديه تحت عنوان « الوادى السعيد » ، وهكذا أكب جونسون كل مساء أسبوعاً كاملاً على كتابة رواية « الرأس إيلاس » ، وليس فى ذهنه إلا شىء واحد : إيجاد نفقات جنازة أمه .

ومنذ ١٧٥٦ أعلن جونسون عن مشروعه الأكاديمى الثانى ، ألا وهو إصداره لطبعة جديدة من شكسبير من تحقيقه وتعليقه ، وجمع لذلك الاشتراكات اللازمة لإصدار الطبعة ، ولكن يبدو أن ما جمعه كان غير كاف ، لأنه استمر فى ضنكه المالى ، وقد استغرق إعداد هذه الطبعة الجونسونية نحو تسع سنوات ، وصدرت أخيراً فى ١٧٦٥ فى ثمانية مجلدات ، ولم يكن جونسون أول محقق لشكسبير فقد سبقه إلى ذلك كثيرون كان أهمهم بتلى Benitgey فى القرن السابع عشر ، وبوب Pope وواربرتون Warburton فى القرن الثامن عشر ، وقد ساهم كما ساهموا فى تصحيح نصوص شكسبير المغلوطة ، وجلوا بعض ما فى مفرداته من غموض فى المعنى . وقد منحته كلية تريتى ، بدبلن درجة الدكتوراه فى القانون عام صدور طبعته من شكسبير ، وجاء تقدير جامعة أكسفورد متأخراً ، فلم تمنحه جامعتة الدكتوراه إلا بعد عشر سنوات .

ولكن متاعب جونسون المالية انتهت تماماً قبل صدور طبعته من شكسبير بثلاث سنوات ، ففي ١٧٦٢ أبلغ جونسون أن الملك جورج الثالث يرغب فى منحه معاشاً قدره ٣٠٠ جنيه سنوياً فأسقط فى يده . إن قبول هذا المعاش كان بداية عهد استقرار حقيقى فى حياته ، ولكن جونسون هو القائل فى قاموسه الشهير فى تعريف مادة « معاش » Pension « المعاش مبلغ يعطى لأجير من أجراء الدولة مكافأة له على خيانة وطنه » ، وبالطبع لم يكن هذا هو التعريف الحقيقى للمعاش ، فقد درجت الدولة فى إنجلترا فى زمن جونسون وقبل زمن جونسون على منح معاشات سنوية للنابهين من أبناء إنجلترا تقديراً لما قاموا به من جهود فى خدمة الوطن أو الخدمة العامة أو خدمة الفنون والآداب والعلوم ، ولكن تعريف جونسون للمعاش فى قاموسه كان تعليقاً سياسياً ساخراً على فساد الحكم فى زمنه

وتوسع «البول» فى إغداق المعاشات على غير المستحقين من أنصاره أو من المملقين ، وكان لجونسون أصدقاء من أصحاب الخطوة فى البلاط مثل اللورد بيوت Lord Bute والفنان العظيم سير جوشوا رينولدز Sir Joshua Reynolds فاستشارهما فى الأمر فأكدوا له أن المعاش المعروض عليه منحة من الملك على ما أدى فى الماضى من خدمات للعلم والأدب وليس ثمنًا لشيء يمكن أن يطلب منه فى المستقبل ، فاستراح ضميره وقبِلَ المعاش .

وفى ١٧٦٣ تعرف جونسون بأهم رجل دخل محيط حياته ، ألا وهو جيمس بوزويل James Boswell كاتب « سيرة صمويل جونسون » The Life of Samuel Johnson الشهيرة التى أصبحت أشهر سيرة كتبت لأديب فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، وربما فى تاريخ كل الآداب . تعرف جونسون على بوزويل مصادفة فى دكان كسبى فى كوفنت جاردن Covent Garden ، وكان بوزويل الشاب ابن قاض من نبلاء استكلندا يدعى اللورد أوكتليك Lord Auchinleck ، وكان قد أتم دراسته فى جامعة ادنبره ثم فى جامعة جلاسجو ، ثم نرح إلى لندن ليستمتع بمباهج العاصمة ويفنونها ، وكان حلم حياته أن يقابل كبار الأدباء وأن يكتب شيئاً يبقى ذكره . وكان مفتوناً بكتابات جونسون متحرقاً للقاءه ، وفى هذا اللقاء الأول كان جونسون ملك الحديث اللاذع جاقاً فى حديثه معه وبرغم ذلك لم يئأس الشاب بوزويل ، بل زاره فى داره بعد أسبوع واستقبله جونسون متهمكاً بقوله « إبنى مدين لآى أنسان يزورنى » . وجلس بوزويل بين يدى جونسون يستمع إلى تعليقاته وخواطره كالمسحور فقد كان جونسون سيد المحدثين فى عصره ، وما لبث جونسون أن فتح قلبه لبوزويل ، فقد كان يحب صحبة الشباب ، ونشأ بين الرجلين ود صادق فتلازما ، وكانا يخرجان معاً للعشاء فى « حانة المايتير Mitre Tavern » ويتزهران معاً على نهر التيمس . وبناء على نصيحة جونسون بدأ بوزويل يدون يومياته ، وكانت هذه اليوميات فيما بعد هى ذلك الكتاب العظيم الذى دون

بوزويل فيه أقوال جونسون بحذافيرها وداخل إطارها عبر نحو عشرين سنة ، ورسم له صورة لا تقل خلوداً عن لوحة سير جوشوا رينولدز له ، فخرج منه جونسون عملاقاً سقط ظله الجسيم على الحياة الأدبية في إنجلترا فبدا كل من حوله كالأقزام .

الصالونات الأدبية وفن الحديث - هذه كانت سمة الحياة الأدبية في إنجلترا في القرن الثامن عشر عصر الأرستقراطية ، وحين كان جونسون طالباً في أكسفورد لم يذكاء حديثه وذكاء عبارته ، ولكن فقره كان أقوى من ذكاءه ، فانسحب من الجامعة قبل أن يستوفى علومه ، وفي لندن لم يكن جونسون من السراة حتى يفتح بيته صالوناً للأدباء ، فجعل عام ١٧٥٠ من حانة إيفي لين ناديا أدبيا عرف باسم Ivy Lane club فكان يجلس في مقعده في الحانة ومن حوله أصدقاؤه ينصتون لأحاديثه في الأدب والمجتمع والأخلاق ، وفي ١٧٦٤ اشترك جونسون مع سير جوشوا رينولدز ، في إنشاء أشهر ناد في لندن باسم « النادي The Club » وكان من بين أعضائه الأوائل المفكر الكبير آدموند بيرك Edmund Burke والأديب الكبير أوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith وغيرهما من أعمدة المجتمع المثقف ، وقد كانت أعظم لحظة في حياة بوزويل هي يوم قبوله عضواً في ذلك النادي بعد مرور تسع سنوات بإصرار من جونسون ، كذلك تعرف جونسون في هذه الفترة على هنري ثريل Henry Thrale وزوجته مسز ثريل Mrs. Thrale ، واسمها بالميلاد Hester Lynch وعرفت بعد ذلك باسم مسز بيوتزى Mrs Piozzi لأن هستر بعد أن ترملت في هنري ثريل تزوجت من موسيقى إيطالي اسمه « جابرييل بيوتزى » وكان هنري ثريل ، من سراة البورجوازية الإنجليزية يملك مصنعاً للبيرة ، وكان عضواً في مجلس العموم عن دائرة سذك Southwark ، وكانت زوجته مسز ثريل من ألع سيدات المجتمع اللندنى ، وكان صالونها ملتقى لأذكى العقول وأرقى السلوك ، وأصبح جونسون ضيفاً دائماً على آل ثريل ، وخصصوا له غرفة دائمة

فى دارهما فى سترىتهام Streatham وأخرى فى دارهما فى سذك ، وكانت مسز ثرىل ذات أطماع أدبية تكتب يوميات عاشت فى تاريخ الأدب الإنجليزى وتعرف باسم « ثرىليانا » Thraliana وهى ككتاب بوزويل أحد مصادرنا الهامة عن الدكتور جونسون وعصره ، وحين مات هنرى ثرىل باعت زوجته هستر مصنع البيرة بمبلغ ١٣٥,٠٠٠ جنيه ثم باعت دار سترتهام فى ١٧٨٢ وانتقلت إلى دار فى أرجيل سترىت ، وفى هذه الدار خصصت هستر أيضاً غرفة دائمة لجونسون أقام فيها حتى تزوجت هستر زواجها الثانى من بيوتزى الموسيقى فى ١٧٨٤ ، وهو عام وفاة جونسون . صحبة جميلة دامت عشرين عاماً بين جونسون وآل ثرىل عرف فيها معنى الراحة والرعاية والحب والحنان ، والأطباق الشهية تخرج من مطابخ السراة الرهية إلى موائلهم العامة .

ولم يكن جونسون كثير الأسفار خارج رحلاته المتقطعة إلى بلدته ليتشفيلد وإلى أكسفورد وييرمنجهام ، فلما بلغ الرابعة والستين (فى ١٧٧٣) أقنعه بوزويل أن يقوم معه برحلة يزور فيها اسكتلندا وجزرها الغربية ، وقد كان ثمرة هذه الرحلة كتابان لجونسون اسمه « رحلة إلى الجزر الغربية » Journey to The Western صدر فى ١٧٧٥ ، وكتاب لبوزويل اسمه « يوميات رحلة إلى جزر الهبريدز » Journal of a Tour The Hebrides Islands صدر فى ١٧٨٥ بعد وفاة الدكتور جونسون وكأنما كانت هذه فترة الرحلات فى حياة جونسون فقد خرج أيضاً مع آل ثرىل فى رحلتين طويلتين أحدهما فى ١٧٧٤ إلى شمال ويلز ، أما الثانية فكانت إلى فرنسا وكان جونسون يعرف الفرنسية ، ومع ذلك فقد أثر أن تكون لغة التفاهم بينه وبين أساتذة السوربون هى اللغة اللاتينية ، وقد كان جونسون من أعلم العارفين بها فى أوروبا قاطبة ومن أهم ملاحظاته على الحياة الفرنسية سعة الفجوة بين الأغنياء والفقراء وخلو فرنسا من طبقة متوسطة كبيرة تملأ هذا الفراغ .

وقرب نهاية عمره أصدر جونسون أهم كتاب فى حياته وهو « سير الشعراء الإنجليز » Lives of the English Poets ما بين ١٧٧٧ و ١٧٨١ . هذا الكتاب هو عمدة النقد الأدبى فى القرن الثامن عشر ومنه تستمد أكثر معايير المذهب الكلاسيكى الحديث فى الأدب وفنونه ، و هو عبارة عن أبحاث متفرقة عن شعراء إنجلترا : ملتون Milton ودرايدن Dryden وپوب Pope وكاولى Cowley وجرای Gray وجميس تومسون James Thomson ووليم كولنز William Collins وسويفت Swift وكونجريف Gongreve وجون جاي John Gay إلى جانب أربعين شاعراً آخرين من عصر جونسون وما قبله أقل حظاً من الشهرة الأدبية مثل والر Waller وأكنسايد Akenside وشنستون Shenstok ودایر Dyer وماليت Mallet وتيكل Tickell وبارنيل Parnell . . إلخ كان ثلاثة من الناشرين يتلقفون هذه الدراسات ليطبعوها كمقدمات لدواوين الشعراء الإنجليز ، ثم جمعت هذه أخيراً فى كتاب واحد لا يربط أجزاءه إلا وحدة موضوعه .

هذه نبذة عن سيرة الدكتور صمويل جونسون مؤلف « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » الذى كان فى زمانه أعظم النقاد الإنجليز ، والحاكم المطلق فى دولة الأدب ، يرفع الشعراء بكلمة ويسحقهم بكلمة ، ويصفى الناس لما يقول فى احتشاد شديد ، ولم تعرف لندن قبل أوسكار وايلد غير الدكتور جونسون ملأ نواديها وصالوناتها وحاناتها بالأحاديث الرائعة والسخریات البارة والتأملات العميقة فى الأدب والأخلاق والاجتماع والسياسة .

لويس عوض

القاهرة ١٩٧١

الفصل الأول

وصف قصر فى واد

إلى من يستمعون إلى نجوى الخيال فيؤمنون بها إيمانهم بصوت الحقيقة ، وإلى من يطاردون أطياف الأمل فى لهفة وحماسة فيحسبون أن الشيخوخة تؤتى ثمار الشباب ، وأن الغد يعوض عن حاجات اليوم ، إلى هؤلاء جميعاً أسوق قصة الرأس إيلاس أمير الحبشة .

كان الرأس إيلاس الابن الرابع للإمبراطور الذى ينبع من دولته النيل ، أبو الأنهار ، النيل الذى يجرى بالخصب والنماء دفاقاً سخياً فيملأ العالمين بشمار مصر .

وتبعاً لتقاليد الملوك التى أخذها الخلف عن السلف فى بلاد الشمس المحرقة كان على الرأس إيلاس أن يلزم قصرًا خاصًا يقيم فيه مع سائر أبناء الملك وبناته ، حتى يدعى إلى ارتقاء العرش بحكم نظام الوراثة .

وكان ذلك القصر الذى فرضته حكمة القدماء أو حرصهم على أمراء الحبشة وادياً فسيحاً فى مملكة أمهرا أحاطت به الجبال الشم من كل جانب ، وكانت قمم تلك الجبال تتلاقى فى المتصف فيكون منها سقف منيف ، ولم يكن للقصر مدخل سوى غار مجوف تحت صخرة ، ولقد اختلفت الناس فى شأنه ، فمنهم من زعم أنه من عمل الطبيعة ، ومنهم من زعم أنه قد بيد الإنسان وقد أخفت باب الغار غابة كثيفة ، أما فتحته التى تفضى إلى الوادى فقد سدها باب حديدى عظيم صاغه صناع السنين الغابرة ، وقد بلغ من ضخامته أن فتحه وإغلاقه ما كانا ليتأتيا إلا باستخدام آلات خاصة .

وانسابت من جوانب الجبال نهيرات نشرت الخصب والنبت فى الوادى واجتمعت فى بطنه فكانت منها بحيرة سكنتها الأسماك من كل لون وضرب وأمتها طيور الماء ، وكلما فاضت البحيرة بمائها انصرف الماء الفائض فى جدول يجرى فى أخدود مظلم بالجبال الشمالية وأخذ ينحدر هادراً يصم الأسماع من هوة إلى هوة حتى يتلاشى صوته نهائياً .

وسفوح الجبال كانت تكسوها الأشجار ، وضياف الجدول كانت تنمقها الأزهار ، وكلما هبت من الريح نفحة سقط البخور من الصخور ، وفى كل شهر آتت الأغصان أكلها وهوت منها الفاكهة على الأرض ، وفى هذه الدائرة الواسعة عاشت صنوف الحيوان آكلة الحشائش والشجيرات أليفها ووحشها فى حمى بالجبال من صنوف الحيوان المفترسة ، وفى جانب من الوادى كانت قطعان الغنم والبهم ترعى الأعشاب ، وفى الجانب الآخر كانت أفراد الحيوان التى يطلبها الصياد تقفز وتمرح على الأرض المبسوطة الخضراء ، وبين الصخور كانت تثب الجديان وفوق الأشجار كانت تتسلق القرود ، أما الأفيال الوقورة فقد كانت تستجم فى الأفياء واجتمعت النقائض فى صعيد واحد ، ولكن ما كان بينها إلا خيرات الطبيعة ، أما ضرباتها فقد استبعدت من الوادى استبعاداً .

وأمد الوادى المثمر الرحيب أهله بضرورات الحياة ، أما ترف الحياة وبهرجها فكانا يفدان إليهم بمقدم الإمبراطور فى زيارته السنوية لبنيه ، وفى تلك الزيارة كان الباب الحديدى يفتح على أنغام الموسيقى ، وكان كل ساكن من سكان الوادى يسأل فى الأيام الثمانية التى تستغرقها الزيارة أن يقترح ما يشاء لتهوين العزلة فى ذلك الوادى ، ودفع الملل الذى يأتى به الزمن بملء كل فراغ فى أسباب التسلية والترفيه ، وما من أمنية أزعجت إلا وتحققت لصاحبها وكان رجال اللهو وبناته يدعون من أقاصى المملكة ليشيعوا البهجة فى ذلك العيد ، فالعازفون يشون شجى الألحان ، والراقصات يعرضن جميل الإيقاع أمام الأمراء لعل ذلك يحبب إليهم الأسر السعيد ، ولم يكن يدخل الوادى من أهل الفن

إلا المهرة الحاذقون ، وهكذا بدت البهجة كاملة والاطمئنان أكيداً لكل قادم جديد ، حتى لقد تمنى القادمون الجدد دوام هذه الحال السعيدة ، ولكن لما كان الداخلون لا يؤذن لهم بالخروج لم يدر أحد شيئاً عن السام القاتل الذى يملك أهل الوادى ويتبارى المتبارون لدخول ذلك المنفى .

وكان القصر قائماً على رابية تعلو نحو ثلاثين خطوة فوة سطح البحيرة ، وكان القصر مقسماً إلى أفنية أو مربعات كثيرة تتفاوت فخامة ورونقاً تبعاً لمكانة ساكنيها فى المجتمع ، وكانت سطوحها تستدير فى هيئة أقباء من حجر جسيم ، والتصق فيها الحجر بالحجر بالأسمنت الذى يزداد متانة على مر الأيام ، ومرت بالقصر الأعصر الطوال ، فإذا به مائل يتحدى أمطار المدار وأعاصير الاعتدالين دون حاجة إلى الترميم .

وقد بلغ من اتساعه أن المعرفة الكاملة لجميع أجنحته لم تيسر لأحد خلا عدداً من الضباط القدامى الذين ورثوا أسرار القصر خلفاً عن سلف ، بل إن تصميمه كان من التعقيد بحيث يوحى بأن واضعه قد تعمد التعقيد ، فقد كان لكل حجرة ممران أحدهما سرى والآخر معروف ، وكان كل فناء متصل بغيره من الأفنية إما عن طريق الطوابق العليا وإما عن طريق يجرى تحت الأرض بين الأجنحة السفلى ، كذلك كان بين الأعمدة عدد عظيم فيه فجوات لا يعلم أحد بوجودها ، فجوات أخفى فيها الملوك كنوزهم واحداً بعد الآخر ، ثم سدوا تلك الفجوات بقطع من رخام لم ترفع إلا فى أقصى حالات الطوارئ ، ولقد دونوا تفصيل ما جمعوا من كنوز فى سجل أخفوه يبرج لا يدخله كائن سوى الإمبراطور وفى معيته الأمير وارث العرش .

الفصل الثانی

ضيق الرأس إیلاس بالوادی السعيد

وفى الوادى عاش أبناء الحبشة وبناتها لا يعرفون عن الحياة شيئاً إلا اللذة بعد الراحة والراحة بعد اللذة ، واجتمع من حولهم كل نابغ فى الفن ليحقق لهم المتعة ، وكذلك نعموا بكل ما تنعم به الحواس ، فكانوا يتزهون فى الحدائق الفيحاء ، وينامون فى قلاع الأمان ، وتفنن أهل العلم فى تزيين حالتهم لهم فلم يحدثهم الحكماء الذين يتولون تأديبهم إلا عن بأساء الحياة العامة ، ووصفوا لهم ما وراء الجبال بأنه أرض النكبات حيث النزاع أس الحياة وحيث يفترس الإنسان أخاه الإنسان .

ولكيما يتأكد فى روع الأمراء أن عيشهم رضى كان أهل الفن ينشدون أمامهم كل يوم أغانى موضوعها الوادى السعيد ، ويستثيرون شهواتهم بمختلف الطرق ، فيقصفون ويعربدون فى كل ساعة من مطلع الفجر إلى مجىء المساء .

وكانت هذه الطرق مثمرة بوجه عام ، فما بدا لأحد من الأمراء أن يوسع أركان دولته هذه إلا الأقلون ، وظلت كثرتهم المطلقة راضية بحالها مقتنعة بأنها تملك كل ما عند الطبيعة وعند الفن من مسرات ، وترثى لحال المساكين الذين حرمتهم الأقدار هذا المعتزل الهادئ ، وتخال أنهم فرائس فى يد القدر وضحايا فى يد الزمان .

وهكذا أصبحوا وأمسوا كلهم فى غبطة متصلة ، إلا الرأس إیلاس الذى أخذ يتجنب لهوهم وينسحب من حفلاتهم ما إن بلغ السادسة والعشرين

من عمره ، ووجد فى نزهاته الخلوية وتأملاته الهادئة متعة وأى متعة ، وكثيراً ما كان يجلس إلى موائدهم التى تحمل أطايب الحياة فينسى أن يتناول منها شيئاً ، وكثيراً ما كان ينهض والأغاني دائرة ثم يسرع إلى حيث لا يدركه صوت الموسيقى ورأى أتباعه انصرافه عن اللذات فحاولوا أن يجددوا فيه الكلف باللذات ، ولكنه كان يتجاهل خدماتهم ويشمئز من دعواتهم ، وراح يقضى اليوم بعد اليوم عند ضفاف النهرات تظله الأشجار ، وهناك يصغى إلى الأطياف فى الفن تغرد ، أو يتأمل الأسماك تلعب فى مجرى الماء ، أو يلقي ببصره على المراعى والجبال التى انتشرت فيها البهم ، فمنها ما كان يأكل الأعشاب ومنها ما كان ينام فى الفئء بين الشجيرات .

ولفت هذا المسلك الشاذ إليه الأنظار ، وكان بين حكماء الوادى السعيد حكيم تعود منه الأمير حُسن الحديث واستراح إلى صحبته ، فتبع الحكيم الأمير خلصة راجياً أن يظفر بسر ضيقه بالوادى وسكانه ، ولم يكن الرأس إيلاس يعلم بأن هناك من يراقبه ، فذهب يتأمل أفراد الماعز التى كانت ترعى بين الصخور وأنشأ يوازن بين حاله وحالها ، وقال : ما الفرق بين الإنسان وبقية ضروب الحيوان ؟ إن كل ما أرى من أفراد الحيوان لها من ضرورات الجسد مثل مالى ، فهى تجوع وتاكل الحشيش وهى تظلم وترتوى من الجدول ، وتقر نفسه بما أكل وما شرب فينام ثم يستقيظ ثانية جوعان يطلب الغذاء ثم الراحة ، وأنا كالحيوان أجوع وأظلم ، ولكن الشبع والرى لا يأتيان بالراحة كما يأتياه ، أنا كالحيوان يوجعنى الجوع ولكن الامتلاء لا يرضينى كما يرضيه ، وما بين الأكلة والأكلة يقتلنى السأم والضيق وأتطلع إلى الجوع تطلعاً لعل الجوع يلهب حواسى . إن الطيور تنقر الأعناب أو تلتقط الحب ثم تطير إلى أدواحها ، وعلى أدواحها تقضى أيامها فى سعادة بادية مفردة ألحانها الرتيبة التى لا تتغير ، كذلك أستطيع أنا أن أدعو عازف العود والمغنى ولكن الألحان التى أشجتنى بالأمس تقتلنى اليوم مللاً ، وأنا لا أجد فى نفسى حاسة واحدة لا ترتوى بما نظماً إليه ، ومع كل ذلك لا أجدنى سعيداً . فلا شك إذاً أن فى الإنسان حاسة خبيثة

لا تجد ما يشبعها فى هذا المكان ، أو لعل به رغبات لا تتصل بالحواس ،
ولا سعادة له إلا بإرضاء هذه الرغبات .

وبعد أن فرغ من نجواه رفع رأسه ورأى القمر يشرق فرجع إلى القصر
قافلاً ، وفيما هو يجتاز الحقول ويشاهد الحيوان من حوله قال : « أنتم السعداء
يا أفراد الحيوان ، ولا حاجة بكم أن تحسدوا هذا السائر بينكم ، هذا الشجى
الذى ينوء بحمل نفسه الثقيلة ، وأنا لا أحسدكم على ما أنتم فيه من سعادة ،
فما سعادتكم من سعادة بنى الإنسان . إن بنفسى أوجاعاً لا تفهمون لها معنى ،
فأنا أخاف الألم وإن كنت لا أشكوه ، وإن بدنى ليقشعر لذكرى الشرور
الماضيات كما يقشعر لتوقع الشرور الآتيات ، فلا شك أن العدالة الإلهية قد
وهبتنا من ألوان السعادة ما يكافئ ألوان الشقاء » .

ومضى الأمير يسرى عن نفسه بهذه التأملات فى أثناء عودته ، ويزجيها
بصوت شاك حقاً ، ولكن نظرتة كانت نظرة المرتاح إلى رجاحة عقله ،
المتعزى عن بأساء الدنيا بخواطره وبإحساسه بدقة تلك الخواطر وبما أصاب من
توفيق فى التعبير عنها ، واختلط باسم الثغر بأصحاب المهرجان فى ذلك المساء
وأخذ من لهوهم بنصيب كبير وسر الجميع لرؤيته على تلك الحال من الغبطة
والهناء .

الفصل الثالث

حاجات المستغنى

وسعى مؤدبه القديم إلى لقائه راجيا أن يشفيه بالنصائح والعظات بعد أن وقف على علة ضجره بالحياة فى الوادى السعيد ، ولكن الأمير كان يرى أن ذكاء هذا الحكيم قد خبا منذ زمن طويل ، فلم يجد بنفسه ميلا إلى الإذن له بالثول بين يديه ، وقال : « ترى لم يريد هذا الرجل إزعاجى فى وحدتى ؟ ألن يتاح لى قط أن أنسى محاضراته التى لم أذوقها إلا لجدتها ولن تعود إليها جدتها إلا إذا نسيتها ؟ » ثم دخل الغابة وفى الغابة أطمأنت نفسه إلى خواطره المألوفة ، وقبل أن يتهى إلى رأى ما أبصر بمطارده يقف إلى جواره وضاق به صدره ، فأوشك أن ينصرف عنه مسرعا ولكنه لم يشأ أن يغضب هذا الرجل الذى كان يجله فى الماضى ، ولا يزال يكن له الحب فدعاه إلى الجلوس معه على شط النهر .

وتشجع الحكيم الشيخ فأنشأ ينعى ما أصاب الأمير فى الفترة الأخيرة من تحول وإعراض عن ولائم القصر والتماس للخلوات الهادئة ، فأجاب الأمير قائلا : « أنا إن أعرضت عن لذات القصر فما ذلك إلا لأن اللذات لم تعد تلذ لى ، وأنا أتمس الوحدة لأنى شقى ، ولست أحب أن أفسد بشقائى سعادة الآخرين » . فأجاب الحكيم قائلا : « أنت ياسيدى أول من أحس بالشقاء فى هذا الوادى السعيد ، وأرجو أن أوفق إلى إقناعك بأن شقاءك هذا لا مصدر له ، فأنت هنا تنال كل ما يملك إمبراطور الحبشة أن يسبغه على الناس ، وأنت هنا

بأمن من كل خطر ، وأنت هنا لا تعرف عن العمل وبأسائه شيئاً ، ومع ذلك فكل ما حولك من عمل العاملين وكل ما انتزع من فم الأخطار طوع بنان . كفتلفت حولك تجد كل ما تشتهي نفسك ، وإذا كانت جميع حاجاتك مقضية فقيم إذا شكواك ؟ »

فقال الأمير :

« ولكن هذا بالذات مصدر شقائي ، فأنا شقي لأنني أجد كل حاجاتي مقضية ، وأنا شقي لأنني لا أعلم حقيقة ما تريده نفسي ، ولو أنني علمت بحقيقة ما تريده نفسي لرغبت فيه ، والرغبة تدعو إلى السعى ، ولو قد كنت أسعى لتحقيق شيء أرغب فيه لتبدلت حالي ، وصرت لا أتجرك إلى مغيب الشمس وراء الجبال الغربية ولا أرتجف لمطلع الصباح الذي يفضح سريرة نفسي ، وحين أرى الماعز والخراف يطارد بعضها بعضاً تحن نفسي إلى شيء تطارده ، أما الآن فلست أجد فرقاً بين ساعة وساعة أو بين يوم ويوم ، وما ذلك إلا لأنني أملك كل ما أشتهيه ، أجل لست أجد بينها فرقاً إلا أن اليوم أشد إملالاً من الأمس وأن هذه الساعة أثقل على نفسي من سابقتها ، فلتعلمني باختبارك كيف أقضي نهاري كما كنت أقضيه أيام الطفولة خلى البال لا أشعر بفوات الوقت ، فقد كانت الطبيعة يومئذ ترفل أمام عيني كل صباح في ثوب زاهٍ جديد ، وكل لحظة تعلمني عن الحياة ما لم أكن أعلمه لقد نعمت نفسي بما لم تنعم به نفس فهات لي من عندك شيئاً أنشده ولا أجده . »

وعجب الحكيم الشيخ لهذا الداء الجديد ولم يدر بما يجيب ، ولكنه زهد في الصمت فقال : « لو أنك رأيت ما يفتك بالعالم من ألوان الشقاء لغبطت نفسك على ما أنت فيه من نعيم . » فأجاب الأمير : « لقد أثرت في نفسي ما تشتهي ، ولسوف أتطلع إلى رؤية ما يفتك بالعالم من ألوان الشقاء مادامت رؤيتها شرطاً من شروط السعادة . »

الفصل الرابع

الأمير يدأب على الشكوى والتأمل

وهنا ارتفع صوت النفير معلناً حلول موعد العشاء ، فانتهت المناقشة عند هذا الحد وانصرف الحكيم الشيخ ساخطاً لأن منطقته قد أفضى إلى ما كان يرغب في منعه بالذات . ولكن سخطه وحزنه لم يدوما طويلاً فالسخط والحزن لا يدومان في الشيخوخة طويلاً ، ولعل علة ذلك أننا نستخف بما تعودنا احتمالاه ويقل اكتراثنا بالناس لأن اكتراث الناس بنا يقل ، أو لعل علة أننا نستهيئ بالخطوب لأننا نتعلم أن يد الموت سوف تمحوها عما قريب .

أما الأمير فقد امتدت خواطره إلى آفاق أرحب ، فما استطاع تهدئة نفسه المضطربة إلا بمشقة ، ولقد كان من قبل يرتعد كلما ذكر الحياة المديدة التي قد يحياها . . فطول العمر كان عنده شجى يحتمل على مضض ، فإذا هو الآن سعيد بشبابه فقد عاد يرى في طول العمر مجالا للعمل الكثير .

وكان ذلك أول شعاع من أشعة الأمل نفذ في خياله فألهب في خديه دم الشباب وأضاف إلى بريق عينيه بريقاً جديداً ، وعصفت به الرغبة في فعل شيء ، ولكنها كانت محض رغبة مبهمه لا تهدف إلى شيء بالذات ، ولا تجد لنفسها سبيلاً إلى التحقق .

وزال عنه وجومه وعاد إلى معاشرة الناس ، فقد كان شأنه شأن من عثر على كثر من السعادة لا يعلم عنه أحد شيئاً ، وكان يرى أن سعادته بكتزه سوف تدوم ما أخفى عن الآخرين سره ، ولذا تعمد الاهتمام بكل ما يهتمون

به من وسائل الترفيه وسعى إلى تحبيب تلك الملاهي إلى أجدانه وهو الذى ينفر منها أشد النفور ، ولكن اللذات مهما تعددت لا تشغل وقت الإنسان تماماً ، ولهذا وجد الرأس إيلاس فى يومه متسعاً للانفراد بنفسه والتأمل على النحو الذى يشتهى دون أن يشير شكوك أحد ، وخفف ذلك عنه عبء الحياة ، وذهب يرتاد المجتمعات فى إسراف عظيم ، فقد كان يعتقد أن نجاح خطته متوقف على شدة إقباله على تلك المجتمعات ، ومن ثم كان يختلى بنفسه فرحاً فقد كان لديه الآن ما يفكر فيه .

وكان يجد متعته الكبرى فى تخيل ذلك العالم المحجوب عنه ، وكان يتوهم نفسه فى مختلف الظروف ومن حوله شتى الأخطار التى نسجها خياله ، كما كان يبتكر المغامرات المخيفة ابتكاراً ، ولكن طبيعته الخيرة كانت تنقذه دائماً من براثن الموت ، وتكشف عن باطل المبطلين ، وتنتهى بانهزام الظالمين وانتشار السعادة فى قلوب البائسين .

وهكذا قضى الرأس إيلاس عشرين شهراً بين أحلامه هذه وقد اشتغل خياله طول الوقت ببناء حياته الجديدة حتى ألهمته الحياة الجديدة عن حياة الوحدة التى يحياها ، بل لقد ألهمته عن اختراع الوسائل التى يخرج بها من الوادى السعيد ليختلط بأبناء المجتمع .

وقد توهم ذات يوم وهو جالس على شط جدول من جداول الوادى السعيد أنه يرى عذراء يتيمة سلبها عاشق دنىء مالها القليل ، فمضت تنتحب وتستعطفه أن يعيد إليها ما سلب . وثار الرأس إيلاس لما رآه أيما ثورة وخف لنجدة العذراء فأنشأ يطارد السارق فى لهفة حقيقية ، ولكن الخوف زود الجانى بقوة ليست من صفاته ، فعجز الرأس إيلاس عن إدراكه برغم ما بذل من جهد عنيف ، ولم يعدل الرأس إيلاس عن الطراد يأساً ، بل عزم على متابعه الجانى حتى يدرك الجانى الإعياء ، وأخيراً وجد نفسه عند سفح الجبل فكف عن عدوه .

وهنا هدأت نفسه وابتسم لما أبدى من حماسة لا تجدى شيئاً ثم رفع بصره إلى الجبل قائلاً : « هذا هو الحائل اللعين الذى يردنى عن نيل السعادة ونشر الفضيلة معاً . كم مرة طار فيها خيالى فاجتاز هذه التخوم التى تحد حياتى ، وما حاولت من قبل أن أجتاز هذه التخوم » وراعه هذا الخاطر فجلس يفكر ، وذكر أن الشمس قد دارت دورتها السنوية مرتين منذ أن اعتزم الفرار من ذلك المعتقل أول مرة ، فملكه حزن لا عهد له به ، وذهب يندب ضياع الوقت ويأسى لما فاته من عمل الخير بسبب قعوده ، ومضى يقيس ماضى من وقت ببقية العمر فقال : « إن الحياة لا تدخل فى حسابها فترة الطفولة الجاهلة ولا فترة الشيخوخة المخرفة ، ونحن نقضى الأعوام الطويلة قبل أن تنضج فينا ملكة التفكير ، كما أن ملكة التنفيذ تخبو فينا سريعاً . وإن الحياة الإنسانية الفعلية لتقدر بأربعين عاماً ، أضعت منها الآن جزءاً من أربع وعشرين جزءاً ، وما ضاع منى لا شك محسوب على ، فقد ملكته فعلاً ، ولكن أى ضمان لى أنى سأحيا عشرين شهراً أخرى ؟ » وعذبه الإحساس بحماقته تعذيباً أليماً ، ولم تهدأ نفسه إلا بعد لآى ، قال : « إن ما ضاع من عمرى الأول تقع تبعته على حماقة أسلافي أو إجرامهم ، وعلى تقاليد بلادى وهى سقيمة ، وإنى لأذكرها بالاشمئزاز ولكنى لا أندم عليها . أما ما ضاع من عمرى بعد أن استنارت روحى بذلك الضياء الجديد ونعمت بتلك السعادة الوجدانية فأنا الملموم عليه وحدى ، وما ضاع لا سبيل إلى استرداده ، فقد رأيت الشمس تشرق وتغرب عشرين شهراً متصلة ، وما فعلت إلا أن حملقت كالأبله فى أنوار السماء . إن أفراخ الطير تركت دفء الشمس ولاذت بالغابة وبأطباق الجوزاء ، وكذلك كف الجدى عن الرضاعة وتعلم شيئاً فشيئاً كيف يتسلق الصخور بحثاً عن طعامه . وأنا وحدي القعيد الذى لا يتقدم ، وأنا وحدي الجهول قليل الحيلة . ولقد علمنى البدر طبيعة الحياة جين اكتمل فى كبد السماء أكثر من عشرين مرة ، والجدول الجارى عند قدمى عنفنى على خمولى ، ومازلت متكئاً أقطف أعناب

الخيال ، ولا أتعظ بالأرض المتجلدة أمامي ، أو بالكواكب التي لا تعرف
إلا الترحال . عشرون شهراً مضت ، فمن ذا يعود بها إلى ؟ »

واستبدت به هذه الخواطر الحزينة ، وضاعت منه أربعة شهور أخرى جمع
فيها أشتات عزمه واستقر فيها رأيه على ألا يضيع من وقته أكثر مما ضيع ،
وحدث ذات يوم أن كسرت عادة فنجاناً فسمعها تقول : ما يستحيل جبره
لا يستحق أن نحزن عليه . فاتعظ من مقالها واشتدت عزمته .

ووجد الرأس إيلاس أن فلسفتها لا تحتاج إلى تدليل ، فأثب نفسه على
غباوته السابقة ، فما كان يعلم أن كثيراً من الحكم النافعة تأتي عن طريق
المصادفة ، وما تدبر أن عقل الإنسان في سعيه الجاد وراء الحقائق العليا لا يتتبع
إلى الحقائق الساذجة المكشوفة أمامه ، وهكذا ندم الرأس إيلاس على ندمه
ساعة أو بعضها ، ثم تحول بكل جارحة فيه إلى استتباط وسيلة للهرب من
وادي السعادة .

الفصل الخامس

الأمير يتدبر أمر هربه

وكان الرأس إيلاس يحسب أن الهرب من الوادى السعيد سوف يتم بلا عناء ، ولكنه عدل عن رأيه بعد قليل ، فقد تلمس طريقه بين الجبال فوجد أن الطبيعة قد أحاطته بأسوار لا يجد أحد سيلا إلى اختراقها ، وتلمس طريقه فى الباب الحديدى الذى لم يخرج منه داخل ، فأدرك أنه حيس إلى أبد الأبد ، فإذا به يحس إحساس النسر الحيس ، وإذا هو يتسلق الجبال أسبوعاً تلو أسبوع عله يجد فيها منفذاً تخفيه الشجيرات فما وجد ، ورأى القنن العاليات بواذخ يرتد دونها البصر ، كذلك يش من فتح الباب الحديدى ؛ لأن مهرة الصنّاع قد تفتنوا فى إيصاده ، ولأن الديدبان كان يتعاقب على حراسته ليل نهار ، ولأنه كان مكشوفاً لعيون الناظرين فى كل ساعة من ساعات اليوم .

ثم درس الغار الذى تتدفق منه مياه البحيرة ، ورأى جوف الغار فى ضوء الشمس فإذا بالصخور المهشمة تملأ جنباته ، وإذا بالصخور توشك أن تكون متلاصقة تأذن بجريان الماء ولا تأذن بنفاذ الأجسام المتكتلة ، فعاد حاسر الرأس حزينا ولكن اليأس لم يجد إلى فؤاده سيلا بعد أن تعلم معنى الأمل .

وضاعت من الرأس إيلاس عشرة شهور مضى يبحث فيها بلا ثمرة ، ولكن الملل الذى كان يفتك به قد تبخر ، فلقد كان يصحو مع الصباح بأمل جديد ، ولقد كان يحمد لنفسه مثابرتها فى المساء ، ثم يغلبه النوم فينام هنيئاً

بعد إعياء النهار ، كذلك وجد في بحثه من المتع ألف متعة صرفته عن متاعبه
كما صرفته عن أفكاره ، كشف عن غرائز الحيوان وخواص النبات ورأى
العجائب من حوله ترى فاعتزم أن يتعزى بدراسة هذه العجائب إن خاب
قصده في الفرار ، ووجد سعادة عظيمة في أن سعيه وإن لم يؤت ثماره
المرجوة قد زوده بأسباب للبحث لا سبيل إلى نفادها .

ولكن فضوله الأول لم يفتر ، فقد استقر رأيه على دراسة أحوال البشر
ولزمته هذه الرغبة ولكن أمله تضاعف يوماً بعد يوم ، وكفَّ عن دق جدران
سجنه ، وانصرف عن طلب الفجوات ، فقد اثبت في روعه أن الفجوات
لا وجود لها ، ولكنه اعتزم ألا ينسى غرضه الأصيل ، وأن يغتنم أول فرصة
تسنع له للخروج من الوادي السعيد .

الفصل السادس

مقال فى فن الطيران

وكان بين رجال الفن الذين اجتذبتهم الحياة فى الوادى السعيد رجل اشتهر بين قومه لدرايته الواسعة بعلم الآلات ، وقد أخذ الناس عنه مخترعات عدة بعضها نافع وبعضها قصد به إلى التسلية وحدها . واشتغل هذا المخترع بتوفير أسباب الراحة والسرور لأهل الوادى ، فابتكر عجلة يديرها التيار فترفع الماء إلى خزان ، ومن الخزان يجرى توزيعها على سائر أجنحة القصر ، كذلك ضرب مظلة فى الحديقة ، ومن حول المظلة كيف الهواء باستحداث رذاذ صناعى يحفظ للهواء رفته طول العام ، كذلك أقام المراوح فى دغل من الأدغال مخصص للسيدات ، وكانت النهيرات التى تجرى فى الدغل تدير المراوح فتتم تهوية الدغل بانتظام ، وأقام بعض آلات الموسيقى على أبعاد مضبوطة فمنها ما عزفت أوتاره بفعل النسيم ، ومنها ما عزفت أوتاره بفعل الجدول السلسيل .

وكان الرأس إيلاس يزور هذا الصانع من حين إلى حين ، ويسر بما يتعلم عليه من أشياء ، وهو فى ذلك يتوهم أن كل ما يجمعه من معارف سوف ينفعه يوم يخرج إلى الدنيا العريضة ، وقصد الرأس إيلاس الصانع ذات يوم ليسرى عن نفسه كعادته فألفاه يصنع عربة تنزلق على الماء ، ووجد أن تصميمها يصلح للسطوح المستوية فتملكه الإعجاب الشديد ورجاه أن يتم صنع العربة السابحة ، وسر الصانع من الأمير هذا التقدير المستفيض ، واعتزم أن يظفر لديه بحظوة أعظم فقال : « إن ما رأيت ياسيدى جزء تافه مما تستطيع

العلوم الآلية أن تحققه ، ولقد كان رأى الثابت دائماً أن الإنسان يستطيع اختزال ما ينفعه من وقت طويل فى الانتقال بالسفن والعربات إذا هو استخدم الأجنحة يطير بها ، ورحاب السماء مفتوحة للباحثين ، أما الجهال والكسالى فنصيبهم الزحف على الأرض .

وما إن سمع الأمير هذا الكلام حتى تجددت فيه الرغبة لتخطى الجبال وبعد أن رأى صنع الصانع خيل إليه أن قريحة هذا المخترع تستطيع أن تجود بما هو أبداع من ذلك ، ولكنه ذهب يلقي الأسئلة تباعاً خشية أن يضلله الأمل الكاذب ، قال : « يبدو لى أن خيالك أوسع من درايتك لأنى أراك تقص على رغباتك ولا تفضى إلى بمعارفك . إن لكل مخلوق مسلكه ومسعاه ، فللطير السماء ، والأرض من نصيب الإنسان والحيوان » .

فأجاب الصانع : « ولكن الماء مملكة الأسماك ، وفى الماء يسبح الحيوان بالفطرة ويسبح الإنسان بفنه ، ومن استطاع العوم كان الطيران فى متناوله ، فما العوم إلا طيران فى سائل شديد الكثافة ، وما الطيران إلا العوم فى سائل قليلها ، فما علينا إلا أن نضبط النسبة بين قوة مقاومتنا وبين كثافة المادة التى نسبح فيها ، ولاشك أن الهواء سيحملك لو جددت القوة الدافعة بأسرع مما يلين الهواء تحت ضغطك » .

قال الأمير : « ولكن التدريب على العوم تدريب مجهد ، وأقوى العضلات تضعف به بعد قليل ، وأرى أن الطيران سوف يكون أشد إجهاداً من العوم ذاته ، والأجنحة لا تجدى فتىلاً إلا إذا استطاع الإنسان أن يقطع بها أبعاداً لا يقطعها سباحة » .

فأجاب الصانع : « إن المجهود الأكبر سوف يستهلك فى الارتفاع من الأرض كما نرى فى حالة الدجاج والأوز مثلاً ، ولكن بعد أن تتوغل فى السماء تخف جاذبية الأرض ويخف ثقل الجسم شيئاً فشيئاً حتى نصل

إلى منطقة يطفو فيها الإنسان دون ميل إلى الهبوط ، وعندئذ لن يحتاج لقوة ينفقها إلا لإحداث الحركة الأمامية ، وهذه تتم بأقل دافع . وأنت يا سيدي الأمير محب للاستطلاع إلى حد عظيم وتستطيع أن تتصور المتعة التي يجدها فيلسوف من الفلاسفة أوتى جناحين فخلق في السماء ومضى يتأمل كرة الأرض وهي تدور من تحته دوراناً متصلاً ، وتعرض عليه بدورتها اليومية جميع الأقطار الواقعة في خط العرض الذي يثبت داخله . إن هذا المشاهد للمخلق سوف يسر سروراً عظيماً بمراى اليابسة والمحيط والملائن والصحراوات تنطوي تحت بصره الواحدة بعد الأخرى . نعم ، وسوف يرى وهو فى أمان الأسواق وميادين القتال والجبال التى يسكنها المتوحشون والبقاع الخصبة التى يسعد أهلوها بشمارها وينعمون بالسلام ، ولو استطعنا التحليق لأمكننا أن نتبع نهر النيل من بدايته إلى نهايته ولطرنا فوق الأمصار النائية واستكشفنا وجه الطبيعة من مشارق الأرض إلى مغاربها .

قال الأمير : « كل هذا تتمناه النفس حقاً ، ولكنى أعتقد أن التنفس يمتنع على الإنسان فى تلك البقاع ، بقاع التأمل والصفاء ، ولقد انتهى إلى علمى أن التنفس يشق على الناس إذا صعدوا جبلا شاهقاً ، وهذه الأخاديد التى تراها سهل السقوط منها برغم أن ارتفاعها العظيم ينتهى بخفة فى الهواء لا مثيل لها ، ومن هنا ترى أن خطر السقوط المفاجئ مائل أينما صعدت فى منطقة التنفس المحتمل » .

فأجاب الصانع : « محال أن نحقق شيئاً ما لم نذل جميع الصعاب الواحدة بعد الأخرى ، ولو شملتني برعايتك لجازفت بحياتى فى المحاولة الأولى للطيران ، ولقد درست تركيب الطيور بجميع أنواعها ، وأجد أن أنسب جناح للإنسان هو جناح الخفاش لما فيه من طيات متصلة ، وسوف أبدأ العمل على هذا التصميم غداً ، وأرجو أن أوفق قبل انتهاء عام إلى الارتفاع فى الجو

حيث لا يدركنى أحد بعيدٍ عن حقد الحاقدين ، ولكنى أشرت على سيدى الأمير أن يكتنم السر وألا يسألنى أن أصنع أجنحة لأحد سواه وسواى .

قال الرأس إيلاس : « ولم تبخل على الغير بهذه المنفعة الجليلة ؟ إن الخبرة الفنية ينبغى أن تكون ثمراتها ملكاً مشاعاً لبنى البشر ، فكل إنسان مدين للآخرين بالكثير ، والواجب يقضى بأن نعطي كما أخذنا . »

فأجاب الصانع : « لو أن الناس كانوا جميعاً صالحين لما ترددت فى تعليمهم الطيران فرداً فرداً ، ولكن أى اطمئنان يجده الأخيار إذا استطاع الأضرار أن يغزوهم من الجو ؟ فلا الأسوار ولا الجبال ولا البحار تكفى لرد جيش سابح بين السحب . إن سرباً من برابرة الشمال قويا فاتكاً قد يفد على متن الريح ثم يحط على حاضرة بلد خصيب وينهبها نهباً ، بل إن هذا الوادى الذى يعتكف فيه الأمراء ، هذا الوادى الذى يفيض بالسعادة ، قد تنتهك حرمة جمهرة من الهمج العرايا الذين يتشرون فى أرجاء السواحل الجنوبية . »

ووعد الأمير الصانع بكتمان السر ، وانتظر التجربة وفى قلبه بارق من أمل . وكان يتردد من حين لآخر على الصانع ليقف على ماتقدم من خطوات ، فراعه ما رأى من أفانين كثيرة قصد بها إلى تيسير الحركة وإلى الجمع بين الخفة والقوة معاً ، أما الصانع فقد كان يشتد كل يوم إيماناً بأنه سوف يتجاوز النسر فى علاه والعقاب فى جوزائه ، وانتقلت هذه العدوى إلى الأمير فغدا لا يقل عن الصانع تفاؤلاً .

وانتهى العام وإذا بالأجنحة يتم صنعها ، وخرج الصانع فى الصباح المحدد لابساً عدة الطيران ووقف فوق رابية صغيرة ، ورفرف بجناحية قليلا ليستجمع الهواء ثم وثب من مكانه ولكنه سقط لفوره فى البحيرة ، وأغاثه الجناحان فى الماء بعد أن خذلاه فى الهواء ، فطفا بهما حتى جذبه الأمير إلى الشط ، فخرج إلى اليابسة فى شحوب الموتى يفتك به الذعر والغيط جميعاً .

الفصل السابع

الأمير يلتقى برجل من أهل العلم

لم يطل حزن الأمير لهذه النكبة فقد كان يعقد الآمال على هذه المحاولة الفاشلة لأن وجوه الفرار الأخرى قد امتنعت عليه ، ولم يعدل عن عزمه على مغادرة الوادى السعيد حين تسنح أول فرصة .

وتوقف خياله عن نشاطه ، وتضاءل أمله فى الخروج إلى الدنيا حتى تلاشى ، وذهب يتعزى عن كل ذلك ما وجد إلى العزاء سييلا ، ولكن السخط بدأ يتملكه شيئا فشيئا ، وأنشأ يستسلم لخوابره الحزينة مرة أخرى ولكن فصل الأمطار ، وهو موسمى فى تلك الأقطار ، حل وتعذر بحلوله التجوال فى الغابات .

وطال هطول الأمطار واشتدت غزارتها على نحو لم يألّفه سكان الوادى السعيد ، فتفجرت الغيوم على الجبال المتاخمة وجرت السيول إلى السهول فى كل جانب من جوانب الجبال ، حتى ضاق الغار بالماء المتراكم وفاضت البحيرة فأغرق شطآنها الماء وامتد الطوفان إلى مستوى الوادى بأكمله ، ولم تعد العين ترى من معالم الوادى إلا القصر والربوة التى ينهض عليها ، ويقعاً متفرقة من أراضٍ عاليات ، وهجرت المراعى قطعانها واعتصمت بالجبال ، وكذلك اعتصم بالجبال وحشى الحيوان .

ولزم جميع الأمراء القصر بسبب الفيضان واكتفوا بأسباب اللهو المنزلية ، واستوقف انتباه الرأس إيلاس قصيدة رواها شاعر يدعى عملاق موضوعها

الحياة الإنسانية وأحوالها المختلفة ، فأمر الأمير الشاعر بأن يمثل بين يديه في جناحه الخاص ، وسأله أن ينشده قصيدته للمرة الثانية ، ثم تبسط معه في الحديث ووجد بعض السعادة في أنه قد عثر على رجل يعرف طبيعة الحياة معرفة تامة ويستطيع أن يصورها هذا التصوير الماهر . وسأل الأمير الشاعر ألف سؤال وسؤالاً ، عن أشياء كان ينبغي أن يعرفها لأنها مألوفة وساذجة ، ولكن سجنه في الوادي السعيد منذ طفولته قد جعل منها أسراراً مغلقة ، ورثا الشاعر لجهله واطمأن إلى فضوله وذهب يسرى عنه يوماً بعد آخر بكل جديد وبكل نافع من ألوان المعرفة ، حتى لقد ضاق الأمير بحاجته إلى النوم ، وصار يترقب مطلع الصباح لتجدد به مسراته .

وفيما كانا يجلسان معاً أمر الأمير الشاعر عملاقاً أن يسرد عليه قصة حياته ، وأن يحدثه عما دفعه إلى الوادي السعيد أو جذبه إليه لختم حياته بين أسواره . وبدأ عملاق في سرد قصته ، ولكن الرأس إيلاس جاءته دعوة إلى حفل موسيقى فكظم فضوله حتى الليل .

الفصل الثامن

قصة عملاق

انتصف الليل قبل أن تهدأ الموسيقى وتنسحب الأميرات ، ففي المناطق الاستوائية يكون اللهو والسمر في الليل وحده ، وبعد انقضاء الحفل استدعى الرأس إيلاس صاحبه وسأله أن يبدأ في سرد قصة حياته ، فقال عملاق :

« ولدت في مملكة جوياما بالقرب من الينبوع الذي يخرج منه النيل ، وكان أبى تاجراً ثرياً يجرى تجارته بين موانئ البحر الأحمر وداخلية الأقطار الأفريقية ، وكان أميناً مقتصداً مجداً في عمله ، ولكنه برغم ذلك كان خسيس الطبع محدود الإدراك لا رغبة له في الحياة سوى جمع المال ، وكان يخفى ماله عن العيون خشية أن يجور عليه حاكم الإقليم » .

فقال الأمير : « لا شك في أن أبى يهمل في أداء وظيفته إذا كان في بلاده رجل يجور على مال الغير . أو لا يعلم أن الملوك مسئولون عما يحدث في بلادهم من ظلم وجور ؟ لو أنى كنت إمبراطوراً لحملت أحقر حقير في دولتي من ظلم الظالمين ، وإن دمي ليغلي حين أسمع بتاجر لا يستطيع أن ينعم بما كسب من ربح مخافة أن يسلبه ماله ذور السلطان . إلى باسم هذا الحاكم حتى أوقف الإمبراطور على جرائمه » .

أجاب عملاق : « إن حميتك ياسيدى الأمير أثر من آثار نفسك الفاضلة التي تثور بوحى من شبابك ، ولسوف يأتى حين تبرئ فيه أباك عما تلومه الآن عليه ، ولعل صدرك يضيق يومئذ بشكايات الشاكين لمثل هذا الحاكم الغاصب .

إن الظلم فى بلاد الحبشة نادر الوجود والظالمين يؤخذون بالشدة أينما وجدوا .
والإنسانية لم تهتد بعد إلى نوع من أنواع الحكومة يقضى على قسوة القساة
قضاء تاماً . إن الحكم بمدلول الكلمة يفرض القوة فى فريق من الناس
والخضوع فى الفريق الآخر ، والإنسان يطغى من حين لآخر كلما ملك القوة ،
ويقظة قاضى القضية قد تنفع فى رفع الكثير من الجور ، ولكنها لن ترفع الجور
كله ، فقاضى القضية لا علم له بكل ما يرتكب من جرائم ، وقاضى القضية
لا يستطيع أن يدين إلا بعض المذنبين .

قال الأمير « هذا ما لا أفهمه ، ولكنى أؤثر أن أستمع إلى بقية قصتك عن
أن أجادل فى أصول الحكم ، فامض فى حديثك » .

فمضى عملاق فى حديثه يقول : « كان أبى يعتزم أن يزودنى بالعلم الذى
يؤهلنى لممارسة التجارة وحدها وحين لاحظ فى قوة الذاكرة وسرعة الفهم
ذهب يبنى نفسه ويؤمنى بمستقبل عظيم فى عالم التجارة ، وتنبأ لى أكثر من
مرة أنى سوف أكون أغنى أغنياء الحبشة » .

قال الأمير : « وفيم كان طلب أيبك للمزيد من المال ؟ أما قلت إنه ملك
منه أكثر مما يستطيع أن يظهر الناس عليه وأكثر مما يستطيع أن ينعم به ؟ إنى
لا أميل إلى التشكك فى صدق ما تقول ، ولكنك تناقض نفسك والحق لا يستقيم
مع التناقض » .

أجاب عملاق : « إن الحق لا يستقيم مع التناقض فى الواقع ياسيدى الأمير ،
أما فى دنيا الإنسان فالتناقض قد لا يتعارض مع الحق ، ثم إن التباين يختلف
عن التناقض ، وأبى يطلب المزيد من المال ليزداد بذلك اطمئنانه فى حياته
المستقبلية ، ومهما يكن من شىء فالإنسان بحاجة إلى أمل يدفعه إلى العمل فى
الحياة ، ومن توافرت له حاجاته الحقيقية اصطنع أحلامه فى عالم الخيال » .

قال الأمير : « فهمت ما ترمى إليه وأعتذر لك عن هذه المقاطعة » ومضى
عملاق فى قصته يقول : « أدخلنى أبى المدرسة وهو يضع فى هذا الرجاء ،

ولكن ما إن تذوقت المعرفة ونهلت من نبعها حتى استصغرت نفسى المال وجامعيه ، ولم أعلن لأحد عن حالى بل اعتزمت سرّاً أن أخيب رجاء أبى فى ، وذهبت أرثى لضيق أفقه ، وهكذا بلغت العشرين من عمرى قبل أن يسألنى أبى أن أرحل وراء التجارة ، وكنت قد تعلمت فى المدرسة آداب بلادى وفنونها جميعاً ، وقضيت أعوام الطلب سعيداً بما أوتيت من علم يتجدد كل يوم ، ولكنى فقدت احترامى لأساتذتى درجة درجة حين شبت واتسعت مداركى ، فقد وجدتهم لا يختلفون فى شئ عن عامة الناس .

« وأخيراً رأى أبى أن يزج بى فى ميدان التجارة ، وإذا به ذات يوم يفتح كنزاً من كنوزه المخبوءة تحت الأرض ويعد عشرة آلاف قطعة من الذهب قائلاً : هذا يافتى رأس مالك ، ولقد بدأت حياتى بأقل من خمس هذا المقدار ، وأنت ترى كيف ضاعفته بالجد والادخار ، وهذا المال مالك ، زده إن شئت وبدده إن شئت ، فلو بددته بالطيش أو الإهمال فلن تجد مالا غيره قبل وفاتى ، ولو ضاعفته فى أربعة أعوام أبطلنا تبعيتك لى وغدونا صديقين وشريكين ، فمن حذق جمع المال حذقى له كان ندّاً لى مدى الحياة .

« وهكذا كدسنا أموالنا فى زكائب بين البضائع الرخيصة وحملتها لنا الجمال إلى سواحل البحر الأحمر ، وحين وقع بصرى على رحاب الماء خفق قلبى كأنى أسير يلتمس النجاة ، وامتكنى فضول هائل واعتزمت أن أغتتم هذه الفرصة لأستطلع أحوال الناس فى الأقطار الأخرى ولأتعلم مالا يعلمه الأحباش .

« وتذكرت أن أبى قد فرض علىّ زيادة مالى لا بعهد استخلصه منى ، ولكن بوعيد كنت فى حل من أن أتغاضى عنه ، ولذا انتهى رأى إلى إشباع رغبتى الأولى ، فمضيت أنهل من ينابيع المعرفة لأطفئ ظمأ الفضول .

« ويسر لى ذلك أن تجارتي كانت مستقلة عن تجارة أبي ، فتعرفت على ريان سفينة من السفن ونزحت إلى بلاد غير بلادى ، ولم أكن أطلب شيئاً بالذات من وراء رحلتى هذه ، فقد كان يكفينى من الأسفار أنها تعرض على من الملائن مالم أره من قبل ، وهكذا تركت لأبى خطاباً أطلعه فيه على عزمى ، واعتليت ظهر سفينة قاصدة بلاد السورات »

الفصل التاسع

عملاق يستأنف قصته

« وحين توغلت في البحر واختفت عن عيني الشيطان تَلَفَّتُ حولي وتنازعني الرضا والرغبة ، واتسعت روحي بمراى تلك الآفاق المترامية ، فتوهمت أنى لن أعرف الملل بعد ذلك ، ولكن نفسي ما لبثت أن سئمت ما حولها من تشابه مضجر ، وعندئذ ولجت جوف السفينة وخلت أن متع المستقبل قد تنتهى جميعاً كما انتهت متعة الحاضر ، أعنى بالملل وخيبة الأمل ، ولكنى ذهبت أتعزى بما بين اليابسة والماء من فرق جوهري ، فما في المحيط من جلة إلا تعاقب الحركة والسكون ، إن كان هناك تعاقب ، أما الأرض فوديانها وجبالها وصحاريها وحواضرها تشغل البال طراً وفي الأرض نلتقى بأناس عاداتهم مختلفة وآراؤهم متضاربة ، لذلك رجوت أن يعوضني الناس بتباينهم عما قد أجده في الطبيعة من تكرار ممجوج .

« وهذا بالي بهذه الخواطر ، وذهبت أسرى عن نفسي في أثناء الرحلة أنا بالاستفسار من البحارة عن فن الملاحة ، فقد كنت لا أدرى عنه شيئاً ، وأنا بإعداد نفسي لاستقبال المواقف المختلفة حين أبدأ حياتي الجديدة ، وهي مواقف كلها من عمل الخيال .

« وأوشكت متعتى في رحلتى أن تنفذ ، ولكن سرعان ما رست بنا السفينة في سورات ، وفي سورات استرددت مالى وابتعت بعض السلع التى تعين المرء على الظهور ، ثم انضممت إلى قافلة كانت تهدف إلى داخلية البلاد .

ولسبب لا أعلمه قدر رفاقى فى السفر أنى من أهل اليسار واستدلوا على جهلى بما كنت ألقيه من أسئلة وبما كنت أقوله من عبارات الإعجاب بكل ما أراه ، فعدونى غراً ينبغى أن يتعلم من تجارب الحياة شيئاً كثيراً ، وأحلوا للناس خداعى لأن العلم لا يؤخذ بالمجان ، فتركونى لرحمة الخدم والموظفين يستنزفون مالى ما وجدوا إلى استنزافه سبيلاً ، ونهبنى الناهبون تحت أبصارهم فلم يحركوا ساكناً لإغاثتى ، وما جنوا من خسارتى شيئاً إلا فرحتهم بما يصيب المغفل من محن ورضاهم بأنهم من المجربين .

قال الأمير : « تريث برهة ياعملاق ، فما كنت أحسب أن هذا الجنون من صفات الإنسان ، فكيف يؤذى رجل رجلاً وهو لا ينتفع بأذاه ؟ وأنا أفهم اغتباط المجرب بتجاربه إذا صادف غراً أحمق ، ولكن جهلك كان وليد المصادفة وحدها فهو ليس بجريمة ولا بحماقة ، وليس فيه ما يدعو إلى اعتزازهم بعلمهم ، ولقد كان يستوى لديهم أن ينقذك بعلمهم أو أن ييخلوا به عليك ، فلم اختاروا سبيل الضرر ؟ » .

أجاب عملاق : « إن الكبرياء والفظاظة رفيقان متلازمان ، والمستكبر يرضى بأخس منفعة تأتیه ، وسعادة الحساد لا تتم إلا بشقاء الآخرين ، ولقد كان ذلك النفر عدواً لى فقد نفسوا على جاهى ، ولقد وجدوا لذة فى تحطيمى فهم إذن من البغاة الظالمين » .

قال الأمير : « امض فى حديثك ياعملاق ، فلست أرتاب فى صدق مقالك ، ولكنى أعتقد أنك تخطئ فى تقدير الدوافع » .

قال عملاق : « بلغت أجرا ، حاضرة هندوستان ، فى هذا الركب ، وهى المدينة التى يقيم فيها عادة ملك المغول العظيم ، وفى أجرا تعلمت لغة البلاد وبعد شهور قلائل أمكننى أن أتفاهم مع علماء المدينة ، فوجدت بعضهم يميل إلى التحفظ والكآبة ، ووجدت رحابة صدر وإقبالاً على الحديث فى الآخرين . وجدت منهم من ضنوا على الناس بعلمهم الذى أضناهم اكتسابه ، ووجدت منهم من رأوا فى تهذيب الغير غاية المعرفة .

« وكان مؤدبى مؤدب الأمراء الصغار ، وقد التفت لجدى واجتهادى حتى قدمنى إلى الإمبراطور واصفاً إياى أنى رجل قل فى العلم نظيرى . وسألنى الإمبراطور كثيراً عن بلادى وعن أسفارى ، ولقد انصرفت من حضرته عاجباً لحكمته النادرة وطبعه النبيل ، وإن كنت لا أذكر الآن قولاً من أقواله ، فذا يعجز عنه الرجال العاديون .

« وعظمت حظوتى حتى لقد لجأ إلى أصحابى التجار ملتجئين أن أوصى بهم سيدات البلاط ، وقد عجبت لثقتهم فى ورجائهم فى أن أمد إليهم يد العون فأنبتهم فى رفق على ما بدر منهم فى أثناء الرحلة من خيانة لى وتفريط فى ، فاستمعوا لتأنيبى فى غير اكتراث ولم يبد عليهم مايدل على الأسف أو الخجل .

« ثم ذهبوا يؤيدون مطلبهم بعرض الرشوة ، ولكنى رفضت ماعرضوا فإذا كان العطف لم يكفى حافزاً فالمال لم يغرنى من باب أولى ، وما أحجمت عن مساعدتهم لأنهم أنزلوا بى أذى ، بل لأحول دون إيذائهم غيرى ، فقد كنت على يقين من أنهم سوف يستغلون منا أنعم به من حظوة فى البلاط فيغشون شراً بضائعهم .

« وبعد أن تعلمت فى أجرا كل ما يستحق التعلم نزحت إلى بلاد العجم ، حيث شاهدت أطلال حضارة فخمة بائدة ووقفت على أسباب الترف وهى كثيرة هنالك .

ووجدت أن الفرس شعب لطيف المعشر يحب الاختلاط ، وقد وجدت كل يوم فى مجتمعاتهم مجالاً لدراسة أخلاقهم وأطوارهم كما وجدت مجالاً لدراسة الطبيعة الإنسانية فى وجوهها المختلفة .

« ومن بلاد العجم انتقلت إلى بلاد العرب حيث رأيت أمة راعية ومحاربة
في آن واحد ، يعيش أبناؤها في تنقل مستمر ولا يملكون من موارد الثروة
إلا أغنامهم وأبقارهم ، ولقد عاشوا في جهاد متصل مع بقية شعوب الأرض ،
برغم أنهم لم يغمطوا الناس أشياءهم أو ينفسوا عليهم متاعهم » .

الفصل العاشر

عملاق يستأنف قصته : فى الشعر

« وأينما حللت وجدت أن للشعر المقام الأول بين معارف الإنسان ، ووجدت أن الناس يحملون له من الاحترام ما يحملونه للطبيعة الملائكية ، ومع ذلك فإننى أعجب أشد العجب إذ أرى إجماع الناس على أن قديم الشعر خير من حديثه ، ولست أدري ما دفعهم إلى كل ذلك ، أهو أن تذوق الشعر يتم لأول وهلة على حين تكتسب بقية معارف الإنسان شيئاً فشيئاً ، أم أن شعر الأولين فى كل أمة قد أدهش أبناءها بما فيه من جلة فقلدوه ثم دام له هذا التقدير بالتقليد ، وهو التقدير الذى ما أصابه إلا مصادفة ، أم أن الشعراء القدامى بحكم سبقهم فى سلسلة الحياة قد استأثروا بما يستحق الوصف سواء فى الطبيعة ، أو فى عواطف الإنسان ، أو فى قصص الحياة وهى جميعاً ثابتة لا تتغير بتغير الأزمان ، فلم يتركوا لأخلافهم مجالاً لشيء إلا ترديد ما روه من وقائع وتضمين ما ابتكروه من أخيله . ومهما تكن العلة فالملاحظ أن القدماء قد ملكوا ناصية الطبيعة ، وأن للمحدثين قد ملكوا ناصية الفن ، والمعروف أن للأولين سبق فى القوة والابتكار وأن للمتأخرين سبق فى الرقة والأناقة .

« ولقد كنت أود أن أضيف أسمى إلى قائمة الشعراء فدرست الشعر الفارسى كله والشعر العربى كله ، واستظهرت للمجلدات المعلقة فى جامع مكة ، ولكنى سرعان ما أدركت أن الشاعر الفذ لا يعتمد على التقليد ، ودفعتنى رغبتى فى الإجابة إلى الانصراف عن آثار الشعراء والاهتمام بدراسة الطبيعة والحياة ، والتمست فى الطبيعة إلهامى والتمست فى الأحياء جمهورى :

استطعت أن أصف ما لم أره ، وما رجوت أن أحرك مشاعر قوم لم قوم مصالحهم وأفكارهم .

« ولما اعتزمت قرض الشعر اختلفت نظرتي للأشياء واشتد انتباهي واتسعت أمامي الآفاق فبت أكثر لكل شيء مهما بلغت تفاهته ، وذهبت أرتقي الجبال وأذرع البید فی طلب الأخیلة والتشابه وثبتت فی وجدانی كل شجرة فی الغابة وكل زهرة فی الوادی ، وقسمت اهتمامی بالعدل بین ذرا الجبال وأبراج القصور، ومن حین لآخر كنت أتحول بحذاء الجداول وألتفت إلى ما یطراً علی سحاب الصیف من تغیر ، فكل مادة تنفع الشاعر فی شعره ، وخیال الشاعر ینبغی أن یتوعب صور الجمال جمیعاً ومصادر الهول جمیعاً ، وأن یألف العظیم الرهیب والصغیر الدقیق علی السواء ، وأن یخترن فی ذهنه مادة لا ینفد تباینها من أشجار الحديقة و حیوان الغاب ومعادن الأرض وشهب السماوات ، فكل فكرة تفید الشاعر فی تدعیم الحقائق الدینیة أو الحقائق الأخلاقیة التی یتحدث عنها الشاعر أو هی تفسیده فی تنمیق هذه الحقائق . وأوسع الشعراء درایة شاعر یجید الانتقال من فكرة إلى فكرة ، ومن صورة إلى صورة ، ویحسن إرضاء قرائه بغریب الإشارات وجدید التعالیم .

« لذلك صرفت علی دراسة ظواهر الطبیعة ظاهرة ظاهرة ، وما من بلد زرتة إلا وكان له أثر فی شعری » .

فقال الأمير : « لا شك أن كثيراً من دقائق الطبیعة والحیة قد فاتتك فی سعیک هذا للمعرفة الشاملة ، فلقد عشت عامة حیاتی فی نطاق هذه الجبال ، ومع ذلك ما من مرة خرجت فیها من القصر إلا رأیت شیئاً لم تقع عینی علیه قبل ، أو لم ألتفت إلیه فی الماضی » .

أجاب عملاق : « إن وظيفة الشاعر هی أن یدرس النوع لا الأفراد ، وأن یلاحظ الخواص العامة والمظاهر الواضحة ، فهو لا یعد فی زهرة التولیب

أوراقها أو يصف درجات الخضرة التي يراها في الغابة وهو يعرض في تصويره للطبيعة معالمها البارزة الجلية مما يذكر كل ذهن بالأصل الذي نقلت عنه ، وهو يتجاهل الفوارق الدقيقة التي إن التفت إليها فرد أهملها أفراد مؤثراً عليها من الخصائص ما يلتفت إليه كل ذهن متنبه ويلحظه كل جنان ليس الإهمال من صفاته .

« ولكن معرفة الطبيعة بعض وظيفة الشاعر لا كلها ؛ إذ ينبغي عليه أن يعرف كذلك طرق الحياة جميعها ، والشاعر لا يكون شاعراً إلا إذا أحس بما في هذه الطرق جميعاً من سعادة أو شقاء ، وإلا إذا أدرك ما للعواطف من قوة في جميع وجوهها وتفاعلاتها ، وإلا إذا تتبع ما يطرأ على ذهن الإنسان منذ طفولته الحية حتى هرمه اليأس من تغير تحت ضغط التقاليد المختلفة وبتأثير المناخ أو العادات وهو تأثير عرضي ، وعلى الشاعر أن يجرد نفسه من الأحكام الفاسدة والأحكام الموروثة التي يفرضها عليه جيله أو يفرضها عليه بلده ، وعليه أن يهتدى إلى الحق والباطل في صورتهم المجردة الثابتة ، كما أن عليه أن يغض النظر عما حوله من قوانين وآراء وأن يسمو إلى الحقائق الغيبية العامة التي لا تتبدل مع الأيام ؛ ولذا فإن على الشاعر أن يقنع بما يصيب من صيت محدود ، وأن يزدري إعجاب معاصريه شاخصاً ببصره إلى الأجيال التالية ، فهي الحكم العدل . وهو في قريضه يترجم عن الطبيعة ويشترع لبنى الإنسان ويرسم للخلف سبيلهم في الرأي والحياة ، لأنه كائن يرتفع على حدود الزمان وقيود المكان .

« وما هذا إلا بعض واجب الشاعر ، فإن عليه أن يتعلم اللغات العديدة والعلوم المختلفة ، كما أن عليه أن يروض نفسه بالمرانة المتصلة على كل رقيق من التعبير وكل حلو من التنعيم ، حتى يكون أسلوبه كفواً لأفكاره . »

الفصل الحادى عشر

عملاق يستأنف قصته : كلمة فى الحج

وحين بلغ عملاق هذه المرحلة من حديثه تملكته الحماسة وذهب يعظم من شأن صناعته حتى صاح به الأمير يقول : « كفاك ما قلت عن الشعراء . لقد أثبت لى أن عمل الشاعر ليس فى متناول البشر ، فامض فى قصتك » .
قال عملاق : « نعم ، إن عمل الشاعر أشق ما يكون » .

أجاب الأمير : « إنه لكذلك ، ولهذا فلتؤجل الحديث عنه إلى وقت آخر . قل لى أين ذهبت بعد أن خرجت من بلاد العجم ؟ » .

قال الشاعر : « بعد أن خرجت من بلاد العجم طفت بمدائن سوريا وأقمت بفلسطين ثلاثة أعوام حيث تعرفت على عدد عظيم من أهل شمال أوروبا وغربها الذين يستأثر شعوبهم بأسباب العلم وأسباب القوة فى هذه الأيام ، فجيشوشهم الغازية لا سبيل إلى ردها وأساطيلهم تذل أقصى بقاع المعمورة .
وحين قارنت بين أولئك الناس وبين أبناء وطنى وما حوله من أقطار خيل إلى أن أولئك الأوروبيين قد صنعوا من طينة أخرى ، فبلادهم قد حوت كل شئ تتمناه النفس ، وبها ألف فن لم يسمع به إنسان ، وهم دائبون فى جدهم لتوفير وسائل الراحة والمتعة ، وكل ما حرّمهم مناخهم منه زودتهم به تجارتهم » .

قال الأمير : « ولكن من أين للأوروبيين هذا البأس ؟ وإذا كان ميسراً لهم أن يزوروا آسيا وأفريقيا للإتجار أو للغزو فماذا يمنع الآسيويين والأفريقيين

من غزو سواحلم واستعمار موانيهم ؟ إن الريح التى تعود بهم إلى بلادهم تحمل الآسيويين والأفريقيين كذلك .

أجاب عملاق : « إنهم أقوى منا يا سيدى الأمير لأنهم أحكم منا ، والعلم يقهر الجهل لا جدال فى ذلك ، ودليل ذلك أن الإنسان يتحكم فى الحيوان ، ولكنى لا أدرى كيف اتفق لهم أن يكونوا أوسع منا علما ، ولا تفسير لذلك عندى إلا أن هذه مشيئة الكائن الأسمى » .

وتنهذ الأمير قائلا : « متى يتاح لى أن أزور فلسطين وأتصل بمجمع الأمم هذا ، وإلى أن يتحقق هذا الحلم السعيد دعنى أعلل النفس بما ترويه أنت على من أخبار ، وأنا أعلم الدافع الذى يأتى بأولئك الناس من أقاصى الأرض ليجتمعوا فى تلك البقعة ، ولا شك عندى أنها مركز الحكمة وملقى الأتقياء ، وخلق بعقلاء الأرض أن يحجوا إليها بلا انقطاع » .

قال عملاق : « إن من البلاد ما لا يبعث إلى فلسطين إلا نفراً قليلا ، فالكثرة المطلقة من المشقفين فى أوروبا قد اتفقت على الزرابة بالحج واعتباره خرافة من الخرافات » .

قال الأمير : « أنت تعلم كيف حال سجنى دون وقوفى على الآراء المختلفة ، والوقت لا يتسع لسماع حجج الفريقين كلها ، ولا ريب أنك قد وازنت بينها فإلام انتهيت ؟ » .

أجاب عملاق : « قد يكون الحج خرافة وقد يكون عملا حكما ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الشعائر الدينية ، فكل شىء يتوقف على الأساس الذى انبنى عليه ، فطول الترحال طلباً للحقيقة ليس من أوامر الكائن الأسمى ، لأن الحقيقة توجد أينما تلتمس بنية خالصة وتغير المكان لا يضيف إلى تقوى الإنسان شيئا لأنه يفضى حتما إلى تشتيت الذهن ، ولكن الناس يقصدون

إلى الأماكن التي حدثت فيها الحوادث المشهودة لزيارتها ، ثم يعودون منها وقد تمثلوا تلك الحوادث تمثلاً قوياً . وهكذا قد يدفعنا مثل هذا الفضول إلى زيارة البلاد التي نشأت فيها ديانتنا ، وإنى لأعتقد أنه ما من إنسان زار تلك المواقع الرهيبة إلا وتأكد في نفسه اليقين وقيد نفسه بالعهود المقدسة ، أما قولهم بأن الكائن الأسمى يستمع إلى صلوات الناس في مكان ما دون سواه من الأمكنة فهو خرافة من خرافات المتبطلين ، ولكن اختبارنا المتكرر قد دلنا على أن من الأمكنة ما قد يؤثر في تفكيرنا تأثيراً غير مألوف ، ومن يعتقد أن رذائله سوف تسهل محاربتها في فلسطين فقد أخطأ ، ومع ذلك فزيارته للأراضي المقدسة قد لا تكون حماقة من حماقات ، ومن يحسب أنه سينال الغفران عن خطاياہ في الأراضي المقدسة بأيسر مما يناله في غيرها من البلاد فقد دنس حرم الفكر وامتحن جوهر الدين » .

قال الأمير : « هذه الفوارق من عمل الأوروبيين وسوف أتدبرها في فرصة أخرى ، أما الآن فحدثني عن أثر المعرفة كما لمستہ . أوجدت أن الأوروبيين أكثر منا سعادة ؟

أجاب الشاعر : « إن في العالم من الشقاء ما يلهي كل إنسان عن البحث في الموازنة بين بأسائه وبأساء الآخرين . ولا جدال في أن المعرفة باب من أبواب السعادة كما يستدل من رغبة كل ذهن في أن يوسع معارفه ، والجهل جذب وفي الجذب لا ينبت شيء . الجهل فراغ تجلس فيه الروح بلا حراك خاملة لا تجد ما يجذبها ، ونحن نسعد بالمعرفة ونبتئس للنسيان دون أن ندري لذلك سبباً ، ولهذا أستخلص أن سعادتنا تطرد باطراد علمنا إذا لم يجد ما يفسد هذا الوضع الطبيعي .

« ونحن حين نتحدث عن أسباب الراحة في الحياة نجد أن الأوروبيين قد سبقونا في هذا المضمار بمراحل طويلة ، فهم يضمّدون الجراح التي تضنينا

ويشفون الأمراض التي تفتك بنا وتعذبنا رداءة الجو أما هم فيتغلبون عليها ،
وهم يستخدمون الآلات في إنجاز أعمالهم الشاقة أما نحن فنستخدم الأيدي ،
ووسائل الاتصال بين الجهات البعيدة متوافرة عندهم وهي تقرب بين الناس ،
وسياستهم تنحو إلى إزالة المتاعب العامة جميعاً ، فهم يشقون الطرق في الجبال
ويقيمون الجسور فوق الأنهار ، بل إن بيوتهم الخاصة تتوافر فيها الراحة أكثر
مما تتوافر في بيوتنا ، وممتلكاتهم في حمى من عدوان المعتدين أكثر من ممتلكاتنا .

فقال الأمير : « لا شك أنهم سعداء بأسباب الراحة هذه ، وإنى لأجد أن
أعظم هذه الأسباب نقعاً هي أسباب الاتصال التي تجمع الأصدقاء المفرقين
وتيسر تبادل الأفكار . »

قال عملاق : « إن الأوروبيين أقل منا بؤساً ، ولكنهم برغم ذلك
لا ينعمون بالسعادة ، فأينما ذهبت وجدت أن الحياة الإنسانية عبء فادح كثير
الرزايا قليل النعم . »

الفصل الثاني عشر

عملاق يستأنف قصته

قال الأمير : « أنا لا أسلم حتى الآن بأن السعادة نادرة كل هذه الندرة بين البشر ، وأعتقد اعتقاداً ثابتاً أنى لو كنت أتحكم فى تصرف حياتى لمألت كل يوم من أيامى بأسباب السعادة ، ولتجنببت الإضرار بالغير ولتخرجت من الإساءة إلى الآخرين ، ولاغثت كل ملهوف فأنعم منهم بالشكران . نعم . لو كنت أتحكم فى تصرف حياتى ، لاصطفيت خلانى من عقلاء الناس ولاخترت زوجتى من فضليات النساء ، فأتقى بهذا أو ذاك الغدر وسوء المعاملة ، ولكان أبنائى بفضل رعايتى ذوى علم وصلاح فيجزوننى فى شيخوختى عما كبدتنيه طفولتهم من عناء ، ومن استطاع أن يدعو آلاف الناس الذين غمرهم إحسانه أو عضدهم بقوته فيخفوا إليه منجدين فلا خوف عليه من عدوان المعتدين . وما أخلق الحياة بأن تنساب هادئة بين رعايه الضعفاء وإجلال الناس ، وهذا ما نستطيع أن نصل إليه دون حاجة إلى كماليات الأوروبيين ، فظاهر تلك الكماليات يدل على أنها زائفة لا نافعة ، فلتنس الأوروبيين الآن ولنعد إلى أسفارك أنت يا عملاق » .

قال عملاق : « خرجت من فلسطين واجتزت الكثير من أقطار آسيا ، وفى المناطق التى تعرف الحضارة كنت التاجر البائع الشارى ، وفى جبال التبربرين كنت الحاج الزائر ، وأخيراً هزنى الشوق إلى بلادى لأستريح فى أرض طفولتى بعد طول تجوالى لأمتع إخوان الصبا برواية مغامراتى عليهم .

وكثيراً ما انصرف خيالي إلى رفاقي في فجر الحياة فتوهمتهم جالسين من حولي في مسائها عاجبين لما أقص عليهم من أخبار ، آخذين بما أزجى إليهم من نصائح .

« ولما اختمرت في رأسي هذه الفكرة بدأت أضيق بفراق الحبشة وأعد كل لحظة تمضي بعيداً عنها مضیعة لحياتي ، وأسرعت إلى مصر ، وفي مصر وجدت ما يستبقيني عشرة أشهر برغم لهفتي إلى وطني فدرست آثار فخامتها الزائلة وتعرفت على أطلال علمها الغابر ، وفي القاهرة رأيت خليطاً من جميع شعوب الأرض ، فمن الناس من أمها طلباً للعرفان ، ومنهم من أمها طلباً للمال ، ومنها من أمها ليتزوى عن قومه وسط جموعها الزاخرة فيحيا الحياة التي يرضاها ، وهؤلاء كثيرون ، ففي حاضرة تضيق بسكانها كالقاهرة يستطيع المرء أن يجمع بين مزايا الحياة الاجتماعية ومزايا العزلة والانسحاب .

« ثم انتقلت من القاهرة إلى السويس ، وركبت البحر الأحمر بحذاء الساحل كله حتى بلغت الثغر الذي أبحرت منه منذ عشرين عاماً قبلها ، وفي الثغر انضمت إلى قافلة دخلت بي أرض وطني .

« وكنت أنتظر من أهلي وذوي أن يستقبلوني بالترحاب ، ومن أصحابي أن يكرموا وفادتي ، وبقي لي بعض الأمل في أن أبي قد ينسى كلفه العظيم بالمال ويعتز بولده الذي استطاع أن يشرف أمته ويسعدها ، ولكن سرعان ما أدركت أنني كنت واهماً فيما رجوته ، فقد وجدت أن أبي قد مات بعد رحيلي بخمسة أعوام ، وأن إخوتي قد اقتسموا ماله وانتقلوا إلى مقاطعة أخرى ، وأن الكثرة المطلقة من خلاني قد صرعتهم يد الردى ، أما من بقي منهم ففريق كاد أن ينساني وفريق اشماز من مسلكي حاسباً أنني قد تطبعت بطباع أجنبية فاسدة .

« ولم أبتس لكل ذلك ، فمن تعود تقلبات الأزمان والأوطان لا يبتس . وتناسيت بعد قليل ما صادفت من خيبة أمل ، وتقدمت إلى أشرف المملكة فأفسحوا لي مكاناً في موائلهم ، واستمعوا لقصتي ثم صرفوني إلى غير رجعة ،

وفتحت مدرسة ولكن التعليم حرم على ، ورأيت آخر الأمر أن أعتكف في دارى وألتمس الحياة الهادئة ، وتقدمت لخطبة فتاة كانت ترتاح إلى حديثى ولكنها رفضت الزواج منى لأن أبى كان من طبقة التجار .

« وأعيانى ما لقيت من إعراض متكرر فعزمت آخر الأمر أن أنزوى من العالم ، وأن أستغنى جملة عن آراء الغير ونزواتهم ، وانتظرت اليوم الذى يفتح فيه الوادى السعيد أبوابه لأودع دنيا المخاوف والآمال ، فلما حل اليوم تقدمت بما عندي من فن فحاز الرضا وأسلمت نفسى مغتبطاً للعزلة الدائمة » .

قال الرأس إيلاس : « وهل وجدت أخيراً السعادة التى تنشده ؟ قل ولا تتحفظ فى الكلام . أراض أنت بحالك الآن ، أم تراك تحن إلى البحث والتجوال من جديد ؟ إن أهل هذا الوادى راضون بنصيبهم جميعاً ، وهم يستقدمون غيرهم كل عام فى زيارة الإمبراطور ليشاركوهم ما هم فيه من سعادة » .

أجاب عملاق : « إليك بالحق الصراح أيها الأمير العظيم . ما من أحد بين أتباعك لا يلعن اليوم الذى دخل فيه هذا المعتكف ، وأنا أقلهم تعاسة ، لأن رأسى يزخر بالصور والأفكار أستعيدها وأقلبها كيفما شئت ، وحين أحس بالوحشة أجدد فى نفسى ما تعلمته فى زمانى وكدت أن أنساه وأستعرض حوادث حياتى الماضية ، ولكن يؤسفنى آخر الأمر أن أذكر أن كل ما تعلمته من عظات قد غدا لا نفع فيه وأن كل ما عرفته من لذات لن يعود ، أما غيرى من أهل هذا الوادى فيعيشون فى الحاضر لا سواه تنخر فيهم الشهوات الخبيثة أو يضرب فى نفوسهم الغيبة فراغ أبدى » .

قال الأمير « وماذا تكون هذه الشهوات عند قوم لا تنافس بينهم على شىء ؟ إننا نحيا هنا حياة يبطل العجز والحقد . . والملاذات فيها ملك للجميع مشاع ، فلا مجال إذن للتحاسد » .

قال عملاق : « قد يكون متاع المادة ملكاً بيتنا مشاعاً ، أما التقدير وأما الحب فلا سبيل إلى امتلاكهما على الشيوع ، فلا بد أن بيتنا من يكتسب رضا الآخرين أكثر من سواه ، ومن يحس بأنه محقر مزدري يحسد الغير على الدوام ، وما يزيد من حسده ونقمته أن يلزم بالحياة بين محقره ومزدره طوال عمره ، وإنك لتراهم يعملون على اجتذاب الغير إلى واديهم برغم إحساسهم بيشاعته ومثل هذا الإغراء لا يصدر إلا من حاقد يعلم أن بؤسه أبدى . إنهم يضيقون بأنفسهم وإن كلا منهم ليضيق بأخيه ، ولذا تراهم يستريحون كلما أقبل عليهم فوج جديد ، فهم ينفسون على الأحرار الحرية التي فقدوها بطيشهم وحماقهم ، وأعذب مناهم أن يروا أهل الأرض طراً سجناء مثلهم يتعذبون .

« أما أنا فبرئ من هذا الذنب ، فما من أحد يستطيع أن يزعم أنني أغريته على ولوج هذا المعتقل ، وإنى لأرثى لحال ذلك الحشد البائس الذى يسعى كل عام إلى الأسر مختاراً ، فليت من حقى أن أحذرهم من هذا المصير المشئوم » .

قال الأمير : « عملاق يا صديقى ، سوف أكشف لك عن طويتي بإخلاص تام . لقد فكرت من قبل طويلاً فى الفرار من الوادى السعيد ، ولقد بحثت فى جباله عن منفذ واحد ، ولكنى وجدت أن أسواره لا تلين ، فأرشدنى إلى وسيلة أفتح بها أبواب سجنى ، ولتكن رفيقى فى فرارى ورائدى فى جولاتى وشريكى فى قسمتى ونصيبي ، والموجه الأوحى لى فى تقرير المصير » .

فأجاب الشاعر : « إن هربك ياسيدى أمر شاق ، ولقد تندم على فضولك بعد حين قليل . أنت تتوهم الدنيا ناعمة هادئة كمياء الغدير فى هذا الوادى ، ولكنك ستجدها بحراً عاصفاً متلاطم الأمواج دواماته تهلك السائحين . ولسوف يغمرك آنأ طوفان العنف ، ولسوف ترتطم آنأ بصخور الغدر ،

ولسوف تذهب نفسك حشرات على هذا المرفأ الهادئ حين ترى ظلم الظالمين
وخداع المخادعين وقلق الحيارى وشقاق المتنافسين ، ولسوف تزهد فى الأمل
لتأمن من الخوف . «

قال الأمير : « لا تحاول أن تثبط من عزمى ، فلهفتى لرؤية ماقد رأيت
عظيمة ، ومادمت أنت تضيق بالوادي فلا جدال أن حياتك الماضية كانت أسعد
من حياتك الحاضرة ، ومهما تكن نتيجة هذه التجربة فقد صح عزمى على أن
أشهد بنفسى أحوال الناس ثم أتدبر أمرى وأقرر مصيرى . «

قال عملاق : « سوف تجد ياسيدى الأمير أن نصحى لك أقل الحواجز
حيلولة دون تحقيق ما تتمنى ، ولكن إذا كنت صادقاً فى عزمك فلا تيأس ،
فما يعز على القدرة والمثابرة إلا أمور قليلة . «

الفصل الثالث عشر

الرأس إيلاس يهتدي إلى وسيلة للفرار

ثم صرف الأمير صفيه ليستريح ، ولكن قصص العجائب التي سمعها بلبلت خواطره ، وأدار برأسه تلك القصص وأعد ما لا يحصى من الأسئلة ليطرحها عليه في الصباح .

وزايله قلقه إلى حد عظيم ، فقد ظفر بصديق يستطيع أن يشركه في خواطره ، صديق له من التجارب ما يستضيء به الأمير لتحقيق رغبته في الفرار ، وخفف ذلك كثيراً من لوعته الصامتة ، وبدأ له أن الوادي السعيد ذاته يمكن احتماله بمعرفة هذا الصديق ، وكانت أقصى آمانيه أن يتمكن من جوب العالم في معيته .

وبعد أيام انطلق الماء من الغار المسدود وجفت الأرض ، وخرج الأمير ومعه عملاق يتريضان ويتبادلان الحديث بعيداً عن عيون الآخرين ، وكان الأمير دائم التفكير في سجنه ، فما إن مرَّ بالباب الحديدي العظيم حتى خاطبه قائلاً مهموماً :

« لم خلقت قوياً ، ولم خلق الإنسان ضعيفاً ؟ »

فأجاب رفيقه : « إن الإنسان لم يخلق ضعيفاً ، بالمعرفة تقهر القوة ، وإن العالم بطبيعة الآلات ليسخر من القوة ، وإنى لأستطيع أن أفتح هذا الباب ، ولكنني أخشى عيون الرقباء ، فلا بد من التفكير في وسيلة أخرى » .

وفيما كانا يمشيان بجوار الجبل لاحظا أن الأرناب التي أخرجها المطر من وجارها قد احتمت بالشجيرات وحفرت لنفسها من خلفها حفراً ترتفع في خط مائل .

قال عملاق : « كان القدماء يرون أن عقل الإنسان قد استرشد في كثير من مبتكراته بسلوك الحيوان ، فلا غضاضة في أن نتعلم عن الأرناب شيئاً ، وقد ننجح في الهرب إذا اخترقنا الجبل في نفس الاتجاه ، ولنبدأ حيث تشرف القمة على المنتصف ، ولنحفر طريقنا في خط مائل إلى أعلى حتى نخرج من وراء القمة » .

- وحين سمع الأمير هذا رأى أضواء عيناه فرحاً ، فقد كان تحقيقه ميسوراً ونجاحه أكيداً ، وبادراً إلى العمل فخفاً مبكرين في الصباح التالي ليختاراً المكان الملائم للتجويف ، وشقاً طريقهما بين الصخور والأعشاب بمشقة مضنية ، ولكنهما رجعا دون أن يوفقا إلي بقعة صالحة ، كذلك كانت الحال في اليوم الثاني وفي اليوم الثالث ، ولكنهما عثرا في اليوم الرابع على كهف صغير مخبئ وراء دغل صغير فقررا قرارهما على اختياره .

وجاء عملاق بالأدوات الصالحة لكسر الأحجار ونقل التراب ، وفي اليوم الذي يليه بدأ العمل بهمة ونشاط لم يديهاها من قبل ، ولكن سرعان ما أرهقهما المجهود فجلسا على الأعشاب يلهثان ، ولاح اليأس في وجه الأمير لحظة فقال له رفيقه :

« سوف نعتاد العمل بالمشابرة ياسيدي ، ولو قد رأيت الشوط الذي قطعناه بدت لك النهاية قريبة لا ريب فيها . إن الأعمال العظمية ليست ثمرة القوة ، بل ثمرة للاجتهاد . إن ذلك القصر قد أقيم بأحجار متفرقة ، ومع ذلك فهو شاهق منيف . وإن من يذهب على السير ثلاث ساعات كل يوم يقطع في سبعة أعوام بعداً يعادل محيط الكرة الأرضية .

وعادا إلى العمل يوماً بعد يوم ، وسرعان ماوجدنا في الصخرة شقاً
أمكنهما أن ينفذا فيه مسافة طويلة بغير عناء كبير ، واستبشر الرأس إيلا من خيراً
بهذا التوفيق ، فقال عملاق : « لا تستسلم للأمال أو للمخاوف ، بل الزم
حدود العقل في انتظارك للأمور ، ومن يتيمن بما يصادفه من دلائل اليسر لابد
أن يتطير لما يصادفه من عسر بعد ذلك ، وتحكمت في حياته الخرافات ، وكل
ما يمهّد لنا السبل ليس مجرد فال بل هو سبب من أسباب النجاح ، وهذا الذي
وجدنا مصادفة سارة تشجّد العزم القوى . وكثير من أمور الحياة يصعب
تصميمه ولكن تنفيذه سهل يسير » .

الفصل الرابع عشر

الرأس إيلاس وعملاق يفاجأن بزيارة غير منتظرة

وبلغا فى سعيهما منتصف الطريق فتعزيا عن كدحهما بدنو تحرهما ،
وفيما كان الأمير يخرج من النفق لاستنشاق الهواء النقى إذا به يجد أخته نكاية
تنتظره عند فم النفق ، فاستفاق لما رأى ثم تبلبلت خواطره وخشى أن يصارحها
بحقيقة الأمر ، ولكنه أحس بأن الكتمان لا يجدى شيئاً وبعد لحظات انتهى
رأيه إلى أن يثق بوفائها فأفضى إليها بكل شيء دون تحفظ ، راجياً منها أن
تصون السر .

قالت الأميرة : « لا تحسب أنى جئت لأتجسس عليك ، فلقد لاحظت
منذ أيام عديدة أنك تسير مع عملاق إلى هذا البقعة بالذات كل يوم ،
وما ظننت إلا أنكما تلتمسان فيئاً رطيباً أو دغلاً عاطراً لا تجدانه فى مكان آخر ،
وما سعت إليكما إلا للتحدث إليكما ، ولكن ما دمت قد وقفت على سركما
مصادفة فأذننا لى أن أنتفع بما وقفت عليه ، وأنا مثلكما قد سئمت الحياة فى هذا
السجن المحصور ، وليست رغبتى فى اختبار شئون الدنيا بأفراحها وأتراحها
بأقل من رغبتكما ، اسمحنا لى أن أهرب معكما من هذا الهدوء الممجوج ،
فلسوف يغدو هذا الهدوء أثقل على فؤادى مما هو الآن بعد أن تمضيا عنى . إن
فى إمكانكما أن تأييا على اصطحابكما ، ولكن ليس فى وسعكما أن تمنعانى
من اقتفاء أثركما » .

وكان الأمير يحب نكايه أكثر من حبه لأخواته الأخريات ويميل إلى إجابتها إلى ما تطلب ، ولقد أسف لأنه لم يدعها مختاراً إلى الاشتراك في مجازفته وقر الرأي على أن تخرج نكايه معهما من الوادي السعيد ، وإلى أن يتيسر لثلاثتهم ذلك اتفقوا على أن تقف الأميرة ديدباناً تراقب القاصدين إلى الجبل .

وأخيراً فرغا من عملهما وشاهدا الضوء من وراء الرابية ، وخرجا إلى قمة الجبل فأبصرا النيل يجرى من تحتها ضيقاً متعرجاً .

وتلفت الأمير حوله فرحان جذلاً ، واشتغل خياله بما سوف يجنيه في أسفاره من متع ، وطارت خواطره فتجاوزت ملك أبيه ، أما عملاق فقد كان برغم سروره بالنجاة أقل من الأمير انتظاراً لمتع الدنيا ، فقد عرفها من قبل وملتها نفسه .

وكانت سعادة الرأس إيلاس بالآفاق الرحبية سعادة عظيمة حقاً ، حتى لقد تعب عملاق في إقناعه بالعودة إلى الوادي ، وأعلن الأمير للأميرة أن الطريق أمامهم مفتوح ، فلم يبق إلا أن يعدوا العدة للرحيل .

الفصل الخامس عشر

الأميرة والأميرة يخرجان من الوادي ويريان عجائب الدنيا

وحمل الأمير والأميرة من الجواهر ما يأتيهما بالمال الكثير كلما هبطا مكاناً فيه اتجار ، وأرشدتهما عملاق إلى تخبئة تلك الجواهر بين طيات ثيابهما .
وليلة اكتمل البدر الثاني خرج ثلاثهم من الوادي ، وكان يتبع الأميرة صفية من صفياتها لم تكن تدرى أين المتجه .

وشقوا طريقهم في الفجوة ثم أنشأوا يهبطون الجانب الآخر من الجبل ، وأجالت الأميرة ووصيفتها البصر في جميع الأرجاء فشاهدتا رحاباً ليس لها منتهى ، ونحالت كل منهما أنها قد ضلت في تيه عقيم ، وتوقفتا عن المسير ترتجفان . وقالت الأميرة :

« إنى أكاد أتوجس شراً من رحلة لا أعلم لها نهاية ، وأشفق من التوغل في هذا السهل العظيم ، فلقد يخرج علينا من جميع الجهات رجال لم أرهم من قبل » .

وكان الأمير يشاركها هذا الشعور ، ولكنه استحيى من إظهاره .

وابتسم عملاق حين رأى جزعهم وذهب يشجعهم على المضي في السير ، ولكن الأميرة مضت في سيرها على غير وعى منها حتى توغلت في السهل توغلاً استحالت بعده العودة .

وفى الصباح رأوا نفراً من الرعاة فى الحقل ، وقدم لهم الرعاة شيئاً من اللبن والفاكهة ، وأدهش الأميرة أنها لم تجد فى انتظارها قصراً يستريحون فيه وخواناً فيه طيبات الحياة يمد أمامهم ، ولكنها أقبلت من فرط جوعها وإعيائها على اللبن فشربته وعلى الفاكهة فأكلتها ، وتوهمت أن ما شربت وما أكلت لا مثيل له فى الوادى السعيد .

ولما كانوا جميعاً من المنعمين المرفهين فقد تقدموا فى رحلتهم على مهل مطمئنين إلى أن أهل الوادى قد يفتقدونهم ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يتعقبوهم ، وبعد أيام بلغوا بقعة أهلة بالسكان ، وسر عملاق ما رآه من إعجاب رفاقه بما رأوه من عادات وأعمال واختلاف بين مراتب الناس .

وكان ملبسهم بسيطاً لا يوحى بأنهم يخفون شيئاً ، ولكن الأمير الذى تعود من الناس الطاعة كان يتظر أن يطيعه كل من يلقاه ، وكذلك ارتاعت الأميرة إذ رأت أن من يمثلون أمامها لا يقبلون الأرض بين يديها ، فكان على عملاق أن يراقب سلوكهما فى حرص عظيم ، خشية أن يهتدى الناس إلى مكانتهما الحقيقية بسبب أعمالهما الشاذة ، وعوقهما فى القرية الأولى جملة أسابيع حتى يألفا معاشرة الأفراد العاديين .

وتعلم الأمير والأميرة شيئاً فشيئاً أن ينسيا مقامهما الرفيع ، وألا ينتظرا من الناس أكثر مما يسمح به الأدب والجود ، وأمكن لعملاق أن يعدهما بنصائحه لاحتمال ما فى الموائى من صخب ولجب وما فطر عليه التجار من خشونة ، وبعد أن نجح فى ذلك هبط بهما ساحل البحر .

وسر الأمير والأميرة بكل ما رأيا ، فقد كان كل شئ عندهما طريفاً ، ولذا أقاما بالميناء بضعة شهور دون أن يبدو عليهما ما يدل على الرغبة فى الانتقال إلى مكان آخر ، وارتاح عملاق لبقائهما فقد كان يجد أن من الخطر الخروج بهما إلى بلاد أجنبية وهما على هذه الحال من السذاجة وقلة التجارب .

وأخيراً بدأ يخاف افتضاح أمرهما ، وحدد لهما موعداً للرحيل ، ولم يشأ أيهما أن يبدى فى الأمر رأياً بل أسلما له قيادهما تماماً ، وكان من ذلك أن حجز لهما مكاناً على ظهر سفينة وجهتها السويس ، ولما حان الموعد المضروب عارضت الأميرة فى ركوب السفينة أشد معارضة ولم ينجح عملاق فى إقناعها باتباع خطته إلا بعد جهد عظيم ، وكانت الرحلة سريعة ومنتجة ، ولما بلغ الأربعة السويس انتقلوا إلى القاهرة براً .

الفصل السادس عشر

الجماعة تدخل القاهرة وتجند جميع أهلها سعداء

وحين اقتربت الجماعة من القاهرة أخذت بها وعجبت لها ، فقال عملاق مخاطباً الأمير : « هنا يلتقى السائحون والتجار من جميع أركان الأرض . هنا تجند أناساً من كل نوع ، وتجند كل صناعة تخطر لعقل إنسان ، والتجار هنا مكرمون ، ولذا فسوف أتخذ هنا صفة التاجر ، أما أنتم فستحيون حياة السائحين الذين لا مأرب لهم إلا استطلاع معالم البلاد ، وسوف يجد الناس بعد قليل أننا من أهل اليسار ، فيطير صيتنا ويتفتح أمامنا كل باب نظرقه ، وعندئذ يتاح لك أن تدرس أحوال البشر جميعاً ، ثم تدبر في روية أمر تقرير مصيرك » .

ودخلوا المدينة فذهلوا لما بها من ضوضاء واحتك بهم أهل المدينة ، وعادت إلى الأمير وإلى الأميرة طبيعتهما الأولى ، فراعهما أن يسيرا بين الخلائق غير محتفل بهما ، وأن يتحدث إليهما أوضاع الناس شأناً دون احتشاد ، وضائق الأميرة أول الأمر بأن تسوى بسفلة القوة فلزمت غرفتها بضعة أيام لا تبرحها ، وكانت وصيفتها المختارة تسهر على خدمتها كما كانت تفعل في قصر الوادي السعيد .

وكان عملاق ملماً بأساليب التجارة فباع بعض الحلوى في اليوم التالي ، واستأجر داراً أجمل زينة فعده الناس من سراة التجار ، واجتذبت إليه كثيراً من الأخدان ، واجتذب كرمه إليه كثيراً من التابعين ، وعلى مائدته اجتمع أناس

من جميع شعوب الأرض ، وقد أعجب هؤلاء بعلمه الواسع وسعوا إلى التقرب منه ، أما رفقاؤه فقد استحال عليهم الاشتراك في الحديث ، فلم يفتضح جهلهم ، ولم يقف أحد على ما استولى عليهم من عجب ، وهكذا تعرفوا على شئون الدنيا شيئاً فشيئاً كلما ازداد إلمامهم باللغة الجديدة .

وعلم عملاق الأمير منافع المال وطبيعته في أحاديث عدة كان يلقيها عليه ، ولكن السيدتين أبتا طويلاً أن تفهما تبادل التجار للقطع الذهبية الصغيرة والقطع الفضية الصغيرة ، كما استعصى عليهما أن تدركا كيف اتفق لهذه الأشياء التي لا نفع فيها أن تسوى بضرورات الحياة .

ودرسوا اللغة عامين ، وكان عملاق في تلك الأثناء يهيئ لهم السبيل إلى دراسة أحوال الناس من مختلف الطبقات ، وتعرف على كل من شذ مسلكتهم ، وكل من اختلف حظوظهم عن حظوظ الناس ، وتردد على المستهترين والمقتصدين وعلى الكسالى والمجدين وعلى التجار وأهل العلم .

وبعد أن أتقن الأمير اللغة وتعلم الحذر الضروري في مخالطة الغرباء بدأ يصطحب عملاقاً إلى أماكن الترفيه ويندمج في كل مجتمع لعله بذلك يهتدى إلى ما يناسبه في الحياة .

وبدا له جميع الناس أول الأمر في درجة واحدة من السعادة ، فلم يجد ضرورة لتفضيل بعضهم على بعضهم الآخر ، وأينما حل كان يرى البشر يغمر النفوس ، وأينما ذهب كان يقابل بالعطف ، وأينما قصد كان يسمع أغاني الفرح وضحكات الخلى الذى لا يعرف الأحزان ، فظن أن الدنيا تفيض بالخير وأن الناس يقضون للمحتاج حاجته ويوفون للقدير قدره ، وأن الكرم من شيم الأنام ، وأن أفئدة العالمين تذوب رقة وحناناً ، فقال :

« إذا كان هذا حال الدنيا فليس لبائس أن ييتس » .

ولكن عملاقاً ترك الأمير لأوهامه ، ولم يشأ أن يملأ نفسه الساذجة ظلاماً ،
وكان يوم ساد فيه الصمت بينهما فقال الأمير :

« لست أدري ما يجعلنى أقل سعادة من سائر الناس . إنى لأرى البشر
يفيض على وجوههم دائماً أبداً ، وأرانى مضطرب البال قلق النفس . إن
أسباب اللهو التى أنتهبها انتهاباً لا ترضينى ، وأنا أختلط بهذا الجمع اللاهى
لا حباً فى لهوه بل هرباً من نفسى ، وما مرحى وصخبى إلا لإخفاء أحزانى » .

قال عملاق : « إن لكل إنسان أن يقف على ما يدور بأذهان الآخرين إذا
هو استعرض ما يدور بذهنه ، وحين تحس بأن مرحك مفتعل فمن حقك أن
تشك فى مرح خلانك ، والتحاسد لا شك متبادل ، وهكذا تمضى سنون
وسنون قبل أن ندرك أن السعادة لا وجود لها ، ولكن كلا منا يحسبها من
صفات الآخرين ، ليحيا بقوة الأمل فى أن ينالها لنفسه يوماً من الأيام . ولقد
رأيت فى سهرة الأمس جواً من النشوة عظيماً وإنطلاقاً فى خيال السامرين
لا نجده إلا فى طبيعة الملائكة الذين يسكنون السبع الطباق الصافيات بمنجى من
الهموم والفجائع ولكن صدقنى أيها الأمير ، ما بين خلانك واحد لم يكن
يرهب اللحظة التى يخلو فيها إلى نفسه فتسلمه الوحشة إلى عذاب التفكير » .

قال الأمير : « قد يصدق هذا عن الغير مادام يصدق عنى ، ولكن مهما
يكن شقاء البشر عميقاً فلا شك أن شقاءهم يتفاوت ، والحكمة تلزمنا بأن
نختار من مسالك الدنيا أقلها شقاء حين نعتزم توجيه حياتنا » .

فأجاب عملاق : « إن أسباب الخير والشر تتباين ويصعب تقديرها إلى حد
عظيم ، وهى كثيراً ما تختلط وكثيراً ما تتشعب وكثيراً ما تخضع للمصادفات
التي لا سبيل إلى التكهّن بها ، فمن أراد أن يبنى سعادته على ظروف ثابتة
ومقدمات لا يرقى إليها الشك فعليه إذاً أن يقضى العمر كله باحثاً متدبراً » .

قال الرأس إيلاس : « ولكن بلا جدال فى أن عقلاء الناس الذين نستمع إلى حديثهم فى رهبة وخشوع ما اختاروا سبلهم فى الحياة إلا لظنهم بأنها تهديهم إلى السعادة أكثر مما يهديهم سواها » .

قال الشاعر : « إن من يملكون الاختيار فى الحياة هم الأقلون ، وكل امرئ قد وضعته فى موضعه القائم ظروف لا دخل له فى تفاعلها ولا سلطان له عليه ، وهذا ما يدفع كل امرئ إلى الاعتقاد بأن حظه أبأس من حظ الآخرين .

قال الأمير : « مهما يكن من شىء فإننى أشكر مولدى الذى هباً لى ما لا يملكه غيرى ، أعنى القدرة على اختيار سبيلى فى الحياة ، فالدنيا أمامى أستعرضها على مهل ، وأعتقد أنى واجد السعادة فى مكان ما » .

الفصل السابع عشر

الأمير يصادق فتیان اللهو والصبوات

واستيقظ الرأس إيلاس فى الصباح التالى ، واعتزم أن يبدأ تجاربه على الحياة . قال « إن الشباب عهد المرح ، فخليق بى أن أصطفى من الخلان من كانوا ينقطعون لانتهاج اللذات ، ويقضون كل أوان فى استنباط المسرات » .

وتردد على مجتمعات الشباب فأكرموا وفادته ، ولكنه انسحب منها بعد أيام ، مشمئز النفس متعب الأعصاب ، فقد وجد أن أفراحهم خالية من الخيال ، ومرحهم مفتعل مصطنع ، ولذاتهم غليظة حسية لا مقام للعقل فيها ، وسلوكهم جنونى وضيع ، وكانوا يهزءون من القانون ومن النظام ، ولكن غضب الولاة أخرسهم وحكمة العقلاء أخجلتهم .

وسرعان ما أدرك الأمير أنه لن يجد السعادة فى حياة يستحى منها ، ورأى أن أهل الرشدا لا يليق بهم أن يعيشوا بلا نهج ولا خطة ، وأن يتوقف شقاؤهم أو سعادتهم على محض المصادفة . وفى ذلك قال :

« إن السعادة ينبغى أن تكون ثابتة ودائمة لا يبطلها الخوف ولا تهددها الشكوك » .

ولكن صراحة خلانه وأدبهم وقعا فى نفسه موقعا حسنا ، فلم يشأ أن ينشق عليهم دون أن يسدى إليهم النصيح .

قال : « لقد تدبرت أسلوبنا وأهدافنا فى الحياة ، فوجدت أننا قد أخطأنا السبيل ، فالسنوات الأولى من عمر الإنسان ينبغى أن تكون ذخيرة لمستقبله .

ومن لا يفكر بتاتاً تمتنع عليه الحكمة ، واللهو المتصل لا بد يفضى إلى الجهالة ، والإفراط قد يلهب النفس ساعة ولكنه يقتضب العمر ويشقيه ، فلنقتنع بأن الشباب قصير الأجل ، وأنا لن نجد عزاء إلا فى تقدير العقلاء ، ولن نجد راحة إلا فى فعل الخير حين نبلغ سن النضوج .

حين تنفض من حولنا عرائس الخيال وتفرغ أطياف السعادة عن رقصها حولنا ، فلنكف إذاً قبل أن نعجز عن الكف ، ولنحى حياة الفنانين الذين كتبت عليهم الشيخوخة ، فما يفرع المرء فى شيخوخته إلا أن يحصى أعوام عمره بالحقايات ، ويذكر صحته الغالية كيف أفتتها العريضة وسوء التقدير .

وحين فرغ الأمير من مقاله شخصت إليه أبصار السامعين ، ثم انفجروا ضاحكين مستهزئين فانصرف لحال سبيله .

وحزَّ فى نفسه استخفافهم به ، ولم يسر عنه إحساسه بصدق نظره ونبالة مقصده ، ولكنه استعاد هدوءه أخيراً ، ومضى فى بحثه عن السعادة .

الفصل الثامن عشر

الأمير يعثر على رجل حكيم سعيد

وفيما كان الأمير يسعى فى الشارع ذات يوم أبصر بناء رحيبا أبوابه مفتوحة للجميع ، ودخل مع الداخلين فآلفى نفسه وسط قاعة للمحاضرات أو مدرسة من مدارس الإلقاء ، وفيها رأى الأساتذة يقرءون على السامعين بحوثهم . وشخص بصره إلى حكيم كان يجلس فى أعلى مكان بين الحكماء ، وكان ذلك الحكيم يخطب الناس فى حرارة عن ضبط النفس ، وكان مظهره يوحى بالاحترام وإشاراته لطيفة الوقع وصوته واضحا وأداؤه يؤثر فى السامعين . ودلل الحكيم ببيانه القوى وأمثاله المتعددة على أن الطبيعة الإنسانية تنحط حين تسيطر الملكات الدنيا على الملكات العليا ، وكذلك دلل على أن الخيال إذا اغتصب من العقل سلطانه انهارت دولة النفس واضطرب أمرها ، كما تنهار الدولة حين تسلط عليها حكومة غير شرعية ، فالوهم يفتح حصون الفكر أمام العصاة الغزاة وينشر بين بنيهِ التمرد على الرشد ، وهو سيدها الشرعى .

وشبه الحكيم العقل بالشمس ، فضياء الشمس ثابت دائم واحد ، وشبه الخيال بالشهاب الساقط فهو قوى الوهج زائله ، سريع الحركة ولكنه مضطربها ، وهو يضل الناظرين .

ومن ثم انتقل الحكيم إلى المبادئ التى تناقلها الخلف عن السلف لقهر العاطفة ، وبين السعادة التى ينعم بها أولئك الذين انتصروا على شهواتهم ،

فهم يتحررون من الخوف ولا ينخدعون بكاذب الآمال ، ولا الحسد يأكلهم ولا الغضب يتلفهم ولا الحنان يذيبهم ولا الحزن يؤسسيهم ، بل يسعون في الحياة هادئين أمام زعازعها كما تسعى الشمس في مسلكها لا يستوقفها جو عاصف ولا جو مطير .

وضرب لهم مثل الأبطال الذين لا يهتزون أمام المحن ؛ ولا يضطربون أمام اللذات ، بل ينظرون مستخفين إلى تلك الأعراض الزائلة التي يسميها السوق بالخير والشر ، وحض الحكيم سامعيه على نبذ أحكامهم التي لا يدعمها منطق ولا حجة ، وأن يتسلحوا بدرع الصبر القوي ليحميهم درع الصبر من سهام الحاقدين ومن ضربات القدر ، وختم خطابه بقوله إن من بلغ هذه المرتبة فقد بلغ السعادة ، وإن هذه السعادة في تناول كل إنسان .

واستمع الرأس إيلاس إلى مقالته باحتشاد يليق بذلك العالم الجليل ، وانتظره عند الباب ورجاه في خشوع أن يأذن له بلاقائه ليتزود من حكمته النادرة . وتردد الحكيم وقتاً ما ، فوضع الرأس إيلاس في يده كيساً مملوءاً بالدنانير الذهبية ، فاستقبل الحكيم هذه المنحة بمزيج من الفرح والعجب .

ولما عاد الأمير إلى عملاق قال له : « لقد وجدت رجلاً يعلم الناس كل ما يلزمهم أن يتعلموه في الحياة ، رجلاً يجلس على عرش من الحكمة وطيداً هازئاً بما يجري تحت قدميه من تقلبات في ميدان الحياة ، رجلاً يتكلم فكلامه مثال الدقة في التعبير والإخلاص في التفكير ، ولسوف أتخذ من هذا الرجل رائدي ، فأتعلم فلسفته وأتشبه به في كل ما أعمل » .

فأجاب عملاق : « تريث ولا تثق بمعلمي الفضائل هذه الثقة العمياء ، فحديثهم من حديث الملائكة وفعالهم من فعال البشر » .

وكان الرأس إيلاس لا يتصور أن رجلاً يستطيع أن يستخدم كل هذه الحجج الدامغة دون أن تتأثر نفسه بسلامة منطقته ، ولذا فقد زاره بعد أيام ولكن لم يؤذن له بالدخول .

وكان قد عرف ما للمال من قوة سحرية فأبرز قطعة ذهبية فتحت له الطريق إلى داخلية المنزل ، وإذا به يرى الفيلسوف قابعاً فى غرفة لاهى مضاءه ولا هى مظلمة ، وقد أغرورقت عيناه بالدموع وشحب وجهه ، وسمعه يقول : « لقد جئت ياسيدى فى وقت لا ينفع فيه عطف ولا إحاء ، فأوجاعى لا شفاء لها ، وما ضاع لا سبيل إلى تعويضه . إن ابنتى الوحيدة التى كانت تحنو على فى شيخوختى ، قد ماتت بالحمى ليلة أمس . لقد تحطمت آمالى وانهارت أركان فلسفتى وانقضى أملى فى الحياة ، فأنا الآن وحيد أعيش بمعزل عن الناس » .

قال الأمير : « إن الموت ياسيدى ظاهرة لا تدهش العقلاء ، فالموت كما نعلم قريب منا فى كل لحظة ، ولهذا ينبغى علينا أن ننتظر وقوعه » .
فأجاب الفيلسوف : « أيها الفتى ، إن حديثك حديث من لم يجرب آلام الفراق » .

قال الرأس إيلاس : « وهل نسيت تعاليمك التى كنت تدافع عنها بحرارة عظمى ؟ أما قلت إن الحكمة درع تقى القلب سهام الخطوب ؟ فلتتذكر أن التغير من طبيعة المادة ، ولتتذكر أن الحق وحده هو الثابت ، وأن العقل وحده هو الوطيد » .

قال الحكيم المفجوع : « وأى عزاء أجده فى الحق والعقل يا ترى ؟ إن الحق والعقل يقولان بأن ابنتى لن تعود إلى » .

وأبت على الأمير رقة فؤاده أن يؤذى الحكيم البائس بتأنيبه فى بأساته ، فانصرف عنه مقتنعاً بأن البلاغة جوفاء كالطبول ، وبأن العبارات المنمقة لا تعبر عن الحقيقة تعبيراً أميناً .

الفصل التاسع عشر

لمحة خاطفة عن حياة الرعاة

وكان حرصه على تقصى مواقع السعادة لا يزال يلزمه ، وسمع بزاهد يقيم عند أول شلال من شلالات النيل ، زاهد ذاع صيته فى جميع أرجاء البلاد ، وتحدث الناس بصلاحه فاعتزم أن يزوره فى صومعته ليرى إذا كانت حياة الوحدة تأتبه بالسعادة التى ضنت بها عليه حياة الحضر ، وليلتبس عند ذلك الشيخ الوقور بتقواه علما يدرأ به الشرور أو يحتلمها كلما حلت به .

وقبل عملاق والأميرة أن يرافقه فى رحلته ، ثم بدءوا الرحلة بعد الإعداد اللازم ، ومروا بالحقول فوجدوا فيها الرعاة يهشون على أغنامهم ، ورأوا الحملان تلعب فى المرعى .

قال الشاعر : « هذه حياة الرعاة التى طالما تغنى القدماء بهدوئها وبراءتها ، فلنطلب الحمى من قيظ النهار فى خيمة من خيام الرعاة ، ولنبحث عن السعادة بين المراعى الساذجة فلعلنا نجدها هناك » .

وارتاح الرأس لإلاس إلى هذا رأى ، واستدرج الرجلان الرعاة إلى وصف حياتهم على حقيقتها ، بعد أن أغرياهم بيدر المال ، ولكن الرعاة كانوا غلاظاً أفظاظاً جهالاً لا يحسنون التمييز بين مزايا حياتهم ومساوئها ، ولا يجيدون الوصف ولا التعبير ، فلم يأخذا عنهم شيئاً يعول عليه ، ولكنهما استخلصا أن قلوبهم كانت تفيض بمر الشكوى ، وأدركا أنهم يعتقدون بأن

الرعاة جماعة قضى عليها بأن تكدح ليصيب الأثرياء الترف الذى يشتهون ،
فهم ناقدون على كل من ارتفعوا فى الحياة عليهم مكانة وجاهاً .

وقالت الأميرة محتدة بأنها لا ترضى بالبقاء بين أولئك الهمج الحاقدين ،
وأنها تؤثر ألا ترى وجهاً آخر من وجوه تلك السعادة الريفية ، ولكنها كانت
لا تزال تؤمن بأن بعض ما سمعته عن لذة الحياة الساذجة ليس من عمل الأساطير ،
وبقى لها شىء من إيمانها بأن السعادة الوادعة بين الحقول والغابات لا تضارعها
سعادة ، وأعربت عن أملها فى أن تزور الريف فى وقت ما بين نخبة من أهل
الذوق والفضل ، فتقطف من الأزهار ما زرعه يداها ، وتلاعب الحملان التى
تلدها شاتها ، وتستمع خلية البال بين الجداول والنسمات إلى وصيفة من
وصيفاتها تقرأ كتاباً فى الأشجار .

الفصل العشرون

مساوى الثراء

واستأنف الثلاثة رحلتهم فى اليوم التالى حتى ألزمهم الحر أن يبحثوا عن مأوى ، وعلى بعد قليل رأوا غابة صغيرة ، وما أن ولجوا الغابة حتى أدركوا أنهم يقتربون من بعض المساكن ، وكانت الشجيرات قد اجتثت بعناية حتى تفسح الطريق أمام المارة ، أما الأغصان المتقابلة فقد كانت تتشابك بترتيب من يد الإنسان لا بفعل الطبيعة ، وفى كل فراغ أقيمت أرائك من حشيش مبسوط نمت به الأزهار ، وجرى نهر متعرجاً بحذاء طريق متعرج وكانت فى ضفتيه فتحات تصب فى أحواض صغيرة ، أما مجراه فقد كانت تعترضه أكوام من الأحجار صغيرة وضعت فيه ليزداد بها الخير .

واخترقوا الغابة على مهل وقد سرهم ما صادفوا من أسباب الترف والتنميق على غير انتظار ، ومضوا يتكهنون بهوية ذلك السيد المفتن الذى وجد فى وقته متسعاً لهذا الترف والتنميق .

وتقدموا فى سيرهم فسمعوا أنغاماً ورأوا فتیاناً وعذارى يرقصون فى الغابة ، وتوغلوا فى سيرهم فشاهدوا قصرأ منيفاً مشيداً على تل وبالقصر تحيط الأدغال ، ودخلوا القصر تبعاً لحقوق الضيافة عند أهل الشرق فاستقبلهم رب القصر بالبشر والترحاب .

وكان ذلك السيد ذا عين فاحصة فقرأ فى مظهرهم ما دله على أنهم ليسوا من عامة الناس فأقام لهم مأدبة عظيمة ، واسترعى انتباهه فصاحة عملاق ، أما أدب الأميرة الذى ينطق بالنبالة فقد استحق منه الاحترام .

ولما رغبوا فى الرحيل رجاهم فى البقاء ، وكان تشبه بهم فى اليوم التالى أكثر من تشبه بهم فى اليوم الأول ، وقبلوا دعوته شاكرين ، وبمضى الأيام زالت الحواجز بينهم وحلت محلها الثقة والحرية .

ورأى الأمير الخدم فى أسعد حال والطبيعة حوله فى أبهج حلة ، فداعبه الأمل فى أن يجد ضالته فى ذلك المكان ، وهنا الأمير رب القصر على السعادة الغامرة التى يعيش فيها ، ولكن رب القصر قال مبتسماً : « إن عندى من مظاهر السعادة شيئاً عظيماً ولكن المظاهر مضللة ، فثرائى العظيم يعرض حياتى للخطر ، وباشا مصر يحنقه أن يرى فى هذا الجاه كما يحنقه أن يرى قلوب الناس متعلقة بى ، ولقد حمانى من غدره حتى الآن أمراء البلاد ، ولكن عطف العظماء لا يعول عليه دائماً ، ولست أدري متى يغرى الباشا حماتى بالاشتراك فى نهى ، ولقد أرسلت كنوزى إلى بلاد بعيدة ولسوف أبادر إلى اللحاق بها حين أرى ما ينذر بالخطر ، وعندئذ سوف يتمتع أعدائى بقصرى وحدائقى » .

وأقبل الجميع على السيد يواسونه فى حاله ويأسفون لما هو فيه من نفى متصل ، وقد بلغ من ألم الأميرة وغضبها أنها انسحبت إلى جناحها .

وأقاموا فى ضيافة هذا السيد الجواد أياماً أخرى ، ثم رحلوا عنه بحثاً عن الزاهد .

الفصل الحادى والعشرون

الوحدة وسعادتها : قصة الزاهد

وفى اليوم الثالث دلّهم الفلاحون على صومعة الزاهد ، فإذا بها كهف فى جبل تظله أشجار النخيل ، وكان الكهف على بعد من الشلال عظيم ، فلم يصله من هديره الصاخب إلا خريز رقيق منتظم يهدئ النفس ويعبّدها للتأمل العميق ، وكانت عذوبة الخريز تزداد كلما صفرت الريح بين الأغصان وقد أدخلت يد الإنسان على هذا الكهف من الإصلاح ما أحال تلك الفجوة الخشنة إلى معتكف به حجرات كثيرة ، تستخدم فى مختلف الأمور ويحط فيها الرحال من حين لآخر ، كلما أدركهم ظلام الليل أو عصفت بهم الأنواء .

وكان الزاهد يجلس على أريكة عند الباب ليستمتع بنسيم الماء ، وكان بجواره الأقلام والقراطيس وإلى جانبه الآخر أدوات آلية من مختلف الأنواع . واقتربوا منه فلم يحس باقترابهم وقرأت الأميرة فى وجهه ما يدل على أنه لا يدرى عن السعادة شيئاً .

وحيوه باحترام عظيم فرد عليهم رد من ألف آداب البلاط . قال : « يابنى إذا كنتم قد ضللتكم الطريق فسوف تجدون فى هذا الكهف منزلاً تأوون فيه سواد الليل ، وإن لدى ضرورات الحياة جميعاً ، أما الكماليات فلا أحسبكم تتوقعون أن تجدوها فى صومعة ناسك » .

وشكروه ثم دخلوا ، وراقهم ما رأوه حولهم من حسن الترتيب وجاءهم الناسك باللحم والنبيد ، ولكنه ما أكل إلا الفاكهة وما شرب إلا الماء ، وكان حديثه مرحاً ولكن فى حدود الوقار ، ورعاً ولكن دون حماسة شديد . وسرعان ما ألزم أضيافه باحترامه وقد أسفت الأميرة على تعجلها فى الحكم عليه .

وأخيراً انتقل عملاق إلى الموضوع فقال : « هذا يفسر كيف ذاع صيتك فى العالمين ، ولقد سمعنا بحكمتك فى القاهرة فقصدناك راجين أن تدل هذا الفتى وهذه الفتاة على أسعد سبيل يسلكانه فى الحياة » .

فأجاب الناسك : « إن السعادة من نصيب الأخيار ، وما عندي من رأى فى هذا الشأن إلا التنكب عن كل ما يتوسم فيه الإنسان شراً » .

قال الأمير : « إن من يتبع مثلك فينزوى عن الناس تماماً يتنكب طريق الشر ما فى ذلك شك » .

قال الزاهد : « لقد اعتزلت الدنيا خمسة عشر عاماً حقاً ، ولكنى لا أرجو أن يقتفى الناس أثرى فيما فعلت ، ففى شبابى كنت من رجال الجيش وبلغت أعلى المناصب العسكرية ، وقد اجتزت البلدان الواسعة على رأس أجنادى ورأيت من المعارك وحصار المدن عدداً عظيماً ، ووجدت أن الدنيا مليئة بالبؤس والتشاحن وأسباب الغواية ، ثم اتفق أن ضابطاً صغيراً تخطانى فى الترقية فسئمت نفسى الحياة العامة ، ووجدت أن قوتي الأولى قد أنشأت تتدهور فرأيت أن أختم حياتى ختاماً هادئاً بعيداً عن ضجيج الناس ، وذكرت يومئذ أنى قد اعتصمت ذات مرة بهذا الكهف من عدو يطاردنى ، فاخترته نفسى ليكون معتزلى الأخير ، وقد جئت بالصناع ليقسموه إلى غرف وكدست فيه كل ما رأيت أنى سأحتاج إليه .

« وكنت فى الأيام الأولى من اعتكافى أنعم بوحديثى كما ينعم الملاح بالمرفأ بعد أن تقسو عليه الزعازع ، ووجدت فى سكونى وراحتى ما شفانى

من ضجيج الحروب ووعثائها ، فلما زالت لذة الحياة الجديدة انصرفت إلى دراسة ما ينبت في الوادي من أشجار وتحليل ما جمعته من معادن لاصقة بالصخور ، ولكنني أضيق الآن بكل هذا ، وقد استبد بي القلق وشروذ العقل في الأيام الأخيرة ، وبلبلت الحيرة وجداني ، وسممت الشكوك والأوهام خيالي ، وما ذلك إلا لأنني لا أجد ما أكسر به ملل هذه الحياة الرتيبة ، ويخجلني أحيانا أن أذكر أنني ما وجدت سبيلا إلى اتقاء الشر إلا الفرار من أداء الفضيلة ، ويخيل إلي أحيانا أن ما دفعني إلى الاعتكاف ليس التقوى ، بل الغضب لما نزل بي من إجحاف . وفي نفسي تثور الخواطر الهائجة ، ويؤسفني أنني باعتكافي قد أشعت الكثير وما جنيت إلا القليل ، وإذا كنت بفراري من المجتمع قد أمنت غواية الأشرار فأنا به قد فقدت هداية الأخيار ، ولقد وازنت طويلا بين مزايا المجتمع ومضاره وقد صح عزمي على العودة إلى الدنيا غداً والمعتزل لا شك في شفائه ، أما ورعه فليس يعلو على الشك » .

واستمعوا إلى مقالهِ عاجبين ، ولكنهم بعد أن أفاقوا عرضوا عليه أن يصحبهم إلى القاهرة ، فاستخرج كنزاً عظيماً كان قد أخفاه بين الصخور ، وعاد معهم إلى المدينة ، فلما أشرفوا عليها التهمها الناسك الجذلان ببصره التهاماً .

الفصل الثانى والعشرون

سعادة الحياة المتمشية مع الطبيعة

وأخذ الرأس إيلاس يتردد على مجمع من مجامع العلماء يلتقى فيه رجال الفكر في أوقات منتظمة ليتبادلوا الآراء ، وكانت أساليبهم خشنة بعض الشيء ولكن حديثهم كان نافعاً وجدلهم كان قوياً وإن بلغ حد الاحتداد المرذول أحياناً ، وتشعب حتى ينسى المتنافسان مبدأ المناقشة ، وكان أكثرهم يشتركون فى بعض النقائض ، فيحاول كل منهم أن يملى على الآخرين رأيه ويسرّ كل منهم للغض من قيمة زملائه .

وكان الرأس إيلاس يقص على أعضاء هذا المجمع ما كان بينه وبين الناسك ، ويروى لهم كيف أنه عجب إذ سمع ذلك الناقد يؤنب نفسه على اختياره حياة الزهد برضاء . واستقبل السامعون قصته استقبالا متفاوتاً ، فمنهم من رأى أن الحماسة التى أبدأها فى ذلك الاختيار قد نالت قصاصها الحق بما لقيه الناسك من وحشة متصلة ، ومنهم من وصف الناسك بأنه منافق فيما فعل ودافع عن هذا الرأى أحر دفاع ، ومنهم من انتقل إلى الحديث عن حق المجتمع على الأفراد وحق المجتمع فى عمل الأفراد وعدوا اعتزال الحياة فراراً من الواجب ، وقال آخرون إن من حق الإنسان فى ظروف معينة أن ينسحب من الحياة بعد الوفاء بالتزاماته نحو الجماعة لكى يحاسب نفسه على ما قدمت ، ولكى يطهر ضميره من أدران الرذيلة .

وكان بينهم رجل تأثر لما سمع أكثر من سواه ، وقال إن الناسك سوف يعود بعد أعوام إلى معتكفه ، فإذا لم يرده الخجل أو يعترض الموت خطاه فقد يخرج إلى الحياة مرة أخرى ، وأيد هذا الرأي بقوله : « ذلك لأن أمل الإنسان في السعادة متأصل في نفسه فأطول التجارب لا تمحوه . ونحن نحس بالشقاء في حالتنا الراهنة ولا سبيل إلى إنكار ذلك ، ولكن هذه الحالة ذاتها حين تصبح جزءاً من الماضي البعيد يلونها الخيال بأبهج الألوان فتسمنى لو تعود ، ولكن لا جدال في أننا سنبرأ يوماً من عذاب الأمانى ، وهكذا يزول الشقاء الذى نفرضه على أنفسنا فرضاً .

وكان بين الحاضرين فيلسوف يستمع إلى كلامه بصبر نافذ ، فما إن فرغ الرجل من مقاله حتى أجاب :

« لقد برأ الحكماء فعلاً من عذاب الأمانى ، ولقد زال الشقاء الذى تعرضه على أنفسنا فرضاً . وإن السعى وراء السعادة التى طرحتها الطبيعة ذات السماحة بين أيدينا لمن عمل الكسالى المتبطلين ، فطريق السعادة هو اتباع الطبيعة وفى طاعة ذلك القانون الكلى الثابت الذى نقشته يد القدر على كل قلب ، ولم تكتبه على كل قلب يد الإنسان ، ذلك القانون الكلى الثابت الذى ألهمناه بالفطرة ولم نكتسبه بالتعلم . إن من يستهدف الطبيعة فى كل ما يفعل لا تزعجه أوهام الأمل أو تباريح الرغبة ، فرضاه وإعراضه يأتیان عن نفس هادئة ، وأفعاله وإحساسه تكون بما يمليه العقل ، ولقد يتلهى بعض الفلاسفة بإيجاد التعاريف الدقيقة للسعادة والتفسيرات المنطقية المعقدة لدلولها ، ولكن الحكمة لا تحتاج إلى كل هذه الحذقة ، فليدرسوا غزال الغاب وطيور الدغل ، وليتدبروا حياة الحيوان الذى تتحكم غرائزه فى كل حركة يتحركها . الحيوان يتبع رائده ، ورائد الحيوان طبيعته ، وسعادة الحيوان أعظم من سعادة الإنسان فالنقص القول ولنتعلم كيف نعيش . فلنطرح تعاليمنا الثقيلة جانباً ، تلك

التعاليم التي لا يفهم معناها أكثر الناس طنطنة بها ، ولنحمل في أفئدتنا المثل البسيط الواضح القائل بأن البعد عن الطبيعة بعد عن السعادة « ولما فرغ من كلامه تلفت حوله مطمئنا وارتاح لما ألقاه من درر . وقال الأمير في تواضع جم :

« لقد انصرفت إلى تتبع حديثك بكل جوارحي لأنني أبحث عن السعادة شأن غيري من الناس ، ولست أرتاب في صدق هذه الأقوال التي جاءت من عالم مثلك مفضال في لغة مشربة باليقين ، ولكنني أطلب إليك أمرا واحدا ، ألا وهو أن تهديني إلى الحياة التي تمشي مع الطبيعة » .

قال الفيلسوف : « أنا لا أضن بعلم على فتى في مثل وداعتك وتواضعك . الحياة التي تمشي مع الطبيعة هي الحياة التي يعمل فيها الإنسان دائما تبعا لما تميله العلاقات القائمة بين الأسباب والنتائج ، وتبعا لما تتصف به هذه الأسباب وهذه النتائج من خواص ، وهي الحياة التي يتم فيها الانسجام مع ذلك القانون السرمدي العظيم قانون السعادة الكلية ، وهي الحياة التي تنحو إلى التعاون مع الصفات والاتجاهات الخاصة التي تتميز بها الأشياء في وضعها الراهن » .

وسرعان ما أدرك الأمير أنه يصغى إلى حكيم كلما أطال القول تعذر فهمه ، ولذا أحنى رأسه ولاذ بالصمت ، وحسب الفيلسوف أن صمته أمانة الاقتناع ، وخال أنه انتصر على الحاضرين انتصارا ميينا ، فنهض وخرج من القاعة خروج رجل قد تعاون مع الصفات والاتجاهات الخاصة التي تتميز بها الأشياء في وضعها الراهن .

الفصل الثالث والعشرون

الأمير والأميرة يشتركان في دراسة الحياة

وعاد الرأس إيلاس إلى داره غارقاً في بحار التفكير لا يدري كيف يوجه حياته المستقبلية ، فقد رأى أن الحكماء والبسطاء يستوون في جهلهم بطريق السعادة ، ولكنه تعزى عن خيبة أمله بحداثه سنه ، وزعم أن أمامه متسعاً من الوقت يبحث فيه وينقب .

وأعرب لعملاق عن ملاحظاته وشكوكه ، ولكن إجابة عملاق زادته شكاً على شك ، وبعدئذ تحدث إلى أخته بأكثر وبأصرح مما تعود أن يتحدث ، فقد كانت أخته لا تزال مثله على أملها في استكشاف السعادة ، وكانت لا تعدم قولاً تشجعه به على المضي في بحثه كلما أصاب فشلاً وفي ذلك قالت :

« إننا لم نختبر من الدنيا إلا أقلها ، ونحن لا نزال من أوساط الناس ، فما ارتفعنا حتى الآن إلى مقام العظماء ولا انحططنا إلى سفلة القوم ، فقد كنا في بلادنا من البيت المالك ولكن بلا سلطان ، أما في هذه البلاد فنحن لم ننفذ بعد إلى خبايا الأسر لنرى ما تعيش فيه من سلام . إن عملاقاً لا يشجعنا على البحث مخافة أن نكشف له في النهاية عن خطئه ، فلنشارك إذاً في الاستقصاء ، ولتفرد أنت بدراسة حياة الأشراف ، ولأنفرد أنا بدراسة الطبقات الأخرى ، فلعل السلطة والبأس هما مصدر السعادة لما يهيئانه للناس من فرص لفعل الخير ، أو لعل التوسط والاعتدال هما مصدر السعادة لأنهما بعيدان عن الأعمال الجسام ومتاعبها من ناحية ، وعن الفقر وآلامه من ناحية أخرى » .

الفصل الرابع والعشرون

الأمير يبحث عن السعادة بين الطبقات العليا

وأظهر الرأس إيلاس رضاه عن هذا الرأي ، وفي اليوم التالي قصد إلى بلاط الباشا في حاشية عظيمة ، وسرعان ما تبين علو قدره فقدموه إلى الباشا وأعوانه العظام على أنه أمير جاء به حبه للاستطلاع من أقطار بعيدة ، وتوثقت بينه وبينهم أواصر الصداقة .

وظن أولاً أن رجلاً يقدم له جميع الناس فروض الطاعة والاحترام . رجلاً تسمع كلمته في طول البلاد وعرضها ، لا بد أن يكون راضياً بحاله وفي ذلك قال :

« إن سعادة الحاكم الذي يحس بأن حكمه الصالح قد أسعد آلاف الناس لسعادة لا تعدلها سعادة ، ولكن قبل هذه السعادة الفذة التي يختص بها رجل واحد لا أكثر بحكم النظام الاجتماعي الذي يقوم على أساس الطاعة والرياسة ، فمن الأرجح أن هناك نوعاً آخر من السعادة قد يشترك فيه عدد من الناس عظيم ، والعقل يقول بأن من المحال أن يخضع الملايين لفرد واحد لا شيء إلا لكي يعمموا قلبه بسعادة ليست بذات حدود » .

نعم ، هذا ما قاله الرأس إيلاس محدثاً نفسه ، ولقد كانت هذه الخواطر تدور بفكره كثيراً ، فما وجد لهذه العقدة حلاً ، ثم توطدت صلته برجال البلاط بالهدايا وحسن المقال ، فأدرك أن الكثرة المطلقة منهم يكن بعضها المقت

لبعضها الآخر ، وأن بحياتهم سلسلة متصلة من الدسائس وافتصاح الدسائس ، ومن المؤمرات وافتصاح المؤامرات ومن التحزب والخيانة والاعتقال والفرار ، ووجد أن كثيراً من أعوان الباشا قد بعثوا إليه ليراقبوا مسلكه وليقفوا على نواياه ، وسمع كل لسان يجار بالنقد وكل عين تبحث عن خطأ .

وأخيراً جاءت وثائق العزل ، فإذا الباشا يحمل إلى القسطنطينية مغللاً بالأصفاد ، وانطوى اسمه كأنه لم يكن .

قال الرأس إيلاس لأخته : « ما موقفنا الآن من السلطة ومزايها ؟ أما نرجو من ورائها تحقيق الخير ؟ أما ترى الخطر يلزم المناصب الثانوية وخذها ، أما رب الدولة فهو مطمئن وسعيد ؟ ترى أيكون السلطان الشخص الأوحى الذى ينعم بالسعادة فى دولته ؟ أم ترى السلطان ذاته تؤرقه الشكوك والمخاوف لكثرة أعدائه ؟ »

وبعد فترة وجيزة عزل الباشا الثانى ، أما السلطان الذى كان قد ولاه على مصر فقد اغتاله عساكر الانكشارية لأن خليفته كان يختلف معه فى رأى ويحمى طائفة من المقرين غير طائفته .

الفصل الخامس والعشرون

الأميرة تبحث جادة عن السعادة فلا تصادف توفيقاً عظيماً

وفى هذه الأثناء كانت الأميرة تختلط بمختلف الأسر ، فالكرم والسماحة يفتحان كل الأبواب إلا أقلها ، ووجدت الأميرة أكثر بنات الأسر على مرح عظيم ، ولكن نكاية التي تعودت جاد الحديث من عملاق ومن أخيها لم ترتح إلى ثرثرتها الصبيانية ، وحكمت على تفكيرهن بالضيق وعلى رغباتهن بالانحطاط وعلى مرحهن بالافتعال ، وكان لهن على تفاهته بفسده المنافسات الحقيرة والتحاسد على لا شيء ، فكانت كل منهن تنفس على الأخرى جمالها ، برغم أنها تعلم أن التمنى لا يأتى بالجمال والانتقاص لا يزيله . وكان بينهن عدد عظيم يعشق فتياناً تافهين تفاهة البنات بسواء ، بسواء ، فكن يتوهمن أنهن يهوين الفتيان حقاً وقد كن يتلهين بهم إزجاء للفراغ ، وكن لا يقدرن فى الرجال رجاحة العقل أو نقاء النفس ؛ ولذا كان غرامهن يتتهى دائماً بخيبة الأمل ، ولكن حزنهن كان خفيفاً عابراً شأن فرجهن ، وكن يعشن فى الحاضر وحده فلا يتمثلن تجارب الماضى ؟ ولا يتصورن حياة المستقبل ، ولهذا كانت الرغبة تحمل محل الرغبة ، فتمحوها فى غير عناء كما يمحو حجر القى فى الماء الدوائر التى رسمها حجر سابق .

ولما كان غرضها التغلغل فى بواطن نفوسهن فقد دأبت على أخذهن بالحسنى ، واستطاعت بعطفها أن تحمل الشاكيات منهن على الإفضاء إليها بأسرار قلوبهن المحطمة ، كذلك دعتها الفتيات الطامعات فى مال أو أمل إلى الاشتراك معهن فى أفراحهن .

وكانت الأميرة تلتقى بأخيها الأمير كل يوم تقريباً في منزل يشرف على النيل لتبادل التجارب ، وفيما هما جالسان معاً انصرف بصر الأميرة إلى النهر الجارى من تحتها وقالت :

« أجبنى يا أبا الأنهار العظيم ، أحب ندائى ، أنا ابنة ملك من ملوكك ، أحب يا من تفيض مياهك فتروى ثمانين أمة . أفى واديك الطويل بيت واحد لا يهمس أهله بالشكوى ؟ »

فقال الرأس إيلاس : « إذن ، فقد كان بحثك فى دخائل البيوت عبثاً كبحثى فى مجامع الأشراف . »

أجابت الأميرة : « لقد أمكنتى أن أنفذ إلى حرمان الأسر التى تدل حالها على رخاء لا بأس به وسلام لا يعكره شيء فى ظاهره ، ولكنى لم أجد بين هذه الأسر كلها أسرة واحدة ليس لديها ما يقض مضجعها . »

« فلما خالطت الفقراء لم أتوقع أن أجد بينهم إلا شظف العيش ، ولكنى وجدت بينهم عدداً كبيراً يعيش فى رغد ، أو ما أتصوره أنا رغداً ، فالفقر فى المدن الكبرى يتخذ أشكالاً تختلف كثيراً عن أشكاله فى الريف ، فالبذخ يقيه والإسراف يطمس معالمه ، والكثرة المطلقة من الناس تجتهد لستر إملاقها عن العيون ، وهى تحيا من يوم إلى يوم وهى تقضى عامة النهار فى التفكير فى حاجات الغد . »

« وهذا الشر الفاشى بين الناس لم يحزننى كثيراً ، فقد كنت أمحوها بإغاثة كل من أخالطه من الفقراء ، ولكنى وجدت من بعضهم رفضاً لهباتى ، فقد ألمهم إدراكى لحاجاتهم أكثر مما سرتهم رغبتى فى إغاثتهم ، أما الآخرون الذى ألزمهم سوء الحال بقبول عطايائى فلم يغتفروا لى قط هذا الصنيع ، ولكنى برغم ذلك قد صادفت كثيراً من الفقراء الذين استقبلوا العون شاكرين ، دون أن يعرضوا على الملاء شكرانهم أو يرجوا تجدد المكرمات . »

الفصل السادس والعشرون

الأميرة تمضي في حديثها عن الحياة الخاصة

ولما رأت نكاية اهتمام أخيها بحكايتها مضت في سردها تقول :

« وقد دلني اختباري على أن الشقاق يسود كل الأمر سواء في ذلك الفقيرة وغير الفقيرة ، وإذا صدق عملاق بأن الدولة إن هي إلا أسرة كبيرة ، فيصدق كذلك أن الأسرة دولة صغيرة تمزقها الخلافات وتهدها الثورات . ومشاهد قليل الاختبار يتوقع أن يدوم حب الآباء والبنين ، وأن يكون متبادلا بدرجة متساوية ، ولكن هذا الحب قلما يدوم بعد سننى الطفولة ، فبعد قليل يكون التنافس بين الآباء والأبناء ، ويفسد المن أفضال الآباء فيقابل الأبناء أفضالهم بالجحود .

« ثم إن الانسجام لا وجود له بين الوالدين أو البنين ، فالبنون يتنافسون على حب الوالدين وتقديرهم ، وكذلك يتنافس كل من الوالدين على حب البنين وتقديرهم كل على حساب الآخر ، برغم أنهم لا يجنون من وراء ذلك إلا قليلاً ، فيكون من ذلك أن بعض الأبناء يثقون في آبائهم ويثق البعض الآخر في أمهاتهم ، وتشتد المشاحنات في الأسرة شيئاً فشيئاً .

« وأفكار الأبناء تتعارض دائماً مع أفكار الآباء ، فالجيل الجديد بسنة الطبيعة يناقض الجيل القديم ، لأن الأول يفيض بالأمل والثاني يخضع لليأس ، ولأن الأول يتطلع إلى المستقبل والثاني يستعيد تجارب الماضي ، ولكل منهما ما يبرر موقفه ، فالوان الحياة تبدو زاهية لعين الشباب ، وتبدو كئيبة لعين

الشيخوخة ، فهي تختلف كما يختلف وجه الطبيعة فى الربيع وفى الشتاء ،
والأبناء لا يجدون فى فلسفة الآباء ريقاً واضحاً لأنها لا تطابق الحياة كما
يعرفونها .

« ويندر أن نجد من الآباء من يتقيد فى سلوكه العملى بأرائه فى الحياة ،
والشيخوخة يؤمنون تماماً بالتدبير المحكم والتقدم البطيء ، أما الشباب فيؤمنون
بنموهم وقوتهم واندفاعهم . الشيخوخة يجدون المال أما الشباب فيجدون
الفضائل . الشيخوخة يؤلهون الحزم أما الشباب فيؤلهون الشهامة ويتركون
مصيرهم فى يد المقادير . والشباب الذى لا يضر الشر قط يتوهم أن الشر
لا وجود له ، وهذا سر صراحته ، أما الشيخوخة فتكثر من التشكك لأنها
اختبرت الخديعة ، وكثيراً ما تعتمد بنفسها إلى المخادعة . الشيخوخة تغضب
لتهور الشباب والشباب يحتقر حذر الشيخوخة وهكذا يضع الوثام شيئاً فشيئاً
بين الآباء والأبناء ، وإذا كان أقرب الناس مودة يشقى بعضهم بعضاً فأين ياترى
نلتمس الحنان والعزاء ؟ » .

أجاب الأمير : « لا شك أنك قد أسأت اختيار الأصدقاء ، فليس يعقل
أن صلة الأبناء والبنين ، وهى أقوى صلة عرفتها الطبيعة ، تفسد هكذا
بحكم الضرورة » .

قالت الأميرة : « إن الشقاق فى الأسرة ليس واجب الوجود ، ولكن تجنبه
أمر عسير ، فلما نجد أن جميع أفراد الأسرة متمسكون بالفضائل ، والأخيار
والأشرار لا يتفقون ، وكذلك لا يتفق الأشرار والأشرار . ولقد يختلف
الأخيار والأشرار أنفسهم إذا كانت فضائلهم من نوع مختلف ، أو إذا اتصفوا
بالتطرف فى سجاياهم ، ولكننا نستطيع أن نحكم بوجه عام بأن الآباء الذين
يستحقون الاحترام ينالونه ، فمن استقامت حياته عاش موفور الكرامة .

« كذلك تهدد الحياة الخاصة شتى المنغصات ، فمن الناس من يستعبدهم خدمهم الذين استأنموهم على شئونهم ، ومنهم من يزعمهم أقرباءهم الموسرون ، فما يستطيعون إرضاءهم وما يستطيعون إيلاهم »

كذلك نجد من الأزواج من يستبد بزوجته ، ونجد من الزوجات من تشذ في معاملتها لزوجها ، ولما كان فعل الشر أهون على النفس من فعل الخير ، فإن حماقات الرذائل تجر من الشقاء على الأسرة ما لا تعوض عنه الحكمة والفضيلة .

قال الأمير : « إذا كانت هذه حال الزواج بوجه عام فسوف أجد من الخطر على سعادتي أن أربط حياتي بحياة أخرى حتى لا تشقيني أخطاء شريكتي في الحياة » .

قالت الأميرة : « لقد التقيت بأناس كثيرين يضربون عن الزواج لهذا السبب ، ولكنى لم أجد فى حكمتهم ما يحسدون عليه ، فهم يقضون حياتهم فى أحلام الوحدة وقد جفت قلوبهم من الحب ، فتراهم يسعون إلى قتل الوقت باللهو الخيث أو التسلية الصيانية ، فما للوقت عندهم نفع ، كذا يتبدى إحساسهم بالنقص فى كل ما يفعلون ، فالتقص يملأ نفوسهم بالسخيمة وألستهم بنقد الآخرين ، فهم سيئو الطبع فى بيوتهم مولعون بالإيذاء خارجها ، وهم يجدون لذة فى تحطيم كل مجتمع لا يستقبلهم بصدر رحب ، لأن البشرية قد لفظتهم من رحمتها وهم لا يعطفون على أحد ولا يعطف أحد عليهم ، فإن سعدوا لم يشاركهم أحد سعادتهم ، وإن شقوا لم يشاركهم أحد شقاءهم ، وهى حال أقسى على النفس من الوحدة ذاتها ، فهم لا يعتزلون العالم ولكنهم يخرجون من زمرة البشر ، وإذا كان فى الزواج آلام عديدة فليس فى العزوبة لذة واحدة » .

قال الرأس إيلاس : « وما العمل إذن ؟ إن الأمر يزداد تعقداً كلما أمعنا
في بحثه وتحليله ، ولكن لا شك في أن من ينصرف إلى إسعاد نفسه يجد
السعادة التي ينشدها » .

الفصل السابع والعشرون

مقال في العظمة

وسكتا قليلا ، ويعد أن تدبر الأمير رأى أخته قال إنها قد حكمت على الحياة دون أن تنصف ، وافترضت وجود الشقاء حيث لا شقاء . قال : « إن ما رويته على لا يلقى ظلا كثيباً على الحاضر وحده ، بل يطفى كذلك سراج الأمل في المستقبل . إن الصورة السوداء التي رسمها عملاق إن هي إلا خيال باهت للشرور التي تصفيتها يانكاية ، ولقد اقتنعت أخيراً بأن الهدوء ليس وليد العظمة أو السلطان ، فهو لا يشري بالمال ولا يصاب بغزو الغزاة ، فمن الواضح أن اتساع نفوذ الإنسان يعرضه بالضرورة لعداء الأعداء أو لزلل المصادفات ، ومن اضطلع بإرضاء الناس أو بإدارة شئونهم فإن عليه أن يستخدم من العمال عدداً عظيماً ، ولا بد أن بين هؤلاء العمال الجهال ولا بد أن بينهم الظالمين ولا بد أن بينهم المضللين ولا بد أن بينهم الخائنين ، فلو أَرْضَى الحاكم أحدهم أغضب سواه ولو قرب الحاكم نفراً زعم الآخرين أنه قد غمطهم حقوقهم ، ولما كانت العطايا لا تجزل إلا للأقلين بالكثرة المطلقة في سخط مستديم » .

قالت الأميرة « إنى أزدري هذا السخط الذي ليس له ما يبرره ، وأرجو الله ألا تخضع أنت له قط » .

أجاب الرأس إيلاس : « إن للسخط دائماً ما يبرره مهما صلح الحكم وسهرت الإدارة على إحقاق الحق وتوزيع العدل بين الناس ، وما من حاكم

مهما يكن يقظاً بمستطيع أن يستكشف موهبة نابغ طمسها الفقر أو سترها التحزب ، وما من حاكم مهما يكن قوياً بمستطيع أن يكافئ هذه الموهبة ، ولكن من يرى قليل الكفاية مقدماً على كثيرها يعزو ذلك التفضيل بطبيعة الحال إلى تحيز الرؤساء أو نزواتهم التي لا ضابط لها ، ويدخل في باب المحال أن يستمسك رجل مهما عفت نفسه أو ارتقت سجايه بالعدالة المطلقة في كل زمان وفي كل ظرف ، فهو أنا يستسلم لعواطفه الشخصية ، وهو أنا يستسلم لأهواء خلصائه ، وهو يرضى بالعاجرين وهو يرى من الفضائل في أصفائه ما لا يتحلون به في الواقع وهو يسعى إلى إسعاد من يعملون على إسعاده .

وهكذا تسود التوصيات ولقد تشتري بالمال أو بما هو أحسن من المال ، أعنى بالملق وتقبيل الأيادي .

« ومن كثرت أعماله تعرض للخطأ ، ولا بد أن يتحمل تبعات خطئه ، ولو قبض لأمرئ أن يحسن طول حياته فلن يعدم وضعياً ينقيد عمله عن خبث ، ولن يعدم فاضلاً ينقد عمله عن سوء تقدير .

« لهذا كان من المحال أن نجد السعادة بين عظماء القوم ، وإنى لا أعتقد أن السعادة قد هجرت عروش الملوك وقصور الأشراف إلى أكواخ الفقراء ومنازل المغمورين ، فهؤلاء تتناسب كفايتهم مع أقدارهم في الحياة ، وهؤلاء يصرون مجالهم ويدركون حدودهم حق الإدراك ، وهؤلاء لا يضطفون من الأصدقاء إلا من استأهلوا ثقتهم ، ولست أرى كيف يحول بينهم وبين السعادة شيء ، فليس أمامهم إلا أن يخلصوا للغير فيخلص الغير لهم ، وليس أمامهم إلا طريق الفضيلة وهو طريق السعادة » .

قالت نيكاية : « ليس في العالم ما يجعل السعادة الكاملة نصيب أهل الفضيلة الكاملة بالضرورة ، ولكننا نستطيع أن نقول إننا نرى مظاهر الفضيلة أكثر مما نرى أمارات السعادة بين الناس ، وإن ضربات الطبيعة جميعاً والكثرة المطلقة من ضربات المجتمع لتناول الأخيار والأشرار سواء بسواء ، فالحقحط

يعم الجميع ولا يقتصر على فريق من الناس دون سواه ، فإذا تحطمت سفينة غرقوا جميعاً ، وإذا غزا العدو ديارهم فروا أمامه جميعاً .

« إن الفضيلة لا تهى للإنسان إلا راحة الضمير والأمل المتصل فى نوال السعادة المطردة ، ولقد يعيننا كل ذلك على تحمل الشدائد صابرين ، ولكن الصبر ذاته يتضمن وجود الألم » .

الفصل الثامن والعشرون

الرأس إيلاس والأميرة نكاية يستأنفان حديثهما

قال الرأس إيلاس : « أنت يا أميرتى العزيزة تتورطين فى الخطأ الشائع ، ألا وهو المبالغة فى التعبير ، فإننى أراك تذكرين لى نماذج مألوفة من النكبات العامة والبؤس العميم نقرأ عنها فى الكتب أكثر مما نراها فى حياتنا اليومية ، وهى نماذج أراد القضاء أن تكون نادرة الوجود لأنها شديدة البشاعة ، فلنكتف فى تصورنا للشر بما نحسه نحن فعلا ، ولتجنب تصوير الحياة تصويراً ممسوخاً ، وأنا لا أطيق أن أستمع إلى شكايات الشاكين من أهل البلاغة ، تلك الشكايات تنذر كل مدينة بحصار أليم كحصار أورشليم ، وتنبأ بمجاعة كلما مر سرب من الجراد ، وتعلن مجئ الطواعين كلما هبت من الجنوب ريح قوية .

« ومن العبث أن نتجادل فى الضربات التى تحقق بالدول ولا سبيل إلى دفعها ، فمثل هذه الضربات لا بد من احتمالها ، ولكن من الواضح أن الناس يرهبون هذه المآسى العامة أكثر مما يحسونها ، فمن الناس آلاف مؤلفة تشب وتشيع دون أن تعرف من النكبات إلا النكبات الشخصية ، ولا تذوق من اللذات أو تعانى من المضايقات إلا مألوفها ، سواء أكانت تعيش تحت جور ملك طاغية أم كانت تعيش فى فىء ملك رحيم ، وسواء انتصرت جيوش بلادهم أم مزق العدو أوصالها ، فالحداد لا يفتأ يضرب بمطرقة سندانه ، والفلاح لا يفتأ يدفع أمامه محراثه لا يدرى أن شيئا عن دسائس النبلاء التى تمزق

البلاط فى الداخل أو مساومات السفراء فى الخارج ، وهما يخضعان لضرورات الحياة ويزيلان تلك الضرورات ، وهكذا تتعاقب عليهما الفصول فتعاقب معها مشاغلها المألوفة .

« فلنكف إذن عن تدبر ما قد لا يحدث بتاتا ، ولنكف إذن عن تدبر ما يتجاوز تقدير الإنسان . إننا لن نجاول أن نغير مجرى الطبيعة أو نبت فى مصائر الشعوب ، وغايتنا أن ندرس ما يمكن لأمثالنا أن نقوم به من أعمال ، فكل منا ساع فى طلب السعادة ووسيلته فى ذلك طلب السعادة للآخرين داخل نطاق حياته مهما ضاق نطاق حياته .

« وواضح أن الزواج تكليف من قبل الطبيعة ، فالرجال والنساء قد خلقوا ليتلازموا فى طريق الحياة ، وهذا ما يجعلنى أقتنع بأن الزواج سبيل من سبل السعادة » .

قالت الأميرة : « وما أدرانا بأن الزواج ليس سبيلا من سبل الشقاء وهى كثيرة يعجز دونها الحصر ، فحين أتأمل صور التعاسة الزوجية على اختلافها ، وحين أتأمل أسباب النزاع الدائم التى لم تدخل فى تقدير الأزواج ، وتباين الطباع ، وتضارب الآراء ، وكل صدام فظ بين الرغبات المتعارضة تمليه العواطف الهوجاء ، وحين أتأمل الشقاق المتواصل الذى يمليه اختلاف الفهم لمعنى الفضيلة ويزيد من خدته اقتناع كل بحسن نيته ، حين أتأمل كل ذلك يخيل إلى أحيانا أن ما يذهب إليه أسخر الساخرين فى كل أمة صحيح وهو أن الزواج أمر يأذن به الناس ولا يوافقون عليه ، ويبدو لى أنه ما من أحد يرضى بأن يكبل نفسه بأغلاله الأبدية إلا إذا كان صريع شهوة جارفة تعمى بصيرته » .

أجاب الرأس إيلاس : « لعلك قد نسيت أنك منذ لحظة واحدة قد صورت حياة الوحدة تصويراً أنكد من تصويرك للحياة الزوجية . إن كلا الحالين قد يكون سقيما ولكن لا بد أن أحدهما أقل نكداً من الآخر ،

وهكذا الأمر إذا اجتمع فى العقل رأيان خاطئان فإن أحدهما لابد أن يدمر الآخر ، وبذا يهتئ العقل لمعرفة الحقيقة » .

فأجابت الأميرة : « ما كنت أتوقع أن ينسب هذا للبطلان ، فالبطلان ابن الضعف ، ومن العسير أن يوازن العقل بدقة بين كبار الأمور ذات المرمى البعيد والوجوه المتباينة ، كما أن من العسير على العين أن توازن بدقة بين ضخام الأجسام ذات الأطوال المديدة والصفات المختلفة ، ونحن لا ندرك الفوارق ولا نقف على المزايا لأول وهلة إلا إذا رأينا الأشياء فى كليتها ، فإذا عرض لى أمران لا أستطيع أن أحيط بهما تماماً من حيث جسامته المدى أو دقة التفاصيل فلا عجب أن يتلون حكمى عليهما بما يتركه كل منهما فى نفسى من أثر على التعاقب ، فأنا أفهم المجموع قياساً على فهمى الأجزاء ، وحين لا نرى من مسألة إلا جانباً واحداً فطبيعى أن أحكامنا عليها تتناقض من وقت لآخر تبعاً لما يتكشف لنا منها فى ضوء السياسة والأخلاق ، تماماً كما تتناقض أحكامنا مع أحكام الغير ، أما إذا رأينا المسألة برمتها دفعة واحدة رؤيتنا للمسائل الحسابية مثلاً فلن نجد اثنين يختلفان فى حكمهما على هذه المسألة ، ولن نجد أحداً يغير من رأيه فيها » .

قال الأمير : « كفانا من الحياة بشاعتها ، فلا نزيد من بشاعة الحياة بهذه المشاحنة المريعة ، وحسبنا ما كان بيننا من جدل دقيق . لقد اشتغلنا بالبحث عن السعادة ، ولكل منا حظه من فرحة النجاح أو خيبة الفشل ، فالواجب يقضى إذن بأن نتعاون فيما أقدمنا عليه . إنك لا شك تتسرعين بمهاجمة الزواج فى ذاته لما تريئه من تعس المتزوجين ، ولكن ألا يدل شقاء الحياة كذلك على أن الحياة ليست نعمة من نعم السماء ؟ لابد من تعمير الدنيا ، إن بالزواج وإن بغير الزواج » .

فأجابت نكاية : « إن طريقة تعمير الدنيا ليست من شأني ولست أفهم اهتمامك أنت بها ، ولست أرى شراً في أن يموت الجيل الحاضر بغير خلف يرث مكانه على الأرض ، ونحن الآن لا نبحث عن سعادة العالم ، بل نبحث عن سعادتنا » .

الفصل التاسع والعشرون

مناظرة الزواج تستأنف

قال الرأس إيلاس : « إن صحة الكل لا معنى لها إلا صحة الأجزاء جميعها ، وإذا كان الزواج نافعا للإنسانية في مجموعها فواضح أنه نافع كذلك لأفراد الإنسانية كل على حدة ، فلماذا لم يكن الأمر كذلك وكان القيام بهذا الواجب الضروري الدائم مدعاة للشقاء فلا بد من توضيح بعض الأفراد ليسعد الآخرون ، وفي تقديرك لحالة الزواج وحالة الوحدة ما يدل على أن أسباب الشقاء في الزواج عرضية يمكن تجنبها ، أما أسباب الشقاء في الوحدة فملازمة وأكيدة إلى حد عظيم .

« ولا مناص لي من الاعتقاد بأن الحكمة وصفاء النفس كفيلاان بإسعاد الزواج ، وسر الشقاء بوجه عام غباوة البشر ، وهل نتظر غير الحية والندم من اختيار يتم في نزع الشباب وفي جموح الشهوة بلا تدبر ولا تبصر بعواقب الأمور ، ولا بحث عن الانسجام في الآراء وفي العادات أو تحقق من سلامة التفكير أو خلوص العاطفة ؟

« إن أكثر الناس يتزوجون على هذا المنوال . يلتقى الفتى والفتاة بمحض المصادفة أو يدبر بينهما اللقاء ، فيتبادلان النظرات ويتبادلان المجاملات ثم يعود كل منهما إلى داره يحلم بالشخص الآخر ، ولا يجدان إلا القليل مما يشغل البال أو يصرف النظر ، فيحسان بالوحشة إذا افترقا ، ويحسبان أن سعادتهما

فى التلاقى فى تزوجهم ، عندئذ يتكشف لهما ما خبأته عنهما الرغبة العمياء ،
فى قضيتهم فى شجار متصل تثنى نفسها بالعسوة يوماً بعد يوم .

» ومثل هذا الزواج الباكر يؤدى إلى التناقص بين الآباء والبنين ، فالولد
يحرص على التمتع بأطيب الدنيا قبل أن يتركها له أبوه ، والحياة لا تتسع
لإرضاء الجينين معاً والبنات تفتتح كزهرة المشرقة قبلما ترضى أمها بالذبول ،
وهكذا تضيق كل منهما بالأخرى .

» ولا شك أن كل هذه النكبات يمكن تلاقيها إذا تروى الناس ولم يتعجلوا
الزواج ، فالأنثى لابد منها للاختيار النهائى وفى مرح الشباب وتعدد ألوانه
ما يجعل الحياة محتملة بغير شريك ، ومضى الزمن يضاعف الاختبار ، وسعة
الاختبار تضاعف فرص النقص والاختيار ، فإن لم تكن للأنثى منفعة ما فإن لها
مزية واحدة محققة على الأقل ، وهى أنها تجعل الآباء يكبرون الأبناء بسنوات
عديدة » .

قالت نكايه : » إن ما تقصر دونه مداركنا وما لا يدخل تحت اختيارنا
لا سبيل إنى معرفته إلا بأقوال الآخرين . ولقد بلغنى أن الزواج فى سن متأخرة
لا يفضى إلى السعادة حقاً ، وهذا أمر أجل من أن نهمله ، وكثيراً ما عرضته
على من توسمت فيهم أصالة الرأى وسعة العلم وصدق الملاحظة ، فاتفقوا
على أن الخطر أن يجعل الرجل أو المرأة مصيره معلقاً بيد الطرف الآخر بعد أن
تتكون لكل منهما آراؤه وترسخ عاداته ، وبعد أن يختار كل منهما دائرة
أصدقائه ويحدد مجرى حياته وفقاً لمنهاج مضبوط ويرضى كل منهما بآماله
فى الحياة .

» ويندر أن نجد شخصين خاضعين لتصاريف المصادفة يلتقيان فى طريق
واحد ، وقلما نجد من يرضى بتغيير سبيله التى ألفها وأحبها بحكم العادة ،
وحين تزول خفة الشباب ورعونته ليحل محلها النظام والعيش الرتيب وتجيء
الكبرياء التى تجدد فى التسليم عاراً ، والعناد الذى يجد اللذة فى النضال ،

والزمن الذى يفعل فعله فى معالم الإنسان كفيل كذلك بتحريف العواطف وتثبيت العادات ، مهما يكن تقدير كل لصاحبه قويا ورغبته فى إرضائه أكيدة . والعادات المتأصلة لا يسهل كسرهما ، ومن يحاول تغيير مجرى حياته إنما يحاول عبثا فى أكثر الأحوال ، فكيف نستطيع إذن أن نفعل بالغير ما نعجز عن فعله لأنفسنا فى أكثر الأحوال ؟

فقاطعها الأمير قائلا : « كذلك لا ريب تحسبن أن الناس ينسون الأساس الأول فى الاختيار أو يهملونه ، فإن أنا رأيت أن أتخير لنفسي زوجا فأول ما أتطلبه فيها أن تنصاع لصوت العقل » .

قالت نكايه : « هذا ما ينخدع به الفلاسفة ، ففي الحياة ألف موضع للخلاف لا يستطيع العقل له حلا . نعم . إن فى الحياة ألف مسألة يحار فيها المنطق وتمتنع على بحث الباحثين ، ألف مسألة تتطلب الإنجاز العملي ولا تحتل النقاش الطويل ، تدبر أحوال الناس تجد أن بينهم قلة ضئيلة تستطيع حقا أن تبت فيما يعرض لها من أمور تافهة كانت أو جلية بتأ يستند إلى فهم للموقف واضح ، ولو أن هناك زوجين قضى عليهما بأن يتا كل صباح فى جميع تفاصيل حياتهما اليومية بتأ بنى على العقل لكان هذان الزوجان أشقى من فى الوجود .

« إن من يتزوجون فى سن متأخرة ينجون غالباً من عدوان بنينهم ، ولكن هذه المزية تضيع إذا ذكرنا أنهم كثيراً ما يتركبون بنينهم لرحمة الأوصياء قبلما تكتمل رياشهم ويتم تعليمهم ، فإن لم يحدث ذلك ماتوا قبل أن يرو فلذات أكبادهم فى نضج الرشاد أو فى قمة المجد .

« ولقد يأمنون حقاً جانب بنينهم ، ولكنهم لا يرجون فيهم كثيراً وهم يفقدون متعة الحب الباكر دون أن يعرضهم عن ذلك شيء ، وتضيع منهم فرصة التآلف والانسجام حين تكون طباعهم فى مرونتها الأولى وعقولها فى نضارة

الشباب تنطبع عليها المؤثرات الجديدة ، فتقضى طول المعاشرة على أسباب الخلاف ، كما هو الشأن فى الأجسام اللدنة تتشكل سطوحها بدوام الحك والتآكل ليناسب أحدها الآخر .

« ويقينى أن من يؤخرون زواجهم ينعمون بينهم أكثر من سواهم ، أما من يعجلون به فينعمون بشركائهم فى الحياة » .

قال الرأس إيلاس : « لو أن النعمتين اجتمعتا لشخص واحد لتحققت جميع آمانيه ، ولعل فى حياة الإنسان عمراً يحقق فيه الزواج السعادتين جميعاً ، عمراً لا هو بالعاجل فيفسد على الآباء إحساسهم بالأبوة ، ولا هو بالآجل فيفسد على الأزواج نعيمهم بزوجاتهم » .

فأجابت الأميرة : « إن كل ساعة تمر بى تثبت فى يقينى صدق ماقاله عملاق من أن الطبيعة تبعث نعمها ذات اليمين وذات اليسار ، فالأمور التى تذكى فى الإنسان الأمل وتحرك فيه الرغبة من شأنها أن يتلاشى بعضها كلما اقتربنا من سواه ، وفى الحياة من متناقض الخيرات ما يجعل من المحال علينا أن نظفر بالنقيضين معا ، ولقد نسرف فى الحرص فنجد طريقنا بين النقيضين ، ولكن هذا الطريق الوسط لا يدنينا من أحدهما وهذه ثمرة الروية الطويلة أسوقها إليك وهى صادقة فى أكثر الأحيان : إن من يحاول أن يتجاوز حظ البشر خائب فى كل ما يسعى إليه ، فلا تم نفسك بانتهاب اللذات المتعارضة ، واختر لنفسك من النعم التى تعرض لك وارض بهذا المصير ، فما من أحد يستطيع أن يظفر بشمار الخريف وهو بعد ينشق من زهور الربيع ، وما من أحد بمستطيع أن يملأ كأسه من منبع النيل ومن مصبه جميعاً » .

الفصل الثلاثون

عملاق يدخل ويغير مجرى الحديث

وهنا دخل عملاق وقاطعهما ، فقال الرأس إيلاس : « اسمع يا عملاق ، لقد كانت الأميرة تروى على منذ هنيهة مأساة الحياة الخاصة ، لقد أوشك اليأس أن يقعدنى عن متابعة البحث » .

فقال عملاق : « يخيل إلى أن سعيك لمعرفة الحياة السعيدة قد ألهاك عن الحياة ، فأنت تجوب أطراف مدينة واحدة ، ومهما بلغت هذه المدينة من الاتساع واختلاف الوجوه فهي لن تأتيك بجديد ، وإنك لتنسى أنك فى أمة اشتهرت بين أمم التاريخ الأول بيأس أبنائها وحكمتهم ، وإنك فى بلد تبليج فيه نور العلم قبل أن يتبلج فى سواه ، ومنه أضاء على العالمين ، بلد لا نعرف غيره مهداً للحضارة أو الفنون العملية .

« لقد خلف قدماء المصريين تراثاً خالداً ينبىء بالقوة والمثابرة ، تراثاً لا شك يتضاءل أمامه كل ما للأوروبيين من مجد ، فخرائب عمارتهم هى المدرسة التى يتعلم فيها البناء المحدثون ، وإننا لنرى ما أبقى عليه الزمن من آثار فنرجم بما قد عصف به ولو على وجه التقريب » .

قال الرأس إيلاس : « إن فضولى لا يدفعنى كثيراً إلى زيارة الأحجار المقدسة أو أكوام الشراب ، فأنا أتقصى حال الإنسان ، وما جئت هنا لأدرس بقايا المعابد أو لأختنق فى السرايب المعتمة ، بل جئت لأستعرض وجوه الحياة الحديثة على اختلافها » .

قالت الأميرة : « إن شواهد الحاضر تستوجب التفاتنا ، وإنها لأهل لذلك الالتفات ، فما شأنى بأطلال الماضى أو بأبطال التاريخ . نعم ، ما شأنى بأزمان لن تعود ، وبأبطال عاشوا وماتوا فى ظروف من الحياة تختلف عن ظروف حياتنا الراهنة ؟ » .

فأجاب الشاعر قائلاً : « لا سبيل إلى معرفة الأشياء إلا بدراسة آثارهم ، ولا سبيل إلى فهم الإنسان إلا بالوقوف على أعماله ، وبذلك نعرف ما أملته العاطفة وما أوحى به العقل ، وبذلك نهتدى إلى أقوى الدوافع التى تحدد سلوك الإنسان ، وإذا شئنا أن نحسن الحكم على الحاضر فلا بد من موازنته بالماضى ، فالحكم أيا كان نسبى ، المستقبل لا سبيل إلى معرفته ، والواقع هو أن الناس لا يفكرون فى الحاضر كثيراً ، لأن ذكريات الماضى وآمال المستقبل توشك أن تملأ كل فراغ فى حياتنا ، ونحن نفرح ونحزن ، نحن نحب ونبغض ، نحن نأمل ونتوجس ، أما الفرح والحزن فجزورهما فى الماضى ، وأما الأمل والتوجس فمصدرهما المستقبل ، حتى الحب والبغض من عمل الأمس ؛ لأن لكل معلول علة تسبقه .

« فالحاضر إذن ثمرة الماضى ، وطبيعى أن نبحث عن مصدر ما ننعم به من سعادة أو نشقى به من آلام . فإذا كان مسعانا لتيسير أمورنا الخاصة فليس من الحكمة تجاهل الماضى ، وإذا كنا أمناء على مصائر الغير فليس من العدل إهماله ، إن الجهل المقصود جريمة ، ومن يرفض أن يتعلم كيف يدفع الأذى لمستول عن ذلك الأذى .

« ولم أر من وجوه التاريخ ما هو أمتع للنفس من تطور البشر ، وغمو العقل درجة درجة ، وتقدم العلم باطراد ، وتعاقب العرفان والجهالة على بنى الإنسان ، فهما نور البشرية وظلامها ، ثم انقراض الفنون وبعثها وثورات الفلاسفة ، وإذا كان الأمراء يهتمون بتاريخ المعارك والغزوات على وجه

التخصيص ، فالواجب يقضى بالاهتمام بالفنون النافعة منها والجميلة على حد سواء ، فمن أوتوا الممالك ليحكموها أمناء على تنوير أذهان الرعية .

« والمثل العملى أفعل فى النفس من كل تعليم نظرى ، فالحب مدرسة الجندى ، والرسام لا بد له من محاكاة صور الغير ، وفى هذه الحدود أجد أن الحياة الفكرية لها السيادة على الحياة العملية ، فالأعمال الباهرة قلما يراها الناس ، أما إنتاج الفن ففى متناول كل من يبغى الوقوف على إنتاج الفن » .

« وحين تقع العين على أثر ذى بال أو يستيقظ الخيال إلى عمل من الأعمال نادر يتجه العقل الناشط أولاً إلى تفهم الطريقة التى تم بها قيام هذا الأثر ، أو إنجاز هذا العمل ، وهنا تبدأ منفعة التفكير الحقيقية ، فنحن نوسع مداركنا بالأفكار الجديدة ، ولقد ينجم عن ذلك أننا نهتدى إلى فن كان ثم ضاع ، ولقد نهتدى إلى إتمام ما نقص من علم فى بلادنا ، وأقل ما يمكن أن نصيبه من دراسة التاريخ أننا نقارن عصرنا بسالف العصور ، فنغبط لما أدركنا من تقدم ، أو ننتبه إلى نقائصنا إن كانت بنا نقائص ، وهى الخطوة الأولى إلى الإصلاح » .

قال عملاق : « إن أفخم أثر من آثار المصريين وأدلها على عظمتهم هى الأهرام ، وهى أبنية من أضخم ما صنعتها يد الإنسان شيدت قبل التاريخ ولا نعرف عنها إلا ما توارثناه عن روايات الأولين ، وهو لا يرتقى إلى مرتبة العلم المحقق ، وأكبر هذه الأهرام لا يزال قائماً لم تعد عليه يد الزمن إلا قليلاً » .

قالت نكايه : « فلنزر الأهرام غداً ، فقد سمعت بأمرها كثيراً ، ولن يهدأ لى بال حتى أراها من الداخل ومن الخارج رؤية العين » .

الفصل الحادى والثلاثون

زيارة الأهرام

فلما استقر رأيهم على ذلك خرجوا فى اليوم التالى لزيارة الأهرام ، وحملوا جمالهم بالخيام فقد اعترموا أن يقيموا بين الأهرام حتى يرتوى منها فضولهم ، وسعوا فى رحلتهم الهوينى ، كلما استوقفتهم عجيبة وقفوا يستطلعون ، ومن حين لآخر تمهلوا ليتحدثوا مع الأهلين ، ولقد شاهدوا من المدن مختلفها ، فبعضها مخرب وبعضها عامر بالسكان ، ولقد شاهدوا من الطبيعة أخضرها ووحشيتها .

فلما بلغوا الهرم الأكبر راعهم ما رأوه من اتساع قاعدته ومن ارتفاع قمته . وقد شرح عملاق لهم كيف اختير الشكل الهرمى لهذا البناء الذى أراده أصحابه أن يثبت إلى آخر الزمان ، وأوضح لهم أن تدرجه فى الصغر هو آية رسوخه ، فهو الذى حماه من عوادي الطبيعة ، فالزلازل ذاتها وهى أكبر مخرب فى الطبيعة لا تستطيع تحطيمه ، ولو أن ضربة نزلت بالهرم فحطمته لتحطمت القاهرة كلها أو أوشكت . وقاسوا أبعاد الهرم بعداً بعداً ، ثم ضربوا خيامهم عند سقحه ، وفى اليوم التالى أعدوا العدة لولوج عرقه الخارجية ، وبعد أن استأجروا أحد الأدلاء صعدوا إلى المدخل الأول ، وأطلت بيكوا صفية الأميرة فى الفجوة ثم تراجعت وهى ترتجف ، فسألته الأميرة قائلة : « فيم خوفك يا بيكوا ؟ » فأجابت السيدة : « لقد أخافنى المدخل الضيق



وما رأيت من ظلام مرعب . إنى لا أجسر على دخول مكان لا ريب تسكنه
الأرواح المضطربة . إن أصحاب هذه الأقباء الرهيبة لا شك ناهضون أمامنا من
رقدتهم الطويلة ، ولقد يسجنوننا معهم إلى أبد الأبد . « وفيما هى تتكلم
تشبثت بجيد سيدتها .

قال الأمير : « إن كنت لا تخافين سوى الأشباح فأنا كفيل لك بالسلامة ،
فالموتى لا ينزلون بأحد شراً ، ومن وورى قبره لا يخرج إلى عالم الأحياء . »
قال عملاق : « إن قولك يا سيدى الأمير بأن الموتى لا يخرجون إلى
عالم الأحياء مناقض لما اتفقت عليه روايات الناس أجمعين فى كل أمة وفى
كل زمان ، فما من شعب إلا وعرف الأشباح وآمن بها ، تستوى فى ذلك
الشعوب الناهضة والشعوب التى تعيش على الفطرة ، ولولا صحة هذه
الظاهرة لما آمن بها جميع الناس فى جميع أرجاء الأرض فيما نعلم ، وهذه
الشعوب المتباعدة لا يعرف بعضها البعض الآخر ، فاتفاقها فى هذا الرأى
العجيب دليل على أنه وليد الاختبار ، فأمثال هذه العجائب لا تصدق إلا إذا
أيدها الاختبار ، وشك نفر من المكابرين المتفرقين لا يضعف ما للرأى العام من
قوة ، ثم إن بعض من ينكرون وجود الأشباح بالسستهم يرتجفون فرقا إذا ما
وطئوا منازلها .

« ولكنى لا أبغى بقولى هذا أن أضعاف مخاوف ييكوا ، فليس فى الهرم
ما يجعله مسكناً للأشباح أكثر من أى مكان آخر ، وليس فى أشباح الهرم ما
يجعلها تسعى إلى إيذاء الأبرياء والأطهار أو ما يمكنها من ذلك ، ودخولنا
ليس فيه اعتداء على حرمتها ، فنحن لن نسلبها شيئاً مما لها ، فكيف إذن
تغضبها زيارتنا ؟ » .

قالت الأميرة : « يا صديقتى ييكوا لا تجزعى . لسوف أتقدمك أنا فى السير ،
ولسوف يمشى عملاق فى عقبك ، وتذكرى أنك رفيقة الأميرة ، أميرة الحبشة . »
فأجابت السيدة : « لو أن سيدتى الأميرة ترغب فى موتى فلتختر لى ميتة
غير هذه الميتة الشنيعة ، فأنا لا أحب أن أموت فى هذا الغار المرعب ،

ومولاتى تعلم أنى لا أعصى لها أمراً ، فإن أمرت بدخلى دخلت ، ولكن ،
دخولى سوف يكون دخولا لا خروج بعله . . . » .

ورأت الأميرة أن جزع وصيفتها قوى لا يجدى معه عتاب أو تأنيب
فعانقتها ، وأمرتها بأن تبقى فى الخيمة ريثما يعودوا ، ولم ترض بيكوا بهذا
الوضع فذهبت تضرع إلى الأميرة أن تعدل عن هذه الجولة الرهيبة فى مخابئ
الهرم ، فأجابتها نكاية قائلة : « إذا عجزت عن أن أعلم غيرى الشجاعة
فلا أقل من أن أصون شجاعتى ، فكيف أعدل عما جئت لتحقيقه وما جئت
إلا لتحقيقه ؟ » .

الفصل الثانى والثلاثون

دخول الهرم

نزلت بيكوا إلى الخيمة ودخل الباقون الهرم ، ومروا بالدهاليز وشاهدوا الأقباء الرخامية وتمعنوا فى التابوت الذى قيل إن باني الهرم قد أودع فيه ، ثم جلسوا فى حجرة كبرى ليستريحوا قليلا قبل أن يقدموا على العودة .

قال عملاق : « لقد نعمنا الآن برؤية أكبر أثر من آثار البشرية بعد سور الصين العظيم ، أما ذلك السور العظيم فالدافع إلى بنائه واضح ، فهو الذى وقى أمة غنية مترفة تخشى غزوات البرابرة الذين زين لهم جهلهم بالهنون أن ينالوا بالسلب والنهب حاجاتهم التى أقعدهم ذلك الجهل عن نوالها ، فذهبوا من حين لآخر ينقضون على مواقع التجارة الآمنة انقضاض الطيور الجارحة على الطيور المستأنسة ، وقد كان من وحشيتهم وسرعة غزوهم أن ظهرت الحاجة إلى بناء السور ، وقد كان من جهلهم أن ردهم على أعقابهم وحقق الأمن المرجو منه .

« أما الأهرام فلا نعرف سبباً وجيهاً جعل القدماء ينصبون مكذا فى بنائها ويتكبدون أضخم النفقات ، فضيق حجراتها يدل على أنها لم تشيد لتكون ملجأ من الأعداء الظافرين ، والكنوز التى تحتويها الأهرام كن يمكن إخفاؤها بمثل هذا الإحكام دون حاجة إلى إنفاق هذه الأموال الطائلة لمها ، ويخيل إلى أن بناء الأهرام قد تم ليرضى الخيال الذى يستبد بالحياة الإنسانية ويدفعها أبداً إلى عظامم الأمور . فمن أوتى كل من يشتهى فى الحيا لا بد له أن يستنبط

شهوات جددًا ، ومن استوفى حاجته من العمائر النافعة لا بد أن يبنى ليرضى غروره فيمتد بخياله إلى أقصى ما تملكه قدرة البشر حتى لا يجد فى نفسه فراغًا لرغبة جديدة .

« ورأى أن هذا البناء الشامخ دليل على قصور أسباب السعادة بين بُناته . فالملك الذى لا حد لسلطانه ولا حد لثرائه لا يجد سبيلا لإرضاء شهوته إلى المجد وإزالة ملله فى الحياة إلا ببناء مثل هذا الهرم ، فرؤية الآلاف المؤلفة من التعساء يكدحون بغير طائل ، ويضعون الحجر فوق الحجر لغير ما غاية يدفع عنه سأم الشيخوخة . فيا من تضيقون بالحياة المألوفة وتتوهمون السعادة فى جاه الملوك ، وتحسبون أن الترف والجبروت يشبعان نهم النفس إلى كل جديد إلى يوم الممات ، انظروا إلى الأهرام واعترفوا بسفاهتكم » .

الفصل الثالث والثلاثون

محنة لم تكن تنتظر

ثم نهضوا وعادوا مجتازين الفسجوة التى دخلوا منها ، وكانت الأميرة قد أعدت لصفيتها قصة طويلة تروىها عما رأت من سراديب مظلمة وحجرات باذخة وعما تركته فى نفسها الآثار المختلفة التى شاهدها فى طريقها ، ولكن ما إن بلغوا خيامهم حتى وجدوا أتباعهم جميعاً فى صمت حزين ، أما الرجال فقد بدا الخجل والخوف فى عيونهم ، وأما النساء فجلسن فى الخيام باكيات .

ولم يحاول أحد منهم أن يتكهن بما قد حدث ، بل سألوا الجمع لفورهم ، فأجاب أحدهم : « ما إن دخلتم الهرم حتى هاجمتنا جماعة من الأعراب فلم نستطيع المقاومة لقوتهم ، ولم نستطع الفرار لأن هجومهم كان مباغتاً ، ولقد أوشكوا أن ينهبوا خيامنا ويسوقونا أمامهم سوق القطعان على نوقنا ، ولكنهم أحسوا بمقدم نفر من الفرسان الأتراك فولوا الأدبار وقد سبوا السيدة بيكوا ووصيفتيها ، والأتراك يطاردونهم فى هذه اللحظة ، وأنا أعتقد أنهم سيعجزون عن إدراكهم » .

وغلب الأميرة الحزن والعجب جميعاً ، أما الرأس إيلاس فقد تملكته سورة الغضب فأمر أتباعه بأن يتبعوه واستعد لمطاردة اللصوص وقد جرد حسامه ، ولكن عملاً قال له : « لا نفع يا مولاي من العنف ولا من الإقدام . إن الأعراب يركبون جياداً مدربة على الكر والفر ، أما نحن فلا نملك إلا دواب تصلح لحمل الأثقال ، ولو قد تركنا موضعنا لفقدنا الأميرة كذلك دون أن نسترد السيدة بيكوا » .

وبعد قليل عاد الأتراك بعد أن أفلت منهم اللصوص ، فأنشأت الأميرة
تندب من جديد ، وأوشك الرأس إيلاس أن يرميهم بالجن ، ولكن عملاً
قال إن فرار الأعراب لا يزيد من محتهم ، فلربما قتل الأعراب أسيراتهم حتى
لا يسلموهن .

الفصل الرابع والثلاثون

يعودون إلى القاهرة بغير بيكوا

لم يبق في بقائهم نفع فعادوا إلى القاهرة نادمين على فضولهم ناحين بالملامة على الحكومة وإهمالها ، باكين تقصيرهم في كراء حارس يحرس بيكوا عند دخولهم الهرم ، وذهبوا يعددون الوسائل التي ينبغي أن تتخذ لتجنب ذلك الحادث المشئوم ، ويؤكدون عزمهم على استرجاعها ، ولكنهم وقفوا عاجزين فما وجدوا إلى التصرف سيلا .

واعتكفت نكاية بغرفتها وذهبت تابعاتها يعزينها عن فقد بيكوا قائلات إن لكل بشرى قدره وقضاؤه ، وإن السيدة بيكوا قد استوفت حقها من السعادة في حياتها الماضية ، فليس غريباً أن يسوء حظها في الحياة ، وتمنيت النسوة لبيكوا الخير أينما كانت وأينما رحلت كما تمنين للأميرة أن تجد لنفسها صفية أخرى تملأ ما تركت بيكوا من فراغ .

ولم تجب الأميرة فمضين في عبارات العزاء ، ولكن حزنهن على فقدان صفية الأميرة لم يكن بالحزن الصادق .

وفي اليوم التالي قدم الأمير إلى الباشا مذكرة بالفاجعة التي نزلت به وملتصفاً يرجو به رد الأمور إلى نصابها ، وقد وعد الباشا بمعاينة اللصوص ، ولكنه لم يحرك ساكناً للقبض عليهم . وما استطاع أحد أن يتقدم بأوصاف كافية تعين الشرطة على اقتفاء أثر الأعراب .

واتضح بعد قليل أن السلطات لا رجاء فيها ، فالحكام قد تعودوا أن يسمعوا بجرائم كثيرة لا قبل لهم بمعاقبة مرتكبيها وبأضرار عديدة لا قبل لهم بإزالتها عن تنزل بهم ، فأصابهم تراخ وقعود وغدوا ينسون الشكايات لحظة أن يخرج الشاكون من دواوينهم .

لذلك حاول عملاق أن يستاجر بعض العملاء ليقصوا له الأنباء ، وقد جاءه عدد منهم عظيم وكلهم يدعى المعرفة الصادقة بمواقع الأعراب الحقيقية ، ويزعم أن له برؤسائهم صلة منتظمة ويعد باسترجاع بيكوا ، وقد زود بعضهم بنفقات الرحلة فانطلقوا ولم يعودوا ، وأجزل العطاء لبعضهم الآخر لقاء أنباء تبين بعد أيام أنها زائفة ، ولكن الأميرة لم تترك سبيلا إلا سلكته ، مهما بدا قليل النفع ، وكانت تحيا بالأمل ، فكلما خابت طريقة جربت سواها ، وكلما عاد رسول ومعه خيبة مسعاه أطلقت سواه إلى موقع جديد لتتبع الأعراب .

ومرّ شهران ، وبيكوا لا يدري أحد من شأنها شيئاً ، وذوت الآمال التي كان كل منهم يذكيها في قلب صاحبه ، ولما رأت الأميرة أنها قد استنفدت كل ما في جعبتها من وسائل البحث انتابها يأس قاتل ، وذهبت تلوم نفسها الليل والنهار على ما كان منها من تقصير حتى أذنت لبيكوا أن تتخلف عن الجماعة ، وكانت تقول : « لولا أن حبي لها قد غلب سلطاني عليها لما جرؤت بيكوا على أن تتحدث عن مخاوفها ، وقد كان ينبغي أن تخشاني بيكوا أكثر مما تخشى الأشباح . كان ينبغي أن تسكتها نظرة منى صارمة . كان ينبغي أن تصدع بأوامري فوراً . كيف يغلب على هذا التساهل الأحق ؟ كان ينبغي أن أتكلم وألا أسمع لها بالكلام » .

قال عملاق : « أيتها الأميرة العظيمة ، لا تأسفى لسجايك الحميدة ، ولا تلومى النفس على أمر وقع مصادفة . إن عطفك على مخاوف بيكوا كان عطفاً كريماً . إننا حين نلتزم حدود الواجب إنما نفوض إلى الله أمرنا وهو الذى يصرف بقوانينه شئوننا ، وحكمته لا ترضى لطائع أن يعاقب على طاعته فى النهاية . فإذا كسرنا القوانين الطبيعية أو الأخلاقية التى فرضت علينا طمعاً

فى خير نجهه ، فإننا بذلك نستغنى عن الحكمة الإلهية ونحمل نتائج فعالنا جميعاً .
والإنسان لا يفهم إلى اليوم الصلة بين الحوادث وأسبابها حتى يجازف بعمل
الشر ليحصل خيراً . أما اتباع الطريق المشروع فهو الذى يعوضنا عن خيبتنا
بالجزاء الآجل ، فإذا لم نثق إلا بعقولنا وحاولنا اختصار الطريق إلى الخير
بتخطى الحدود المعروفة القائمة بين الخير والشر شقيناً ولو أصبنا النجاح ، لأن
خروجنا عن الطريق السوى يطاردا ، فإذا ما ساءت العقبي كانت خيبتنا أمراً
وأدهى ، فما أتعس رجلاً اصطلىح عليه فى وقت واحد الإحساس بالخطيئة
والإحساس بالحنة التى أنزلتها به الخطيئة .

« فتدبرى يا مولاتى الأميرة كيف كانت حالك تكون لو أن السيدة بيكوا
رجت ملازمتك فأمرتها بالتخلف فاخطفها البدو ، أو تدبرى كيف كانت
حالك تكون لو أنك أرغمتها على دخول الهرم فقضى عليها جزعها تحت
بصرك » .

فقال نكاية : « لو أن شيئاً من هذا حدث لما احتملت الحياة إلى اليوم ،
ولعذبتنى الذكرى ، ذكرى قسوتى حتى ضاع صوابى ، ولأبغضت نفسى وذبل
جسدى حتى الممات » .

قال عملاق : « لقد أحسنت التصرف وهذا هو الجزاء على أقل تقدير ،
فما أتيت شيئاً تندمين على عواقبه » .

الفصل الخامس والثلاثون

فقدان بيكوا يضمني الأميرة

وهكذا هدأت نفس نكاية ، فعرفت أن كل الآلام تحتل خلا ما ترتب على الخطيئة ، فزال عنها حزنها العاصف الأكل وحل محله حزن رفيق تأملاته سوداء ، وكانت تجلس طيلة النهار وتسترجع كل كلمة فاهت بها صديقتها بيكوا وكل عمل أتمه ، وتجمع كل ما كانت بيكوا تحبه بعناية لا نظير لها ، حتى توافه الأشياء ، لعلها أن تذكرها بصاحبها ، احتفظت في ذاكرتها بكل ما كانت هذه الغائبة تقول أو تفعل ، وقدسته تقديساً كأنه من نواميس الحياة ، وكلما عرض لها أمر كان همها الأول والأخير أن تتدبر ما كان عساه أن يكون رأى بيكوا في هذا الأمر العارض .

ولم تعلم النسوة اللائي يسهرن عليها عن حالها شيئاً ، لذلك كانت تتحدث إليهن بتحفظ وحذر ، وقل فضولها وانصرفت عن الالتفات إلى ما يحدث ، فقد ارتاحت إلى الصمت ورغبت عن الكلام . أما الرأس إيلاس فقد حاول أن يسكن جراحها أولاً ، ثم حاول أن يسرى عنها فاستأجر لها جماعة من الموسيقيين يعزفون في حضرتها ، فتستمع إلى أنغامهم ولكنها لا تسمع شيئاً ، وكذلك استقدم الرأس إيلاس لها نفرًا من الأساتذة لتلقى عليهم مختلف الفنون ، فكانت تنصت إلى محاضراتهم ولا تفهم منها شيئاً ، فيعيدون الشرح مرة بعد مرة ، وفقدت نكاية كل لذة في الحياة ، وضاع منها طموحها الأول ، وكان ذهنها ينصرف إلى شئون اليوم شيئاً قليلاً ، ولكنه كان يعود أبداً إلى الصورة الجاثمة في خلدها ، صورة صديقتها بيكوا .

وكانت كل صباح تستحث عملاقا للبحث عن بيكوا الضائعة ، فما إن يعود ليلا حتى كانت تستطلعه الأخبار ، فلما وجد أنه لا يأتي لمولاته بجواب شاف قلّت رغبته في المشول بين يديها ، ولاحظت الأميرة تخلفه فأمرته بالحضور ، ولما حضر أهابت به قائلة : « ما حسبتك تخطئ التقدير فتخال لهفتي غضبا ، أو تظن أنني أتهمك بالإهمال لأن خيبة مسعاك تحز في نفسي حزاً . وأنا لا أعجب كثيراً لانصرافك عني ، فأنا أعلم أن الناس يضيقون بالتعساء ويتجنبون عدوى البأساء ، فالشكوى تضني السعداء والبائسين على السواء . فمن ذا الذي يفسد لحظات الهناء التي تجود بها الحياة لنا وهي قليلة بأحزان الآخرين ؟ ومن ذا الذي يفتح صدره لآلام الغير وهو يرزح تحت عبء من أحزانه الخاصة ؟

« لن تزعج نكايه أحداً بأحزانها بعد اليوم ، فلقد انتهى بحثي عن السعادة ، ولقد وطنت النفس على اعتزال العالم ، عالم الغرور والأباطيل ، ولسوف اختفى في عزلة كاملة ، ولا شأن لي إلا تهدئة خواطري وإزجاء نهاري بساذج الأعمال ، حتى تتطهر نفسي جملة من كل ما يشتهي الناس وأنتقل إلى الدار الأخرى التي يسعى إليها الأنام حثيثاً ، وهناك أرجو أن أنعم من جديد بصحبة بيكوا » .

قال عملاق : « لا تفسدي تفكيرك بقرارات لا تقبل العدول ، ولا تضاعفي حمل حياتك بهموم جديدة ، فلسوف تنسين بيكوا وتبقى آلام الوحدة ، وإن كنت قد فقدت من متع الحياة متعة فهذا لا يبرر انصرافك عن بقية المتع » .

قالت الأميرة : « لن تعد لي بعد بيكوا متعة تبقى أو متعة تضيع ، لقد فقدت من أحبها ومن أثق بها فأى أمل لي من بعدها ؟ إنني أبحث عن السعادة الحقيقية ، فلنفرض أن زينة الحياة اجتماع المال والمعرفة والطهارة . أما المال فقيمه في إعطائه للآخرين وكذلك قيمة المعرفة في نقلها للغير ، فلمن أجزل المال ولمن أحمل المعرفة بعد أن فقدت صديقتي الوحيدة ؟ ولم يبق لي

إلا الطهارة وبها وحدها أستمد نعيمى بغير حاجة إلى رفيق ، وحياة الطهارة يمكن تحقيقها فى حياة الوحدة .

فأجاب عملاق : « لن أجادل مولاتى الآن فى الوحدة وأثرها فى الطهارة ، وإنما أذكرها باعتراف الناسك الورع ، لسوف تشتهين العودة إلى العالم بعد أن تنسى صاحبتك . »

قالت نكايه : « وهذا لن يكون . فكلما عشت لأرى الرذيلة والحماسة تذكرت سجاياها الحميدة ، تذكرت صراحتها الفياضة وخضوعها الكريم وأمانتها على السر . »

قال عملاق : « إن العقل إذا دهسته نكبة مفاجئة ليشبه فى حاله حال الناس عند بدء الخليقة ، فقد ورد فى الأساطير أن الليل الأول هبط عليهم فخالوا أن النهار لن يطلع من جديد . كذلك نحن ، تتجمع حولنا سحب الهم فتحجب عن أبصارنا ما وراءها ولا نرى إلى تفرقها سيلا ، ولكن النهار يعقب الليل والهم مهما استعال فمن بعده الراحة لا شك فيها ، ومن يرفض أن يتعزى عن آلامه كان كأولئك المتوحشين الذين فقأوا عيونهم بمجئ الظلام . إن عقولنا كأجسامنا فى تغير متصل ، وفى كل ساعة نخسر شيئا ونكسب شيئا ، وجسامة الخسران تؤذى العقل والبدن جميعا ، ولكن الطبيعة كفيلة برد ما كان إذا كانت ينابيع الحياة لا تزال فياضة ، والبعد له فى العقل ما له فى العين من أثر ، ومادما نطفو فى تيار الحياة فكل ما نتجاوزه يتضاءل ، وكل ما نشرف عليه يزداد حجما ، فلا تجعلى نبع حياتك يأسا ، فلو قد ركد نبع حياتك لكثرت فيه الأرواح . اسبحى كما كنت تسبحين فى تيار الحياة . إن بيكوا سوف تختفى من خيالك رويدا رويدا ، ولسوف تلتقين فى طريقك بسيدة أخرى تصطفينها أو تتعلمين كيف تندمجين فى الناس جميعا . »

وقال الأمير : « كل ما نطلبه إليك ألا تيأسى قبلما نستنفد جميع أسباب العزاء ، إن البحث عن السيدة المسكينة لا يزال جاريا ، ولسوف نأمر بتشديده إن وعدت بالتريث عاما آخر قبل أن تتخذى القرار الأخير . »

ووجدت نكاية أن هذا الرأى يتفق مع العقل فوعدت أخاها بما طلب ،
وما استخلص أخوها منها هذا الوعد إلا بناء على مشورة عملاق ، ولم يكن
لدى عملاق أى أمل صادق فى استرداد بيكوا ، ولكنه رأى أن الأميرة سوف
تعدل عن فكرة الاعتزال لو عاشت فى المدينة عاماً آخر .

الفصل السادس والثلاثون

الأميرة لا تنسى بيكوا ، بل تتجدد أحزانها

لما رأت نكاية أن البحث عن صفيتها يدور قدر المستطاع وكانت قد عاهدت أخاها على تأجيل اعتكافها عامًا آخر ، انصرفت درجة درجة إلى شئون الدنيا ومسراتها المألوفة ، وفرحت برغمها لانجلاء الغمة عنها ، وكانت تجد نفسها من حين لآخر منصرفة عن ذكرها أتم انصراف فتغضب لذلك ، فقد أزمعت الأميرة على ألا تنسى صديقتها الوحيدة في الحياة .

ثم حددت لنفسها ساعة من ساعات اليوم معينة تتجه فيها بقلبها إلى بيكوا وتتذكر سجاياها الحميدة ، ولقد مرت بها أسابيع حقًا كانت إبانها تنزوي في الوقت المحدد بانتظام ثم تعود كاسفة البال عليها آثار بكاء طويل ، ولكنها أخذت تتحرر رويدًا رويدًا من هذا القيد ، فإن جد لها من الأمور أمر ذو بال أذنت له أن يصرفها عن نحيبها اليومي ، ثم استسلمت لصغار الأمور كذلك ، وبدأت تنسى ما كانت تذكره على مضض منها ، وأخيرًا تحررت نهائيًا من واجبها فلم تعد تندب الغائبة كل يوم في الساعة التي حددتها لذلك .

ولكن حبها الخالص لبيكوا لم ينقص بمرور الزمان ، فقد كان يذكرها بها ألف حادث وحادث ، وكلما احتاجت إلى أمر من الأمور التي لا يؤتمن عليها إلا الأصدقاء تجدد حزنها على بيكوا ؛ لهذا رجت نكاية عملاقا ألا يقصر في بحثه أي تقصير ، وأن يمضي في تقصى أنباء صاحبته ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى تعلم بأن ما هي فيه من عذاب لا يرجع إلى تكاسل أو إهمال ،

وكانت تقول : « ماذا نجنى من بحثنا عن السعادة إذا كانت طبيعة الحياة تجعل من السعادة ذاتها علة الشقاء ؟ ولم نسعى إلى بلوغ شيء لا سبيل إلى استبقائه ؟ لن أنشد بعد اليوم حباً مهما كان صافياً ، أو كمالاتهما كان أسراً خشية أن أفقده فأفقد بفقدانه ييكون من جديد » .

الفصل السابع والثلاثون

أنباء بيكوا تبلغ الأميرة

بعد سبعة شهور عاد رسول من الرسل الذين خرجوا للبحث عن بيكوا يوم وعدت الأميرة بالانتظار ، عاد من حدود النوبة بعد جولات كثيرة لا نفع فيها يقول إن بيكوا فى قبضة سيد من سادة الأعراب يملك قلعة أو حصنا عند تخوم مصر ، وإن ذلك السيد العربى الذى يعيش من النهب على استعداد لإعادتها مع خادمتيها لقاء مائتى أوقية من الذهب .

ولم يناقش أحد مبلغ الفدية ، وانتاب الأميرة فرح لا مزيد عليه حين علمت بأن صفيتها لا تزال على قيد الحياة ، وأن فى المستطاع استردادها لقاء هذا القدر الزهيد من المال ، ورأت ألا تضيع لحظة واحدة فى استعادة سعادة بيكوا وسعادتها معا ، فرجت أحاسها فى أن يزود الرسول بالقدر المطلوب ويوفده من جديد ، وحين استشير عملاق أبدى شكه فى صدق ما روى الراوى وأعلن رييته فى وفاء السيد الأعرابى قائلاً إن الثقة المطلقة به قد تؤدى إلى احتفاظه بالمال والرهائن جميعاً ، كذلك قال إن من المجازفة أن يضع أحد نفسه فى قبضة الأعرابى بدخول حرمه ، كما أن خروج ذلك المغامر إلى بطن الوادى يجعله فى متناول قوات الباشا ، وعملاقاً لا ينتظر منه أن يفعل ذلك .

وقد جعل نقص الثقة عند الفريقين الوصول إلى اتفاق أمراً عسيراً ، ولكن عملاق كلف الرسول بعد شئ من التروى أن يقترح على السيد العربى إرسال بيكوا بين عشرة من الفرسان إلى دير القديس أنطونيوس بالوجه القبلى ، وهناك يستقبلها عشرة من فرسان الأمير يؤدون فديتها ويطلقون سراحها .

وكانوا يعتقدون بأن هذا الاقتراح سوف يقبل ، ولذا بدءوا رحلتهم إلى الدير فوراً حتى لا يضيعوا أى وقت ، وحين بلغوا الدير استأنف عملاق رحلته بصحبة الرسول إلى قلعة السيد العربى ، ورغب الرأس إيلاس فى مرافقتهم ولكن أخته وعملاقاً لم يرضيا بذلك ، وقد قام السيد العربى بواجبات الضيافة نحو الرجلين اللذين سعيا إلى مكمنه كما تقضى قوانين قومه ، وبعد أيام قلائل رحل بيكوا وخادمتها إلى المكان المحدد بطريق يعرفه لا يتعب الراحلين ، وهناك تسلم المال الذى اتفق عليه ورد بيكوا إلى حررتها ، ومن ثم إلى أصحابها ، ووعد أن يحرس الجمع إلى القاهرة بشخصه ليقبضهم شر اللصوص وعدوانهم .

وتعانقت الأميرة وصفيتها عناقاً حاراً تعجز عن وصفه الألفاظ ، وخرجتا معاً إلى خلوة لتذرف كل ما معهما من دموع الشوق ولتبادلا عبارات الود والشكران ، وبعد ساعات عادتا إلى حجرة الطعام فى الدير حيث سأل الأمير بيكوا أن تقص قصتها فى حضرة الرهبان ورئيسهم .

الفصل الثامن والثلاثون

مغامرات السيدة بيكوا

قالت بيكوا : « لقد ذلك أتباعك أيها الأمير عن الوقت الذي اختطفت فيه وعن الطريقة التي اختطفت بها ، وقد فاجأتني الواقعة أول الأمر فلم أخف ولم أحزن ، بل تملكني الدهول ، وزاد من اضطرابي ما كان من سرعة فرارهم بنا أمام الفرسان الأتراك ، وما كان من عجيج عظيم في أثناء الفرار ، وقد بدا أن الأتراك يئسوا من إدراكنا أو خافوا من اللحاق بمن كانوا يطاردون فعادوا قافلين .

« حين ألقى الأعراب أنهم بمنجاة من كل خطر أبطأوا في سيرهم ، ولم تكن تشغلني مشاغلهم فبدأت أنزعج لما أنا فيه من حال ، وبعد وقت ما بلغنا نبعا وارف الأفياء في أحد المراعى فوقفنا فترجلنا وجلسنا على الأرض وأعطينا من المرطبات ما كان سادتنا يتناولون ، وقد أذنوا لي أن أنفرد بخادمتي بعيداً عن جماعتهم ، ولم يحاول أحد أن يطيب نفسي أو يسىء إلي بكلمة . وأخذت أحس بجسامة شقائي لأول مرة ، وجلست البتان تبكيان في صمت ، وترفعان إلى البصر من وقت لآخر تطلبان النجدة ، ولم أكن أعلم عن مصيرنا شيئاً وما استطعت أن أرجم بمكان أسرنا أو أن أهتدي إلى شيء يبعث فينا الرجاء . لقد كنت في قبضة فريق من اللصوص والمتوحشين فلم أطمع في رحمتهم ، ولم أستبعد عليهم أن يعذبوا بنا ماشاءت لهم شهواتهم وما شاءت لهم قسوتهم ، ولكني برغم ذلك عانقت خادمتي وذهبت أهدي من روعهما قائلة إننا لم نرَ من أحد بعد سوى حسن المعاملة ، وإننا في أمن على حياتنا ، لأن الأعراب في أمن على حياتهم .

« وحين طلب إلينا أن نعتلى جيادنا من جديد تشبثت بى الخادمتان وأبتا أن يحال بينى وبينهما ، ولكنى أمرتهما بأن يتنكبا عن كل ما يغضب السادة الذين سقطنا فى قبضتهم . وهكذا رحلنا بقية اليوم فى أرض مهجورة لا مسالك فيها ثم بلغنا سفح تل فى الليلة القمرء ، وهناك حط القوم رحالهم وضربوا خيامهم وأوقدوا نارهم وحيا الأعراب رئيسنا تحية تفيض بالحب والإخلاص .

« ثم كان استقبالنا فى خيمة كبيرة وجدنا بعض النسوة اللائى صحبن أزواجهن فى الغزوة ، وقدمت النسوة إلينا ما أعددن من عشاء ، فأكلت تشجيعاً لخادمتى لا رغبة فى الأكل ، وبعد أن رفعت الصحاف مدت البسط لنستريح ، وكنت متعبة أرجو أن يخفف النوم آلامى فهذا شأنه مع البائسين ، وأمرت خادمتى أن تنزعاً عنى ملابسى وقد لاحظت أن النسوة يتأملنى باهتمام عظيم ، فما كن ينتظرن أن يرين ما أحاط به من خضوع ، فلما نزعى سترتى بدت عليهن الدهشة واضحة لما رأيته من جمال ملابسى ، وقد مدت إحداهن يدها تلمس الوشى شبه خائفة ، ثم خرجت ، وبعد قليل عادت برفقة امرأة أخرى لاح أنها أكبر منها مقاماً وأوسع سلطة ، وعند دخولها أدت التحية كما ينبغى أن تؤدى ، ثم تناولت يدى واقتادتنى إلى خيمة أصغر حجماً فرشت بيسط فاخرة نسبياً ، وفى هذه الخيمة قضيت ليلة هادئة ومن حولى خادمتاى .

« وفى الصباح كنت أجلس على الحشائش فجاءنى زعيم الأعراب فنهضت لاستقباله واحنى هو باحترام عظيم . قال : أيتها السيدة العظيمة إن حظى قد تجاوز آمالى ، فقد أبلغتنى النسوة أن فى مضاربى أميرة من الأميرات ، فأجبت : لقد خدعت نسوتك أنفسهن ثم خدعنك يا سيدى ، فما أنا بالأميرة ، وإنما أنا غريبة شقية كنت أنوى الرحيل عن هذه البلاد سريعاً فإذا بى الآن سجينة فيها إلى الأبد . فأجاب الأعرابى : « أيا كان شخصك وأيا كانت

بلادك فثيابك وثياب خادمتيك تنبئ بأنك عالية المقام واسعة الشراء . فماذا يحملك على الظن بأن أسرك سوف يكون أبديا وأنت الغنية التي تملكين أداء فديتك دون أدنى مشقة ، وإن غايتي من هذه الغزوات التي أقوم بها زيادة مالى ، أو بتعبير أدق جمع الجزية من الناس . إن أبناء إسماعيل هم سادة هذه المنطقة من القاهرة . هم سادتها الطبيعيون وورثتها الأصليون ، وقد اغتصبها منا غزاة طغاة أرومتهم وضيعة ظهرها فى آخر الزمان ، ونحن نتزع منهم بحد الحسام ما نعجز عن انتزاعه باسم العدالة ، ولا حيلة لنا فى ذلك ، والحرب لا تميز بين الناس ، فالرمح الذى يرتفع فى وجه الغاصب الجبار يرتفع كذلك فى وجه الوداع البرئ » .

« قلت : ما كنت أتوقع بالأمس أن ينزل بى هذا .

« فأجاب الأعرابى : لا بد من انتظار المصائب فى كل لحظة . ولو أن المعتدين يفسحون فى قلوبهم مجالا للتجلة أو للشفقة لما أصابك مكروه لأنك امرأة فضلى ، ولكن ملائكة الانتقام تنشر أجنحتها على الفضلاء وعلى البغاة ، على الأقوياء وعلى الضعفاء ، ولا تبتئس فلست من قطاع الطرق قساة القلوب الخارجين على القانون الذين يطوفون بمسالك الصحراء ناهبين ساليين . فأننا أعرف أصول الحياة المدنية ، وسوف أحدد مقدار فديتك وأزود رسولك بإذن مكتوب يمكنه من المرور فيحمل شروطى بما ينبغى من السزعة .

« فلا عجب إذن إن كان أدبه قد طاب لى ، ولما رأيت أن شهوته الأولى كانت للمال زالت عني مخاوفى ، فقد كنت أعلم أنكم لن تضنوا بشيء لتحرير بيكوا . ولقد أجبتة بأنى سوف أحفظ لك الجميل لو أنه أحسن معاملتى ، كما أنبأته بأنكم سوف تؤدون عني أية فدية فى الحدود التى تتمشى مع وصيفة عادية مثلى ، فعليه ألا يصير على فدية تفتدى بها الأميرات . فقال إنه سوف يتدبر فى الأمر قبل تحديد الفدية ، ثم ابتسم وانحنى وانصرف .

« وبعد قليل اجتمعت حولي النسوة وتنافسن في إظهار التجلة ، بل إن خادمتي قد أصابتنا من احترامهن شيئاً كثيراً ، وأوغلت جماعتنا في الرحيل ولكن رحلاتنا كانت قصيرة ، وفي اليوم الرابع أبلغني السيد أن فديتي لا يمكن أن تقل عن مائتي أوقية من الذهب ، فأجبتته بأني سوف أنقده خمسين أوقية أخرى لو التزم حدود الشرف معي ومع خادمتي .

« ولم أكن أقدر من قبل قيمة الذهب ، فمنذ ذلك اليوم غدوت سيدة الجمع ، فكنت أشير عليهم بما تقطع من أبعاد فيصدعوا بأمرى ، وكانوا يضربون خيامهم حيثما رغبت في الراحة ، وجيء لنا بإبل نرحل عليها بدل الخيل وساغ سفرنا لما أحاطونا به من أسباب الراحة ، وكانت خادمتي تلازماني بلا انقطاع ، وذهبت أرفه عن نفسي بدراسة أحوال البدو الرحل وبمشاهدة الأطلال البائدة ، وقد خيل إليّ أن عدداً عظيماً من هذه العمائر كان يزين وجه تلك البلاد المقفرة فيما سلف من العصور .

« وكان رئيس العصابة رجلاً أبعد ما يكون عن الجهل ، فكان يجيد السفر مستهدياً بمواقع النجوم أو بالبوصلة ، وقد درس في أسفاره المتشعبة من الأماكن ما يستحق دراسة العابرين ، وذكر لي أن أكثر العمائر احتفاظاً بكيانها ما كان منها قليل الورود عسير البلوغ ، فحين تنهار أمة وينقرض مجدها الأول تكثر عوامل التخريب حيث يكبر مقام الأهلين ، عندئذ يستغنى الناس عن المحاجر بالجدران ، وتتآكل القصور والمعابد فتخرج من الجرانيت مزود الخيول ومن الصوان أكواخ الفقراء .

الفصل التاسع والثلاثون

بقية مغامرات بيكوا

« وهكذا تجولنا أسبوعاً بعد أسبوع ، وكان السيد يزعم أنه إنما يتجول على هذا المتوال للترفيه عني ، وإن كنت أظن أنه كان يتبع غرضاً في نفسه . وحاولت أن أبدى الغبطة حيث لا ينفع التجهم أو الغضب ، ولقد هدأ عقلي فعلاً بهذه الرياضة ، ولكن قلبي كان مع نكاية دائماً ، وأربت هموم الليل على أفراح النهار ، ولم يكن لخادمتي شغل غيري فلما رأنا ما أعامل به من إكبار هدأ بالهما ، ونسيت كل نفسها في أفراح اليوم العارضة التي تخفف من تعبنا فزال الحزن عنهما والقلق ، وسعدت بسعادتهما وشجعتي اطمئنانهما وهدأ روعي كثيراً حين تبين لي أن الأعرابي ينزع الصحراء طلباً للغنائم وحدها . إن الجشع رذيلة تتشابه في جميع أصحابها وهي رذيلة يسيرة الإرضاء ، أما الرذائل الذهنية الأخرى فتختلف باختلاف أصحابها ، فما يرضى غرور رجل ما قد يشير غرور رجل آخر ، أما أهل الجشع فأرضاءؤهم ميسور : إن زدتهم مالا لم ييخلوا عليك بشيء .

« وأخيراً بلغنا مسكن السيد ، وقد كان بيتا متين البنيان فسيح الجنبات شيد بالحجر على جزيرة من جزر النيل تقع كما ذكرت لكم عند مدار السرطان . وقال الأعرابي : وسوف تستريحين يا سيدتي من وعشاء السفر أسابيع قليلة في هذا المسكن ، وأنت فيه الملكة المتوجة . إنني أحترف القتال ، ولهذا اخترت هذا المسكن المتزوى ، فمنه أستطيع أن أخرج دون أن يعلم بي

أحد وإليه أستطيع أن أعود دون أن أخشى المطاردين ، فلتستريحى هنا فى أمان ، وإذا كانت الدار قليلة المسرات فهى كذلك بمنأى عن الأخطار ، ثم اقتادنى إلى الحجرات الداخلية وأجلسنى على أريكة من أنفاس الأرائك ثم انحنى وانصرف . وكانت نساؤه يعتقدن أنى أنافسهن مكانتهن عنده فنظرن إلى نظرة ملؤها الحسد ، ولكنهن علمن بعد قليل أنى سيدة ذات قدر عظيم ، وأنى أسيرة ابتغاء الفدية فأخذن يتسابقن فى إرضائى وفى إظهار ولائهن .

« ولما تجددت أمامى العهود بإطلاق سراحى بعد فترة وجيزة ، وانصرفت عن ضيقى بالتعرف على الدار الجديدة ، وكانت لها أبراج تطل على الريف فىرى المشاهد مساحات منه واسعة ويشرف على منحنيات النهر وهى كثيرة ، وفى النهار كنت أنتقل من مكان إلى آخر ، فقد كانت الشمس فى تسيارها تجدد روعة المنظر وتكسوه بمختلف الألوان ، فرأيت ما لم تره عينى من قبل . وكانت التماسيح وعجول البحر تكثر فى هذه المنطقة المقفرة ، وكنت أفزع لمراهم برغم علمى بأنها لا يمكن أن تنالنى بأذى ، وقد أنبأنى عملاق بأن الأوروبيين قد وضعوا فى النيل طائفة من حور الماء ، فكنت فى مبدأ الأمر أتوقع أن أراها ، فلما لم يظهر منها شيء سألت الأعرابى فضحك من سذاجتى البالغة .

« وكان الأعرابى يصطحبنى فى أثناء الليل إلى برج منفصل خصص لرصد النجوم ، وهناك حاول أن يعلمنى أسماء الأفلاك ويعرفنى بمسالكها . ولم أكن أكثر ث لهذا النوع من الدراسة ، ولكنى تكلفت بعض الاهتمام إرضاء لمعلمى الذى كان شديد الفخر بدرايته ، وبعد قليل وجدت أن الملل يفتك بى ؛ فالحياة بين أشياء معدودة لا تتغير تولد السأم ، فأدركت أنه لا بد لى من عمل أقتل به الوقت . كنت أفتح الجفن فى الصباح فأرى ما أغمضت عليه الجفن فى المساء ؛ لذلك رضيت بدراسة النجوم دفعاً للفراغ ، ولكن دراسة النجوم لم تطيب نفسى تماماً ، ويحسب غيرى أنى أقرأ صفحة السماء وما كنت إلا أفكر فى نكاية ، وسرغان ما خرج الأعرابى فى غزوة أخرى ، فما بقى لى إلا أن

أتحدث مع خادمتي عما كان من أمر اختطافنا وأصور لهما سعادتنا المقبلة يوم نخرج من الأسر .

قالت الأميرة : « فقد كان معك بعض النساء فى قلعة الأعرابى فلم لم تفتحى لهن صدرك فتنعمى بحديثهن وتلتسمى السلوى فيما يعرفن من أسباب السرور ؟ وكيف تقنعين بهذا الظلام الذى يملأ النفس صداً حين كانت غيرك من النسوة يجدن سبيلا إلى العمل أو إلى السلوى ؟ إنهن يحتملن هذا المصير طول الحياة فكيف ضقت بهذه الشهور المكدودات ؟ » .

فأجابت بيكوا : « إن النسوة يتلهين بالألعاب الصبيانية ، وعقلى الذى تعود التفكير كان لا يقنع بما يقنعن به ، ولقد كان فى مقدورى أن أفعل كل ماكن يفعلنه بحواسى وحدها ، أما خواطرى فكانت تطير إلى القاهرة . لقد كن يجرين من غرفة إلى أخرى كما ينتقل الطير من سلك إلى آخر داخل قفصه . لقد كن يرقصن لا حباً فى الرقص ، ولكن طلباً للحركة كما تتواثب الحملان فى المرعى ، وقد كانت بعضهن يوهمن الأخريات بأنهن قد جرحن فى أثناء اللعب حتى تفرع الأخريات ، أو يختفين حتى تبحث عنهن الأخريات ، وكن يتلهين أحياناً بتأمل الأجسام الطافية وهى تسبح على وجه النهر والغيوم التى تغير أشكالها كل لحظة فى كبد السماء .

« وكان شغلهن الأوحى أعمال الإبرة ، وقد كنت أعينهن عليه مع خادمتى أحياناً ، ولكن أناملى لم يكن لها على خواطرى سلطان ، وكيف ينتظرن أن تشغلنى أزهار الحرير عن نكايه فى ذلك المنفى السحيق .

« أما حديثهن فلم يكن لى فيه عنى رأين شيئاً يتحدثن عنه ، وقد عشن فى هذه البقعة المحصورة منذ شبابهن الباكر . لقد كن يجلهن القراءة والكتابة فكيف يعرفن ما لم يرينه ؟ إن معارفهن كانت محدودة بما يقع تحت حواسهن ، فما كن يتحدثن إلا عن ثيابهن وطعامهن ، ولما كنت أقوى منهن شخصية فقد كن يلجأن إلى كثيراً لحسم ما ينشأ بينهما من منازعات ، فكنت أقضى بينهما بالعدل ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، ولو أنى استطبت ما كنت أسمع

من شكاويهن لقضيت عامة نهاري في تتبع رواياتهن الطويلة ، ولكن أسباب النزاع بينهن كانت من التفاهة بحيث جعلتني أضيق بكل قصة عند منتصفها .

قال الرأس إيلاس : « لقد وصفت الأعرابي بأنه رجل فذ واسع المدارك ، فكيف كان يرتاح إلى حريم قوامه مثل هؤلاء النساء ؟ أهن بارعات الجمال ؟ » .

فقلت بيكوا : « نعم ، إن مثل هذا الجمال الحيواني التافه الذي قد نجده مجرداً من الخفة أو السمو أو الحيوية العقلية أو نبالة الطباع ، مثل هذا الجمال الحيواني قد توافر لهن ، ولكن الأعرابي كان ولا شك ينظر إلى جمالهن نظره إلى أزهار البستان ، يقتطفها ثم يقذف بها جانباً ، ولو أنه استملح فيهن شيئاً فإن ما استملحه ليس طيب المعشر أو أنس الصداقة ، وقد كان ينظر إليهن في إهمال المستعلى وهن يتلاعبن من حوله ، فإذا ما تسابقن إلى إرضائه كان يشيح عنهن بوجهه اشمئزازاً في بعض الأحيان ، وكان جهلهن يجعل من حديثهن لغواً لا يدفع شيئاً من سأم الحياة ، وكان حبهن له أو تظاهرن بالحب له لا يثير في قلبه فخراً ولا امتناناً ، فقد كان حبا لا اختيار لهن فيه . كان يرى ابتساماتهن فلا يغتر بها ، فقد كان يعلم أن امرأة تبتسم لرجل لم تر غيره لا يقام لودها وزن ، وكن يطرنه بنظرات العطف فلا يكثر بها كثيراً ، فقد كان يجهل مدى إخلاصها ، وكثيراً ما كان يحس بأنها نظرات مغتصبة قصد بها إيلام المنافسات أكثر مما قصد بها إرضاءه ، وكل ما كان يعطيها من حب وكل ما كن ينلنه من عطف لم يكن يتجاوز توزيع وقته الفائض بينهن ، وهو حب يستطيع الرجل أن يمنحه لامرأة يحتقرها ، وهو لا يثير رجاء أو إشفاقاً ولا يحرك الأفراح ولا الآلام . »

قال عملاق : « إن لك أن تسرى يا سيدتي بسرعة تحريرك ، فكيف رضى هذا الأعرابي المتشوف إلى المعرفة أن يعتقك برغم ما يحيط به من قحط فكري وأنت صاحبة الحديث الذي لا يمل ؟ » .

فأجابت بيكوا : « أعتقد أنه كان يتردد فى تسريحى زمناً ، فلقد كان برغم وعده كلما اقترحت عليه إيفاد رسول إلى القاهرة يلتمس المعازير لتأجيل سفر الرسول ، ولقد قام بجملة غزوات فى البلاد المجاورة فى أثناء مقامى ، ولو أنه عاد بما كان يأمل من غنائم لرفض على الأرجح إطلاق سراحى ، وكان كل مرة يعود إلىّ بالغ الاحتشاد ويقص عليّ أنباء مغامراته ويستمع إلى آرائى فى اغتباط شديد ويحاول أن يلقنى شيئاً جديداً فى أسرار النجوم ، ولما ألحفت عليه أن يبعث برسائلى إليكم هداً خاطرى بعهود الشرف والإخلاص ، فلما استنفد كل تسويق معقول خرج فى رجاله وتركنى أقضى فى داره فى أثناء غيبته ، وقد أحزننى هذا التأجيل المقصود أشد الحزن ، وخفت أن تنسونى وترحلوا عن القاهرة بدونى فيكتب على أن أقضى ما بقى من عمرى فى جزيرة من جزر النيل ، وأخيراً غلبنى اليأس وتكاثرت علىّ الهموم وانصرفت عن تسليته كما كنت أفعل فانصرف هو عنى إلى خادمته ، وكان أخشى ما أخشاه أن يتعلق قلب الرجل بى أو بهما على حد سواء ، ففى هذا الطامة الكبرى ، وساءنى نمو الألفة بينه وبينهما أعظم إساءة ، ولم يطل قلقي فقد عاد إلىّ بعد أن عاد إلىّ حبورى ، ولم أتمالك أن أحتقر نفسى لما ذهبت إليه من مخاوف .

« ولكنه دأب على التسويق فى طلب الفدية ، ولولا أن رسولكم قد اهتدى إلى مخبئه لما انتهى على الأرجح إلى قرار فى أمرى ، وإذا كان لم يسع إلى الذهب فهو لم يرد الذهب حين سعى الذهب إليه ، وعجل بإعداد ركبنا تعجيل رجل محموم ، واستأذنت من رفيقاتى فى الدار فودعنتى بفتور شديد » .

ولما سمعت نكاية قصة صاحبته نهضت وعانقتهما ، وأعطاهما الرأس إيلاس مائة أوقية من الذهب سلمتها إلى الأعرابى وما وعدته إلا بخمسين .

الفصل الأربعون

قصة عالم

وعادوا إلى القاهرة فرحين باجتماع شملهم حتى لقد لزموا دارهم واقتصدوا في الخروج ، ونبت في الأمير حب المعرفة ، وقد صرح ذات يوم لعملاق أنه قرر أن يهب للعلم ، وأن يقضى ما بقى ما أيامه معتزلاً يدرس الأدب .

فأجاب عملاق قائلاً : «ينبغي أن تلم بجميع النتائج قبل أن تقدم على اختيارك الأخير ، وهذا لا يكون إلا باستشارة رجل أفنى عمره في حياة الاعتكاف ، ولقد جئت الآن من مرصد يملكه فلكى من أوسع الفلكيين علماً في جميع أقطار العالم ، وقد قضى هذا العالم أربعين عاماً يدرس حركات الأجرام السماوية وظواهرها دون أن يصيبه الكلال ، وقد أفنى نفسه في عمليات حسابية ماله من نهاية ، وهو يأذن لنفر من أصدقائه بإزعاج عزلته كل شهر ليطلعهم على نتائجه ويغتنب بما استكشف ، وقد قدموني إليه واصفين إياي بأني من المثقفين الجديرين بصحبته ، وأمثال هذا العالم ممن قضوا زمناً طويلاً في التخصص ويحسون بانقطاعهم عن تيار الحياة ليرحبون عادة بأهل الأفكار الغنية والحديث الطلى وقد أعجبه ملاحظاتي ، وحين قصصت عليه قصة أسفاري ابتسم لما سمع ونسى أفلاكه عن طيب خاطر وهبط إلى الأرض ليحيا بيننا لحظة أو لحظتين .

«وفى العطلة التالية عدته من جديد ، وسرني ارتياحه إلى حديثي ، وقد خفف من تشدده معي ، فأذن لي أن أعوده في أى وقت أشاء ، وقد وجدته في شغل متصل ، ولكنه كان يرحب بكل راحة تأتيه على يدي ، وكان كلانا شديد الرغبة في الإلمام بعلم صاحبه ، وهكذا تبادلنا الأفكار في سرور عظيم ، وقد رأيت أني أظفر بثقته كل يوم أكثر من سالفه ، كما أن إعجابي بتعمق تفكيره كان يتجدد مع الأيام ، أما إدراكه فواسع ، وأما ذاكرته فواعية حافظة ، وأما حديثه فمرتب ، وأما عبارته فواضحة .

«ونزاهة هذا العالم وكرم أخلاقه لا يقلان عن علمه الغزير ، فهو يعطل بحوثه مهما دقت ودراسته مهما كانت عزيزة عليه إذا سنحت له فرصة لفعل الخير ، إن بالإرشاد وإن بالعون المادي ، وهو يفتح داره ويجود بأثمن أوقاته لكل من لجأ إليه سائلاً معونته ، وهو في ذلك يقول : «إني وإن كنت أضنُّ على نفسي بالفراغ وأحرمها من أسباب السرور ، إلا أنني لا أغلق بابي في وجه سائل يطلب الإحسان . إن الدراسة حق من حقوق البشر ، ولكن ممارسة الفضيلة واجب عليهم لزام» .

قالت الأميرة : «لا شك أن هذا الرجل قد وجد السعادة» .

أجاب عملاق : «لقد كثر ترددي عليه فازداد كلفي بحديثه : وجدت فيه السمو بغير غطرسة ، والأدب بغير تكلف ، والرغبة في التعبير عن آرائه بغير تفاخر ، وقد كنت في مبدأ الأمر أرى رأيك أيتها الأميرة العظيمة ، كنت أحسبه أسعد أهل الأرض طراً ، وكثيراً ما هنأته على ما نال من نعيم ، فكان يبدو عليه فتور عظيم لم أعوده منه ، ويجيب بكلمات غامضة ثم يغير موضوع الحديث .

«وسرعان ما أحسست بأن عاطفة اليمة تفتك بقلبه فتكاً برغم رغبته في إرضاء الآخرين ورضاه بحديثهم ، وكثيراً ما كان يرفع بصره بلهفة إلى الشمس ثم يتهدج صوته في أثناء الحديث ، وكثيراً ما كان يحملق في صامتاً ونحن

منفردان ، وتبدو عليه الرغبة في الإفصاح عن شيء يضطرب في صدره ويريد أن يكتبه كبتاً ، وكثيراً ما كان يرسل في طلبي ويرجوني رجاءً حاراً أن أخف إليه ، فإن أقبلت عليه لم أجد في كلامه شيئاً ذا بال ، وحين كنت أنصرف كان يستوقفني ويتردد لحظات ثم يصرفني من جديد .

الفصل الحادى والأربعون

الفلكى يكشف عن سر اضطرابه

« وأخيراً خرج عن تحفظه وأفضى إلى بسرّه ، فقد كنا نجلس معاً فى برج مرصده نرقب ظهور تابع من توابع جوبتر ، واكفهر وجه السماء فجأة فقد هبت عاصفة وأفسدت علينا المشاهدة ، وجلسنا بعض الوقت صامتين فى الظلام ثم خاطبنى قائلاً : لقد أحسست يا عملاق بأن صداقتنا هى أثمن ما فى حياتى . إن النزاهة لا نفع فيها ولا قوة لها إذا لم تقترن بالمعرفة ، كذلك المعرفة خطرة ومؤذية إلا إذا اقترنت بالنزاهة ، ولقد وجدت فى كل ما يستوجب الثقة لما لمست فىك صفاء الطبيعة واكتمال الاختبار والقدرة على احتمال الخطوب . أما أنا فأؤدى واجبى منذ أمد طويل ولا بد أن تحلنى الطبيعة من هذا الواجب قريباً ، ويسعدنى أن أنيك عنى فى أدائه حين تحل أيام محنتى وأعود إلى طفولتى الثانية .

« ولقد شرفنى رأيه هذا فى فأجبت على مقاله بأن كل ما يسعده يسعدنى أنا كذلك .

« فقال : اسمع يا عملاق هذه القصة العجيبة ولسوف يصعب عليك تصديقها . منذ خمس سنوات وأنا أتحكم فى أحوال الجو وأحدد تعاقب الفصول ، وكانت الشمس تصدع بأمرى فتنتقل من مدار إلى مدار بإشارة منى ، والسحب تتفتق وتريق على الأرض ماءها بإذن منى ، والنيل يفيض تحقيقاً لمشيئى ، ولقد كبحت جماح الشعرى وقلت للسرطان اهدأ فهدأ . كل ما فى

الطبيعة خضع لسلطاني ماخلا الريح ، ولكم هلك الناس كلما فاجأتهم زعازع
الاعتدالين ، وكنت أقف أمام هذه الزعازع عاجزاً لا حيلة لى فى ردها
أو ضبطها ، ولقد كنت أؤدى هذه الأمانة بعذل تام وخصصت لكل قطر من
أقطار الأرض نصيبه من المطر وضوء الشمس ، ولو أنى جمعت الغيوم فى
مناطق معينة ، أو حبست قرص الشمس فى نصف واحد من كرتنا الأرضية
لغدا نصف العالم فى شقاء عظيم » .

الفصل الثانى والأربعون

الفلكى يفسر مقاله ويبرره

« وأعتقد أنه قرأ فى وجهى أمارات العجب والشك برغم ظلام الحجرة ، فقد سكت قليلا ثم مضى فى حديثه قائلاً : إن شكك فى صدق ما أقول لا يدهشنى ولا يغضبنى ، فلعلنى أول بشرى أؤتمن على هذه الأسرار ، ثم إنى لست أدرى إن كان ما أصبت من معرفة لا نظير لها عقاباً أو ثواباً ، فمنذ أن أوتيت هذا العلم وسعادتى قد نقصت حتى أوشكت أن تزول ، ولم يعد ما يحثنى على هذه اليقظة المتصلة إلا إحساسى بأنى قد وقفت حياتى على فعل الخير .

« قلت : ومتى جاءتك هذه الرسالة العظيمة يا سيدى ؟

« قال منذ عشر سنوات أو نحوها انتهى بى تأملى لتغيرات السماء إلى التفكير فى الخيرات التى يمكن أن أضيفها إلى البشر لو أن لى سلطاناً على الفصول .

« وتأصلت فى رأسى الفكرة فقضيت الأيام والليالى أتوهم سيّداً على عناصر الطبيعة أسكب الغيث على هذا الصعيد أو ذاك ، وأجعل الشمس تشرق بعد ما تريق السحب ماءها فأحيل الجذب إلى خصب عميم ، وكنت لا أملك إلا حسن المقصد ، ولكنى ما حسبت قط أن هذه القوة سوف تكون لى .

« وجاء يوم كنت فيه أتطلع إلى الحقول تتلفها حرارة الشمس ، فامتلكت نفسى رغبة مفاجئة فى أن أستمطر الغيث على جبال الجنوب ، وأجعل النيل

يفيض ، ولم أتدبر فى لهفتى ما أنا مقبل عليه فأمرت الأمطار أن تهطل
وسرعان ما فاض النيل فعلمت أن الأمطار قد استجابت لندائى .

«قلت : ألا يجوز أن عاملاً آخر قد سبب هذا التوافق ؟ إن فيضان النيل
نتيجة للأمطار قديمة .

«قال بصبر نافذ : لا تحسبن أن أمثال هذه الاعتراضات قد فاتت على
فلطالما جادلت نفسى برغم اقتناعى ، وتشككت فى الحقيقة بعناد شديد - ولقد
ذهبت إلى الظن أحياناً بأنى مخبول وما كنت لأجرؤ على الإفضاء بهذا الأمر
إلا لرجل مثلك ، قدير على التمييز بين ما هو محال وما هو عجيب ، بين ما
هو كاذب وما هو بعيد على التصديق» .

«قلت : ما دمت تعتقد يا سيدى بأن ما تقوله صحيح فلم تنعته بأنه بعيد
على التصديق» .

«قال : لأننى لا أستطيع إثباته بالأدلة الظاهرية ، وأنا العليم بوسائل
الإثبات ، وأعرف أن رأى لن يقنع أحداً سوى إذا كان يحس بحرارة إيمانى .
لذلك لن أثير من حولى لجأجأ لإثبات رأى أمام الناس ويكفينى أنى أحس
بوجود هذه القوة فى نفسى ويكفينى أنى أباشرها كل يوم ، ولكن الأجل قصير
وأوصاب الشيخوخة تتكاثر على ، ولسوف أعود ، أنا منظم الفصول ، إلى
التراب ، ولقد اشتغل بالى منذ أمد طويل بمن ي خلفنى فى عملى هذا ، فكنت
دائم التفكير فى الليل والنهار أوازن بين صفات من أعرفهم من الناس فلم أجد
أحداً فى مثل كفايتك» .

الفصل الثالث والأربعون

« فاسمع إذا ما سأدلى به إليك واستوعبه استيعاباً كاملاً فخير العالم متوقف عليه . إننا نصف عمل الملك بأنه عمل شاق برغم أنه لا يحكم إلا ملايين معدودات من البشر ، ولا يملك لرعاياه نفعاً كثيراً أو ضرراً كثيراً ، فما أشق عملي أن المتحكم في عناصر الطبيعة سيد الضوء والحرارة جميعاً ، وهي أعظم الهبات .. اصغ إذن جيداً لما أقول .

«لقد درست موضع الأرض والشمس دراسة وافية ، ووضعت لكل منهما ألف ألف تصميم تبدل به مكانهما ، فكنت أزعج محور الأرض أحياناً ، وكنت أغير المدار الإهليلجي الذي تسبح الشمس فيه ، ولكنى لم أنته من كل ذلك إلى وضع ينفع الأرض أكثر من وضعها الحالي .

فقد كانت بعض البقاع تتففع على حساب غيرها مهما أدخلت من تعديلات ، برغم تجاهلي للأجزاء النائية التي لا نعرف عنها شيئاً من المجموعة الشمسية ، فلا يدفعك الغرور إذن إلى استحداث شيء في هذا النظام ، ولا تحسبن أن في مقدورك الظفر بالخلود لو غيرت فصول العام .

فكل ما تجنيه من ذلك شر وبيل وذكرى غير عاطرة ، كذلك لا يليق بك أن تخضع لعاطفتك أو مصلحتك ، فلا تحرم البلاد الأخرى أمطارها لتغدق الأمطار على بلادك . إنما نجد في النيل كفايتنا» .

«ووعدت صاحبي بأن أستخدم هذه السلطة يوم تؤول إلى بنزاهة لا يرقى إليها الشك . فقال : لقد أرحت الآن بالى وطمأنت فؤادى ولن يقض مضجعى بعد الآن رغبتى في عمل الخير . لقد عثرت برجل من أهل الحكمة والفضيلة ، أهبه راضياً ميراث الشمس» .

وسمع الأمير هذه القصة بجد كامل ، أما الأميرة فقد ابتسمت ،
وامتلكت نكاية نوبة من الضحك تشبه التشنج ، فقال عملاق : ليس من الكرم
ولا من الحكمة أن نسخر من هذه المصيبة ، وهي كبرى المصائب التي يمكن أن
تنزل بالإنسان ، فقليل من الناس قد بلغوا ما بلغه هذا الرجل من العلم ،
وقليل من الناس لهم ماله من نفس خيرة ، ولكن ما من أحد يأمن تماماً شر
هذه المحنة التي نزلت به . إن حياتنا الراهنة يكتنفها القلق من كل جانب ،
وأفزع مصدر لهذه المخاوف هو اختلال عقل الإنسان .

وهدأت نفس الأميرة وخبجت وصيفتها ، أما الرأس إيلاس فقد ازداد
تأثره وسأل عملاقاً عن الجنون ومنشئه ومدى انتشاره بين الناس .

الفصل الرابع والأربعون

أضرار الإسراف في الخيال

أجاب عملاق : «إن اختلال العقل بصوره المختلفة أكثر انتشاراً بين الناس مما يتوهم قصار الرأي . لو أننا توخينا الدقة التامة في التعبير لقلنا إنه ما من عقل في العالم بأسره كامل الاتزان . أجل ، ما من إنسان لا يسيطر خياله على حجاءه في بعض الأحيان ، وما من إنسان يستطيع أن يوجه انتباهه بما يرضى إرادته وحدها ويتحكم في أفكاره تحكماً مطلقاً فيسيرها حسب مشيئته . ما من إنسان لا تستبد به من حين إلى آخر أوهام جوفاء فيتمنى من الأمانى مستحيلها أو يستسلم إلى مخاوف ليس ما يبررها ، وكل تسلط للخيال في العقل درجة من درجات الجنون ، ولكن هذا التسلط لا يلحظه أحد فينا ما أمكننا أن نضبطه ونوقفه عند حده ، فلا نجد بين الناس من يصفنا بالخبيل وهو لا يعد جنوناً واضحاً إلا إذا استفحل فأثر في كلامنا وفعالنا .

«والاستسلام لسلطان الوهم وإطلاق العنان للخيال ملهاة يتلهى بها كثيراً أولئك الذين يرتاحون أكثر مما ينبغي إلى التأمل الصامت ، فحين نفرد بأنفسنا قد لا نجد ما نعمله ، وعناء التفكير المجدي في شؤون الدنيا يثقل على النفس ، ومشقة البحث والاستقصاء تنتهي إلى حالة من الخمول أو الاكتفاء ، فمن لم يجد في العالم الخارجى ما يشغله لا محالة يطلب لذته في أفكاره الخاصة ، ويتوهم في نفسه ولنفسه ما ليس فيها أولها ، فليس منا من هو راض بحاله قانع بواقعه ، وعندئذ تروته يسبح في محيط المستقبل وهو مترام بلا نهاية ،

ويبقى من مفاتن الدنيا كل ما يشتهيه في ساعته ويركبه الغرور فيتوهم لنفسه سلطاناً لا سبيل له إلى بلوغه ، وهكذا يتنقل خياله من مسرح إلى مسرح مؤلفاً بين لذات الدنيا على كل وجه ممكن ، معربداً في مجال السعادة ، وهي سعادة تعجز عن تحقيقها كنوز الأرض وطبيعة الأشياء مهما سخت .

«يمضي الوقت تتركز في الذهن فكرة معينة ، وينصرف الذهن عن كل ما عداها ، وهكذا يعود الذهن دائماً إلى هذه الفكرة المختارة كلما أضنته الحياة أو كلما تعطل عن العمل ، وهكذا يحيا الذهن على الأكاذيب البراقة كلما صدق الواقع المرير ، وهكذا يتوطد سلطان الوهم درجة درجة فيسيطر على العقل ثم يستبد به ، فإذا تم ذلك توهم المخبول الخيال حقيقة ، وامتلكت رأسه الآراء الزائفة وقضى حياته في أحلام السعادة أو في تباريح الشقاء .

«وهذه يا سيدى بعض أخطار الوحدة ، وقد اعترف الناسك بأن الوحدة لا تقضى دواماً إلى الخير ، أما محنة الفلكي فتثبت أن الوحدة قد تكون وبالا على التفكير السديد» .

قالت بيكوا : «لقد كنت أتخيل نفسي ملكة على الحبشة ، ولسوف أكف عن هذا التخيل ، فلطالما بددت الساعات التى كنت أفرغ فيها إلى نفسي بإذن من سيدتى الأميرة ، أحلم فيها بالحفلات وأنظم شئون البلاط ، فكنت أسحق كبرياء المتغطرسين وأجيب مطالب المساكين ، وكنت أبني القصور الجديدة في مواقع أكثر بشراً وأروع جمالا من مواقع القصور التى نعرفها ، وكنت أستنبت الأحراش فى أعالي الجبال ، وأنعم طويلا بعز الملوك حتى لقد كنت أوشك أن أنحنى تحية للأميرة كلما دخلت» .

وقالت الأميرة : «وأنا لم أعد أتخيل أنى راعية من راعيات الغنم كما تعودت أن أفعل فى أحلام اليقظة . لطالما هدأت نفسي إلى حياة الرعاة الطاهرة الساكنة ، حتى لقد كنت من فرط الاستسلام لهذا الحلم الجميل أتوهم الريح تصفر فى حجرتى والأنعام تشغو ، وكنت أنا أرى الحمل مشتبكاً فى أغصان

الغابة فأطلق سراحه ، وكنت أنا ألقى الذئب بعكازي ، ولي ثوب من ثياب الفلاحات كنت ارتديه ليستكمل خيالي عدته ، ولي ناي كنت أعزف عليه النغم الحنون واهمة أن القطعان في أعقابى .

قال الأمير : «أما أنا فقد كان خيالي يستسلم لحلم ذهبي أشد خطراً من كل هذه الأحلام ، فقد كنت أسعى دوماً إلى تصور الحكومة الكاملة التي تضع حداً لكل الشرور وتصلح كل الرذائل وتضمن لجميع رعاياها العيش الآمن الطاهر . وقد استولدت هذه الفكرة في رأسي عدداً لا حصر له من المشروعات والقوانين والأوامر التي ترمى كلها إلى الإصلاح الاجتماعي . أجل ، كنت أتلهى بكل هذا في وحدتى أحياناً ، أو أكد فيه وأنصب كلما واتانى الفراغ ، ولا أفيق منه إلا حين أذكر أنى بذلك أتمنى موت أبى وإخوتى .

فقال عملاق : « إن هذه طبيعة الخيال ومشروعاته ، فحين نبداً هذه المشروعات نكون على علم باستحالتها ، ثم يآلفها الذهن درجة درجة حتى تخفى علينا حماقتها .

الفصل الخامس والأربعون

الجماعة تتحدث إلى شيخ هرم

وكان المساء قد أدركهم منذ زمن فنهضوا للأوبة إلى دارهم ، وفيما هم يسرون بحذاء النيل وينعمون بمراى القمر إذ يترجرج نوره على سطح المياه ، أبصروا على بعد قليل شيخاً هرمأ كان الأمير يستمع إلى حديثه كثيراً فى مجمع الحكماء . قال الأمير : «ذاك رجل كبحت الشيخوخة شهواته ، ولكنها لم تعبث بعقله ، فلنختم أبحاث اليوم بسؤاله عما يراه فى حاله ، فنعلم إن كان الشباب دون سواه هو عهد الأمل ، ونقف على ما بقى لنا من أمل فى بقية العمر» .

وهنا تقدم إليهم الشيخ وحياهم ، فدعوه إلى المسير معهم وتحدثوا إليه تافه الحديث كما يفعل الصحاب إذا التقوا على غير موعد ، وكان الشيخ فى حالة رضية ميالا إلى الكلام ، فهونت صحبته الطريق على الجماعة وسره ما لقى من عناية فصار معهم حتى بيتهم ، ودعاه الأمير إلى الدخول فدخل . وأجلسوه فى مكان الصدارة وقدموا إليه النيذ والأطعمة المحفوظة .

قالت الأميرة : «لابد أن نزهة المساء قد عادت عليك يا سيدى وأنت العالم الجليل بمتعة لا نعرفها نحن الشباب الذين لم نصب من العلم شيئاً ، فأنت تعرف كل شىء عما ترى ، تعرف عن النهر أسرار فيضانه وتعرف دورات الكواكب ، فكل شىء يدعوك إلى التأمل ويجدد إحساسك بمكانتك» .

فأجاب : «إن الشباب القوي المرح يجد في النزهة المتعة ، أما الشيخوخة فحسبها من الحياة أن تجد الهدوء . إن الدنيا قد فقدت جدتها في نظري ، وأنا الآن أتلفت حولى لأرى ما كنت أراه في صباى الطير ، وأتكئ على شجرة لأستريح ، فأذكر كيف أنى ذات يوم كنت أقف في ظل هذه الشجرة عيناها أجادل صاحباً من أصحابي يرقد الآن تحت الثرى في فيضان النيل ، وأرفع عيني إلى السماء وأشخص ببصرى نحو القمر المتغير فأذكر الحياة وتقلباتها وفي نفسى غصة موجعة . إنى لم أعد أستطيب متع العالم المادى ، فأى صلة عادت تربطنى بهذه الدار التى سوف أرحل عنها قريباً؟» .

قال عملاق : «أقل ما بقى لك هو لذة الذكرى ، ذكرى حياتك الشريفة النافعة ، فانعم بهذه الذكرى ، وانعم بالثناء الذى يكيله لك كل عارفيك» .

قال الحكيم متنهداً : «إن الثناء عند الشيوخ كلام أجوف ، فمالى أم تزهو بصيت ولدها ، ومالى زوجة تشاركنى هذا المقام الرفيع . لقد امتد بى الآجل فدفت خلانى وأعدائى على السواء . ولم يعد فى حياتى شئ ذو بال ، فجميع آمالى قد ارتدت إلى ، إن الشباب ليرضى بالثناء لأن الثناء مقدمة لخير آجل ، والمستقبل أمام الشباب محدود ، أما أنا فقد شخت حتى الوهن ، ومن شاخ حتى الوهن لم يخفه لوم الناس ولم يرج من عطفهم أو تقديرهم شيئاً ، ولقد يستطيعون النوال منى ، ولكنهم لن يستطيعوا نفعى بشئ ، فالمال لم تعد له قيمة ، ورفعة المقام تتمنى أكثر مما تسعد . إن استعراض الماضى يذكرنى بفرص ذهبية عديدة أهملتها ، وبالوقت الذى أضعته على التوافه وهو كثير ، وبساعات الفراغ والخمول وهى أكثر ، وهأنذا أقرب من حافة القبر ولما أبدأ بعد مشاريعى الجسام أو أتم منها ما قد بدأت ، وإنى لم أسئ إساءة كبرى تقضى مضجعى ولذا أطمع فى الهدوء ، وإنى لأتجنب الآمال والأمانى التى يتعلق بها قلبى بعد هذه السنين الطوال برغم أن عقلى يرى بطلانها ، وأنا الآن أنتظر اللحظة التى أستوفى فيها أجلى راضى النفس صافى الضمير ، وأرجو أن

أصيب فى حىاتى الثانية تلك السعادة التى فاتنى أن أصيبها فى هذه الحىاة ،
وأن أبلغ الفضيلة التى وقفت هنا ببابها ولم ألج .

ثم نهض وانصرف تاركاً خلفه سحابة من الئاس خيمت على سامعيه ،
فزهدتهم فى الحىاة المديدة ، وجلا الأمير الغمة بقوله إن حديث الشيخ
لا يحزن ، فما زعم أحد أن الشيخوخة عصر السعادة ، فإذا كانت الطمأنينة
من نصيب الشيخوخة فلعل السعادة من نصيب الشباب ، عهد القوة والنشاط ،
وإذا كان مساء الحىاة هادئاً ساجياً فظهرها ناصع الضياء .

وقالت الأميرة إن الشيخ لئام يضيئون بكل شئ ، وراقها أن تفجع
الصغار فى آمالهم ، فقد رأت المالكين يحسدون ورثتهم على ما سيئول إليهم من
نعم ، لقد رأت من العجائز من لا ينعمون بلذة من اللذات إذا شاطرهم إياها
سواهم .

ورأت بيكوا أن الشيخ لابد أن يكون أكبر سنّاً مما يلوح ، ونسبت شكاته
إلى الكآبة والهذيان ، أو إلى سوء حظه فى الحىاة قائلة : «ما أيسر أن يتوهم
كل إنسان أن الحىاة عامة صورة من حىاته الخاصة » .

ولم يشأ عملاق أن يفسد عليهم الجو ، فابتسم لما سمعه من الآراء التى أخذ
كل منهم يعزى نفسه بها ويعزى الآخرين ، وذكر أنه كان فى مثل عمرهم واثقاً
من السعادة وثوقهم ملتئماً مثلهم ما شاء من أسباب العزاء ، فتجنب أن يقحم
عليهم تجاربه الأليمة تاركاً ذلك للزمن وهو لا يمهل . وانسحبت الأميرة
ووصيفتها وقد اشتعل خيالهما بترهات الفلكى المخبول ، فرغبنا فى سؤال
عملاق أن يتعلم فنه ويؤجل بزوغ الشمس فى الصبأح التالى ..

الفصل السادس والأربعون

الأميرة وبيكوا تزوران الفلكي

بعد أن تحدثت الأميرة وبيكوا على انفراد على الفلكي الذي تكلم عنه عملاق استقر رأيهما على زيارته ، فقد بدا لهما شخصية جذابة غريبة ينبغي أن تمتحن عن قرب ، ثم سألتا عملاقاً أن يدبر بينهما اللقاء المشنود .

ولم يكن هذا بالأمر اليسير ، فالفلكي لم يأذن لامرأة بدخول داره طول حياته ، برغم أنه كان يعيش في مدينة يقيم فيها كثير من الأوروبيين الذين يتبعون عادات بلادهم ، كما يقيم فيها نزلاء جاءوها من جميع بقاع الأرض وأخذوا عن الأوروبيين حريتهم ، ولكن السيدتين لم تقنعا بالهزيمة وذهبتا تضعان الخطط المختلفة لتنفيذ مآربهما ، وقد كان من هذه الخطط أن يقدمتا إلى الحكيم بوصفهما غريبتين في محنة ترجوان الغوث ، والحكيم لم يوصد بابه قط في وجه ملهوف ، ولكن الجماعة نزلت عن هذه الخطة بعد شيء من التروى ، فقد وجدت أن حيلة كهذه لا تتيح لهما مخالطة الفلكي ، ولا تجيز لهما الإلحاف في السؤال . قال الرأس إيلاس : « كل هذا صحيح ، ولكن عندى على استخفائكما اعتراضاً أقوى من ذلك ، لقد كان رأيى الثابت أن الاستفادة من سذاجة الناس مهما كان الدافع إليها جبن وتلويث لا شك فيه للطبيعة الإنسانية . إن الغش بجميع درجاته وأنواعه يهدم الثقة ويطفئ سراج الخير ، وحين يتبين الحكيم حقيقتكما سوف يغضب غضبة رجل عظيم الذكاء أدرك أن من دونه ذكاء قد غرروا به ، ولقد يودى ذلك إلى الأبد بثقته

فى الناس ، فىقبض عنهم نصحه وهو غال ، وىمنع عنهم جوده وهو سخي .
ومن أين لنا بعد هذا بما ىرد إىله طمأنينة نفسه أو إىمانه بالناس ؟ » .

ولم ىجب أحد على هذا بشىء ، وأنشأ عملاق ىعلل نفسه بأن فضول
السىدتين سوف ىخمد ، ولكن السىدة ىىكوا جاءته فى الیوم التالى تقول له إنها
اهتدت إلى عذر شریف ىسدىانه للفلكى حىن زیارته ، فهى تحب أن ترجوه فى
أن يأذن لها بإتمام الدراسة التى بدأتها بإشراف العربى ، وللأمیره أن تصحبها
باعتبارها زمیلة فى الطلب ، أو باعتبارها صاحبة تحرس خطاها ، فالنساء
الفاضلات لا ىخرجن من دورهن فرادى .

قال عملاق : « أعتقد أن سىمل صحتكما سریعاً ، فمن كان مثله غزیر
العلم لا ىحب أن ىعید ما قاله بالأمس فى مبادئ العلم ، وإنى لأشك فى
مقدرتك على التحصیل ، مهما أسف الحكیم إلى المبادئ الأولى ، فلسوف
یمزج شرحه بتأملاته الخاصة ، لسوف ىضیف إلى تفسیراته ما تیسر له من
استنتاجات » .

فأجابت ىىکوا : « هذا شأنى أنا ، وكل ما أطلبه منك أن تمضى بى إىله
فلقد یتجاوز علمى كل ما تتوهم ، لسوف أومن على كل رأى ىیدیه فىتوهم
أن علمى أوسع مما هو فى الواقع » .

ولتحقیق هذا الرأى قیل للفلكى إن سىدة أجنیة تسافر طلباً للمعرفة قد
بلغها صیته فسعت إىله تتلمذ علیه ، وقد عجب لهذا الاقتراح وثار فضوله ،
وبعد ترو قلیل أذن لها بالقدوم ، وانتظرها بصبر نافد حتى الصبأح التالى .

وارتدت السیدتان أفخر ما تملكان من ثیاب وقادهما إلى الفلكى عملاق ،
وسر الفلكى أن ىجد نفسه موضع احترام تلکما السیدتین العظیمتین ، وقد بدا
علیه الانکماش والحیاء حىن كانوا یتبادلون عبارات الترحیب ، ولكنه استرجع
هدؤه لما انتظم الحدیث ، وسأل ىىکوا عما دفعها إلى دراسة الفلك ، فقصت
علیه قصة مغامرتها قرب الهرم وما كان من مقامها فى جزیره الأعرابى .

وكانت ييكونا تروى روايتها فى يسر ورشاقة حتى امتلك حديثها على الحكيم حواسه ، ثم دار الحديث حول الفلك فبسطت ييكونا أمام الحكيم علمها ، فتوسم الحكيم فيها النبوغ ، ورجاها أن تتم ما قد بدأت من دراسة بعد أن أصابت كل هذا التوفيق .

وتجددت الزيارات فما صادفوا إلا الترحيب المطرد ، وحاول الحكيم أن يدخل السرور على أفئدتهم حتى يطول مكثهم ، فقد كان يجد أن صحبتهم تشحذ عقله وتثير جنانه ، وزالت عنه غمة الوحشة درجة درجة فقد تولى الترفيه عن أضيافه برغم قصوره فى هذا الباب ، وكان يحزن كلما غادروه ويضيق بحساباته الفلكية .

وكانت الأميرة وصفيتها أشد ما تكونان التفاتاً إلى كل كلمة يتفوه بها الحكيم ، ومضت بضعة شهور على هذه الحال ، ولكنهما لم يظفرا منه بنطق ما يدل على إيمانه بقوته الخارقة على تنظيم الفصول ، وقد اجتهدتا كثيراً أن تستخلصا منه قولاً صريحاً فى هذا الصدد ، ولكنه كان يتخلص كل مرة من هذا الإحراج بمهارة ويتقل بالحديث إلى موضوع آخر .

ولما اشتد ما بينهم من ود دعتهم السيدتان إلى دار عملاق حيث أحيط الحكيم بمظاهر التجلة التى لا نظير لها ، وبدأت ملذات هذا العالم تجذبه شيئاً فشيئاً ، فكان ييكونا فى الحضور ولا ييرج الدار إلا متأخراً ، وسعى جهده أن يحييهم فى محضره بالمواظبة وإجابة رغباتهم ، وأن يثير فضولهم للمعرفة الجديدة حتى يحسوا بحاجتهم إلى معونته ، وقد كان يرجوهم أن يقبلوه فى معيبتهم كلما خرجوا فى نزهة أو رياضة .

وبعد هذا الاختبار الطويل لحكمته وأمانته انتهى الأمير وأخته إلى ائتمان جانبه وقد أطلعاه على حقيقة حالهما مخافة أن يخدعه أدبهما فيطمع فى العطاء ، وشرحا له مقصدهما من الأسفار وسألاه النصيح فى تخير «الحياة السعيدة» .

قال الحكيم : « الحياة تعرض عليكما وجوها وليس فى وسعى أن أدلكما على أسعد هذه الوجوه ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنى قد أسأت الاختيار ، فلقد أنفقت عمرى فى الدراسة ففاتنى الاختبار ، وما درست من العلوم إلا أقلها نفعاً لبنى الإنسان . أجل ، لقد كان الثمن الذى اشتريت به المعرفة نزولى عن سائر أسباب الراحة فى الحياة ، فضاعت منى صحبة النساء وهى جميلة ، وضاع منى حنان الأسرة وهو من أسرار السعادة ، ولقد كان امتيازى على سواى من العلماء امتيازاً يلبسه الخوف والقلق والحرص الشديد ، ولقد بدأت أشك فى قيمة هذا الامتياز ذاته منذ أن ازداد احتكاكى بالدنيا فتفتحت نفسى للحياة واتسعت أفكارى ، وكلما مرت بى أيام أنعم فيها بلذة الحياة خيل إلى أن دراستى قد انتهت بالضلال ، وأنى قد شقيت دهرى دون ما جدوى » .

وسر عملاقاً أن يرى الغشاوة تسقط عن بصر الحكيم والغيوم تنقشع عن بصيرته ، واعتزم أن يبعده ما أمكن عن أجرامه السماوية لعله ينسى ما ذهب إليه من إخضاعها لإرادته ، فيسترد بذلك رشده ويثوب إلى صوبه .

ومنذ ذلك اليوم غدا الفلكى صفياً من أصفيائهم ، وشاركهم لهوهم وجدهم ، فكان احترامه لهم يحمله عن الالتفات إلى كل ما يقولون ، وكان نشاط الرأس إيلاس يملأ كل فراغه ، وهكذا ازدحمت أيامهم : فالنهار يقضى فى اختبارات تزود الليل بمادة الحديث ، أما الليل فينتهى بمشروع جديد للنهار .

واعترف الحكيم لعملاق بأن اعتقاده بسيطرته على الأفلاك قد أخذ يتلاشى من ذهنه درجة درجة منذ أن اتصل بجماعتهم المرحّة ، وأخذ يوزع ساعاته بين أسباب السرور ، وشهد له بأنه قد بدأ ينزل عن نظريته التى عجز عن إثباتها للآخرين ، فهو يراها تتبدل كل يوم دون ما سبب معقول . قال : « ولو انفردت بنفسى ساعات قليلات امتلكنى هذا الاعتقاد الراسخ وتسلطت على نفسى قوة لا قبل لى بها ، فما إن أتحدث إلى الأمير أو تدخل على بيكوا حتى أتحرر من هذا الاعتقاد وتنطلق نفسى من هذه الأغلال . . وإن مثلى لمثل رجل

يخشى الأشباح كلما رآها ، وتطمئن نفسه إن جاءه مصباح ، ويعجب للمخاوف التي نهشته وسط الظلام ، فإذا ما انطفأ مصباحه عادت إليه مخاوفه من جديد وهو يعلم أنها سوف تتبدد مع النور ، غير أنى أخشى من حين لآخر أن ينتهى بى حب الهدوء إلى إهمال عملى ، وهو جريمة نكراء ، وأن أنسى الرسالة الجليلة التي كلفتنى المقادير بأدائها فى الحياة ، فلو أنى حابيت نفسى فى مثل هذا الخطأ الشائع أو زينت لى الراحة أن أنفض يدى من هذا الأمر الخطير الذى لم يتبين بعد صوابه من ضلاله ، فلن أغفر لنفسى هذا الجرم ما حييت .

فأجاب عملاق قائلا : « ليس بين أمراض الخيال ما استعصى على العلاج كمخافة الخطيئة ، فالوهم والضمير يصطلحان عندئذ علينا ، ويختلطان فى نفوسنا فلا نعود نميز بين هواجس الوهم وأوامر الضمير ، والخيال قد يهين لنا أشياء تتنافى مع الدين أو مع الأخلاق ، فلا يجد الذهن عسراً فى طردها من نفوسنا ، أما إذا تقمصت الأفكار السوداء صورة الواجب فهي تنشب مخالبتها فى النفس دون أن تجد ما يردها ، فنحن نخاف أن نتخلص منها ، لهذا تجد أن المستسلمين للخرافات أكثرهم من أصحاب الأفكار السوداء ، كما تجد أن أكثر أصحاب الأفكار السوداء يؤمنون بالخرافات .

« ولكن لا تدع هذه المخاوف تصرع تفكيرك الرشيد ، فإهمالك رسالتك لا يزيد احتمالاً عن قيامك بواجبك ، ولو قد نظرت إلى واجبك نظرة مجردة من كل قيد لوجدت أن هذا الواجب فى ذاته ضئيل ، وأن هذا الواجب على ضآلته يتضاءل يوماً بعد يوم ، فافتح إذن فؤادك للنور الذى يشرق عليه من حين لآخر ، فإن عذابك نداء ضميرك وأنت تعلم فى لحظات صحوك التام أنه نداء زائف ، لا تضيع وقتك فى الجدل ، بل بادر إلى العمل وأطلب صحة بيكوا ، ولا تنس قط أنك لا تتجاوز أن تكون ذرة تافهة فى محيط الإنسانية الكبير ، وأنت لم تزود بفضيلة من الفضائل الكبرى حتى تختصك السماء برضاها ، ولا برذيلة من الرذائل الكبرى حتى تنفرد بغضب السماء » .

الفصل السابع والأربعون

الأمير يدخل ويغير موضوع الحديث

قال الفلكي : « ما أكثر ما تدبرت كل ما تقول ، ولكن عقلى قد استعبده زمناً طويلاً فكرة جبارة لا سبيل إلى ردها حتى غدا قليل الإيمان بما يصل إليه من نتائج . وإنى لأرى الآن كيف أفسدت سلام حياتى حين استسلمت فى دخلية نفسى للترهات ، ولكن الأفكار السوداء تجعل صاحبها يخشى أن يصارح الغير بها ، ما وجدت قبلك رجلاً أستطيع أن أسر إليه أوجاعى برغم أنى كنت واثقاً من أن التنفيس يزيل غمتى ويرفع كدرى ، وإنى لسعيد بأن أجد فى رأيك ما يدعم رأى ، وأنت الحضيف الذى لا يسهل خداعه ، وأنت الأمين الذى لا يجد مبرراً لخداعى ، وآمل أن يبدد الزمن والحياة المتجددة هذه الكآبة التى اكتفتنى ، فأقضى بقية عمرى فى سلام . . . »

فقال عملاق : « إن سعة علمك وكرم نفسك لخليقان بأن يحققا لك هذا الرجاء » .

وعندئذ دخل عليهما الرأس إيلاس ومعه الأميرة وبيكوا ، وسألهما عما أعدها من جديد لمتعة الغد .

وقالت نكايه : « هذه شيمة الحياة ، فما من أحدهم يجد السعادة إلا فى انتظار الجديد ، والتغيير فى ذاته لا قيمة له ، فحين يتحقق لنا التغيير نطلب تغييراً جديداً . إننا لم نستنفد كل ما فى الدنيا من وجوه جديدة فلنبحث غداً عن شىء لم أره من قبل » .

قال الرأس إيلاس : « إن السعادة لا تكون بغير التغير ، فالوادی السعيد ذاته قد عافته نفسی لأن نعيمه كان رتيب الصور ، ولكنی لم أستطع أن أمسك عن تأنيب نفسی حين رأيت رهباناً القديس أنطونيوس صابرين يتحملون الحياة الشاقة الرتيبة الصعاب لا الحياة اللينة الرتيبة اللذات . »

فأجاب عملاق قائلاً : « إن أولئك الرهبان أقل تعساً في ديرهم الهادئ من أمراء الحبشة في سجن السعادة ، فالراهب يعمل ما يعمل مدفوعاً بعوامل كافية ومسوغات معقولة ، وكدهم يأتيهم بضروريات الحياة ولا بد أن يحسب حسابه ، وهو لاشك يؤتي ثمره ، وتهجدهم يعد نفوسهم للعالم الآخر ويذكرهم بقرب مجيئه ، أما وقتهم فموزع توزيعاً منظماً ، والواجب في أعقابه واجب ، فهم لا يتعرضون لملل الفراغ أو لملل الخمول ، إنما لكل وقت عمله ، وهم يكدحون راضين لأنهم يرون في كدحهم مظهراً من مظاهر الورع يقربهم باطراد من السعادة الأبدية . »

قالت نكاية : « أو تعتقد أن نظام الرهبانية أقرب إلى الكمال أو أقل نقصاً من أي نظام آخر ؟ ألا يأمل في النعيم من خالط الناس واندمج فيهم فأغات ملهوفهم بإحسانه ، وعلم جاهلهم ببيانه ، وساهم بجهدده في بناء الحياة ، وإن لم يعذب نفسه على غرار الرهبان ، وإن أقبل على برئ اللذائذ التي تضعها الحياة في طريقه ؟ »

فأجاب عملاق : « إن هذه المسألة قد اختلف فيها الحكماء وحرار فيها أهل الخير منذ القدم ، فكيف أقطع فيها الآن برأى ؟ إن من يحيا حياة صالحة بين الناس لخير ممن يحيا حياة صالحة بين جدران الدير ، ولكن لعل بعض الناس لا يقوون على مقاومة الغوايات في الحياة الاجتماعية ، ومن لم يستطع أن يتتصر على الغواية فله أن يتراجع أمامها . فمن الناس من كانت قدرتهم على فعل الخير وقدرتهم على مقاومة الشر ضئيلة محدودة ، ومن الناس من أعماهم صراعهم مع الشدائد فأحبوا أن يتخلصوا من مصدر الشر بأنهم ، من الناس من

أقعدتهم الشيخوخة أو أقعدهم المرض عن العمل المضنى الذى يقتضيه المجتمع من أبنائه . وفى الدير يعتصم العجزة والجازعون من الحياة ، وفى الدير يرتاح المتعبون ويفرغ الخطاة إلى التأمل فى توبتهم . وإن فى هذه المعتكفات التى يتجرد فيها الإنسان للعبادة والتأمل راحة للعقل أى راحة ، ونحن لانكاد نجد رجلاً واحداً لا يتمنى أن يقضى بقية أيامه فى التجرد والتقوى بين نفر من أصحابه يشبهونه فى التجرد والتقوى .

قالت بيكسوا : « إن هذه لأمنيتى فى الحياة ، ولقد سمعت الأميرة تقول إنها تكره أن تموت بين الناس » .

ومضى عملاق فى حديثه قائلاً : « إن حق الإنسان فى اللذات البريئة لا جدال فيه ، ولكننا لا نعرف بعد أى اللذات برئ وأيها خبيث ، والشر الذى يصاحب أى لذة تتصورها نكاية ليس فى اللذة ذاتها ولكن فى عواقبها ، فاللذة فى ذاتها بريئة ، ولكنها قد تعود علينا بالأذى إذا حبست إلينا العرض الزائل وصرفتنا عن التفكير فى الأبدية التى نقرب من بدايتها ساعة بعد ساعة ، ولا يستنفدها مر الأيام وانطواء العصور . وتعذيب النفس ليس فى ذاته فضيلة ، ولا نفع فيه سوى أن يصرفنا عن مغريات الحواس . أما الحالة المثلى التى سنصير إليها فى قابل الأيام ونتطلع إليها جميعاً منذ الآن ففيها اللذة منزهة عن الأخطار ، وفيها الأمن الذى لا يكلف أحداً كذاً ولا كدحاً » .

وسكتت الأميرة ، والتفت الرأس إيلاس إلى الفلكى وسأله إن كان يستطيع أن يؤجل اعتكافها بصور جديدة من العالم يعرضها عليها .

فأجاب الحكيم قائلاً : « لقد كان حبكم للاستطلاع قوياً ورغبتكم فى المعرفة شاملة فلم تتركوا من صور الحياة إلا قليلاً ، ولكن ما تضمن به الحياة قد يجود به الموت ، فمن عجائب هذه البلاد مقابرها ، وهى سراديب وضعت فيها أجداث الأولين ، وحفظها التحنيط بالعقاقير من البلى ورد عنها العفاء » .

قال الرأس إيلاس : « أنا لا أفهم كيف تكون زيارة المقابر مبعثاً للسرور ، ولكنى قد عازمت على رؤيتها لأننى لا أجد ما أراه سواها ، ولسوف أضيف هذا العمل إلى الأعمال الكثيرة التى أتيتها دفعاً للفراغ ليس إلا » .

واستأجرت جماعتهم نفراً من الفرسان للحراسة ، وخرجت فى اليوم التالى إلى المقابر ، وحين هموا بالنزول فى كهوف الموتى قالت الأميرة : « أى بيكوا ، ها نحن أولاء نؤم منازل الموتى للمرة الثانية ، وأنا أعلم أنك سوف تتخلفين ، فأرجو أن أجذك سالمة حين أعود إليك » فأجابت بيكوا : « بل سوف أنزل معكما القبر ، وليكن موضعى بينك وبين الأمير ، فلن أتخلف هنا بمفردى » . وهبطوا جميعاً فى السراذيب التى تفضل فيها خطى الزائرين حيث نام الموتى مصففين على الجانبين .

الفصل الثامن والأربعون

عملاق يتحدث عن طبيعة الروح

قال الأمير : « وماذا دفع المصريين إلى أن يتكبدوا كل هذه النفقات ليحفظوا أجداثهم من البلى ، على حين نجد أقواماً تحرق الجثمان وأقواماً تضع الجثمان فى التراب ليختلط الجثمان بالتراب ، وقد أجمع الجميع على التخلص من موتاهم بعد أن تجرى لهم طقوس الموت الكافية مباشرة؟ » .

قال عملاق : « إن منشأ العادات القديمة لا علم لأحد به ، وكثيراً ما تدوم العادة بعد اختفاء الداعى الذى سببها ، أما المراسم الخرافية فلا جدوى من التفكير فى أصولها ، لأنها ليست من عمل العقل ، ومالم يخلقه العقل لا يستطيع العقل أن يفسره ، وقد كان رأى الثابت أن عادة التحنيط تنشأ من وفاء الناس لأجداث الأهل والأصحاب ، ومازلت عند رأى هذا و يؤيدنى فيه أن مثل هذه العادة لا يمكن أن تكون عادة شائعة ، فلو أن كل من ماتوا حنطوا لتجاوزت مساكن الموتى مساكن الأحياء ، وأعتقد أن سراة الناس وأماجدهم قد حفظوا دون سواهم من العفاء ، أما سائر الناس فقد تركوا للطبيعة تجرى فيهم مجراها .

« ولكن رأى الشائع هو أن المصريين كانوا يعتقدون بأن الروح تعيش ما عاش الجسد ؛ ولذا فقد ابتكروا هذه الطريقة ليتجنبوا الموت » .

قالت نكاية :- « كيف استطاع المصريون أن يتوهموا هذه الأوهام الساذجة عن الروح ؟ فلو أن الروح استطاعت أن تعيش بمفردها بعد انفصالها عن الجسم فماذا تستفيد الروح من الجسم وماذا تخشى منه ؟ » .

وقال الحكيم : « لم يكن بد أن يضل المصريون فى تفكيرهم أيام كانوا فى ظلام الوثنية وفى فجر الفلسفة . وإن طبيعة الروح لا تزال موضع بحث الباحثين برغم كل ما لدينا من فرص المعرفة الدقيقة ، وإن من الناس من يقول إن الروح قد تكون مادية الجوهر ، ومع ذلك فهو ينسب لها الخلود » .

فأجاب عملاق قائلًا : « حقًا إن بين الناس من يرى أن الروح من مادة ، ولكن لا أعتقد أن بين أصحاب هذا رأى واحداً من أصحاب الفهم والمنطق فجميع دلائل العقل تؤكد أن الذهن مجرد من المادة ، وجميع دلائل الحس وأبحاث العلم تتفق فى إثبات خلو المادة من الوعى .

» فما من أحد يرى أن التفكير خاصة من خواص المادة ، أو أن كل دقيقة من دقائق المادة كائن مفكر . ومع ذلك لو جردنا كل جزء من أجزاء المادة من التفكير ، فأى جزء من أجزاء المادة يمكن أن ننسب له التفكير الذى نرى فى الحياة . إن المادة لا تختلف عن المادة إلا فى الشكل وفى الكثافة وفى الحجم وفى الحركة وفى اتجاه الحركة ، فبأى هذه الخصائص نستطيع أن نربط الوعى سواء فرادى أو مجتمعات . فالشكل المستدير والشكل المربع والصلابة والسيولة والضحامة والضآلة ، وبطء الحركة وسرعتها فى هذا الاتجاه أو فى ذاك ، كل هذه حالات للوجود المادى كلها بعيدة عن طبيعة التفكير ، وهى بعيدة عنه بعداً متساوياً ، فإذا كانت المادة خلواً من التفكير فلا سبيل إلى التفكير إلا إذا دخل عليها تحول جديد ، ولكن كل تحول يمكن أن يدخل على المادة لا صلة بينه وبين قوة التفكير » .

قال الفلكى : « ولكن الماديين يحتجون بأن المادة قد تكون لها خواص لا علم لنا بها » .

فأجاب عملاق : « ليس من عقلاء الناس من يقطع بفساد ما يعلم لمحض احتمال وجود ما لا يعلم ، ويرجح الإمكانية المفترضة على الثابت المقرر ، فكل ما نعرفه عن المادة أنها خاملة ، لا حس فيها ولا حياة ، فإذا لم نجد مفنداً لهذا رأى فى المادة إلا إمكان وجود شيء ، لا نعلمه ، فقد اجتمع لنا

كل ما يقنع المنطق الإنساني . فلو أن ما لا نعلم ينسخ في أذهاننا ذلك الذى نعلم لما وصل كائن إلى اليقين إلا الكائن الأعلى الذى تناول علمه كل شيء » .

قال الفلكى : « ولكن فى هذا حدًا وقفًا لقدرة الخالق ، فلتجنبه » .

قال الشاعر : « نحن لا نحد قدرة الخالق التى تتناول كل شيء إذ نقول إن الشيء مناقض لغيره ، أو أن القضية الواحدة لا يمكن أن تكون صحيحة وكاذبة فى وقت واحد ، أو أن العدد الواحد لا يمكن أن يكون فرديًا وزوجيًا معًا ، أو أن التفكير لا يمكن أن ينسب إلى شيء عاجز عن التفكير بحكم تكوينه » .

قالت نكايه : « أنا لا أرى جدوى للبحث فى هذا الموضوع ، لقد أثبت لنا بما يكفى تجرد الروح من كل مادة من حيث تكوينها ، فهل لا مادية الروح هذه تتضمن بالضرورة مبدأ الخلود ؟

أجاب عملاق : « إن علمنا باللامادية علم سالب كله ، وهو لهذا غامض . ولكن يبدو أن اللامادية تتضمن القدرة الطبيعية على البقاء الأبدى ؛ لأن اللامادية معفاة من جميع أسباب الانحلال والفناء ، فكل ما يفنى بانحلال الأجزاء التى يتركب منها نسيجه ، يفنى بتفكك أجزائه ، ونحن لا نستطيع أن نتصور كيف أن شيئًا لا أجزاء له ، وبالتالي غير قابل للتفكك ، يخضع لعوامل التعفن والهدم التى تلازم الطبيعة » .

قال الرأس إيلاس : « أنا لا أستطيع أن أتصور وجود شيء لا امتداد له ، وكل ما له امتداد له بالضرورة أجزاء وكل ماله أجزاء باعترافك يخضع للهدم » .

فأجاب عملاق : « تأمل أفكارك يُسهِّلُ عليك الاقتناع بما أقول ، فأفكارك جوهر لا امتداد له ، والصور المجردة لا تقل واقعية عن الماديات ذات الأحجام ، ومع ذلك فالصور المجردة لا امتداد لها ، وحين تفكر فى الهرم فذهنك يحوى صورة مجردة للهرم ، وهذه الصورة موجودة فى الواقع وجود الهرم ذاته فى الواقع ، فأى فرق هناك بين الفراغ الذى تملؤه فى ذهنك فكرة الهرم والفراغ الذى تملؤه فى ذهنك فكرة حبة من حبوب القمح ؟ وهل يمكن تمزيق هذه

الفكرة أو تلك ؟ والعلة كالنتيجة ، وما تقوله فى الفكر تستطيع أن تقوله فى القوة المفكرة ، إنها قوة سالبة لا تدرك .

قالت نكاية : « ولكن الكائن الذى تضطرب لذكره نفسى ، الكائن الذى خلق الروح مستطيع أن يحطمها » .

فأجاب عملاق : « لاشك أنه مستطيع أن يحطمها ، فمهما تكن الروح خالدة فهي تستمد قدرتها على البقاء من طبيعة أسمى من طبيعتها ، وبالفلسفة ثبت أن الروح لن تتلاشى نتيجة لعوامل الانحلال أو ناموس الفناء ، ولكن الفلسفة تقف عند هذا الحد ، وهنا نحتاج إلى حجة أسمى تلهمنا أن الخالق الذى خلق الروح لن يحطمها » وبعد أن فرغ عملاق من كلامه ساد الصمت بين الجميع وثاب كل إلى نفسه . وقال الرأس إيلاس : « ألا فلنغادر هذه الدار ، دار الموتى ، فما أشد كآبتها لمن جهل أنه باق لا يموت ، لمن جهل أن القوة التى تعمل الآن ماضية فى نشاطها ، لمن جهل أن الروح التى تفكر الآن سوف تفكر إلى أبد الأبدى . إن من نراهم أمامنا ممددين ، وهم حكماء العالم القديم وسادته ، إنما يذكروننا بقصر حالتنا الراهنة ، ولعل المنية اختطفتهم وهم يشتغلون اشتغالنا بالبحث عن السعادة » .

قالت الأميرة : « إن البحث عن السعادة فى دار الفناء لم يعد الآن يشغلنى كما كان يشغلنى من قبل ، ورجائى منذ الآن أن أنقطع للبحث عن السعادة الأبدية دون سواها » .

وخرجوا من المقابر مسرعين ، وعادوا إلى القاهرة فى حمى الحراس .

الفصل التاسع والأربعون

الخاتمة التى لا تختتم شيئاً

وحل وقت فيضان النيل ، فبعد زيارتهم لمقابر الأولين بأيام قليلة بدأ صدر النهر يرتفع .

ولزموا دارهم ، ورغبوا عن الرحلات ، لأن الماء قد غمر المنطقة كلها ، ووجدوا كفايتهم من الحديث لإزجاء الفراغ ، فوازنوا بين صور الحياة التى رأوا ، وتبادلوا الأمنى ، فقد رسم كل لنفسه خطة تهديه إلى الحياة السعيدة فى قابل الأيام .

أما ييكوا فلم تر شيئاً سحر خيالها كدير القديس أنطونيوس ، حيث ردها الأعرابى إلى سيدتها الأميرة ، وكان قصارى رجائها أن تملأ جنبات ذلك الدير بالعزاري الطاهرات ، وأن تُنصَّبَ عليهن رئيسة ، ولقد أمضها طول الانتظار وعافت الحياة المتقلبة ، فوجدت سعادتها فى التماس الحياة الثابتة التى لا يحدث فيها جديد .

ورأت الأميرة أن أثمن ما فى الحياة الدنيا هو المعرفة ، فتمنت أن تدرس جميع العلوم أولاً ، ثم تؤسس مدرسة تجمع فيها عالمات النساء وتديرها بشخصها ، وهكذا توزع وقتها بين تحصيل المعرفة وإعطائها للغير ، تتحدث إلى الكبيرات وتؤدب الصغيرات ، وتعد للجيل القابل نماذج من الحزم والصلاح .

وتمنى الأمير مملكة صغيرة يقيم فيها العدل بنفسه ، ويشرف على جميع فروع الحكومة ، ولكنه تردد فى تحليد تخوم دولته ومد سلطانه على رعايا جلد كل يوم .

بقى عملاق والفلكى ، وقد ترك كل منهما نفسه يطفو فى تيار الحياة قانعاً
بذلك ، لا يطلب وجهة ولا يسعى إلى مرفأ معين .

ولكن الأمانى جميلة ، وقد كانا يعلمان أن منالها محال ، فتشاورا قليلاً
فيما ينبغي عليهما عمله ، وأخيراً قررا أن يعودا إلى الحبشة بعد انتهاء الفيضان .

تمت الترجمة فى باريس ١٩٤٦

شیخ
کانتز قیل

الفصل الأول

عندما ابتاع مستر هيرام ب. أوتيس وزير أمريكا المفوض فى بلاط سانت جيمس قصر كاترفيل لأمه جميع عارفيه ووصفوا عمله ذلك بأنه حماقة كبرى، فما من شك فى أن القصر كان « مسكوناً »، بل إن لورد كاترفيل ذاته، وهو رجل يقدس الشرف، قد رأى أن من واجبه تنبيه مستر أوتيس إلى هذه الحقيقة حين أخذ يدرسان شروط البيع، فقال :

- يجب أن أذكر لك يا مستر أوتيس أننا قد نرحنا عن القصر منذ أن أصيبت عمة أبى دوق بولتون بنوبة رعب شديد لم تشف منها تماماً حتى هذه اللحظة، فقد كانت ترتدى ثياب السهرة ذات مساء تأهباً للعشاء، فإذا بها تحس بىدى هيكمل عظمى تستقران على كتفيها، والواجب يلزمنى أن أذكر لك يا مستر أوتيس أن جملة أفراد من أسرتى لا يزالون على قيد الحياة قد رأوا الشبح رؤية العين، كما رآه أسقف الأبروشية، نيافة أوغسطس دامبير، الزميل بكلية الملك بكامبريدج، وقد تركنا أكثر خدمنا من الشباب منذ حادثة الدوقة، ولازم الأرق لىدى كاترفيل بسبب ما تسمعه أثناء الليل من أصوات رهيبة تنبعث من الدهليز ومن مكتبة القصر.

فأجاب الوزير المفوض قائلاً :

- أنا يا سيدى اللورد سأشتري الأثاث والشبح حسب تقدير الخبير، فالبلاد التى أنتمى إليها بلاد عصرية، فيها كل ما يمكن للمال أن يستتاعه، واعتقادى أنه لو كان فى أوروبا شبح حقاً لاقتنصه فوراً شبابنا المتأنقون الذين يفدون عليكم كل عام، ويفتحون الدنيا القديمة فتح الغزاة ويعودون إلى الدنيا

الجديدة بخيرة مثليكم ومثلاتكم ، ولرايناها معروضاً فى متحف من متاحفنا
أو فى شارع من شوارعنا .

قال لورد كانترفيل :

ولكن وجود الشبح حقيقة مقررة وإن كان مندوبوكم الأذكىاء لم يعثروا
عليه ، ونحن نعلم بوجوده منذ ثلاثة قرون ، أو منذ سنة ١٥٨٤ على وجه
التحديد ، وهو يظهر كلما حضرت الوفاة فرداً من أفراد الأسرة .

- هذا يصدق عن طبيب الأسرة كذلك يا لورد كانترفيل ، ولكنى أجزم
ياسيدى بأن الأشباح لا وجود لها ، وأعتقد أن الطبيعة لن تغير مجراها إرضاءً
للأرستقراطية البريطانية .

ولم يفهم لورد كانترفيل عبارة مستر أوتيس الأخيرة ، وأجاب قائلاً :

- ما أشد إيمانكم بالمنهج العلمى ، معشر الأمريكين ! ، وإذا كان
لا يضيرك أن تقيم فى بيت « مسكون » فلا بأس عندى من هذه الصفقة ،
ولكن لا تنس أنى حذرتك .

وقمت الصفقة بعد أسابيع قليلة ، وما انتهى الموسم إلا وقد انتقل الوزير
المفوض وأسرته إلى قصر كانترفيل ، أما مسز أوتيس فقد كانت قبل زواجها
بالوزير تسمى الأنسة لوكرشيا تابان ، وتسكن الشارع الثالث والخمسين الغربى ،
وكانت من أشهر جميلات نيويورك ، وهى الآن سيدة فى منتصف العمر تلفت
الأنظار أناقتها الشديدة وعيناها النجلاوان ويسحر القلوب منظرها الجانبي ،
وتتوهم كثيرات من الأمريكيات أن ادعاء المرض من خصائص المجتمع الراقى
فى أوروبا ، ولذا فهن يصطنعن اصطناعاً كلما خرجن من بلادهن ، ولكن
مسز أوتيس لم ترتكب هذه الغلطة قط ، فقد كانت ذات بنية قوية يملؤها حب
الحياة ، ولقد كانت كالإنجليزيات فى كثير من خصالها ، بل لقد كانت نموذجاً
حيّاً يثبت أننا لا نختلف الآن عن الأمريكين فى شىء ، ما خلا اللغة طبعاً ،
وكان ابنها الأكبر فتى ذهبى الشعر وسيم الطلعة إلى حد ما ، وقد أعد نفسه

للووظائف الدبلوماسية كما يفهمها الأمريكيون بإتقانه فن الرقص ، وكان يقود الراقصين فى كازينو نيوبورت وتحدث الناس بمهارته فى مراقص لندن ، واختار له والداه عند مولده اسم واشنتون فى لحظة حماسة وطنية ، ولكنه ظل ناقما على هذا الاسم طول حياته ، ولم يكن به من نقائص إلا كلفه الشديد بأزهار الجاردينيا ورغبته الملحة فى أن يكون من ذوى الألقاب ، وكانت أخته مس فرجينيا . أوتيس صبية صغيرة فى الخامسة عشرة من عمرها ، ينبثق منها الحسن وتنشق منها الحيوية كأنها حورية من حور الأساطير ، ترى قلبها الخلى فى عينيها الزرقاوين الصافيتين ، وتفيض بالعافية كأنها أمازونة من الفارسات المحاربات اللائى جاء ذكرهن فى التاريخ ، ولقد خرجت ذات مرة للنزهة على مهرها مع اللورد بيلتون العجوز وكان بينهما سباق فركضا حول هايدپارك مرتين فتقدمته بطول ونصف طول عند تمثال آخيل ، وسرَّ بذلك الدوق الصبى ، ودوق تشيشاير ، سرورا لا مزيد عليه وعرض عليها الزواج لوهلته ، ولكن أوصيائه ردوه إلى إيتون فى تلك الليلة بالذات فعاد إليها تجرى دموعه أنهارا ، وولى فرجينيا التوأمين ، ولقبهما فى الأسرة العلم الأمريكى ، أو على الأصح « النجم و الأشرطة » لكثرة ما يبقى على جسديهما من علامات الضرب ، ولكثرة ما يريان من نجوم كلما ضربا ، وكانا غلامين ظريفيين ، وإذا استثنينا سعادة الوزير المفوض ، لم يكن بأسرة أوتيس من يدين حقًا بالمبادىء الجمهورية سواهما .

وكان قصر كانترفيل يبعد سبعة أميال عن اسكوت ، وهى أقرب محطة من محطات السكك الحديدية للقصر ، ولهذا أبرق مستر أوتيس يطلب عربة تحمله إلى داره الجديدة ، وسارت بآل أوتيس العربة تشق طريقها إلى كانترفيل وهم فى سرور عظيم ، فالمساء فى يوليو جميل والهواء رقيق عاطر بأريج غابة الصنوبر ، وسمعوا فى طريقهم إحدى حمائم الغاب تهدل وقد سحرهم صوتها الجميل ، ورأوا طيور الدراج يلمع صدرها وسط الأعشاب ذات الحفيف ، واسترقت النظر إليهم من بين أغصان الزان السناجيب الصغيرة ،

وفرت الأرناب واثبة تخترق الأشواك وتجتاز المرتفعات التي كستها الطحالب ، ولكن ما إن بلغوا طريق كانترفيل الظليل حتى اكفهر وجه السماء وركد الهواء ركودا غير مألوف ، وشاهد آل أوتيس سرباً عظيماً من الغربان يندفع فوق رؤوسهم ولا يسمع له صوت ، وقبل أن يبلغوا الدار انهمرت قطرات جسيمة من عين السماء .

ووجدوا بباب الدار امرأة هرمة تقف في انتظارهم ، وكانت ترتدى ثوباً من الحرير الأسود ومن فوقه فوطة بيضاء وعلى رأسها قلنسوة بيضاء ، وكان ملبسها مرتباً يدل على العناية ، وكانت تدعى مسز أمني ، ومسز أمني هذه هي مدبرة الدار ، وقد استبقته مسز أوتيس في خدمة الدار بعد أن رجتها ليدي كانترفيل رجاء حاراً أن تستبقها ، ولما أخذوا ينزلون من العربة انحنت وثنت ركبتيها تحية لكل فرد منهم ، وقالت في لهجة غريبة عتيقة : « نزلتم أهلاً بقصر كانترفيل » وتقدمتهم فاجتازت بهم القاعة الفخمة المبنية على طراز أسرة تيودور ، ودخلت بهم المكتبة فوجدوها غرفة طويلة منخفضة السقف تزين جدرانها ألواح البلوط السوداء ، وتنتهى بنافذة كبيرة زجاجها ملون ، وفي المكتبة وجدوا الشاي في انتظارهم ، وبعد أن خلعوا معاطفهم جلسوا ليتناولوا شايهم وأجالوا البصر في أرجاء الغرفة يتفقدون ، ووقفت مسز أمني بالقرب منهم في انتظار أوامرهم .

ثم لاحظت مسز أوتيس فجأة أن على أرض الغرفة بجوار المدفأة بقعة باهتة ، ولم تدر ما تكون هذه البقعة ، فقالت مخاطبة مسز أمني :

- أرى أن على الأرض آثار سائل أريق .

فأجابت المدبرة العجوز بصوت خفيض :

- نعم يا سيدتى ، فقد أريق الدم في ذلك المكان .

فصاحت مسر أوتيس قائلة :

- ياللفظاعة ! أنا لا أحتمل أن أرى بقعة دم فى الصالون ، ولا بد من إزالتها فوراً .

ولكن المرأة العجوز ابتسمت وأجابت بصوتها الخفيض الذى يوحى بالأسرار :

- إنه دم ليدى إيلانور دى كانترفيل التى قتلها زوجها سير سيمون دى كانترفيل عام ١٥٧٥ فى ذلك الموضع من الغرفة ، وقد عاش سير سيمون تسع سنوات بعد موتها ، ثم اختفى فجأة بطريقة عجيبة لا يعلم أحد عنها شيئاً ، ولم يشعر أحد على جثته ، ولكن روحه الأثمة لا تزال تسكن القصر ، وقد نالت بقعة الدم هذه إعجاب كثير من السائحين وسواهم من رواد الدار ، ولا يمكن إزالتها .

فصاح واشنطنون أوتيس قائلاً :

- أى هراء هذا ! إن دهان بنكرتون الأصى العجيب كفىل بأن يزيلها فى ثوانٍ .

وانكفا على الأرض فوراً قبل أن تجد المدبرة العجوز مجالا للتدخل ، وأنشأ يحك الأرض بقلم صغير أسود يشبه الأقلام الملونة التى تستخدم فى التزين ، وفى لحظات اختفى كل أثر لبقعة الدم .

وقال واشنطنون بلهجة الظافر والأسرة من حوله معجبة :

- أما قلت لكم إن دهان بنكرتون كفىل بإزالتها ؟

ولكن ما إن فرغ من عبارته حتى أضاء الغرفة المقبضة وهج برق مخيف ، ودوت فيها قعقة رعد عظيم ، فهبوا جميعاً واقفين وخرت منسى مغمسياً عليها .

قال وزير أمريكا المفوض وهو يشعل سيجاراً طويلاً بعد أن هدا روعه :

- ياله من جو بشع ! أظن أن إنجلترا قد ازدحمت بالسكان أكثر مما ينبغي ، والحكومة لهذا عاجزة عن توفير الجو الصحو لجميع أبناء الشعب ، إن رأيى الثابت هو أن الهجرة هى العلاج الوحيد لجميع مشكلات إنجلترا .
وقالت مسز أوتيس :

- ما دواء الإغماء يا عزيزى هيرام ؟

فأجاب الوزير المفوض :

- اخصميه من أجرها كما تخصمين ما تكسره من الأوانى ، فإن فعلت ذلك لم تعد إلى الإغماء مرة أخرى ، وقد حدث ما كان يتوقعه تماما ، لأن مسز أمنى أفاقت بعد لحظات معدودات ، ولكن اضطرابها كان عظيما ما فى ذلك شك ، ولقد تنبأت لمستر أوتيس بكارثة تحل بالدار ، قالت :

- لقد رأيت شتى الأشياء تحدث فى هذا البيت يا سيدى ، رأيتها رؤية العين ولم أسمع بها من إنسان ، ولكم قضيت الليالى لا يغمض لى جفن لفظاعة ما رأيت .

ولكن مستر أوتيس وزوجه أكدا لهذه المرأة الطيبة أنهما لا يخشيان الأشباح ، واستمطرت المدبرة العجوز بركات السماء على سيدها الجديد وعلى سيدتها الجديدة ، ولم تنس أن تفاوضهم فى رفع أجرها ، ثم انصرفت تخب فى سيرها قاصدة غرفتها .

الفصل الثانى

زمزمت العاصفة طول الليل ، ولكن لم يحدث شىء ملحوظ فى قصر كانترفيل ، غير أنهم وجدوا بقعة الدم قد تجددت فى الصباح ، قال واشنطنون وهم يتناولون فطورهم :

- أنا أثق بدهان بنكرتون الأصلي العجيب ثقتى بنفسى ، وقد تجربته مراراً وتكراراً فأزال البقع بجميع أنواعها ، فلا بد أن يكون هذا من عمل الشبح .

وأزال بدهانه البقعة للمرة الثانية ، ولكنها تجددت فى الصباح التالى ، كذلك ظهرت البقعة فى اليوم الثالث بالرغم من أن مستر أوتيس كان قد أقفل المكتبة بالمفتاح بيده أثناء الليل وحمل المفتاح إلى غرفته ، وثار فضول الأسرة فردا فردا ، وبدأ مستر أوتيس يراجع نفسه فى إنكاره المطلق لوجود الأشباح ، وصرحت مسز أوتيس برغبتها فى الانضمام إلى « جماعة تحضير الأرواح » ، أما واشنطنون فقد كتب رسالة مسهبة فى « ثبات البقع الدموية الناشئة عن الجريمة » ، نعم . فى تلك الليلة زال عن آل أوتيس كل شك فى أن للأشباح وجوداً موضوعياً .

كان النهار دافئاً مشرقة شمس ، فلما جاء الأصيل الرطيب خرجت الأسرة بكامل هيئتها للنزهة فى العربة ، ولم يعودوا قبل تمام الساعة التاسعة ثم تناولوا عشاء خفيفاً ، ولم ينصرف حديثهم إلى الأشباح إطلاقاً ، مما دل على أن نفوسهم كانت خالية من الاستعداد الذى يسبق عادة شهود الأرواح ، بل دار الحديث ، كما علمت فيما بعد من مستر أوتيس ، حول الموضوعات المألوفة

بين أبناء الطبقة المثقفة من أثرياء أمريكا ، مثال ذلك : ضالّة سارة برنار إذا هي قيسّت بالآنسة فاني دافنبورت ، صعوبة الحصول في بيوت إنجلترا - حتى في أرقاها - على القمح الأخضر والكعك المصنوع من القمح الأسود وجريش الذرة من كل ما يأكله الأمريكيون في بلادهم ، أهمية الدور الذي تلعبه بوستون في تقويم الروح الإنسانية ، منافع نظام الأمتعة الحديد في السفر بالسكك الحديدية ، جمال لهجة نيويورك إذا قورنت بلهجة لندن المتكاسلة ، ولم يجر بتاتاً ذكر العالم المجهول ، ولم يشر أحد بكلمة واحدة إلى سير سيمون دي كانترفيل ، فلما أن بلغت الساعة الحادية عشرة أوى كلٌّ إلى غرفته ، وبعد نصف ساعة أطفئت جميع الأنوار ، ولكن مستر أوتيس استيقظ بعد فترة ، استيقظ على ضجة عجيبة في الدهليز خارج غرفته ، وكان الصوت الذي سمعه أشبه شيء بصليلى المعادن ، وخيّل إليه أن الصوت يقترب منه لحظة بعد لحظة ، فنهض فوراً ، وأشعل عوداً من عيدان الكبريت ونظر إلى الساعة فإذا هي الواحدة تماماً ، وكان هديره كاملاً وخس نبضه فإذا هو آية في الانتظام ، ومع ذلك فقد ظل يسمع الضجة العجيبة يصحبها وقع أقدام واضح لا لبس فيه .

ولبس خفيه واستخرج من أحد الأدراج قارورة صغيرة مستطيلة ، ثم فتح الباب فرأى أمامه مباشرة شيخاً فانياً رهيب المراءى يقف في نور القمر الشاحب ، كانت عيناه حمراوين كأنهما جمرتان ، وانسدل شعره الأشيب الطويل على كتفيه في ذوائب كأنها السبائك الخام ، أما ثيابه العتيقة الزى فقد كانت ممزقة ملطخة وتدلّت من معصميه ومفصلي قدميه الأصفاد والسلاسل الثقيلة الضدّة ، قال مستر أوتيس :

- اسمع يا سيدى ، أنا ألح في أن « تزيت » تلك السلاسل ، وقد جئتك لهذا الغرض بقارورة صغيرة من زيت تامانى للتشحيم من ماركة الشمس المشرقة ، ويقال إنه يأتى بالآثر المطلوب إذا استخدم مرة واحدة ، وتستطيع إذا أحببت أن تقرأ الكلام المكتوب على القارورة ؛ ففيه شهادة من خيرة كهنة

بلادنا ، وها هي القارورة أتركها لك بالقرب من شموع غرفة النوم ، ويسرنى أن أزودك بمزيد من هذا الزيت ، إذا كنت بحاجة إليه .

وما إن فرغ وزير أمريكا المفوض من مقالته هذه حتى وضع الزجاجاة على مائدة رخامية وأغلق بابه وأوى إلى فراشه .

ومرت بشبح كانترفيل لحظة وقف فيها واجما من فرط غضبه ، ثم قذف بالقارورة قذفا شديدا على الأرض المصقولة وفرّ مجتازا الدهليز وهو يئن أنينا رهيبا أجوف ويشع نورا رهيبا أخضر ، ولكن ما إن بلغ قمة السلم العريض المصنوع من خشب البلوط حتى انفتح باب فجأة ، وظهر منه ضيآن صغيران فى ثياب بيضاء واندفعت بجوار رأسه وسادة تصفر كأنها الرصاصة المنطلقة ! وتجسم له أن الخطر يتهده فبادر إلى الفرار واتخذ البعد الرابع فى المكان واختفى فى ألواح الحائط ، وعاد إلى البيت الهدوء الشامل .

فلما بلغ حجرة خفية فى الجناح الأيسر من القصر اتكأ على شعاع قمرى ليسترد أنفاسه اللاهثة ، وأنشأ يفكر فى الموقف ، فما حدث قط أن أساء إليه إنسان من قبل هذه الإساءة البالغة طوال عمره المجيد ، وهو ثلاثمائة سنة ، وذكر الدوقة الأرملة التى ملأها رعباً وهى تقف أمام المرأة كاملة الزينة فانتابتها نوبة عصبية ، وذكر الخادمت الأربع اللاتى فزعن أيما فزع لأنه تجهم لهن من وراء الستائر فى غرفة من الغرف المهجورة وما زاد على ذلك شيئا ، وذكر أسقف الأبروشية الذى أطفأ شمعته وهو خارج من المكتبة فى أعجاز الليل ، فصرع الخوف جنانه وهو لا يزال إلى اليوم فى رعاية سير وليم جل يستشفى مما ألم به ، كذلك ذكر السيدة العجوز مدام دى تريمويك التى استيقظت ذات صباح فى مطلع الفجر فأبصرت هيكلا عظيما يجلس فى مقعد ضخم بجوار المدفأة ويقرأ يومياتها ، فلزمت فراشها ستة أسابيع من هول الصدمة تمزقها الحمى المخية ، فلما أبلت من مرضها جددت صلاتها بالكنيسة وقطعتها بالمتشكك الكبير مسيو دى فولتير ، وذكر اللورد الشرير لورد كانترفيل كيف

وجده الناس مختنقاً في حجرته الخاصة وقد حُشى حلقه بورقة من أوراق اللعب هي الفاليه البستونى ، واعترف أمام الملأ بأنه قد غش بتلك الورقة عينها تشارلس جيمس فوكس فربح منه خمسين ألف جنيه زوراً ، وأقسم أن الشبح لا سواه هو الذى حشا بالورقة حلقه . عادت إلى الشبح أعماله الباهرة واحداً واحداً ، فمن كبير الخدم ذلك الذى انتحر بالرصاص فى مخزن الطعام لأنه رأى يدا حمراء تنقر زجاج النافذة ، إلى ليدى ستيفيلد الجميلة التى أطبق أصابعه الخمسة الملتهبة حول جيدها فترك فى جلدتها الناصع أثراً لا يمحو مما ألزمها بأن تلبس سواراً من القطيفة السوداء حول عنقها فى كل زمان وفى كل مكان لتخفى الأثر ، ثم أغرقت نفسها آخر الأمر فى بركة عند طريق الملك ، ذكر الشبح انتصاراته المشهودة جميعاً فى حماس يشبه حماس الفنان الأصيل الذى يعبد نفسه ويعتز بفنه ، وابتسم متحسراً حين عادت إلى خياله ذكرى آخر مرة لعب فيها دور « روين الأحمر ، أو الطفل المخنوق » وأول مرة لعب فيها دور « جيبون الناحل ، مصاص الدماء بسهوب بكسلى » ، نعم ، ابتسم متحسراً حين عادت إلى خياله ذكرى الضجة الكبرى التى أحدثها يوم رآه الناس فى ملعب التنس يلهو بعظامه ويقيم منها أهدافاً يصيبها ، ثم بعد هذا التاريخ الحافل المجيد يأتى قوم من أمريكا لا وزن لهم ، من أبناء هذا العصر ، ويقدمون إليه زيت الشمس المشرقة للتشجيع ويقذفونه بالوسائد ! إن هذا لكثير ! إن قدرته على الاحتمال لتضيق بكل ذلك ، ثم إنه مامن شبح من أشباح التاريخ صادف مثل هذه المعاملة الخشنة ، لذلك عقد شبح كانترفيل عزمه على أن ينزل بهم الويل والشبور وعظام الأمور ، واستغرق فى بحار التفكير حتى مطلع الصباح .

الفصل الثالث

فى الصباحت التالى اجتمع آل أوتيس للفقور ، وتحدثوا فى أمر الشبح طويلا ، وطبيعى أن وزير أمريكا المفوض اغتاض حين رأى أن هديته لم تقبل . قال :

- انا لا أريد أن أنزل بالشبح أى أذى يحيق بشخصه ، ولكن لا مفر من الاعتراف بأن قذفه بالوسائد تجاوز لحدود الأدب ، هذا إذا راعينا الأجيال الطويلة التى قضاها فى هذه الدار .

وكان هذا التعليق على الموقف معقولا ، ولكن يؤسفنى أن أقول إن التوأمين استقبلاه بالضحك العالى .

وأنتم مستر أوتيس حديثه فقال :

- فإذا ما رفض استخدام زيت الشمس المشرقة للتشعير ، فلا مناص من أن تنزع عنه أغلاله ، فالنوم مستحيل مع كل هذه الضوضاء التى تجرى خارج حجرات النوم .

ولكن الأسبوع انقضى دون حادث ما ، وكل ما أثار اهتمامهم هو تجديد بقعة الدم على أرض المكتبة ، وما من شك فى أن هذه الظاهرة كانت موضع عجبهم ؛ لأن مستر أوتيس كان يغلق باب المكتبة بالمفتاح ونوافذها بالمزلاج كل ليلة ، وكانت البقعة تصطنع كالخرباء لونا جديدا كل صباح ، مما زاد فى عجب العاجين واستوجب الحديث الطويل فى أمرها ، فهى آنأ غبشاء الحمرة، وهى آنأ بلون البرتقال ، وهى آنأ كالأرجوان الصريح ، وقد حدث

أنهم نزلوا مرة إلى المكتبة لأداء فريضة الصلاة طبقا لتعاليم الكنيسة الأمريكية الأسقفية الإصلاحية الحرة ، فوجدوها فى لون الزمرد الأخضر ، وكان طبيعياً أن تكون موضع سمرهم هذه التغيرات الشبيهة بتغيرات ألوان الكالبدوسكوب ، وكانوا يتراهنون كل مساء على لون البقعة فى الصباح التالى ، أما فرجينيا فقد كانت لا تشترك فى هذا المزاح مع بقية أفراد الأسرة ، وكان يؤسيها كثيراً أن ترى بقعة الدم لسبب لا يعلمه أحد ، بل لقد أوشكت أن تبكى جزعاً يوم أن رأتها تصطبغ بخضرة الزمرد .

وظهر الشبح للمرة الثانية ليلة الأحد ، فبعد أن انصرف كلٌّ إلى فراشه بوقت قليل أفزعتهم قعقة عظيمة فى القاعة ، فهبوا فجأة من منامهم واندفعوا إلى الطابق السفلى يستطلعون ، فوجدوا حلة حديدية كبيرة من حلل الفرسان العتيقة قد نزلت من موضعها وهوت على الأرض ذات البلاط الحجرى ، على حين جلس شبح كانترفيل على كرسى ظهره عال ، ومضى يحك ركبتيه وعلى وجهه أمارات الألم المبرح ، وكان كل من التوأمين قد أحضر نبلته ، وسرعان ما سدّد كل منهما إليه حصاة بتوفيق عظيم لا يصيبه إلا من اكتسب المראה الطويلة بضرب معلم الخط فى المدرسة ، وفيما هما يفعلان ذلك شهر وزير أمريكا المفوض مسدسه ، وطلب إلى الشبح أن يرفع يديه مسلماً على طريقة أبناء كاليفورنيا ! فنهض الشبح وهو يصيح صيحة الحق وشق بينهم طريقه كأنه قطعة من ضباب ، وأطفأ قنديل واشنطن أوتيس فخلفهم فى ظلام كامل ، وحين بلغ قمة السلم استعاد جأشه وقرر أن يخيفهم بضحكته الشيطانية المشهورة ، فقد علمته تجاربه السالفة أن هذه الضحكة ناجعة الأثر ، ولقد جرت الرواية بأنها أرعبت لورد ريكز حتى جعلت شعره المستعار يبيض هولاً فى ليلة واحدة ، وأنها جعلت ثلاثاً من المربيات اللائى استخدمتهن ليدى كانترفيل يتركن خدمتها ولما يمض شهر على بدئهن العمل ؛ لذا أطلق الشبح ضحكة نكراء ما فى جعبته أشد منها نكراً ، فتجاوبت أصداؤها فى جنبات

السقف المقوس العتيق ، وما إن اختفى الرجع الرهيب حتى انفتح من الأبواب باب وخرجت منه مسز أوتيس فى روب خفيف الزرقة قائلة :

ـ إنك لا شك مريض ، ولقد جئتك بزجاجة من محلول الدكتور دوبيل ، فإن كنت تشكو عسر الهضم فستجد فيه الدواء الشافى .

فحملق الشبح فيها والغضب يمزقه ، وشرع يتأهب للتجسد فى هيئة كلب كبير أسود وهى طريقة من طرقه الماثورة ، لجأ إليها مرة فأصيب الأنورابل توماس هورتون عم لورد كانترفيل بعته مقيم ، وطبيب الأسرة يعزو هذا العته لذلك الحادث بصورة قاطعة ، ولكنه سمع وقع أقدام تدنو منه فتردد فى تنفيذ مراده الخبيث ، واكتفى بأن بعث حوله نوراً فوسفورياً خفيفاً ، وحين صعد التوأمان السلم وأشرفا عليه توارى لفوره عن الأنظار وهو يئن أنيناً يشبه أنين المقابر .

فلما أن بلغ غرفته تهافت من فرط الإعياء واستبد به حزن عاصف ؛ فلقد ألمه حقاً مسلك التوأمين ، وهو مسلك يدل على الابتذال وسوء التربية ، ولقد حزت فى نفسه المادية البشعة التى تجلت فى كلام مسز أوتيس ، ولكن فجيعة الأولى جاءت من عجزه عن ارتداء حلة القتال الحديدية ، وكان يحسب أن مرأى شبح فى حلة القتال يدخل السرور على نفس كل إنسان ، بما فى ذلك أمريكىو القرن التاسع عشر ، وكان يحسب أن أمريكىو القرن التاسع عشر يسرون برؤية شبح فى حلة القتال ، ولو من باب الوفاء لشاعرهم لونغفيلو ، ذلك الشاعر الجميل البيان الساحر المعانى الذى أفنى بمطالعة ساعات السأم وهى طويلة كلما رحل آل كانترفيل إلى لندن ، وذكر النجاح العظيم الذى أصابه يوم خرج فى حلة القتال إلى جولة كنلويرث سيد الفرسان ، حتى لقد هنأته الملكة العذراء ذاتها ، ولكن شيئاً ألم به أخيراً فأقعده ، فلقد حاول أن يلبس الحلة فى تلك الليلة ولكن الصدر الفولاذى الضخم والخوذة الفولاذية

الضخمة ثقلا عليه تماما ، فهوى على الأرض ذات البلاط الحجري وتسلخت ركبته تسليخاً موجعاً ورُضّت مفاصل يده اليمنى .

وأقعدته المرض فلزم غرفته جملة أيام بعد هذا الحادث ، ولم يخرج منها إلا ليعيد بقعة الدم إلى موضعها بانتظام ، ولقد أبلّ أخيراً بعد أن أحاط نفسه بجميع ضروب العناية ، وانتهى رأيه إلى القيام بمحاولة ثالثة يُفزع بها وزير أمريكا المفوض وأسرته ، واختار لهذه التجربة يوم الجمعة الموافق ١٧ أغسطس ، وحين حل ذلك اليوم قضى الشبح عامة النهار باحثاً فى مجموعة الملابس التى يملكها عن رداء يناسب المقام ، وأخيراً انتخب قبعة كبيرة فيها ريشة حمراء وكفنا موشى قرب المعصمين وعند العنق وخنجرا صدئاً ، ولما أقبل المساء هبت عاصفة مطيرة وعوت الرياح وزمجرت حتى ارتجت لها نوافذ الدار وقعقت ، فكان الشبح أسعد ما يكون فى ذلك الجو ، وكانت خطته كالآتى : عليه أولاً أن يتسلل فى هدوء إلى غرفة واشنطن أوتيس ويتمتم عند طرف السرير ، ويطعن نفسه فى موضع الرقبة ثلاث مرات على صوت لحن خفيض ، وكان يحقد على واشنطن أوتيس بوجه خاص لأنه كان يعلم أنه المستول عن إزالة بقعة الدم المشهورة بدهان بنكرتون الأصيلى العجيب ، وما إن يفزع ذلك الشاب المجازف الطائش ويفتك بجنانه حتى ينتقل من ثم إلى الغرفة التى ينام فيها وزير أمريكا المفوض وزوجته ، وهناك يضع على جبين مسز أوتيس راحته الباردة ، ويهمس فى أذن زوجها المرتعد بحديث الجيف والقبور ، أما فرجينيا الصغيرة فلم يدر ما يفعل بها ، فهى ما أساءت إليه قط ، ثم إنها كانت جميلة دمثة الطباع ، ويكفيه إذن أن يزعجها بآهات جوفاء يرسلها من داخل الدولاب ، فإذا لم تكف الآهات الجوفاء لإيقاظها فلا بأس من أن يجذب غطاء السرير بأصابع محمومة تنقبض وتنبسط ، ولكنه وطن نفسه على أن يعلم التوأمين درساً لا ينسيانه ، وأول ما ينبغى عليه عمله بطبيعة الحال هو أن يجلس على صدريهما حتى يختنقا اختناق صاحب الكابوس ، ثم يقف بين سريريهما المتقاربين فى هيئة جيفة خضراء باردة كالثلج حتى يصرعهما

الخوف ، وحين يفرغ من كل ذلك يتزع عنه كفته ويزحف فى أرجاء الغرفة ، فتبرز فى الظلام عظامه البيضاء وتلمع عين له واحدة زائغة ، وخلاصة القول أن عليه أن يمثل أمامهما دور « دانيال الأخرس » ، أو هيكل المتحرر » ، وهو دور عظيم الأثر لعبه مراراً فنجح فيه نجاحاً كبيراً ، وهو دور لا يقل هولاً عن الدور الأكبر الذى طار صيته فى الآفاق ، ألا وهو دور « مارتن المجنون » ، أو اللغز المقنع » .

ودقت الساعة العاشرة والنصف ، وسمع أفراد الأسرة يأوون إلى حجراتهم ، وأزعجه الضحك العصبى العالى الذى كان يخرج من غرفة التوأمين وقتاً ما ، فقد كان التوأمين يلهوان قبل النوم فى مرح الصبيان الذين لا يفهمون معنى الأحزان ، ولكن ما إن بلغت الساعة الحادية عشرة والربع ، حتى شمل قصر كانترفيل سكون مطلق ، وما إن دقت الساعة تؤذن بانتصاف الليل حتى خرج من مكمنه ، وارتطمت البومة بزجاج النوافذ ، وفى شجرة السرو العتيقة نقّ الغراب وناحت الريح حول الدار كأنها روح ضائعة ، ولكن آل أوتيس ناموا هنيئاً لا يستشعرون مصيرهم الجلل ، ورغم الزعزع الهوجاء والمطر المدرار استطاع الشبح أن يسمع وزير أمريكا المفوض يغط غطيظاً عالياً منتظماً ، وانسل خارجاً من ألواح الحائط وعلى فمه المغضن القاسى ابتسامة شيطانية تنبئ بشراً مستطير ، وغطى القمر وجهه بغيمه هلعاً حين مر الشبح بالنافذة البارزة الجسيمة التى نقشت عليها صورة ذراعيه وذراعى زوجه القتل بماء الذهب واللازورد ، وانساب الخيال الشرير لا يثنيه عن سيره شئ ، بغيض الهيئة حتى لقد أشفقت منه الظلمة الجاثمة ، وفيما هو يسعى ظن أن منادياً يناديه فكف عن السير ، ولكن ما سمع إلا نباح كلب فى الحقل الأحمر ، فاستأنف المسير وهو يتفوه باللعنات بلغة أهل القرن السادس عشر ، شاهراً خنجره الصدىء فى ظلام الليل على كل شئ ، متأهباً للانقضاض فى ظلام الليل على كل شئ ، وأخيراً بلغ من الدهليز الركن الذى يفضى إلى غرفة واشنطون المسكين ، وتوقف لحظة وطارت ذوائبه الطويلة الشيباء مع الريح

حول رأسه ، وطوت الريح كفنه المرعب فى أشكال خرافية مخيفة ، ثم دقت الساعة الربع فأحس بحلول الميعاد ، وصدر من فمه صوت يدل على السخرية ، ودار حول الركن ، ولكن ما إن فعل ذلك حتى تراجع معولاً إعوألاً أليماً من فرط رعبه وأخفى وجهه الأبيض فى عظام كفيه ، فقد رأى قبالته طيفاً مخيفاً ثابتاً كالتمثال المنحوت ، بشعاً كأحلام المجانين ! كان رأسه الأصلع يبرق فى الظلام وكان وجهه الأبيض ممتلئاً مستديراً ، وقد التوى محياه كمن كان يضحك ضحك الأبالسة نبداً عليه عبوس مقيم ، ومن عينيه انسابت أشعة حمراء فاقعة الحمرة ، أما فمه فكان بثراً فسيحاً من النيران الحامية ، وكان يأتزر بثوب قبيح فى بياض الثلج يشبه كفنه ، ثوب كسا قدّ العملاق ، وعلى صدره لوحة خطت عليها عبارات غريبة كتبت بحروف قديمة ، خالها سجل مخازيه أو صفحة خطاياها الشائنة أو طرس جرائمه ، وقد رفع بيده سيقاً من الفولاذ اللامع .

ارتد الشبح خائفاً لأنه لم يسبق له أن رأى شبحاً ، وألقى على الطيف الشائه نظرة ثانية عجلى ، ثم عاد إلى غرفته يتعثر فى كفنه وهو يجتاز الدهليز مسرعاً ، وأخيراً أسقط خنجره الصدىء فى حذاء مستر أوتيس الطويل حيث وجده كبير الخدم فى الصباح ، فلما أن خلا إلى نفسه فى جناحه الخاص ألقى بنفسه على سرير صغير الحجم ، وأخفى وجهه تحت الغطاء جزعاً ، ولكن شجاعة آل كانترفيل الماثورة عادت إلى الشبح بعد قليل ، وعزم على البحث عن الشبح الآخر بعد مطلع النهار والتحدث إليه ، فلما بزغ الفجر وكسا التلال بالفضة عاد إلى الموضع الذى شاهد فيه الطيف المفزع أول مرة ، وأخذ يعلل نفسه بأن وجود شبحين فى القصر أشد فعلاً من وجود شبح واحد ، وأخذ يبنى نفسه بأن صديقه الجديد سوف يعينه على ترويض التوأمين دون أن ينزل به أذى ، فلما بلغ المكان رأى ما ملأه إشفاقاً ، فقد تغير الشبح ، فانطفأت عيناه الفارغتان تماماً ، وسقط من يده السيف اللامع واستند إلى الحائط على نحو مضني ، فاندفع إليه وأمسك بذراعه ، ولكن شد ما أרعبه أن يرى رأسه منفصل

عن جسده ويهوى على الأرض وأعضائه تميل إلى الجدار ، وألقى نفسه ممسكا
بستارة بيضاء صغيرة جميلة من ستائر السرير ، وعند قدميه فرشاة من فرش
البلاط وأداة من أدوات المطبخ وواحدة من اللفت مجوفة ! وعجز عن تفسير
هذا التحول العجيب فتناول اللوحة بسرعة جنونية واستطاع أن يتبين فيها هذه
العبارات الرهيبة على ضوء الصباح الأشهب :

شبح أوتيس هو الشبح الحقيقى الوحيد فاحذروا من التقليد ، كل ما عداه زائف

وأدرك مغزى هذه العبارات ، أدرك أنهم قد احتالوا عليه وسخروا منه ومكروا به ، فغضب أيما غضب ولع فى عينيه بريق لا يلمع إلا فى عيون آل كاترفيل الصناديد ، وجرش أسنانه ، بل جرش لثتيه فقد كان بلا أسنان ، ورفع يده الذابلة إلى هامته ، وأقسم بلغة أهل الزمان الغابر وهى جميلة ليسفكن الدماء غزاراً وليدعون عزرائيل ليمشى فى جنبات الدار عند صياح الديك .

وما إن أتم قسمه الرهيب حتى سمع ديكاً يصيح من فوق بيت بعيد أحمر السقف معلناً مجيء الفجر ، فضحك ضحكة طويلة خفيفة ، ولكنها ضحكة مرة ، وانتظر ، ولكنه انتظر الساعة بعد الساعة دون أن يسمع للديك صياحاً ثانياً ، ولم يعرف لذلك سبباً ، ولبث هكذا فى مكانه ساهراً مترصداً حتى دخلت عليه الخادومات فى الساعة السابعة والنصف ، فيئس من ترصده وكف عنه وانصرف إلى غرفته يمشى مشية المتغطرس وهو يفكر فيما كان من أمر قسمه المهدور وعزمه الذى طاش ، وفى غرفته رجع إلى بعض الكتب التى تبحث فى الفروسية القديمة ، كان شديد الكلف بها ، فعلم أنه ما من مرة أطلق فيها هذا القسم إلا وصاح الديك مرتين .

فقال محدثاً نفسه :

- ويل لهذا الديك العاثر ، كيف يفعل بى ذلك وأنا الذى كنت فى الماضى أستطيع أن أغمد فى رقبتى رمحى وألزمه بأن يصيح لى ولو كان فى حشرة الموت !

ثم آوى إلى نعش وثير صنع من الرصاص ، وفيه رقد حتى المساء .

الفصل الرابع

فى اليوم التالى صبح الشبح مهدم العظام واهن القوى ، فالأحداث الرهيبه التى ألت به فى الأسابيع الأربعة الفائتة قد أخذت تزعزع من كيانه ، وتحطمت أعصابه تمامًا ، فكان أتفه الأصوات يزعجه ، وقبع فى غرفته خمسة أيام ، وعزم آخر الأمر على إغفال بقعة الدم التى كان يجددها كل ليلة على أرض المكتبة ، فدهى أن آل أوتيس لا يستحقون أن يكون لهم مثل هذا الشرف لأنهم لا يرغبون فيه ، وقد اتضح له أنهم قوم يعيشون على مستوى مادی سافل ، ويعجزون عن تقدير ما لأمثال هذه الظواهر المحسوسة من قوة رمزية ، أما مسألة الأشباح المترائية وتطور الأجسام الخيالية فهى أمور أخرى لا حيلة لها فيها ، فقد كان من واجباته المقدسة أن يظهر فى الدهليز مرة من كل أسبوع ويتمتم من مكانه عند النافذة البارزة الجسيمة فى الأربعاء الأول والثالث من كل شهر ، ولم يدر كيف السبيل إلى الفكاك من التزاماته دون أن يهدر شرفه ، فما من شك فى أن حياته كانت مثالا للبغي ، ولكنه كان آية للوفاء فى جميع صلاته بالعالم العلوى ، ولهذا كله اجتاز الدهليز فى أيام السبت الثلاثة التى أعقبت ذلك ، كعادته بين منتصف الليل والساعة الثالثة ، وكان أشد ما يكون حرصاً على ألا يراه أو يسمعه إنسان ، فخلع نعليه واسترق الخطى استراقاً على الأرض الخشبية البالية التى أتلفت ألواحها الديدان ، ولبس معطفاً فضفاضاً من المخمل الأسود ، ولم ينس أن يزيت أغلاله بزيت الشمس المشرقة ، ولاب. لى أن أعترف بأنه لم يلجأ إلى هذه الطريقة الأخيرة

لحماية نفسه إلا بعد تردد شديد ، وقد اغتتم فرصة اجتماع الأسرة للعشاء ونفذ إلى غرفة مستر أوتيس وسرق الزجاجة منها ، وأحس بالخجل بادئ الأمر ، ولكن كفة العقل رجحت فيه أخيراً واقتنع بما لهذا الزيت من فوائد جمّة ، ولقد انتفع به فعلاً إلى حد ما ، على أن هذا الاحتياط كله لم يغنه شيئاً كثيراً ، فقد مدّت في طريقه الحبال بعرض الدهليز في كل جولة ، فانكفاً على وجهه المرة بعد المرة ، وقد حدث ذات ليلة أنه خرج مستخفياً في زى « إسحق الأسود ، أو صياد هوجلجى وودز » فسقط سقطة موحجة لأن التوأمين قد طليا بالزبد المسافة الواقعة بين قمة السلم وباب الغرفة التى تستخدم لحفظ المنسوجات الملونة ، وقد غضب لهذه الإساءة الأخيرة غضباً لا مزيد عليه ، فرأى أن يبذل آخر مجهود يثار به لكرامته ومكانته ، وقرر أن يزور هذين التلميذين الوقحين فى الليلة التالية مستخفياً فى الزى المشهور زى « روبرت المجازف ، أو النبيل مفصول الرأس » .

وكانت آخر مرة اتخذ فيها هذا الزى منذ سبعين سنة ، أى منذ أن أفزع به السيدة الجميلة ليدى باربارا موديش حتى فسخت خطبتها مع جده لورد كانترفيل الأخير ، وفرت مع چاك كاسلتاون وسيم الطلعة إلى جرتنا جرين ، وأعلنت يومها فى الناس أنه ما من قوة على الأرض تستطيع إجبارها على الزواج من رجل تسمح أسرته لمثل هذا الطيف العبوس أن يجوس خلال الشرفة عند الشفق ، وقد مات چاك المسكين قتيلاً برصاص لورد كانترفيل فى مبارزة تمت فى حديقة واندويرث ، أما ليدى باربارا فقد ماتت غماً ولما ينصرم العام فى تبريدج ولز ، ولا شك أن تتابع المآسى على هذا النحو كان نصراً للشبح عظيماً ، وآية على أن هذا الزى من أقوى الأزياء فعلاً فى نشر الرعب ، ولكنه كان زياً صعباً جداً لدقة ما يستلزمه من « ماكياج » إذا جاز لى أن أستعير هذا الاصطلاح من لغة المسرح لأصف به حدثاً جليلاً فى العالم العلوى ، أى فى عالم ما وراء الطبيعة بتعبير أهل العلم ، ولم يفرغ الشبح من تخفيه قبل مضى

ثلاث ساعات ، وأخيراً انتهى إعداد كل شيء ، وسر الشبح بمראה سروراً عظيماً ، وكان حذاء الركوب الطويل المصنوع من الجلد الذى ارتداه لهذه المناسبة أكبر من قدميه قليلاً ، كذلك بحث عن الغدارتين فلم يجد منهما إلا غدارة واحدة ، ولكنه رغم ذلك كان راضياً أتم الرضا ، وحين بلغت الساعة الواحدة والربع انساب من ألواح الحائط واجتاز الدهليز متسللاً ، فلما وصل إلى غرفة التوأمين التى كانت تعرف بالغرفة الزرقاء للون ستائرهما ، وجد بابها مفتوحاً بعض الشيء ، وأراد أن يدخل دخولاً مؤثراً فدفعه فجأة فانفتح على مصراعيه ، ولكن إبريقاً كبيراً من الماء انسكب على جسده فابتل كل ما فيه وكاد الإبريق يضيب كتفه الأيسر إلا أنه سقط على بعد بوصات قليلة ، وسمع فى تلك اللحظة ضحكاً حاداً مختنقاً آتياً من ناحية السرير ذى الأعمدة الأربعة ، وشد ما اضطربت أعصابه حتى لقد فر إلى غرفته بأقصى ما يملك من سرعة ، واعتصم بها وجاء اليوم التالى ، فإذا به طريح فى فراشه من أثر برد شديد أصابه ، ولولا أنه قد قصد إلى غرفة التوأمين بغير رأس لتعرض لأوخم النتائج .

ويئس من إخافة هذه الأسرة الأمريكية قليلة الذوق يأساً نهائياً ، وقنع بالتسلل فى الدهاليز مرتدياً خفين وكوفية صفيقة حمراء يستر بها عنقه لتحميه من تيارات الهواء ، حاملاً قوساً وسهاماً صغيرة خشية أن يعتدى عليه التوأمان ، وكان آخر ما أحاق به من النكبات ما حدث له فى التاسع عشر من شهر سبتمبر ، فقد هبط إلى البهو المتراعى عند مدخل الدار وكان يحسب أنه سوف يكون فى أمان مطلق ، هنالك على الأقل ، وانشأ يروح عن نفسه بالسخرية من الصور الفوتوغرافية المعلقة وهى صور تمثل وزير أمريكا المفوض وزوجته ، وقد وضعت مكان صور آل كاترفيل ، وكان رداؤه بسيطاً ولكنه مرتب ، فقد لف حول أعطافه كفنّاً مستفيضاً عليه نقاط خضراء من عفن القبور ، وربط فكيه بقطعة من التيل الأصفر ، وكان يحمل مصباحاً صغيراً ومجرفة ، وعلى الجملة فقد كان مستخفياً فى زى « يونس الذى لا قبر له ، أو خاطف الجثث الذى يسكن جرن تشرتسى » وهو دور من خيرة أدواره التى

يمثلها ، ولقد مثله مرة مع آل كانترفيل فلم ينسوه مدى الحياة ؛ لأنه أدى إلى المجافاة التي حدثت بينهم وبين جارهم لورد رفور ، وكانت الساعة وقتئذ الثانية صباحاً ، وكان على يقين من أن أهل الدار قد هجعوا ، وفيما هو يمشى فى طريقه إلى المكتبة ليرى ما آلت إليه بقعة الدم بعد إهمالها ، انقضض عليه الغلامان من ركن مظلم وطفق كل منهما يلوح بيديه عالياً فى حركة مخيفة وصرخا فى أذنه بصوت واحد « بخ ! » .

واستولى عليه الذعر ، وأى مخلوق فى مثل موقفه لا يذعر ! وبادر يلتمس السلم ولكنه وجد واشنطون أوتيس فى انتظاره هناك حاملاً الأداة التي يقتل بها البستاني الحشرات فى الحديقة ، فلما ألقى نفسه محاصراً بأعدائه من جميع الجهات ولم يبق أمامه إلا الدفاع عن حياته اختفى فى المدفأة الحديدية الضخمة ، وكان من حسن طالع أن المدفأة لم تكن موقدة ، وهكذا عاد إلى غرفته خلال المداخلن والثقوب ، وبلغها متسخ الثياب لا حد لقذارته مضطرب الهيئة لا حد لاضطرابه ، ويئس النفس لا حد ليأسه .

ولم يره أحد بعد ذلك يتجول ليلاً ، ولقد سهر التوأمان فى انتظاره جملة مرات ونثرا الدهاليز كل ليلة بقشر الجوز مما أغضب الوزير وزوجه وخدم الدار ، ولكن جهدهما ذهب أدراج الرياح ، لقد طعن الشبح فى شعوره فأضرب لذلك عن الظهور ، وكان من أثر اختفائه أن عاد مستر أوتيس إلى إتمام كتابه العظيم عن تاريخ الحزب الديموقراطى ، وهو الكتاب الذى استنفد منه الأعوام الطوال ، كذلك نظمت مسز أوتيس من الولايم العظيمة ما أذهل أهل المقاطعة جميعاً ، وذهب الغلامان يلعبان لأكروس واليوكر والپوكر وما شاكل ذلك من الألعاب القومية عند الأمريكين ، أما فرجينيا فقد كانت تخرج على مهرها فى رفقة دوق تشيشاير الصغير الذى هبط كانترفيل ليقضى بقية عطلة فيها ، وكانا يجوسان خلال الطرق سويًا ، وظن الجميع أن الشبح قد غادر القصر ، بل لقد كتب مستر أوتيس إلى لورد كانترفيل رسالة بهذا المعنى فرد عليه اللورد معبراً عن سروره البالغ مهتاً بدرجة الورد بهذا الحدث أصدق تهنئة .

ولكن آل أوتيس كانوا واهمين فيما ذهبوا إليه ، فلقد كان الشبح لا يزال مقيمًا بالدار ، ولقد كاد يلزمه المرض حقًا ، ولكنه ما كان لينسى ما ألم به من محن بفضل هذه الأسرة ، وتحركت أشجانه خاصة حين عرف أن دوق تشيشاير نزيل من نزلاء الدار ، وذكر كيف أن عم جده ، لورد فرانسيس سبتلتون ، راهن الكولونيل كاربوري بمقدار مائة جنيه على أن يلعب الزهر مع شبح كانترفيل ، فوجده الناس في صباح اليوم التالي منبطحًا على الأرض في غرفة الورق وقد أصابه فالج تركه بين الموت والحياة بقية عمره الطويل ، وأدركه عى جعله لا يتفوه بشيء إلا كلمة « دُش » حتى يوم وفاته ، وذاع أمر هذه القصة وقتئذ ، ولكن الحقيقة أخفيت قدر المستطاع تقديرًا لشعور الأسرتين الكريمتين ، ومن أراد أن يطلع على تفاصيل ذلك الحادث وجد وصفًا له شافيًا في الجزء الثالث من كتاب لورد تاتل : « ذكرياتي عن الوصى على العرش وخلاته » ، أقول لما علم الشبح بأن دوق تشيشاير قد نزل ضيفًا على آل أوتيس ، رغب بطبيعة الحال في أن يثبت للناس أن سلطانه على آل سبتلتون لا يزال باقيا وكانوا من أصهاره الأبعدين ، فبنت عمه تزوجت مرتين وكان زوجها الثاني السيد دى بولكى ، ودوق تشيشاير من نسل هذا السيد كما يعلم جميع الناس ، وعلى هذا أعد الشبح نفسه للظهور في زى مشهور هو زى « الراهب شارب الدماء أو الناسك الخالى من الدماء في دير القديس بندكت » ، لعله بذلك يخيف عاشق فرجينيا الصغير ، وكان هذا الزى مفزعًا حقًا ، حتى لقد رآته ليدى ستارتب العجوز ذات مرة في عشية عام ١٧٦٥ فصرخت صراخًا مرًا انتهى بنوبة صرع شديدة ، وماتت بعد ثلاثة أيام ، وقد حرمت آل كانترفيل من ميراثها ، وأوصت بكل ما تملك للصيدلى الذى كان يمدّها بالدواء من لندن ، ولكن الشبح رغم ذلك لم يظهر ، فقد خشى أذى التوأمين ولزم غرفته ، ونام الدوق الصغير فى أمان يحلم بفرجينيا تحت المظلة الفاخرة المحلاة بالرياش بالغرفة الملكية .

الفصل الخامس

مرت بضعة أيام خرجت بعدها فرجينيا وفارسها ذو الشعر المجعد يتجولان على مهريهما فى مراعى بروكلى ، وقد تمزق ثوبها أشد تمزيق وهى تحاول اختراق سور من الأسوار ، حتى لقد رأت أن تدخل الدار عند عودتها من الباب الخلفى حتى لا يبصر أحد ما آلت إليه حالتها ، وفيما هى تعدو مجتازة غرفة الستائر المصورة خيل إليها انها لمحت بداخلها شخصا ، فقد كان بابها مفتوحا ، وحسبت أنها وصيفة أمها ، التى اعتادت أن تعتصم بتلك الغرفة كلما أرادت أن تنجز قطعة من شغل الإبرة ، ودخلت فرجينيا لتطلب إلى الوصيفة أن تصلح لها ما تمزق من ثوبها ، وشد ما عجبت حين وجدت نفسها أمام شبح كانترفيل ذاته ! وكان الشبح جالسا بجوار النافذة يطل منها على قشور الشجر الدارس تتطاير كأوراق الذهب فى الهواء ، وأوراق الشجر الدارس تتراقص حمراء معجنونة بطول الطريق الظليل ، وكان يسند خده بيده ، وكان مظهره العام ينبئ بضيق لا يحتمل ، بل لقد بلغ من حزنه وانكساره أن فرجينيا الصغيرة التى أوشكت أن تبادر بالفرار إلى غرفتها وتوصدها دونه عدلت عن ذلك لأن فؤادها رق لحاله ، وعولت على ملازمته للتفريج عن نفسه ، بلغ من خفة خطوها وعمق تأمله الحزين أنه لم يحس بوجودها حتى خاطبته قائلة :

- كم أرثى لحالك ، ولكن لا تبتس فأخوای عائدان الغداة إلى إيتون ، ولو حسن سلوكك فلن يضايقك أحد بعد الآن .

فالتفت إليها متعجباً لشجاعة هذه الصبية الصغيرة المليحة التى تجاسرت على مخاطبته ، وقال : سخف أن يطلب إلى تحسين سلوكى ، نعم ، سخف ما بعده سخف ، إذ لا بد لى من الصلصة بأغلالى والانى من خروق المفاتيح والتجول ليلاً ، إذا كان هذا ما تقصدين ، فأنا ما وجدت إلا لأفعل ذلك .

- بل ما وجدت لتفعل شيئاً من ذلك ، وأنت تعلم أنك قد أسرفت فى فعل الشر ، ولقد روت لنا مسز أمنى فى أول يوم هبطنا قصر كانترفيل أنك قد قتلت زوجتك .

قال الشبح فى استكبار :

- نعم ، أعترف بأنى فعلت ذلك ، ولكن هذه مسألة من صميم أمور الأسرة ، وهى لا تخص أحداً ما .

وكانت فرجينيا من وقت إلى آخر تكشف عن طوية بروتستانتية متشددة ورثتها عن جد من أجدادها كان يقيم فى نيو إنجلند فقالت :

- القتل خطأ فاحش أياً كان الدافع إليه .

- كم أبغض هذه المجردات الأخلاقية ، وكم أبغض قسوتها على الناس ! إنها لقسوة رخيصة ، فلقد كانت زوجتى لا تجيد شيئاً ، نعم كانت تهمل إعداد ملابسى وكانت تجهل كل مبادئ الطهى ، وإنى لأذكر يوم جئتها بصيد اقتنصته من غابات هوجللى فعبثت به عبثاً ما بعده عبث ، ولكن دعينا من هذا الآن فقد مضى وانقضى ، ثم إن أخويها حرمانى من الطعام بعد أن قتلتها حتى فاضت روحى ، فهل هذا من الإصناف فى شىء ؟

- أحدث هذا حقاً ؟ إذن فأنت الآن جائع يا سيدى الشبح ، أقصد ياسيدى السير سيمون .

إن فى حقيبتى قطعة « ساندوتش » فهل آتيك به ؟

- شكرا لك ، ولكنى لا أكل الآن شيئا ، ومع كُلّ فهذا ظرف منك شديد ، وأنت من طينة أخرى غير طينة أسرتك الشنيعة السفیهة المبتذلة التى لا تعرف معنى الأمانة .

فصاحت به فرچینیا قائلة :

- صه ! إنما أنت هو الشنيع السفیة المبتذل ، أما عن الأمانة فأنت تعلم حق العلم أنك قد سرقت ألوان الرسم من صندوقى لتجدد بها تلك البقعة السخيفة التى ترسمها على أرض المكتبة ، وقد استوليت أولا على كل ما أملك من لون أحمر ويدخل فى ذلك البرتقالى ، فلم أجده ما أرسم به الطبيعة وقت الغروب ، ثم استوليت على الأخضر الزمردى والأصفر الكرومى ، ولم تبق لى على شىء إلا النيلة واللون الأبيض الصينى ، وهذه لا نفع فيها إلا رسم المناظر التى تسبح فى نور القمر ، وهى مناظر تبعث الضيق فى نفس رائيها ، وهى مناظر صعبة التصوير ، ومع كل ذلك لم أفش لأحد شرك ، نعم لم أفش لأحد شرك رغم غيظى الشديد ورغم سخافة تفكيرك ، فهل سمع أحد ببقعة من الدم فى لون الزمرد الأخضر ؟

وقال الشبح بوداعة :

- لم تكن لى فى ذلك حيلة ، فالحصول على الدم ليس أمرا ميسورا فى هذه الأيام ، وقد بدأ أخوك التحدى بما يسميه دهان بنكرتون العجيب ، فلم أجده ما يمنعنى من أن أستخدم ألوانك ، أما لون البقعة فهذه مسألة أذواق ، وآل كانترفيل مثلا دمهم أزرق ، بل أشد زرقة من أى دم فى إنجلترا ، ولكنكم معشر الأمريكيين لا تكثرثون لمثل هذه الأمور كثيرا .

- أنت تجهل كل شىء عنا ، وانصحك أن تهاجر إلى أمريكا لتتسع ثقافتك ، ولن تكلفك الرحلة بنسا واحدا لأن أبى سيتوسط لنقلك بالمجان عن طيب خاطر ، ومع أن الضريبة على الأشياء الروحية عالية جدا إلا أن موظفى الجمرك جميعا من أنصار الحزب الديمقراطى ، وهذا أدعى للتساهل ، فإذا ما هبطت نيويورك فالمستقبل أمامك مفتوح ، ولسوف تصيب نجاحا منقطع النظير،

فأنا أعرف أن فى نيويورك أناسا على استعداد لأن يدفعوا مائة ألف دولار ليحصلوا على جد ، ومائتى ألف دولار ليكون لأسرتهم شبح .

- أعتقد أن أمريكا لن تناسب ذوقى .

قالت فرجينيا تتهكم به :

- إن أمريكا لن تناسب ذوقك لخلوها من الأطلال .

أجاب الشبح قائلاً :

- هذا غير صحيح ، فقد نسيت البحرية الأمريكية ونسيت سلوككم .

- طاب مساؤك إذن ، وسوف أطلب إلى أبى أن يمد فى عطلة التوأمين أسبوعاً آخر .

فصاح الشبح قائلاً :

- أرجوك ألا تنصرفى يا مس فرجينيا فلقد قتلتنى الوحدة ، وأنا فى شقاء لا يوصف ، فلست أدري أى طريق أسلك ، وأنا أرغب فى النوم ولكنه يمتنع على .

- هذا هراء فكل ما عليك أن تفعله هو أن تأوى إلى مخدعك ثم تطفىء الشمعة ، إن اليقظة أصعب من النوم وخاصة فى الكنيسة ، النوم فى متناول كل مخلوق وحتى الأطفال يعرفون كيف ينامون ، فالمسألة كما ترى لا تحتاج إلى ذكاء .

قال حزيناً :

- أنا لم أذق للنوم طعاماً منذ ثلاثمائة سنة ، نعم لم أذق النوم منذ ثلاثمائة سنة ، وأنا جد متعب .

فحملت فيه عينا فرجينيا الزرقاوان الجميلتان عجباً ، وبدا عليها الحزن الشديد وارتجفت شفتاها كما ترتجف أوراق الورد ، وسعت إليه وجثت بجواره وتصفحت وجهه الذابل البالى وقالت :

- يا لك من شبح مسكين ألا تجد مكانا تنام فيه ؟

أجاب بصوت حالم منخفض :

- هناك حديقة صغيرة وراء غابة الصنوبر بأميال وأميال ، وفى تلك الحديقة تنمو الحشائش الطويلة بغزارة والأزهار السامة تبدو كأنها النجوم الجسيمة البيضاء ويغنى البلبل طوال الليل ، نعم ، يغنى البلبل طول الليل ويطل القمر البلورى وتظل شجرة السرو النائمين بالفىء المديد .

وتجمعت العبرات فى عيني فرجينيا ، وأخفت وجهها فى راحتها ، وهمست قائلة :

- هذه حديقة الموت .

- نعم حديقة الموت ، فالموت كما ترين جميل ، جميل أن ترقدى تحت الأرض الناعمة السمراء والحشائش تهتز فى مسرى النسيم فوق رأسك ، جميل أن تصغى إلى السكون ، جميل أن يمحي أمسك وغدك ، جميل أن تنسى الزمن وأن تنسى الحياة ، جميل أن يحل عليك السلام ، وأنت تستطيعين إنقاذى مما أنا فيه من عذاب بأن تفتحي لى باب الموت ؛ لأنك جميلة يمشى الحب فى ركابك والحب يقهر الموت .

وارتجفت فرجينيا ومشت فى أعطافها رعشة باردة ، ولم تجد ما تقوله فخيم الصمت لحظات ، وحسبت أنها تمر بحلم مزعج .

ثم عاد الشبح إلى الكلام وجاءها صوته كنواح الريح .

قال :

- أما قرأت النبوءة القديمة المخطوطة على نافذة المكتبة ؟

قالت الفتاة وهى تنظر إليه :

- نعم ، كثيرا ما قرأتها ، وأنا أعرفها جيدا ، فهى منقوشة بحروف غريبة سوداء وقراءتها عسيرة ، وليس على النافذة إلا ستة سطور هى :

لن يحل على الدار السكون حتى تستخلص فتاة لها نضرة الربيع
صلوات التوبة من شفتي آثم ،
ولن يحل على كانترفيل السلام
حتىثمر شجرة اللوز العقيم ،
وتذرف طفلة بريئة دموعها .
ولكنى لا أفهم معنى هذه الكلمات .
فأجاب الشبح بنفس حزينة :

- معناها. أن عليك أن تندبى معى خطاياى فما أملك البكاء ، وأن
تستغفرى معى لذنوبى فما أملك الإيمان الذى يعود بالغفران ، ولسوف يرحمنى
عندئذ ملاك الموت إذا كانت حياتك الماضية كلها خير ورقة وحنان ، ولسوف
ترين فى الظلام أطيافا مخيفة ، ولسوف تسمعين فى الظلام همسا كهمس
الفاجرين ، ولكن لن يصيبك من هذه ولا تلك أذى ؛ فقوى الجحيم تقف
مشلولة أمام براءة الأطفال .

ولم تجب فرجينيا ، وأنشا الشبح يعصر كفيه عصراً فى يأس قاتل وهو
يتأمل رأسها الذهبى المنحنى . . . ونهضت فجأة شاحبة المحيا ، ولكن يلمع
فى عينيها بريق غريب وقالت بشجاعة :

- لست بخائفة ، ولسوف أسأل الملاك أن يختصك برحمته .

ونهض الشبح من مكانه يصيح صيحة خافتة هى صيحة الفرح ، وأمسك
بيدها وانحنى كما كان يفعل أهل الزمان الغابر وقبلها قبله جميلة ، وكانت
أصابعه باردة كالثلج وكانت شفتاه تحترقان بنار حامية ، ولكن فرجينيا لم تتردد
بل سارت خلفه تجتاز الغرفة الكثيفة ، وكان على الستائر الملونة نقوش صغيرة
تمثل الصيادين ، ونفخ الصيادون فى أصوارهم ذات الشراريب الصغيرة ولوحوا
لها بأيديهم الصغيرة أن تكف عن السير وصاحوا بها قائلين :

- عودى ، ألا عودى يا فرجينيا الصغيرة .

ولكن الشبح شدد القبض على يدها فأطبقت عينيها دون ما ترى ، ونظرت إليها تستوقفها أفراد من الحيوان ذات أذنان كأذنان السحالي وذات عيون جاحظات ، كانت تختبئ فى المدفأة وقالت :

- الحذار يا فرجينيا الصغيرة ، الحذار ، فقد تختفين إلى أبد الآبدين .

ولكن الشبح انساب مسرعا ، ولم تستمع فرجينيا لهذا النذير ، فما إن بلغا طرف الغرفة حتى وقف الشبح وتمتم بكلمات لم تفهم لها معنى ، وفتحت عينيها فرأت الحائط يختفى كأنه طبقة من ضباب ، ووجدت أمامها كهفا أسود غائرا .

وهبت حولها ريح صرصر باردة ، وأحست بشيء يجذب ثوبها وسمعته يقول : « عجلى ، عجلى ، وإلا فات الأوان ، وفى لحظة انطبقت خلفهما ألواح الحائط ، وعادت الغرفة فارغة موحشة » .

الفصل السادس

لم تمض عشر دقائق بعد ذلك حتى دق الجرس معلنا حلول موعد الشاي ، ولما وجدت مسز أوتيس أن فرجينيا لم تحضر أرسلت أحد الخدم لتذكيرها ، وعاد الخادم بعد دقائق وهو يقول إنه لم يعثر لمس فرجينيا على أثر فى أى مكان ، وكان من عادات فرجينيا أن تخرج إلى الحديقة كل مساء لتقطف بعض الأزهار التى تزين بها المائدة قبل العشاء ، فلم تنزعج مسز أوتيس لهذا الخبر أول الأمر ، ولكن حين دقت الساعة السادسة ولم تعد فرجينيا بدأ اضطرابها ، وأرسلت الغلامين لبحثا عنها خارج الدار ، وطافت بالحجرات واحدة بعد أخرى مع زوجها ، وعاد الغلامان حين بلغت الساعة السادسة والنصف وقالوا إن بحثهما كان غير مجد ، وشمل القلق الجميع وصاروا لا يعرفون كيف يتصرفون ، ثم تذكر مستر أوتيس فجأة أنه أذن منذ أيام لفريق من الغجر بأن يضربوا خيامهم فى مشارف الدار ، فخرج لفوره بصحبة ولده الأكبر واثنين من الفلاحين وقصدوا إلى بلاكسويل هولوا حيث حط الغجر رحالهم كما كان يعلم ، ورجاهم الدوق الصغير ، دوق تشيشاير ، أن يأذنوا له بالخروج معهم ، فقد كاد صوابه أن يطيش من فرط قلقه ، ولكن مستر أوتيس لم يأذن له بذلك ؛ لأنه كان يتوقع نشوب معركة لاسترداد ابنته ، فلما أن بلغ مضارب الخيام وجد أن الغجر رحلوا ، وعلم أن رحيلهم كان مفاجئا ؛ إذ أبصر نارا لاتزال موقودة وأطباقا لاتزال ملقاة على الأرض ، وأوفد مستر أوتيس واشنطون والفلاحين لينقبوا فى بقية أنحاء المنطقة ،

أما هو فعاد إلى داره عدوا وأبرق إلى جميع مفتشى الشرطة فى المقاطعة سائلا إياهم أن يبحثوا عن بنت صغيرة خطفها الغجر أو خطفها المتشردون ، ثم طلب جواده ، وأصر أن تتناول زوجته والتوأمان عشاءهم كالمعتاد ، فلما جىء بالجواد خرج مع أحد السائسين فى طريق اسكوت ، وما إن ركب ميلين حتى سمع جوادا يركض فى أثره ، والتفت إلى الوراى فرأى الدوق الصغير يتبعه على مهره محتقن الوجه عارى الرأس ، وقال الصبى لاهثا :

- أنا آسف لمجيئى يا مستر أوتيس ، ولكنى لن أستطيع أن أتناول أى طعام حتى نعثر على فرجينيا ، فأرجوك ألا تغضب منى ، ولو أنك وافقت على خطبتنا فى العام الماضى لما حدث شىء من هذا . . . أرجوك يا مستر أوتيس ألا تأمرنى بالعودة ، فإن أمرتنى فلن أطيع .

وابتسم الوزير المفوض برغمه لمراى هذا الصبى الوسيم ، وتأثر أيما تأثر حين رأى إخلاصه لفرجينيا ، فمال وربت على كتفه بحنان وقال :

- إذا كنت ترفض العودة يا سسيل فلا مفر من بقائك معى ، ولكن لا بد أن أشتري لك قبعة تلبسها حين تبلغ اسكوت .

فأجاب الغلام ضاحكا :

- دعنا من أمر قبعتى .

وركضا حتى بلغا المحطة ، وفى المحطة سأل مستر أوتيس ناظر المحطة عما إذا كان قد شاهد على الرصيف بنتا تطابق أوصافها أوصاف فرجينيا ، فأجاب بالنفى ، ولكنه مع ذلك أبرق للمحطات الأخرى على الجانبين ، وأكد له أن رجاله سوف يتفحصون كل وجه يمر بهم ابتغاء العثور عليها .

ثم انطلق مستر أوتيس قاصداً بيكسلى بعد أن ابتاع قبعة للدوق الصغير من تاجر كان يهم بإغلاق حانوته ، وبيكسلى هذه قرية تبعد عن اسكوت نحو أربعة أميال ، وكان يعلم أنها من البلاد المختارة عند الغجر ، لأن فى مشارفها أرضاً معشبة واسعة تصلح لضرب الخيام ، وحين بلغا القرية أيقظا الشرطى ،

ولكنهما لم يظفرا منه بجواب شاف ، وبعد أن طافا بالأرض المعشبة الواسعة طولا وعرضا عادا إلى كاتسرفيل نحو الساعة الحادية عشرة يفتك بهما الإعياء والهم العظيم ، وكان واشنطن والتوأمان في انتظارهما عند مدخل الدار يحملون المصابيح لينيروا الطريق الظليل المعتم ، ولم يجد أحد لفرجينيا أثرا ، فقد استوقف الغجر في مراعى بروكلى ولكن فرجينيا لم تكن بينهم ، وفسروا هجرتهم المفاجئة بانهم ظنوا أن موعد احتفالات كورتون قد حل فبادروا بالنزوح خشية أن يتأخروا فى الوصول ، ولكم حزنوا حين علموا باختفاء فرجينيا ، فقد كانوا يحمدون لمستر أوتيس أنه أذن لهم بالإقامة بمراعيه ، وتخلف منهم أربعة رجال ليشاركوا فى البحث عن الفتاة ، كذلك فتش الباحثون البركة والغابة المشرفة على القصر تفتيشا دقيقا ولكن دون جدوى ، وعلم الجميع أنهم لاشك مفقدون فرجينيا فى تلك الليلة على الأقل ، وسعى مستر أوتيس والغلمان إلى الدار فى حزن لا يوصف ، ومن خلفهم سار السائس وهو يقود المهر والجوادين ، فلما دخلوا البهو وجدوا فريقا من الخدم فى جزع عظيم بالمكتبة ، ورأوا مسر أوتيس على الأريكة مستلقية وقد أوشكت أن تجن من فرط اضطرابها ، والمدبرة العجوز إلى جوارها تمسح جبينها بالكولونيا .

وألف عليها مستر أوتيس فى أن تتناول من الزاد شيئا وأمر بإحضار الطعام للجميع ، وخيم على القوم الوجوم أثناء العشاء ، حتى التوأمان المرحان سكتا جزعا وكمدا ، فقد كانا أشد ما يكونان حبا لأختيهما ، وبعد أن انتهى العشاء أمر مستر أوتيس كلا منهم أن يأوى إلى فراشه قائلا إن الانتظار لن يثمر فما فى الإمكان عمل شيء فى تلك الليلة ، معلنا أنه سوف يبرق فى صبيحة اليوم التالى إلى سكوتلانديارد فى طلب بعض رجال البوليس السرى ، ورجاه الدوق الصغير أن يهملهم فرفض مستر أوتيس رفضا باتا ، وفيما هم خارجون من غرفة الطعام بدأت الساعة تدق انتصاف الليل ، وما انتهت آخر دقة حتى سمعوا جلجلة جسم يسقط ، ثم صرخة حادة ، وقعقع الرعد فاهتزت جدران

الدار ، وسبحت فى الهواء نغمات لحن ليس من ألحان البشر ، وسقط فجأة عند قمة السلم لوح من ألواح الحائط فكانت ثغرة ، ومن الثغرة دخلت فرجينيا شاحبة الوجه تحمل سلة صغيرة واندفع الجميع نحوها ، وفى لحظة كانت مسز أوتيس تضمها إلى صدرها فى انفعال شديد ، وكاد الدوق الصغير أن يخنقها بقبلاته المتلاحقة ، أما التوأمان فقد ذهبا يرقصان حول الحاضرين رقصة عنيفة من رقصات القتال ، وظن مستر أوتيس لحظة أن فرجينيا كانت تلعب بهم ، فقال بلهجة لا تخلوا من الغضب :

- أين كنت يابنتى ، بحق السماء ! لقد بحثنا عنك ، سسيل وأنا ، فى جميع أرجاء المنطقة ، وأوشكت أمك أن تموت جزعاً ، فلا بد أن تكفى عن أمثال هذه الدعابة .

وصاح التوأمان وهما يرقصان حول الجماعة :

- إلا مع الشبح ! إلا مع الشبح !

وقالت مسز أوتيس وهى تقبل ابتهاج المضطربة الفؤاد وتسوى يديها شعرها الذهبى المهوش :

- الحمد لله على سلامتك يابنتى العزيزة لا تغيبى عن بصرى ثانية .

قالت فرجينيا بصوت هادئ :

- لقد كنت مع الشبح يا أبت ، وقد مات ولا بد أن تأتوا لرؤيته ، إنه كان شبحاً شريراً ، لكنه ندم على فعالة أشد الندم ، وأعطانى هذا الصندوق قبل وفاته ، والصندوق مملؤ بالحلى الكريمة .

فحملق فيها الجميع عاجبين وقد أجمتهم الدهشة ، ولكنها كانت آية فى الجدل لا تعرف المزاح ، وتقدمتهم ونفذت بهم من الثغرة إلى دهليز سرى ، ومن ورائها واشنطون حاملاً بيده شمعة متقدة وجدها على المائدة فأخذها ، وأخيراً بلغوا باباً ضخماً صنع من خشب البلوط به عدد من المسامير الصدئة ، وما إن مسته فرجينيا حتى انفتح على مصراعيه فألّفوا أنفسهم فى غرفة صغيرة

منخفض سقفاً محدودب ، لها طاقة واحدة ذات عوارض من أسياخ الحديد ، وشاهدوا حلقة حديدية ضخمة مغروسة فى الحائط وقد قيد فيها هيكل عظمى ناحل كان مستلقياً على الأرض الحجرية استلقاءً كاملاً ، وبدا أن أصابعه الطويلة العارية من كل لحم تجتهد أن تمسك بإبريق وصحفة وضعا بجواره على نحو لا يمكنه من بلوغهما ، وما من شك فى أن الإبريق كان يستخدم فى الماضى ؛ فقد كان العفن الأخضر يكسوه من الداخل ، ولم يكن فى الصحفة غير حفنة من تراب ، وجشت فرجينيا بجانب الهيكل العظمى وعقدت يديها وأنشأت تصلى صلاة صامته على حين أخذ بقية أفراد الأسرة ينظرون فى عجب إلى هذه المأساة التى تكشف لهم سرها منذ لحظات .

وكان أحد التوأمين يطل من النافذة ليعرف مكان الغرفة من الدار ، وإذا به يصيح فجأة :

- انظروا ! انظروا ! لقد أينعت شجرة اللوز اليابسة ، وإنى لأرى أزهارها واضحة فى نور القمر .

ونفضت فرجينيا من مجثاتها وأشرق فى محياها ضياء جميل وقالت بخشوع :

- إن الله قد غفر له .

وطوق الدوق الصغير جيدها بذراعه وقبلها قائلاً :

- ما أنت إلا ملك كريم .

الفصل السابع

مضت على هذه الأحداث أربعة أيام وأقيمت جنازة فى قصر كانترفيل ، بدأ الموكب من الدار وكانت تجر العربى ثمانية جياى سود كل منها يحمل فوق رأسه خصلة جسيمة متراخية من ريش النعام ، وكان النعش مصنوعا من رصاص وقد كساه كفن ثمين لونه أرجوانى نقشت عليه بخيوط الذهب شارة آل كانترفيل ، ومشى الخدم بجانب عربى الموتى وما بعدها من عربات يحملون المشاعل ، فكان الموكب جليلا يملأ الناظرين خشوعا ، وكان لورد كانترفيل على رأس أصحاب الحداد ، وقد جاء من ويلز خاصة ليشهد الجنازة ، وجلس فى العربى الأولى بجوار فرجينيا الصغيرة ، وفى العربى الثانية جلس وزير أمريكا المفوض وزوجته ، وفى العربى الثالثة جلس واشنطن والغلمان الثلاثة ، وجلست مسز أمنى فى العربى الأخيرة ، فقد رأت الأسرة أن من حقها أن تودع الشبح الوداع الأخير لأنه أقض مضجعها زهاء خمسين عاما ، وفى ركن المقبرة حفر لحد عميق بجواره شجرة السرو العتيقة .

وقرأ القداس نياقة الأسقف أوغسطس دامبير بصوت مؤثر يشيع الرهبة فى القلوب ، فلما انتهت المراسم أطفأ الخدم مشاعلهم كما تقضى بذلك تقاليد آل كانترفيل منذ القدم ، وفيما هم يدلون التابوت فى اللحد تقدمت فرجينيا ووضعت عليه صليبا كبيرا صنع من أزهار اللوز البيضاء وأزهار اللوز الوردية ، وظهر القمر من وراء سحابة ليشهد فرجينيا تبارك الراحل بالصليب ، فغمر نوره الفضى المقبرة الصغيرة ، ومن دغل بعيد أطلق بلبل عقيرته بالغناء ، وتذكرت وصف الشبح لحديقة الموت ففاضت من عينيها الدموع ، وحين عاد الجميع إلى القصر لزمّت الصمت العميق .

وقبل أن يعود اللورد كانترفيل إلى لندن فى صباح اليوم التالى جرى بينه وبين مستر أوتيس حديث بصدد الحلى التى أعطاها الشبح لفرجينيا ، وكانت الحلى رائعة الحسن ، بينها عقد من الياقوت المطعم على طريقة البندقية ، فهو آية من آيات القرن السادس عشر ، وكانت الحلى عظيمة القيمة حتى لقد مانع مستر أوتيس فى أن تقبل ابنته مثل هذه الهدية بدافع من ضميره ، قال :

- أنا أعلم يا سيدى اللورد أن العادة فى هذه البلاد قد جرت بأن يسرى الوقف على الجواهر كما يسرى على الأرض ، وما من شك فى أن هذه المجموعة من الحلى ينبغى أن تكون من تراث الأسرة الثابت ، ولهذا لايسعنى إلا أن أرجوك أحر الرجاء أن تأخذها معك إلى لندن وأن تعدها جزءاً من ميراثك رُدَّ إليك فى ظروف غير مألوفة لا أكثر ، أما ابنتى فهى لاتزال طفلة وهى بحمد الله لاتزال إلى اليوم بعيدة عن الاهتمام بأمثال هذه الأشياء من مستلزمات الأرستقراطية المترفة المتبذلة ، ثم إن مسز أوتيس وهى حجة لا يستهان بها فى التحف الفنية بحكم ترددتها الطويل على بوستون أيام صباها ، أقول إن مسز أوتيس قد أخبرتنى بأن لهذه الجواهر قيمة مالية عظيمة ، ولو أنها عرضت للبيع لجاءتك بثمن طائل ، لهذا كله يا سيدى اللورد كانترفيل أعتقد أنك ستقدر استحالة بقائها فى حوزة أى فرد من أفراد أسرتى ، وأضيف إلى ذلك أن أمثال هذه الأدوات الصبائية والكماليات الزائفة ، وإن تكن من ضرورات الجاه عند الأرستقراطية البريطانية ، لا محل لها إطلاقاً فى مجتمع ربى على البساطة التامة التى تنادى بها المبادئ الجمهورية الخالدة ، الخالدة على الأقل فى رأى أنا ، ولا بأس من أن أذكر أن فرجينيا شديدة الرغبة فى الحصول على الصندوق كتذكارة من سلفك المسكين الضال ، ولما كان الصندوق قديماً أتلفه البلى ولا سبيل إلى إصلاحه فلعلك لا ترى مانعاً من تحقيق رغبتها ، أما أنا فيدهشنى جداً أن أرى بنتاً لى تظهر الكلف بأى أثر من آثار العصور الوسطى ، وإنى لأعزو هذا إلى ظروف مولدها ، فقد ولدتها أمها فى ضاحية من ضواحي لندن بعد عودتها من رحلة قامت بها إلى أثينا بفترة قصيرة .

وكان لورد كاترفيل يصغى إلى كلام الوزير الجليل باهتمام بالغ ، وهو يقتل شاربته الأشيب من وقت لآخر لعله بذلك يستر ابتسامة تغالبه ، فلما فرغ مستر أوتيس من مقاله صافحه بحرارة قصوى وقال :

- يا سيدى العزيز ، إن ابتك الساحرة قد أدت إلى سلفى التاعس سير سيمون خدمة جلّى ، ونحن ، أنا وأسرتى ، مدينون لها بالكثير بسبب شجاعتها النادرة .

فلا جدال فى أن الحلّى ملك لها ، ولو أنى سلبتها أياها فلست أشك فى أن جدى الشرير هذا تارك قبره بعد أسبوع واحد لينتقم منى أشد انتقام ، أما عن قولك إن هذه الحلّى تراث لنا دائم ، فنحن فى إنجلترا لا نعد التراث دائما إلا إذا نص عليه فى وصية أو فى وثيقة لها صفة رسمية ، وهذه الحلّى لم يعلم بوجودها إنسان ، فأؤكد لك أن حقى فيها لا يزيد عن حق كبير الخدم فى بيتك ، وأعتقد أن ابتك سوف تسر بأن تجد ما تترين به حين تكبر ، ثم إنك نسيت يا مستر أوتيس أنك قد اشتريت منى الأثاث والشبح على أنهما جزء من الصفقة ، وكل ما يملكه الشبح تنتقل ملكيته إليك بطبيعة الحال ، وإذا كان سير سيمون قد أبدى بعض النشاط فى دهليز القصر أثناء الليل ، فهو رغم ذلك ميت فى نظر القانون ، وقد آلت إليك أملاكه بقوة الشراء .

وأحزن مستر أوتيس رفض لورد كاترفيل ، فرجاه أن يعيد فى الأمر النظر ، ولكن النبيل طيب القلب كان ثابتا لا يتزعزع فى رأيه ، ونجح آخر الأمر فى إقناع الوزير المفوض بأن يأذن لابنته فى أن تحتفظ بهبة الشبح .

ولما تقدمت الدوقة الشابة ، دوقة تشيشاير ، عام ١٨٩٠ لمقابلة الملكة فى افتتاح موسم الحفلات بمناسبة زواجها ، كانت حليها موضع إعجاب الخاص والعام ، فلقد حصلت فرجينيا على إكليل الزهر الذى تكافأ به كل فتاة أمريكية صالحة ، وزفت إلى عاشقها الصغير حالما بلغ سن الرشد ، وكان الدوق آية فى الوسامة ، وكانت الدوقة آية فى الجمال ، وكان كل منهما يحب الآخر حبا

لا مزيد عليه ، حتى إن الجميع استقبلوا هذا الزواج بالغبطة ، اللهم إلا المركيزة العجوز ، مركيزة دمبلتون التى كانت تطمع فى اقتناص الدوق لإحدى بناتها السبع ، وتقيم الحفلات المتتالية لتحقيق هذا الغرض ، كذلك لم يرض مستر أوتيس نفسه عن هذا الزواج وهو أمر جد غريب ، فقد كان يحب الدوق الصغير من الناحية الشخصية ، ولكن مبادئه كانت لا تقر الألقاب ، وكان يخشى على قوله « أن تنسى فرجينيا البساطة التى تمثلها المبادئ الجمهورية تحت تأثير الأرستقراطية التى تعيش للذة وحدها ، وهو تأثير خبيث ، مهما يكن من شىء فإن اعتراضاته لم يؤخذ بها ، وأحسب أنه يوم سار فى ممشى كنيسة سانت جورج بميدان هانوفر تعتمد ابنته على ذراعه أحس بأنه لا يطاوله إنسان فى إنجلترا كلها .

ولما انتهى شهر العسل قصد الدوق والدوقة إلى قصر كانترفيل ، وفى اليوم التالى لوصولهما خرجا معا بعد الظهر إلى المقبرة الموحشة المتاخمة لغابة الصنوبر ، وقد صادف آل كانترفيل بعض المشقة فى اختيار الكلمات المناسبة التى تحفر على شاهد سير سيمون ، ولكنهم انتهوا آخر الأمر إلى الاكتفاء بحفر الحروف الأولى من اسمه يليها السطور المنقوشة على نافذة المكتبة ، وكانت الدوقة تحمل بعض الورود فثرتها على قبره ، وبعد أن وقفا إلى جوار القبر وقتاً ما جاسا بين أطلال الدير المخرب .

وهناك جلست الدوقة على عمود محطم ورقد زوجها عند قدميها يدخن سيجارة ويتأمل عينيها الجميلتين ، ثم ألقى بسيجارته فجأة وأمسك بيدها قائلاً :

- اسمعى يا فرجينيا ، إن الزوجة لا يحق لها أن تخفى عن زوجها شيئاً .

- ولكنى لا أخفى عنك شيئاً يا حبيبى .

فأجاب وهو يتسم :

- نعم ، إنك تخفين عني شيئاً ، فأنت لم ترو لي ما حدث بينك وبين الشبح حين كنتما في الغرفة على انفراد .

قالت فرجينيا بلهجة جادة :

- ولكنى لم أروه لأحد ياسسيل .

- أنا أعلم ذلك ، ولكن هل لي أن أعرف ما حدث ؟

- كلا ياسسيل ، وأرجوك ألا تسألني ؛ فلست أستطيع أن أبوح به لأحد . يا للسير سيمون من رجل تاعس .

إنى لمدينة له بالشيء الكثير ، ولا تسخر مني يا سسيل فهذا صحيح ، لقد علمني مغزى الحياة ومغزى الموت ، وعرفت منه كيف يقهر الحب المنون .

ونفض الدوق وقبل زوجه قبلة العشق الصافي وقال :

- لن يخفى على سر من أسرارك ما دمت أملك قلبك .

- ولقد ملكت قلبي دائماً ياسسيل .

- ولسوف تقصى ما حدث على أطفالنا ، أليس كذلك ؟

وضرج الخجل خدى فرجينيا .

صوﺭﺓ
ﺩﻭﺭﻳﺎﻥ
ﺟﺭﺍﻱ

مقدمة

الفنان صانع الأشياء الجميلة .

غاية الفن أن يكشف عن نفسه وأن يخفى شخصية الفنان .

الناقد من يترجم عن أثر الجمال في نفسه بلغة الفنان ، أو يصوغ من إحساسه به مادة غير مادة الفن ، وإن أعلى أنواع النقد لا يختلف عن أحطها في أنها جميعاً تراجم لحياة النقاد على نحو ما ، ومن يقرأون معاني القبح في آيات الجمال هم السفهاء ، ولا عذر لمن ضل سواء السبيل ، أما من يقرأون معاني الجمال في آيات الجمال فهم الأصفياء : هم رجاء الإنسانية ، هم المختارون الذين لا يرون في الجمال إلا جمالا .

ليس بين الكتب كتب أخلاقية وكتب منافية للأخلاق ؛ فالكتب إما جميلة التأليف وإما رديئة . تلك هي خلاصة القول .

ثورة القرن التاسع عشر على الأدب الواقعي هي ثورة كاليان^(١) حين يرى وجهه في المرأة ، وثورة القرن التاسع عشر على الأدب الخيالي هي ثورة كاليان حين « لا » يرى وجهه في المرأة .

(١) كاليان في مسرحية « العاصفة » لشكسبير مخلوق شأنه أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، دائم السخط من حظ الرغبات ، فهو رمز الجسد ، استخدمه الساحر بروسبيرو لقضائه حاجاته اليومية . كذلك استخدم بروسبيرو كائنًا آخر لطيفًا جميلًا سامي النفس شديد الميل إلى الحرية هو الطيف آريل ، وهو يرمز للروح . ويقال إن كاليان وآريل يرمزان إلى الشر والخير ، وكلاهما في قبضة الإنسان (المترجم) .

الحياة الأخلاقية بعض مادة الفن ، ولكن « أخلاقية » الفن تأتي من كمال التعبير رغم نقص أداة التعبير .

ما من فنان يريد إثبات نظرية ما : فالحقائق ذاتها يمكن إثباتها .
ما من فنان يتحيز لمدرسة في الأخلاق معينة ، والتحيز الأخلاقي لازمة في الأسلوب لا تغتفر .

ما من فنان يشتكى السقم أبداً ؛ فالفنان يستطيع التعبير عن كل شيء في الحياة .

أداة الفن : الفكر واللغة ، ومادة الفن : الفضيلة والرذيلة .
أرقى الفنون من ناحية القلب : الموسيقى ، وأرقى الفنون من ناحية الشعور : التمثيل

للفن ظاهر مكشوف ورمز خبيء ، ومن يتجاوز الظاهر يجازف بكل شيء ،
ومن يفهم الرمز يجازف بكل عزيز .

الفن ليس صورة الحياة ، بل صورة المستعرض لموكب الحياة .
اختلاف الظنون في العمل الفني دليل على أن العمل جديد ومعقد
ونابض بالحياة ، وكلما اختلف النقاد أحس الفنان بأنه أدى واجبه .
في وسعنا أن نصفح عن أصحاب الفن المفيد إذا أدرك أن فيه ليس جميلاً ،
والمبرر الأوحده لوجود الفن غير المفيد هو أن يأسرنا بجماله .
لا نفع في الفن إطلاقاً .

أوسكار وايلد

الفصل الأول

كان عبير الورود يملأ استديو الرسام ، وحين هب نسيم الصيف بين أشجار الحديقة ، نفذ من الباب المفتوح عطر لعله عطر اليلج النفاذ أو عطر النسرين المنعش .

وفي ركن الأريكة المكسوة بالطنافس العجمية اتكأ اللورد هنرى وتون مدخناً كعادته بلا انقطاع ، وكان من متكئه يلمح بريق الأزهار المنتشرة على شجرة النحل فى صعوبة ، فتبدو له صفراء كالشهد حلوة كالشهد ، والشجرة تهتز أغصانها كأنها لا تقوى على حمل كل ذلك الجمال المكس فوقها ، فيهتز معها الوهج الذهبى ، وعلى الستائر الحريرية الخشنة ، الممتدة بطول النافذة العالية ، كانت ترتقى بين الفينة والفينة ظلال عجيبه هى ظلال طيور عابرة ، فتخلق فى الغرفة جواً يابانياً لا يلبث أن يتجلى .

ويستعرض اللورد هنرى فى خياله رسامى طوكيو ذوى الوجوه الشاحبة ، فيذكر كيف يسعى أولئك الرسامون إلى التعبير عن معانى السرعة والحركة بفنهم التقليدى الجامد ، كل ذلك والنحل يطن طنيناً مقبضاً وهو يتلمس طريقه بين الحشائش التى لم تشذب ، أو يحوم فى إلحاح حول كنوس اللبلاب الذهبية التى تسلقت جدران الحديقة كأنها تبغى الفرار منها ، فازداد السكون بطنينه وحشة ، وامتلاً الجو ضيقاً ، أما عجيج لندن فقد كان خافتاً مكظوماً كأنه صوت أرغن مكتوم بعيد .

وكان فى وسط الغرفة حامل مستقيم ثبتت عليه صورة بالحجم الطبيعى لشاب لا حد لجماله ، وقد جلس أمامها الرسام نفسه « بازيل هولوردر »

وأخذ يتأملها على بعد قليل ، أجل ، هذا هو بازيل هولوردد الذى آثار اختفاؤه الفجائى منذ بضعة سنوات فضول الخاص والعام ، وظن الناس فى تأويل احتجابه أعجب الظنون .

وفىما كان الرسام يتأمل الصورة الساحرة التى أبدعتها ريشته فى دقة ومهارة شاعت فى محياه ابتسامة الرضا ، ثم استقرت الابتسامة على شفثيه ، ولكنه نهض فجأة ووضع أصابعه على جفنيه ، كأنه يريد بذلك أن يحبس فى مخيلته حلمًا عجيبًا خشى أن يزول .

قال اللورد هنرى فى تراخ :

- هذه أبداع صورة رسمتها يا بازيل بلا جدال ، ولا بد أن ترسلها إلى معرض جروفنور فى الموسم القادم ، إن معرض الأكاديمية لا يليق لها ، فهو واسع ومبتذل ، وفى كل مرة دخلته وجدته مكتظًا بالزبائن مما حجب عني الصور ، أو مكتظًا بالصور مما شغلني عن رؤية الزبائن ، لا شك فى أن معرض الجروفنور هو أنسب معرض لك .

فأجاب بازيل وهو يرفع رأسه إلى الراء بتلك الطريقة الغريبة التى كانت تضحك زملاءه منه أيام الطلب فى أكسفورد :

- لست أظن أنى سأعرضها فى مكان ما ، بل هذا مؤكد ، فلن أعرضها فى أى مكان .

ورفع اللورد هنرى حاجبيه ، ونظر إليه عاجبًا بين ذؤابات الدخان الأزرق الخفيف الذى تصاعد من سيجارته المخلوطة بالأفيون فى أشكال لولبية متداخلة جميلة ، ثم قال :

- أأقول إنك لن تعرضها فى أى مكان ؟ وكيف ذلك يا صديقى العزيز ؟ ما السبب ؟ ما أعجب أطواركم معشر الرسامين أنتم تقلبون الدنيا رأسًا على عقب لكى تصيوا شيئًا من الشهرة ، فإن أصبتموها بدا أنكم زاهدون فيها ، هذه غباوة منك يا بازيل ، فهناك شيء واحد أسوأ من أن تكون موضع حديث

الناس ، وذلك ألا تكون موضع حديثهم ، وهذه الصورة خليقة بأن ترفعك على شباب الفنانين في إنجلترا ، وأن تملأ قلوب شيوخهم غيرة منك ، إن كانت للشيوخ قلوب .

أجاب الرسام :

- أعلم أنك ستسخر مني ، ولكنني في الواقع لأستطيع عرضها لأنني وضعت فيها من نفسي أكثر مما ينبغي لرسام أن يضع في صورة .

وتمدد اللورد هنري على الأريكة ، واسترسل في ضحك طويل ، فقال الرسام :

- نعم ، هذا ما كنت أتوقعه منك ، ولكنني ما قلت إلا الحقيقة .

- أنت تقول إنك وضعت فيها من نفسك أكثر مما ينبغي ، وهذا غرور منك عظيم . أقسم لك يا بازيل إنني ما كنت أحسبك مخدوعاً في نفسك إلى هذا الحد ، فأنت ياذا الوجه الضخم الخشن ، والشعر الأسود الفاحم كيف تشبه نفسك بهذا الفتى الذي يحاكي أدونيس جمالاً ، ويبدو كتمثال مخروط من عاج كسته أوراق الورد ؟ يا صديقي بازيل إن صاحبك هذا هو الإله نرسيس قلباً وقالباً . أما أنت فلست أنكر أن لك مخايل المفكرين وما إلى ذلك كله ، ولكن الجمال الحقيقي يختفي حين تظهر مخايل الذكاء ، والذكاء نفسه إسراف من الطبيعة ، والإسراف يفسد التناسب في أي وجه ، فالمرء إذا مابداً يفكر ، تحول وجهه إلى جبهة كبيرة ، أو أنف كبير ، أو أي شيء من هذا القبيل . استعرض سائر النابهين في أي مهنة من مهن الفكر تر صورهم نماذج في البشاعة ليس لها مثيل ، ولقد يستثنى من ذلك رجال الكنيسة ، ولكن هذا طبيعي ، فرجال الكنيسة لا يفكرون البتة ، والأسقف يردد وهو في الثمانين ما لقن أن يقوله وهو في الثامنة عشرة ، ولذلك تراه يحتفظ بجماله إلى آخر يوم من أيام حياته ، إن صديقك الشاب هذا الذي تبخل على باسمه وتحيطه بهالة من الغموض قد صهرتني صورته ، وأؤكد لك أن صديقك هذا لا يفكر

بتاتًا ، ياله من مخلوق جميل لا عقل له ! وما أخلقه بأن يقضى معنا الشتاء
ليغنيننا مرآه عن الزهور الغائبة ، وما أخلقه بأن يقضى معنا الصيف ، لنجد
فيه ما يطفئ ذكاءنا ! كلا يا بازيل ، لا تخدع نفسك فما فيه منك شيء .
فأجاب الفنان قائلاً :

- لقد أسأت فهمي يا هاري ، فأنا أعلم أنني لا أشبهه ، ولست بحاجة
إلى من يدلني على ذلك ، ولو قدر لي أن أكون مثله لسألتني أن أكون ، أراك
تهز كتفيك استخفافًا ، ولكنني صادق في قلبي ، إن القدر يكيد لأصحاب
الذكاء النابغ والجمال النابغ ، ويتعقبهم كما يتعقب الملوك منذ فجر التاريخ
بدون إشفاق . ولخير لنا أن نكون من طينة العامة ، فالأغبياء ودميمو الخلقة
أسعد أهل الأرض طرًا ؛ لأن في وسعهم أن يجلسوا في اطمئنان ، ويحملقوا
كالبلهاء من أماكنهم في موكب الحياة الحافل ، فإن فاتهم النصر فقد كفوا
مرارة الهزيمة . هم يعيشون كما ينبغي أن نعيش جميعًا ، يعيشون في صفاء ،
لا يبالون بشيء ، آمنين مطمئنين ، لا يفسدون حياة أحد ، ولا يفسد أحد
حياتهم ، أما نحن فنُدفع ثمن التفوق غالبًا : أنت تدفع ثمن جاهك وحسبك ،
وأنا أدفع ثمن ذكائي وفني أيا كان قدرهما ، ودوريات جرای يدفع ثمن جماله
وشبابه ، نعم يا هاري ، لسوف ندفع ثمن ما حبتنا به الآلهة من نعم ،
ولسوف نتعذب غذابًا أليماً .

فسار اللورد هنري نحو بازيل هولورد وسأله قائلاً :

- دوريان جرای ، أهذا اسمه ؟

- نعم ، هذا اسمه ، وما كان في نيتي أن أبوح لك به .

- ولم تريد إخفاءه عني ؟

- لست أعرف كيف أشرح لك الأمر ، ولكنني إذا أحييت أحداً من
أعماق قلبي كتمت عن الناس اسمه ؛ لأن في إعلانه شيئاً من الخيانة ، ولقد
تعلمت الولع بالأسرار ، ويبدو لي أن الأسرار هي كل ما بقي لنا في هذا

العصر مما يملأ الحياة غرابة وغموضاً ، فأثفه الأمور يشير فضولنا إن هو حُجِبَ عنا ،
ولذلك تجدني لا أطلع أحداً على وجهتي كلما غادرت لندن في هذه الأيام ،
فإن فعلت فقدت كل شيء في رحلتي ، أعترف لك بأنها عادة سيئة ، ولكنها تدخل
على الحياة شيئاً من سحر الخيال ، وأظنك تحسبني مخبولا لكلفى بالأسرار .
فأجابه اللورد هنرى قائلاً :

- كلا يا صديقي بازيل ، ولعلك نسيت أني متزوج ، وأن اللذة الوحيدة
في الزواج هي أنه يجعل حياة الغش لازمة للطرفين ؛ فأنا لا أعلم أين تذهب
زوجتي ، وزوجتي لا تعلم شيئاً عما أفعل ، ولقد نتقابل ، فنحن نلتقي فعلاً
بين وقت وآخر حين نتعشى معاً خارج المنزل ، أو حين نذهب معاً لزيارة أبيها
الدوق ، فإذا تقابلنا قص كل منا على الآخر أسخف الأكاذيب متكلفاً الجد
الكامل ، وزوجتي قد بزت في هذا الفن ، بل هي أطول مني فيه باعاً ، فليس
يبدو عليها أقل ارتباك عند ذكر التواريخ كما يبدو عليّ دائماً ، فإن تبينت تناقض
أقوالى لم تثر بتاتاً ، وباليته تثر ، فهي تكتفى بالضحك هازئة مني .
قال بازيل هولوردد وهو يسير نحو الباب المؤدى إلى الحديقة .

- لست أحب أسلوبك هذا في الكلام عن حياتك الزوجية يا هارى ، وأنا
أعتقد أنك زوج فاضل ولكنك تخجل من فضائلك ، عجباً لك يا رجل ،
ما سمعتك تقول كلمة طيبة ، وما رأيك تفعل شيئاً شريراً ، إن سخريتك
بكل شيء إن هي إلا موقف تصطنعه اصطناعاً .
فعلق اللورد هنرى على هذا بقوله :

- إن أردت أن تبدو طبيعياً فلا بد لك من التكلف ، وأشق أنواع التكلف
عندى هو التكلف الذى ألزمه لأبدو طبيعياً .
وخرج الرجلان معاً إلى الحديقة ، وهناك جلسا على مقعد من الخيزران
طويل فى ظل شجرة من أشجار الغار ، وانصبت أشعة الشمس على الأوراق
الملساء ، وبين الحشائش اهتزت الأقاحى البيضاء .

- وبعد صمت قليل أخرج اللورد هنرى ساعته من جيبه وقال :
- يجب أن أنصرف الآن يا بازيل ، ولكن لا بد أن تجيبنى قبل انصرافى عن سؤال طرحته عليك منذ هنيهة .
- فأجاب الرسام مطرقاً :
- أى سؤال هذا ؟
- لا تتجاهل تجاهل العارف .
- لست أفهم ما تريد .
- إذًا فما هو ذا السؤال للمرة الثانية : أريدك أن تفسر لى امتناعك عن عرض صورة دوريان جراى . إلى بالسبب الحقيقى .
- لقد ذكرت لك السبب الحقيقى .
- كلا . إنما ذكرت أنك وضعت فى الصورة من نفسك أكثر مما ينبغى ، وهذا تعليل صيغالى .
- فنظر بازيل إلى اللورد هنرى نظرة ثابتة وقال :
- اصغ إلىّ يا هارى ، إن كل صورة ترسم بإحساس قوى هى صورة الفنان وليست صورة نموذج ، فالنموذج شىء عارض لا أكثر ولا أقل ، أو هو المناسبة فقط ، والرسام لا يكشف عن شخصية نموذج الصورة التى يرسمها وإنما يكشف عن شخصيته هو ، ولقد كشفت أنا فى هذه الصورة عن سرّ روحى ، ولهذا لن أستطيع لها عرضاً .
- فضحك اللورد هنرى وسأله قائلاً :
- ترى ما يكون هذا السر ؟
- سأطلعك عليه .

فقال صاحبه وهو يتأمله ملياً :

- هات ما عندك ، فكلى آذان صاغية .

قال الرسام :

- ليس فى الأمر تعقيد كما تظن يا هارى ، وأخشى أن يتغذر عليك فهم ما سأقول ، أو أن تشك فى صدق كلامى .

وابتسم اللورد هنرى ، ثم مال وقطف أقحوانة من بين الأعشاب أوراقها وردية ، وأخذ يتفحصها ثم قال متأملاً قلبها الذهبى الصغير الذى نمت حوله نتف بيضاء :

- بل سأفهم كل ما تقول تماماً ، أما عن الشك فأنا أصدق كل ما يقال لى ما دام شيئاً غير معقول .

وهبت نفحة من النسيم فتساقطت بعض الأزهار عن أشجارها ، وأخذت أزهار السوسن تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال فى الهواء الراكد كأنها جمهرة من النجوم ، وغنى جندب بجوار الحائط ، ثم مر بالحائط طيور طويل نحيل ذو أجنحة بنية شفافة فبدا كالخيوط الأزرق ، وخيل إلى اللورد هنرى أنه يسمع قلب بازيل هولوردد يخفق خفقاناً ، فعجب لحاله أشد العجب .

قال الرسام أخيراً :

- إليك القصة يا هارى : منذ شهرين قصدت إلى دار اللىدى براندون لقضاء السهرة ، ولا يخفى عليك أننا - معشر الفنانين المساكين - مطالبون بالظهور فى المجتمعات بين وقت وآخر لتثبت للناس أننا لسنا قومًا متوحشين ، وأنت القائل إن أى شخص يستطيع فى عصرنا أن يبدو رجلاً متحضراً إذا كان يملك زى السهرة الأبيض ، حتى السمسار يستطيع أن يفعل ذلك ، ولا أطيل عليك القول ، فقد مرت بى عشر دقائق قضيتها فى الصالون متنقلاً بين سيدات هرمات ضخام مثقلات بالملابس الفاخرة ، متحدثاً إلى فريق من

أعضاء الأكاديمية التافهين الثقلاء ، ثم تنبّهت فجأة على فتى يطيل التأمل فى ،
واستدرت قليلا فرأيت دوريان جراى ، رأيتة للمرة الأولى ، وعندما تلاقت
نظراتنا أحسست بالدم يفيض من وجهى ، وتملكنى فزع عجيب ، وأيقنت أنى
أمام إنسان ذى شخصية ساحرة مدمرة ، فلو أنى تركت الأمور تجري مجراها
العادى لاستغرقت روحه روحى ، ولأفنت نفسه نفسى ، ولسيطر على فنى
ومواهبى ، ولم أكن وقتئذ لأرضى بأى تأثير خارجى يتحكم فى حياتى ، وقد
كنت دائما سيد نفسى ، وأنت تعرف نزعتى الاستقلالية يا هارى ، فعزمت
على تجاهله ، ثم هتف بى هاتف لا أعرف مصدره يقول إن حياتى تجتاز أزمة
هائلة ، وأحسست بأن القدر يخبئ لى أفراحا لا حد لها وأتراحا لا حد لها ،
فجزعت أشد الجزع وهممت بالانصراف جينا وإشفاقا لا بوازع من ضميرى ،
فلا فضل لى فى ذلك .

- الجبن والضمير اسمان لمثلول وإحد يا بازيل ، وكل ما هنالك أن
الضمير هو الاسم الرسمى ، الماركة المسجلة على حد قولهم .

- أنا أخالفك فى هذا يا هارى ، ولا أخالك تعتقد فيما تقول ، ولعل
الدافع كان الكبرياء ، فلقد كنت فيما مضى شديد الكبرياء ، ولكن أيا كان
الدافع فقد رأيتنى أقتحم الباب ، وعند الباب اصطدمت طبعاً بالليدى
براندون ، فصاحت بى قائلة : « لن أسمح لك بالانصراف بهذه السرعة
يا مستر هولوردد » وأنت بلا شك تعرف نبرتها الحادة الشاذة .

قال اللورد الشاب وهو يمزق زهرة اللؤلؤ بأنامله العصبية ورقة ورقة :

- نعم ، فهى تشبه الطاووس فى كل شىء سوى الجمال .

- وهكذا لم أستطع التخلص منها ، فقدمتنى إلى بعض أفراد الأسرة
المالكة ، وإلى أشخاص زينت أكتافهم النجوم ، واختالوا تيهنا بوسام ربطة
الساق ، وإلى سيدات عجائز على رؤوسهن تيجان عالية مديبات الأنوف
لا يختلفن كثيراً عن الببغاوات ، وسمعتها تتحدث إلى هؤلاء عنى كأنى
صديق من أعز أصدقائها ، ورأيتها تمعن فى التعظيم من شأنى برغم أنى

لم أرَها قبل ذلك إلا مرة واحدة ، ولعل السبب فى ذلك صورة من صورى أصابت وقتئذ نجاحًا عظيمًا ، وأطُبت فى تقرّظها الصحف اليومية ، وأنت تعلم أن الصحف اليومية هى عند أهل القرن التاسع عشر سجل الخلود ، وفجأة وجدتني مرة أخرى أمام الشاب الذى اضطربت نفسى لمراه كل هذا الاضطراب ، واقترب كل منا من الآخر حتى كدنا أن نلتصق ، والتقت نظراتنا ثانية ، فلم يسعنى إلا أن أطلب إلى الليدى براندون أن تتولى تقديمنا ، ولو لم تفعل لتبادلنا الحديث دون تعريف سابق ، ومن هذا ترى أن موقفى لم ينطو على الجرأة كما تصورت أنا فى تلك اللحظة ، لأن الظروف ألزمتنى به إلزامًا ، وقد قال لى دوريان فيما بعد إنه أحس إحساسى ، وزعم أن المقادير هى التى دبرت لنا هذا التعارف .

فسأله صاحبه قائلاً :

- وماذا قالت الليدى براندون عن هذا الشاب العجيب ؟ إنها مولعة بذكر لحظة خاطفة عن ضيوفها كلما قدمت أحدهم إلى الآخر ، وأذكر أنها قدمتنى مرة إلى نبيل من النبلاء أحمر الوجه نافر الطبع غطت صدره الأوسمة والنياشين ، وبعد أن قدمتنى إليه همست فى أذنى بلهجة مؤثرة تفصيلات مذهشة سمعها ولا شك كل من بالقاعة ، فأثرت الانسحاب لأننى أحب أن أستكشف الناس بنفسى ، ولكن الليدى براندون تعامل مدعويها كما يعامل الخبير المثلث السلع المعروضة فى المزاد : فهى تارة تشرح لك كل ما يتعلق بهم حتى تزهد فيهم ، وتارة تذكر كل شيء إلا ما تهملك معرفته .

قال هولوردد بغير اهتمام :

- مسكينة الليدى براندون ، ما أقسى حكمك عليها يا هارى .
- يا صديقى العزيز ، إنها حاولت أن تنشئ صالونًا ففتحت مطعمًا ، فمن أين يأتى إعجابى بها ؟ ولكن ماذا روت لك عن دوريان جراى ؟
- أشياء من قبيل : « يا له من فتى ساحر ! لقد كنا أنا وأمه المكسيينة متلازمين أبدًا ، ولست أذكر الآن ما عمله ، ولكنى أعتقد أنه بلا عمل ، نعم ،

لقد تذكرت أنه يتقن البيانو . . . أم تراه يتقن الكمان ؟ أهى الكمان مستر جرای ؟ « فلم نستطيع أن نكتم الضحك ، وفى الحال زالت الحواجز بيننا .

قال اللورد الشاب وهو يقطف زهرة أخرى من أزهار اللؤلؤ :

- ليس الضحك بداية سيئة للصدقة بحال من الأحوال ، واعتقد أنه أحسن نهاية لها كذلك .

فهز هولورود رأسه ثم قال :

- أنت لا تفهم معنى الصداقة يا هارى ، بل لا تفهم معنى العداوة كذلك ؛ أنت تستلطف كل الناس ، ومعنى ذلك لا تبالى بأحد .

فقال اللورد هنرى وقد دفع بقبعته إلى الوراء ، ونظر إلى السحب الخفيفة المتناثرة وهى تسبح فى سماء الصيف الفيروزية كالخيوط الحريرية المغزولة البيضاء :

- ما أظلمك يا بازيل ! نعم ، أنت تسرف فى ظلمى ، فأنا أفرق تمامًا بين أنواع الناس ، فأختار أصدقائى لجمالهم ، وزملائى لكرم أخلاقهم ، وأعدائى لذكائهم ، ولا بد من الحذر الشديد فى اختيار الأعداء ، ولن تجد بين أعدائى عدواً غيباً واحداً ، فهم جميعاً من أهل الذكاء ، لذا تراهم يقدرونى حق قدرى ، فهل هذا من مظاهر الغرور يا بازيل ؟

- بالتأكيد يا هارى ، ولكن إذا رجعت إلى تصنيفك للناس دخلت أنا فى قائمة الزملاء .

- أنت يا صديقى بازيل أقرب عندي كثيراً من مجرد زميل .

- وأبعد كثيراً من صديق ، أنا عندك فى مرتبة الأخ كما اعتقد .

- لا تذكرنى بالإخوة فأنا لا أحبهم إطلاقاً ، فأخى البكر لا يريد أن يموت ، وإخوتى الصغار أراهم دائماً مشرفين على الموت .

فعبس هولورود وزجره قائلاً :

- لا تقل مثل هذا الكلام يا هارى !

- أنا لا أعنى ما أقول بالحرف الواحد يا صديقى ، ولكنى أكره أقاربنى بالرغم منى ، ولعل السبب فى ذلك هو أن الإنسان يسوءه أن يرى غيره يشاركه عيوبه ، وأنا أعطف من كل قلبى على الكره التى تبديه الديمقراطية الإنجليزية لما تسميه مساوى الطبقة الراقية ، فعامّة الشعب تشعر بأن العريضة والغباوة والانحلال الخلقي امتيازات خاصة بها ، وإذا اتصف أحدنا بنقيصة من هذه النقائص بدا أنه اعتدى على اختصاصات تلك الطبقة ، فعندما تقدم سدوك المسكين إلى محكمة الطلاق غضبت العامة غضبة كبرى ، ومع ذلك فأنا أعتقد أن أصحاب الأخلاق الفاضلة بين أبناء الشعب لا يتجاوزون عشرة فى المائة .

- لست أصدق كلمة واحدة مما تقول ، ويخيل إلىّ يا هارى أنك لا تقول ما تعتقد .

فأخذ اللورد هنرى يداعب لحيته المديبة السمراء ، ويضرب حذاءه الرقيق بعصاه الأبنوسية المحلاة بالأزرار ، ثم قال :

- يا لك من إنجليزى صميم ! فهذه هى المرة الثانية التى تبدى فيها هذه الملاحظة ، وإن مجرد عرض فكرة من الأفكار على إنجليزى صميم لضرب من الحماسة ، اعرض فكرة ما على إنجليزى صميم تجد أنه لا يحاول أن يزن صدقها أو خطأها ، فكل ما يهمه منها هو مدى إيمان صاحب الفكرة بفكرته ، أما أنا فأرى أن جمال الفكرة لا صلة له بإخلاص صاحبها ، والواقع أنه كلما قل إيمان الإنسان بفكرته كانت أقرب إلى الصحة بوجه عام ؛ لأنها تتجرد فى هذه الحالة من ميوله الشخصية وأحكامه الموروثة وحاجاته فى الحياة ، ولكنى لا أرغب الآن فى أن أجادل فى الشئون السياسية أو الاجتماعية أو الميتافيزيقية .

والأخسرت صداقتك ، والأشخاص أفضل عندى من المبادئ ، والأشخاص الذين تجردوا من المبادئ أفضل عندى من كل شىء فى الحياة ، ولنعد إلى دوريان جراى ، هل يتردد عليك كثيراً ؟

- كل يوم ، ويشقنى أن يمر يوم دون أن أراه ، فهو ضرورة من ضرورات حياتى .

- هذا غريب ، فقد حسبتك لا تهتم بشيء سوى فنك .

فأجاب الرسام بلهجة جادة :

- إن دوريان جرای قد أصبح كل فنى الآن ، ويخيل إلى أحياناً ياهارى أن تاريخ العالم ليس فيه إلا عصران لهما بعض الأهمية : فالعصر الأول هو العصر الذى ظهرت فيه أداة جديدة للتعبير الفنى ، والعصر الثانى هو العصر الذى ظهرت فيه شخصية جديدة أصبحت موضوعاً للفن ؛ فاختراع الرسم بالزيت كان له من الأهمية عند البندقية ما كان لوجه أنتينوس فى الفن اليونانى القديم ، ودوريان جرای سيحدث فى فنى ثورة لا تقل خطراً عن هذين الانقلابين ، وما ذلك لأننى أصوره أو أرسمه أو أنقل على اللوحة خطوطه وقسماته ، فقد ألفت ريشتى ذلك ، ولكن لأننى لا أنظر إليه نظرى إلى نموذج فحسب ، ولست أقصد أنى غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى الصور التى نقلتها عنه ، أو أن جماله يستعصى على الفن ، فالفن لا يستعصى عليه شيء ، وأنا أعرف أن إنتاجى قد تقدم منذ أن عرفت دوريان جرای ، بل دخل عليه إتقان لم يكن من خصائصى أولاً ، ولست أدرى إن كنت تفهم معنى هذا الكلام أم لا ، ولكن شخصيته قد ألهمتنى أسلوباً فى الفن جديداً لا أعلم كيف جاءنى ، فأصبحت أرى الأشياء وأفكر فيها بطريقة مختلفة عن طريقتى الأولى ، بل أصبحت أستطيع أن أصوغ الحياة كلها صوغاً جديداً على نسق لم أكنه من قبل ، أتذكر من القائل : « أيامى تأمل ، ولكنى أحلم بالجمال » ؟ لقد نسيت الآن ، ولكن هذا مقام دوريان جرای عندى ولقد جاوز العشرين ربيعاً ، ولكنه ما زال فى نظرى صبيّاً غض الإهاب ، لیتك تفهم معنى هذا الكلام يا هارى ! إن رؤية هذا الصبى حين يخطر أمامى تلهمنى دون وعى منى بأسس مذهب جديد ، وأحس بهذه الأسس إحساساً واضحاً فتلهمنى بأسلوب جديد اجتمع فيه خيال المدرسة الرومانسية ، وسمو الروح اليونانى ، أسلوب يقوم على انسجام الروح والجسد ! فياله من حلم جميل ! ها نحن بحماقتنا قد

فصلنا الروح عن الجسد ، واستحدثنا منهما فناً مثاليًا خاويًا من كل مغزى ،
وفناً واقعياً مبتذلاً ، فياليتك تعرف موقع دوريان جراى عندى يا هارى !
أنت لا شك تذكر ذلك المنظر الطبيعى الذى رفضت أن أنزل عنه لأنيو برغم
عروضه السخية ، فهو من أبدع ما رسمت ، أو تعرف لم ضننت به عليه ؟
لأن دوريان جراى كان يجلس إلى جوارى ساعة أن رسمته ، فطاف بى وحي
منه لطيف خرج من شخصيته فغمرنى ، فكشفت للمرة الأولى فى حياتى عن
ذلك السحر الذى كنت أنشده دون أن أدرك معناه ، وعبرت عن كل ذلك
فى اللوحة .

- يا للعجب ! لا بد أن أرى دوريان جراى يا بازيل .

ونفض هولوردد من المقعد ، وأخذ يسير فى الحديقة جيئة وذهوبًا ، وبعد
برهة عاد إلى مكانه وقال :

- إن دوريان جراى عندى محض دافع يدفعنى إلى الخلق الفنى يا هارى ،
فلن تر فيه شيئًا عجيبًا ، أما أنا فأرى فيه كل شيء ، وإذا ما غاب عنى ظهر
فى فنى أكثر منه وهو قريب ، فهو كما ذكرت لك ملهمى بأسلوب جديد ،
وأنا أعثر عليه فى بعض الخطوط الدقيقة ، وأعثر عليه فى بعض الألوان
الحلوة ، هذا كل ما فى الأمر .

فسأله اللورد هنرى قائلاً :

- إذا كان الأمر كذلك فلم تمتنع عن عرض صورته ؟

- لأننى وضعت فيها دون قصد منى ما يعبر عن هذه الوثنية الفنية الشاذة ،
وهو لا يعرف عنها شيئًا بطبيعة الحال ، هو لا يعرف عنها شيئًا ولن يعرف
عنها شيئًا ، ولكن الناس قد يفطنون إليها ، ولست أحب أن تقف روحى
عارية أمام أنظار المتطفلين الأغبياء ، كلا يا هارى ، لن أضع قلبى تحت أنظار
السوقة ليقرأوا أسرارهم ، فلقد وضعت فى الصورة من نفسى أكثر مما ينبغى ،
أجل يا هارى ، أكثر مما ينبغى .

- أرى الشعراء أقل منك وسوسة ، فهم يعرفون فائدة العاطفة فى سوق النشر ، وفى عصرنا هذا نجد أن القلب الممزق يعاد طبعه مراراً وتكراراً .
فقال هولوردد :

- وهذا ما يشير حفيظتى على الشعراء ، فواجب الفنان أن يصنع الأشياء الجميلة ، ولكن حرام عليه أن يودع فيها شيئاً من نفسه ، ففى هذا العصر ينظر الناس إلى الفن نظرهم إلى المذكرات التى يدونها الكتاب عن حياتهم الشخصية . نعم ، لقد فقدنا القدرة على فهم الجمال المجرد ، ولسوف أكشف للعالم يوماً ما عن سر هذا الجمال المجرد ، ولهذا السبب عينه لن يرى العالم الصورة التى رسمتها لدوريان جراى مهما كلفنى ذلك .

- أعتقد أنك مخطئ يا بازيل ، ولكنى لن أجادلك فى رأيك ، فالجدل هوية السفهاء . قل لى : أيجبك دوريان جراى ؟
ظل الرسام يفكر لحظات ثم أجاب :

- أجل يحببنى . أعرف أنه يحببنى ، والأمر مفهوم لأننى أتملقه ، وتملكنى لذة عجيبة عندما أقول له أشياء أعرف أنى سأندم على قولها ، وهو فى العادة شديد التلطف معى ، فنحن نقضى الوقت الطويل فى الاستديو ، ونتحدث فى ألف موضوع وموضوع ، ومن وقت إلى آخر يتتابه طيش بغيض فأراه يجد متعة حقيقة فى الإساءة إلى ، وعندئذ أشعر يا هارى بأنى قد أسلمت روحى إلى مخلوق ينظر إليه نظره إلى زهرة توضع فى عروة سترته ، ويرى فى فنى مجرد حلية ترضى غروره ، أو زينة تكمل جمال اليوم الصائف الصبوح .

قال اللورد هنرى :

- إن أيام الصيف طويلة ، وربما سئمت منه قبل أن يسأم منك ، ولا جدال فى أن العبقرية أطول أجلاً من الجمال ، وهذه أفظع مأساة فى حياتنا الإنسانية ؛ ولذا ترانا نتكالب على تثقيف أنفسنا ، وفى تنازعنا الوحشى للبقاء

نبحث عن ذخيرة باقية ؛ ولذا ترانا نحشو أدمغتنا ، بالحقائق والترهات على السواء كيلا نفقد أمكتنا فى الحياة ، وهى غاية سخيصة . إن المثل الأعلى فى عصرنا هو الرجل الذى يعرف كل شىء ، وجمجمة الرجل الذى يعرف كل شىء صندوق مزعج ، بل هى حانوت من حوانيت العاديات اكتظ بالوحوش الأثرية وأكداس التراب ، ولن تجد فيه سلعة لم يبالغ فى تقدير ثمنها . ما زلت أظن يا بازيل أنك ستسام منه قبل أن يسام هو منك ، ولسوف يأتى يوم تنظر فيه إلى صاحبك هذا فتبين أنه قد صار نموذجاً عتيقاً لا يصلح للرسم أو يضايقك توزيع الألوان فيه ، أو أى شىء من هذا القبيل ، وعندئذ تقسو فى حكمك عليه ، وتظلمه فى قرارة نفسك ، وتحس إحساساً عميقاً بأنه قد غدر بك ، فتتطفئ حرارتك تماماً وتصبح كبركان خامد ، وهذا شىء يؤسف له ، لأنك ستبدل من حال إلى حال . وإن القصة العنيفة التى رويتها عليك لهى قصة الفن ، إن صح هذا التعبير ، وأفطع ما فى الخيال أنك تستفيق منه على الحقيقة المرة .

- كفاك ما قلته يا هارى ، فلسوف تظل شخصية دوريان جراى مسيطرة على ما دمت حياً ، ولن يتاح لمثلك أن يقدر إحساسى لأنك متقلب الطبع .
- بل إن طبعى المتقلب هذا يا صديقى بازيل هو ما يجعلنى أقدر إحساسك ، فالمخلصون لا يعرفون من الحب إلا جانبه التافه ، أما المتقلبون فيذوقون علقمة .

ثم أشعل اللورد هنرى عود ثقاب بحكه فى علبة فضية جميلة ، وأخذ يدخن سيجارة هادئ البال راضياً عن نفسه وكأنه لخص فلسفة الحياة فى جملة واحدة . واحتك باللبلاب القاتم الخضرة سرب من الشحارير فسمع له حفيف ، وزقزقت العصافير ، وأنشأت ظلال الغيوم يطارد أحدها الآخر فوق الحشائش كأنها تتسابق فى الحديقة . والحديقة ! ما كان أجمل الحديقة ! كذلك بدت له عواطف الناس جميلة . أجمل . فتنه عواطف الناس أكثر مما فتنه أفكارهم ،

وبحث عن سحر الحياة ومصدره ، فوجد أنه ينبثق من روح الإنسان ومن عواطف أحبائه . ثم أخذ اللورد هنرى يتخيل الغداء الممل الذى فاته فى بيت عمته ببقائه كل هذا الوقت مع بازيل هولورود فاغتنبتت نفسه ، فلو قد ذهب إلى بيت عمته لوجد عندها اللورد جودبودى لا محالة ، ولدار الحديث كله حول . الفقراء وإطعامهم ، وحول ضرورة البدء فى بناء البيوت النموذجية . أجل . لو أنه ذهب إلى بيت عمته لسمع الأغنياء يتحدثون فى مزايا الاقتصاد ، ولسمع الكسالى يتحدثون فى شرف العمل ببلاغة قصوى . فما أسعده بتجنب هذا الجو الخائق ! وفيما هو يفكر فى عمته جال برأسه خاطر فقال :

- لقد تذكرت الآن يا بازيل .

- وماذا تذكرت يا هارى ؟

- تذكرت المكان الذى سمعت فيه اسم دوريان جراى .

فعبس الرسنام قليلاً وقال :

- وأين كان ذلك ؟

- لا تعبس يا بازيل كأن فى الأمر شراً . لقد سمعت اسم دوريان جراى فى بيت عمتى اللىدى أجاثا ، وقد قالت لى عمتى إنها عثرت على شاب يساعد فى أعمالها الخيرية التى تقوم بها فى حى الإيست إند ، واسم هذا الشاب دوريان جراى ، ويجدر بى أن أقول إنها لم تتحدث قط عن جمال هذا الفتى ، وهذا طبعى ، فالنساء لا يتذوقن الجمال ، أو على الأقل الصالحات منهن لا يتذوقنه ، وقد وصفته لى بأنه شاب جاد خيّر النفس ، فتخيلته رجلاً يلبس نظارة خفيف الشعر ضخمة القدمين شوهت وجهه آثار الجدرى . فليتنى كنت أعرف أنه صديقك الملهم هذا .

- لو أنك عرفت لساءنى ذلك يا هارى .

- ما السبب ؟

- لأننى لا أحب أن تلتقى به !

- أنت لا تحب أن ألتقى به ؟

- نعم .

وخرج كبير الخدم إلى الحديقة وقال :

- إن مستر دوريان جراى فى الاستديو يا سيدى .

فضحك اللورد هنرى وقال :

- لا بد أن تقدمنى إليه الآن يا بازيل .

والتفت الرسام إلى الخادم فرأى عينيه تختلجان فى ضوء الشمس . قال :

- سل مستر جراى أن ينتظرنى يا باركر ، فلن أتأخر طويلا .

فانحنى الرجل وانصرف ، ثم نظر الرسام إلى اللورد هنرى وقال :

- اسمع يا هارى . إن دوريان جراى أعز صديق لى ، وهو ساذج النفس

مطبوع على الخير ، وقد أصابت عمتك تماماً فيما قالتة عنه ، فلا تفسده

ولا تحاول أن تؤثر فيه ، فتأثيرك فى الناس سيئ . إن العالم أمامك رحيب وبه

آلاف من الناس يستحقون اهتمامك ، فلا تحرمنى من هذا الصديق الواحد

الذى أستوحى منه فنى ، واعلم أن مستقبلى كفنان متوقف عليه دون سواه ،

فتذكر يا هارى أنى أثق بك .

وكان هولوردد يتكلم مكرهاً وببطء شديد كأن كل كلمة تخرج من فمه

تعصر فؤاده عصراً ، فاحتج اللورد هنرى على كلامه وهو يبتسم ، وتأبط

ذراعه وسعى به إلى البيت كأنه يجره جرّاً .

الفصل الثانى

رأى الرجلان دوريان جراى حين دخلا الاستديو ، وكان جالساً أمام البيانو يقلب صحائف كراسة من « مناظر الغابة » للموسيقى شومان فلم يشاهدا وجهه . قال :

- ما أجمل هذه الصحائف يا بازيل ؟ أحب أن أدرس هذه الكراسة ، فهل تعيرنى إياها ؟

- نعم يا دوريان ، سأعيرك إياها إذا أحسنت الجلوس أمامى فلم تتحرك كثيراً أثناء قيامى برسمك .

فدار الفتى على مقعد البيانو وأجابه متحدياً :

- لقد سئمت الجلوس ، وما أنا براغب فى صورة بالحجم الطبيعى .
ثم وقع بصره على اللورد هنرى فارتبك قليلا وأحمرت وجنتاه لحظة ونهض قائلاً :

- عفواً يا بازيل فقد كنت أظننا على انفراد .

- هذا يا دوريان هو اللورد هنرى وتون ، صديقى منذ أيام الطلب فى أكسفورد ، وقد كنت منذ دقيقة واحدة أصفك له بأنك خير من جلس أمام رسام ، وها أنت ذا قد أفسدت كل شىء .

فتقدم اللورد هنرى إلى الشاب باسطاً يده وقال :

- بل لا زلت سعيداً بلقائك يا مستر جراى . إن عمتى تحدثنى عنك كثيراً ، فأنت أحد أصفياؤها ، بل أخشى أن أقول إنك أحد ضحاياها كذلك .

وبدا على وجه دوريان جرای أسف ليس من طبعه ، وأجاب قائلاً :

- أنا في قائمتها السوداء في الوقت الحاضر ، فقد وعدت عمك الليدي أجاثا بأن أخرج معها إلى ناد بحى هوايت تشايل ، ولكنني نسيت تمامًا ، وقد كان الغرض من هذه الرحلة أن نشترك في عزف بعض المقطوعات الموسيقية ، أما وقد أخلفت وعدى فلن أجد الشجاعة لزيارتها بعد الآن .

- سأصلح أنا بينكما ، ولن أجد صعوبة في ذلك ، فهي تحبك حبًا جمًّا ، ولست أظن أن تخلفك قد أفسد شيئًا ، فعمتي أجاثا حين تعزف على البيانو تحدث ضجة كبرى ، ولا يبعد أن سامعيها حسبوا أن هناك عازفين لا عازفًا واحدًا .

فقال دوريان ضاحكًا :

- هذه قسوة عليها وإهانة لي .

ونظر اللورد إليه مليًا . نعم . لا شك أنه آية في الجمال ، فشفتاه الحمروان من خلق فنان دقيق ، وعيناه الزرقاوان الصافيتان وشعره الذهبي المتموج من خلق فنان سخى ، وقد اجتمع له من صراحة الشباب متهاها ومن طهارته أصفاهها ومن حرارته أقواها ، فلا عجب أن مرآه كان يوحى بالثقة في القلوب لحظة أن تقع عليه العيون ، كأنه مخلوق نقي صان نفسه عن دنس الدنيا . وزال عجب اللورد هنرى من تفانى بازيل هولوردر في الولاء له . وأخيرًا قال :

- إنما يهتم بأمور الإحسان الثقلاء ، وأنت يا مستر جرای شاب لطيف ، بل أنت مثال اللطف .

وبعد أن فرغ من كلماته ارتمى على الأريكة وأخرج سيجارة من علته . أما الرسام فقد كان مشغلا بخلط ألوانه وإعداد أدواته ، وكان القلق يبدو عليه ، فلما أن سمع عبارة اللورد هنرى الأخيرة التفت إليه وقال بعد تردد قليل :

- لا بد أن أفرغ اليوم من رسم هذه الصورة يا هارى ، وأرجو ألا تحسبنى فظًا إذا طلبت إليك أن تتركنا .

فابتسم اللورد هنرى ورمى دوريان جراى بنظرة ذات مغزى وقال :

- أنصرف يا مستر جراى ؟

- بل أرجو أن تبقى معنا ، فبازيل اليوم منقبض النفس ، وأنا لا أحتمله حين يكون منقبض النفس ، وفضلا عن ذلك فأنا أحب أن تشرح لى ما قلته من أن الاهتمام بالأعمال الخيرية لا يناسبنى .

- لا أظن أنى سأحدثك عن الجمعيات الخيرية ، فهو موضوع جدى عمل ، ولكنى مع ذلك سأبقى معكما ما دمت قد طلبت منى ذلك ، وأرجو يا بازيل ألا يكون فى بقائى مضايقة كبيرة لك ، ألم تقل مراراً إنك تحب أن يجد من ترسمهم جليساً يدفع عنهم الملل ؟

فعض هولوردد شفتيه وأجاب قائلاً :

- إذا كان دوريان يحب أن تبقى معنا فلن يسعك إلا البقاء بطبيعة الحال ، فرغبات دوريان أوامر لا تعصى عند جميع الناس ما خلا نفسه .

ولكن اللورد هنرى تناول قبعته وقفازه وقال :

- أشكرك على إلحاحك علىّ فى البقاء يا بازيل ، ولكن لا بد لى من الانصراف ، فأنا على موعد فى نادى أوليانز . الوداع يا مستر جراى ، واعلم أنه يسرنى أن تزورنى فى شارع كيرزون فى عصر يوم من الأيام ، فأنا موجود دائماً فى بيتى حول الساعة الخامسة إلا فى الأحوال النادرة . اكتب لى بموعد زيارتك ، وتذكر أنى سأحزن كثيراً إن لم أرك ثانية .

فصاح دوريان جراى قائلاً :

- اصغ إلى يا بازيل ، إذا انصرف اللورد هنرى انصرفت أنا كذلك ، فأنت لا تنطق بكلمة حين ترسم ، ولقد مللت الوقوف أمامك كل يوم متكلفاً الابتسام .

قال هولورود وهو يرنو إلى الصورة في تفحص :

- أرجو أن تبقى يا هارى لترضى دوريان ولترضينى . إن ما قاله دوريان صحيح ، فأنا لا أنطق بكلمة أثناء العمل ولا أستمع لكلام الغير ، ولا بد أن ذلك يضايق من أرسمهم أشد المضايقة . هلا رجوتك أن تبقى ؟

- وهل أخلف ميعادى فى نادى أوليانز ؟

ضحك الرسام وأجاب :

- هذه مسألة سهلة . عد إلى مكانك يا هارى ، وأنت يا دوريان خذ مكانك على القاعدة ولا تصغ كثيراً إلى كلام اللورد هنرى ، فإن له تأثيراً خبيثاً فى جميع أصدقائه لم ينبج منه إلا أنا .

وسار دوريان جراى إلى القاعدة كأنه شهيد يسير إلى حتفه ، وأخذ مكانه عليها ، وزمجر امتعاضاً كأنه يشكو أمره إلى اللورد هنرى الذى راق فى نظره ، ورأى دوريان أن اللورد هنرى وبازيل طرفاً نقيض . كم كان صوت اللورد هنرى حلواً . وبعد لحظات كان دوريان جراى يسأل اللورد هنرى قائلاً :

- هل صحيح ما يقوله بازيل عنك يا لورد هنرى من أن لك تأثيراً خبيثاً فى الناس ؟

- التأثير الصالح لا وجود له يا مستر جراى ، فكل تأثير يتنافى مع الأخلاق ، أعنى إذا أردت أن تحكم حكماً عملياً .

- لست أفهم .

- إن تأثيرك فى شخص ما معناه أنك تسبغ روحك عليه ، مما يملأ رأسه بأفكار ليست أفكاره ، ويملأ قلبه بعواطف ليست فى طبيعته ، ويجعل من رذائله رذائل مستعارة من الغير ، وبذلك يصبح صدرى يردد ترنيمة رجل آخر ، أو ممثلاً يلعب دوراً لم يكتب له . إن غاية الحياة تقدم الذات ، وما خلق كل منا إلا لينمى ملكاته ، ويصون طبيعته على الوجه الأكمل ، ولكن الناس فى هذه الأيام يخافون من أنفسهم ، وينسون أن واجب الإنسان

الأول هو واجبه نحو نفسه ، فتراهم يطعمون الجياع ويكسون العراة وأرواحهم جائعة عارية . ولا بد من أحد أمرين ، فإما أن شعبنا قد فقد شجاعته ، أو أن الشجاعة لم تكن من صفاته فى يوم من الأيام ، فنحن عبيد الخوف : الخوف من المجتمع وهو جوهر الأخلاق ، والخوف من الله وهو جوهر الدين . ومع ذلك . . .

كان الرسام مستغرقاً فى عمله فلم يتبع الحديث ، ولكنه لاحظ أن وجه دوريان جرای يسطح بيريق جديد لم يره من قبل . قال :
- أدر رأسك قليلاً يا دوريان .

قال اللور هنرى مستأنفاً حديثه بصوت خافت رخيم وهو يعبر عن قصده بيده كعادته منذ أن كان تلميذاً فى كلية إيتون :

- ومع ذلك ، فاعتقادی أن الأيام لو قيضت لنا رجلاً واحداً يحيا حياته كاملة ، فيصور كل إحساس يجيش فى نفسه ، ويعبر عن كل فكرة تمر بخلدته ، ويحقق كل حلم يداعب خياله ، لعادت البهجة إلى الحياة مرة أخرى ، وانتشلتنا هذه الصراحة من كابوس القرون الوسطى الذى لا نزال نشقى به . أجل . لو قيضت لنا الأيام مثل هذا الرجل لعدنا إلى المثل الأعلى فى حضارة اليونان ، حضارة هيلاس ، بل لتجاوزنا اليونان وحضارتهم الخصبة الجميلة ، ولكن أشجع رجل بيننا يرتعد أمام نفسه فرقاً .

إن إنكار الذات الذى يفسد علينا الحياة لهو بقية أليمة من تراث الهمجية الأولى حين كان رجل الغاب يمزق جسده بيده ، وها نحن ندفع ثمن زهدنا فى الحياة ، فكل نازع نكبته فى نفوسنا يجثم فى أفئدتنا ، ويسمم فينا ينابيع الحياة . إن الجسد يخطئ مرة واحدة ثم تغسل عنه خطيئته ، لأن التجربة تطهره ، ولا يبقى بعدها إلا لذة الذكرى ، أو غصة الندم الجميل ، ولا نجاة من الغواية إلا بالاستسلام لها ، فإن قاومت الغواية ذبلت روحك من شوقها إلى المحظور ، وما حظر المحظور إلا رباؤها ، وبكت نهماً إلى الحرام ،

وما حرم الحرام إلا ياسها وإشفاقها ، فيقولون إن الأحداث الكبرى تبدأ في عقل الإنسان ، وأنا أقول إن الجرائم الكبرى تبدأ في عقل الإنسان كذلك ، بل تبدأ في الإنسان لا سواه ، وحتى أنت يا مستر جرای ، بشبابك المتفتح كالوردة الحمراء ، وطفولتك النقية كالوردة البيضاء ، حتى أنت يا مستر جرای قد جمحت بك شهوات ارتعد أمامها ضميرك ، وعصفت بك خواطر ملأت قلبك رعباً ، وعرفت في يقظتك ومنامك أحلاماً كلما ذكرتها ضرج الخجل خديك بالدماء .

فقاطعه دوريان جرای في لعنة قائلاً :

- كفى ! كفى ! لقد بلبت أفكارى . أعتقد أن هناك رداً على كل ما تقول ، ولكنى عاجز عن إيجادها . الزم الصمت ودعنى أفكر .

وظل ما يقرب من عشر دقائق ثابتاً في مكانه فاغر الفم يلمع في عينيه ضوء غريب ، وكان يحس إحساساً مبهمًا بأنه يدخل تحت تأثير ما ، ولكنه أحس كذلك بأن النفوذ الجديد الذى يسيطر عليه لم يأت من الخارج ، وإنما خرج من أعماق نفسه ، فلقد هزت الكلمات القليلة التى قالها صديق بازيل وترأ خفياً في فؤاده لم يهتز من قبل لشيء ، وأيقظت فيه أعجب المشاعر ، ولا شكل في أن اللورد هنرى تعتمد بعض الشيء أن يحير دوريان ، ولكن كلماته جاءت عرضاً وبغير تحضير سابق .

ولم تكن هذه المشاعر جديدة على دوريان جرای ، فقد كانت الموسيقى توقظ مثلها فيه ، ولكم ملأته بالقلق والحيرة ، ولكن الموسيقى خرساء لا تفصح ، وهى لا تخلق في نفوسنا عالماً جديداً مرتباً متماسك الأجزاء ، بل تخلق فيها عالماً من الفوضى ، أما الألفاظ فسلطانها عظيم وتصويرها دقيق وتعبيرها قاس ، ومن رام الفرار منها لاحقته أينما ذهب ، ولكنها برغم ذلك كله ذات سحر لطيف ، ولها من النغم العذب ما للعود وللکمان ، وهى تحبس كل شارد من العواطف في إطار من حديد . فيالنا من الألفاظ ! ليس أصدق من الألفاظ تعبيراً عن الحقيقة .

كم من أشياء مرت بدوريان جرای وعجز عن فهمها أيام صباه ، ولكن
ها هو يفهمها الآن . وهذه الحياة تصطبغ فجأة أمام ناظريه بالألوان النارية العنيفة ،
وخيل إليه أنه يمشى بين ألسنة اللهب دون أن يكتوى بنارها ، ويا ليتة اكتوى .
أما اللورد هنرى فقد كان يتأمله وعلى شفثيه ابتسامة ذات مغزى ، وكان
يعرف متى يتوقف عن الكلام ويستعين ببلاغة الصمت ، ثم ثار فضوله
وعجب لما رآه من تأثير فجائى لكلماته ، وتذكر ذلك الكتاب الذى قرأه وهو
فى السادسة عشرة من عمره ، وتعلم منه ما لم يعلم من أسرار الحياة ، فجال
بباله أن دوريان جرای يمر الآن فى تلك التجربة ذاتها ، ولم يكن ما قاله اللورد
هنرى إلا سهمًا انطلق بغير تصويب ، فهل أصاب السهم الهدف ؟ يا له من
هدف جذاب !

ولم يتنبه هولوردد إلى السكون الذى خيم على الحجرة ، فقد كان
مشتغلا بالرسم يلون الصورة بألوانه الجريئة التى تضيف على عمله رقة وأناقة
هما فى الواقع مظهر من مظاهر القوة ، فى الفن على الأقل . قال دوريان
جراى :

- لقد أتعبنى طول الوقوف يا بازيل ، والهواء هنا يخنق أنفاسى ، فلا بد
أن أخرج إلى الحديقة لأرتاح قليلاً .

فأجاب الرسام :

- عفواً يا صديقى ، فقد أنساني الرسم كل شيء . إن وقفتك اليوم
يا دوريان أجمل من وقفتك فى أى يوم مضى ، فلم تبد منك أدنى حركة ،
كذلك أمكننى أن أنقل التعبير الذى كنت أطلبه ، أقصد ذلك البريق فى عينيك ،
وذلك الانفراج الخفيف فى شفثيك ، ولست أعرف بم حدثك هارى ، ولكن
حديثه بلا جدال قد أكسب محياك تعبيراً لا نظير له . أكان يطريك طيلة هذا
الوقت ؟ مهما يكن من شيء فلا تصدق كلمة واحدة مما يقول فهو يلقي
الكلام جزافاً .

قال دوريان :

- كلا . لم أسمع منه كلمة إطراء واحدة ، ولذا تجدنى أميل إلى الشك فى كل ما قاله .

قال اللورد هنرى معترضاً ، وهو ينظر إليه بعينه الناعستين الحالمتين :

- بل أنت تؤمن بصدق ما أقول ، وأنت تعلم ذلك . إن الحرارة هنا خانقة فلنخرج معاً إلى الحديقة . آتينا شرباً مثلجاً به شئ من الشليك يا بازيل .
- بالتأكيد يا هارى . أمامك الجرس فأطلب خادمى پاركر ومره بما تشاء ، أما أنا فباق هنا لأتم هذه الصورة ، وأرجو ألا تعطل دوريان فى الحديقة طويلاً إذ لابد لى منه ثانية ، فأنا أحس برغبته فى العمل لم أحس بها من قبل .
يا لها من صورة رائعة ، فما أسعدنى بها ! لسوف تكون أبدع ما رسمت حين تتم ، بل لا أغالى إن قلت إنها أبدع ما رسمت فى وضعها الحالى .

وخرج اللورد هنرى إلى الحديقة فوجد دوريان جراى يدفن وجهه بين أزهار الليلج المنعشة يستاف عبيرها كأنه نبيذ كريم ، ودنا منه ثم وضع يده على كتفه وقال فى صوت خافت :

- ها قد عرفت طريقك إلى الخلاص يا دوريان ، فما يظهر الروح إلا الحواس ، وما يظهر الحواس إلا الروح .

فجفل الفتى وارتد قليلاً ، وكان عارى الرأس فعبث أوراق الشجر بشعره المتموج ، وتشابكت خيوطه الذهبية ، وبدا فى عينيه ارتياح عظيم كأنه نائم أوقف فجأة من منامه ، وارتجف أنفه الدقيق ، ونبض فى شفثيه القرمزيتين عصب دفين فتركهما ترتعشان بلا انقطاع . واستأنف اللورد هنرى حديثه قائلاً :

- نعم يا مستر جراى ، هذا سر من أسرار الحياة ، بل سر من أسرارها الكبرى ، أعنى شفاء النفس عن طريق الحواس ، وشفاء الحواس عن طريق النفس ، وأنت نموذج من نماذج الخلق رائع ، وشوقك إلى معرفة الحياة أكبر من معرفتك بها ، ولكن معرفتك بالحياة أكبر مما تظن .

فأظلم وجه دوريان جراى ، وأشاح برأسه عن اللورد هنرى ، فلقد بدأ على الرغم منه يتعلق بهذا الرجل المديد القامة الرشيق التكوين الواقف إلى جواره ، وأثار اهتمامه محياه الأسمر الحالم وملامحه المتعبة ، أما صوته الخفيض الكسلان فقد كان يسحر الحجر ، ويداه الناصعتان الناعمتان كان لهما سحر زهرة غريبة ، وكانتا تتحركان بلا انقطاع كلما تكلم حركة تشبه إيقاع لحن رتيب ، فيكاد سامعه أن يفهم ما تقولان ، ولكن دوريان برغم ذلك كله خامره الخوف منه ، وإن أخجله أن يخاف ، وكيف لا يخاف من هذا الغريب الذى يقرأ عليه صفحة نفسه كأنها كتاب مفتوح ، ويهتك أمامه ما خفى عليه من أسرارها . لقد عاشر دوريان جراى بازيل هولوردد فلم يسمع منه إلا كلمات الإطراء ، ثم دخل فى حياته فجأة رجل وصف له الحياة ففك له لغزها . ولكن مم يخاف ؟ لو أنه كان صبيًا غريبًا أو بتًا قليلة الحيلة لجار له أن يخاف ، أما وهو ليس بهذا ولا تلك فلا مبرر لخوفه على الإطلاق . قال اللورد هنرى :

- هيا بنا إلى الظل نجلس فيه . هذا پاركر قد أتاننا بالشراب ، ولو مكثت فى هذا الجو المحرق طويلا لأتلفتك الشمس ، ولم يعد بازيل يجد فيك ما يستحق الرسم ، فحذرا من الشمس يا مستر جراى ، فالسمرة لا تناسبك .

فأجاب دوريان ضاحكًا وهو يجلس على مقعد فى طرف الحديقة :

- وما أهمية ذلك .

- بل أهميته جوهريه بالنسبة لك .

- وكيف ذلك ؟

- لأن شبابك لا نظير له ، والشباب هو كل ما يستحق أن نتمناه لأنفسنا

فى الحياة .

- ولكنى لا أحس بشبابى يا اللورد هنرى .

- هذا طبعى ، وأنت لا تحس بشبابك لأنك تملكه ، ولن تحس به إلا إذا فقدته ، ولسوف تفتقده يوم يضيع منك . ستفقده حين يزول جمالك ويمتلئ وجهك بالغضون . ستفقده حين يحفر الهم أخاديده فى جبينك الجاف ، ويكوى الأسى بنيرانه شفتيك . أنت تفتن الدنيا أينما ذهبت الآن ، فهل يدوم لك ذلك ؟ ما رأيت وجهًا قط فى جمال وجهك يا مستر جراى ، ولا تعبس ؛ فهذه حقيقة مقررة ، والجمال لون من ألوان النبوغ ، بل الجمال أعلى قدرًا من النبوغ ، وهذه أيضًا حقيقة مقررة ، فإن كنت تشك فى ضوء الشمس أو فى الربيع أو فى القمر الفضى حين ينعكس خياله على المياه المظلمة أو فى أشباه هذه الحقائق الأولية ، فلك أن تشك فى صدق ما أقول . إن الجمال يحكم العالم بإذن من الله ، ولا ينازعه فى دولته شىء فى الوجود ، فمن حبه الطبيعة به جلس على عرش القلوب . أراك تبتسم لهذا الكلام ، ولكنك لن تبتسم حين يزول عنك جمالك ، أسمع الناس يقولون إن الجمال سطحي ، ولعلمهم صادقون فيما ذهبوا إليه ، ولكن الجمال مهما كان سطحيًا فلن تصل تفاهته إلى تفاهة الفكر ، ولو سألتنى الرأى لقلت لك إن الجمال عجيبة العجائب ، ولقد يكون الجمال قشرة ظاهرية ، ولكن الظواهر هى كل شىء فى الحياة ، ومن لا يحكمون بالظواهر هم السطحيون الذين لا يفهمون شيئًا عن لغز الحياة ، فلغز الحياة هو ما نراه ، وليس ما لا نراه . نعم يا مستر جراى ، إن الآلهة تحبك ، ولكن لا تنس أن الآلهة تسترد ما تمنح ، ولم يبق أمامك إلا سنوات معدودات تستطيع فيها أن تحيا حياتك على أكمل وجه ، فحين يزوى شبابك يزوى معه جمالك ، ولسوف تجد يومئذ أن أيام مجدك قد مضت ، وتفهم معنى الهزيمة ، أو تقتنع من كل هذا السلطان العريض بذكرى مجدك الزائل ، وهذا أشد مرارة من الهزيمة . إن كل شهر يفوت يقترب بك من هذا المصير الأليم ، فالزمن ينفس عليك شبابك ويغار من وردك ورياحينك ، وحين يصرعك الزمن يشحب لونك ويتكهف خداك وينطفئ البريق الذى يلمع الآن فى عينيك ، وتتعلم كيف يكون الشقاء ، فانعم بشبابك ما بقى لك .

أيامك ذهبية ، فلا تبثر ذهب أيامك مستمعاً إلى نصائح الوعاظ الثقلاء
أو آخذاً بيد العاثرين أو مكرساً حياتك للجهال والسفهاء ، فهذه أهداف عصرنا
وهو مريض ، وهذه مثله العليا وهى زائفة . عش وانعم بالحياة المفتحة فيك ،
واستفد من كل اختبار يمر بك ، وجدد إحساسك بالحياة ولا تخش شيئاً ؛
فعصرنا بحاجة إلى دين جديد ، إلى وثنية جديدة ، إلى إحياء عبادة الجمال
التي انطوت تحت أنقاض اليونان ، ولتكن أنت رمز هذه الفلسفة الجديدة ،
فالدنيا وما عليها طوع بنائك حتى ينطوى ربيعك الناضر . لقد أدركت لأول
وهلة حين لقيتك أنك تجهل حقيقة نفسك ، وتجهل ما ينتظرك من أفراح ،
وها أنا أفصلُ لك أمرك ؛ لأن قوة خفية فيك جذبتني إليك فأشفقت أن يضيع
منك كل هذا الشباب المكنوز ، وهو خليق بأن يضيع . إن الأزهار الساذجة
النامية على البطاح تذبل مع الخريف ، ولكنها تتجدد فى مقدم الربيع ، وهذه
الشجرة الصفراء التي تتوهج الآن أمام عينيك سوف تسترد ما عليها من نضار
فى مثل هذه الأيام من العام القادم ، وسوف تكسو النجوم الحنمراء أدواح
الداليا بعد شهر واحد ، وتلمع تلك النجوم فى ليل أوراقها الخضراء سنة بعد
أخرى ، أما نحن فشبابنا المهراق لا يعود ، وأشواقنا تخبو وأفراحنا تفتر بعد
أن كانت تهزنا هز الأعاصير فى سن العشرين ، كذلك تهن أبداننا وتنطفئ
حواسنا وتؤول إلى دمي كريحة لا نفع فيها ، دمي تحن إلى ما فات ، وقد
كانت ترتعب فى القديم من نداء السعادة ، وتتأوه على الغوايات الحلوة ، وقد
كانت لا تجرؤ على إطاعتها أيام الشباب ، فحى الشباب ؛ إنه كل ما فى الدنيا
من صور النعيم .

وكان دوريان جرائى يستمع إليه عاجباً ، فسقطت من يده باقة الليلج على
الأرض المرصوفة بالأحجار الصغيرة ، واندفعت نحوها نحلة طنت قليلاً ثم
بدأت تدب فى الليلج الملفوف ، وطفق يتأمل هذه الظاهرة التافهة باهتمام
عظيم كما نفعل عادة حين نضطرب لأمر جليل ، أو حين تهزنا عاطفة جديدة

لا نستطيع التعبير عنها ، أو حين تلح علينا فكرة رهية وتأبى إلا أن نخضع لها ،
ثم طارت عن الليلج النحلة ، وشاهدها دوريان جراى تقتحم زهرة وتختفى
فى أعماقها ، ورأى الزهرة ترتجف ، ثم تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار .
وظهر الرسام فجأة بباب الاستديو ، وأشار لهما بالعودة ، فتبادلا
النظرات وابتسما ، وسمعا يقول :

- أنا فى الانتظار ، والضوء الآن جميل ، فعودا وتناولوا شرابكما هنا .
فنهض الرجلان وسارا متكاسلين فى ممشى الحديقة ، وطارت بجوارهما
فراشتان إحداهما بيضاء والأخرى خضراء ، وسمعا عصفوراً يغرد فى شجرة
الكمثرى عند طرف الحديقة ، وقال اللورد هنرى :

- أسعيد أنت بلقائى يا مستر جراى ؟

- نعم ، أنا الآن سعيد بلقائك ، ولكن هل سأظل هكذا دائماً ؟

- لا تقل « دائماً » يا مستر جراى ، فكلمة « دائماً » كلمة فظيعة تجعلنى
أرتجف فرقاً ، والنساء مولعات بها إلى حد كبير ، فهن يفسدن كل علاقة
جميلة برغبتهن فى أن تدوم هذه العلاقة إلى الأبد . إن كلمة « دائماً » كلمة
لا معنى لها ، والفرق الوحيد بين النزوة العارضة والعاطفة الدائمة هو أن
النزوة العارضة أطول عمراً من العاطفة الدائمة .

وفيما هما يدخلان الاستديو أمسك دوريان جراى بذراع اللورد هنرى ،
وقال فى شجاعة أخجلته :

- إذا كان الأمر كذلك فلتكن صداقتنا نزوة عارضة لا عاطفة دائمة .

ثم أخذ مكانه من جديد أمام الرسام .

وارتمى اللورد هنرى على مقعد كبير ، وأنشأ يتأمله عن كشب . وخيم
على المكان صمت طويل ، فما كان يسمع إلا حفيف الفرشة على اللوحة ،
وبين وقت وآخر كانت تسمع خطوات هولورود وهو يتراجع ليمتحن عمله من
بعيد . وفى راووق الضوء المتدفق خلال الباب المفتوح سبحت ذرات التراب
وبدت كدقائق التبر ، وتأرج كل شىء بعطر الورود .

وتوقف الرسام عن العمل ربع ساعة أو يزيد ، وأدمن النظر طويلاً إلى دوريان جراى ثم إلى الصورة ، وهو يعرض فرشته الضخمة فى تجهم واضح ، وأخيراً صاح قائلاً :

- لقد اكتملت الصورة .

وانحنى كثيراً ، وكتب اسمه فى ركنها الأيسر بحروف كبيرة حمراء ، ودنا اللورد هنرى من الصورة ليمتحنها بنفسه ، فوجدها آية من آيات الفن لا تبارى ، ووجدها نسخة تطابق صاحبها تماماً . قال :

- أهنتك يا بازيل من صميم قلبى ، فهذه أجمل صورة رسمت فى العصر الحديث . تعال يا مستر جراى لترى نفسك .

كان الفتى مسترسلاً فى أحلامه فأفاق منها ، ونزل من القاعدة وقال فى صوت خافت :

- هل انتهت الصورة حقاً ؟

فأجاب الرسام :

- نعم . انتهت تماماً ، فشكراً على حسن وقوفك اليوم .

قال اللورد هنرى :

- الشكر لى يا بازيل ، فلولاى لما أحسن الوقوف . أليس كذلك يا مستر جراى ؟

لم يجب دوريان ، بل مر أمام صورته بغير اكتراث ثم التفت إليها ، فلما وقع بصره عليها رجع خطوة إلى الوراء واشتعل خداه لحظة من فرط السرور ، وفاضت عيناه بالبشر كأنه يقف على حقيقة جماله للمرة الأولى ، وثبت فى مكانه كالسحور لا يعى شيئاً مما يدور حوله ، اللهم إلا صوت هولورد فقد جاءه كاللغظ المظموس . لقد أشرق عليه وجهه الصبوح فبدهه جماله كأنه وحى عظيم ، وكانت تلك أول مرة يخالجه فيها هذا الإحساس ، فقد كان من قبل

لا يقيم وزنًا لكلام بازيل هولوردد ، ويحسب إطراء إياه مجاملة لطيفة من مجاملات الأصدقاء ، وتذكر دوريان جرای إطراء بازيل هولوردد . كم أصغى إليه، وكم ضحك منه، وكم نسيه ! إن إطراء بازيل هولوردد لم يترك في نفسه أى أثر ، والآن أقبل اللورد هنرى وتون ورنم أمامه ترنيمة الشباب وحذره من الزمن الغدار الذى ينسخ الشباب ، فاهتز فؤاده لكلماته . وفيما كان دوريان جرای يتأمل نضارته تملأ اللوحة ، فهم مغزى تلك الكلمات ، واقتنع بأنها تعبر عن الواقع الملوس ، فلسوف يأتى يوم يتشقق فيه وجهه ، وتنطفئ عيناه ، ويغدو قده المياس عوداً يابساً ، ويهرب القرمز من شفثيه والذهب من شعره الجميل ، وتمسخ الحياة جسده ، وقد كان خليقاً بها أن تجدد روحه . أجل . لسوف يصير إلى مخلوق شائه كرية .

وحين خطر له هذا الخاطر أحس بالألم يمزق أوصاله كأنه طعن المدى ، وارتجف كل عصب فى بنيانه ، وازرقت مقلته ، وترقرقت فيهما الدموع ، وخيل إليه أن يداً من جليد تمس قلبه الدافئ . أما الرسام فلم يفهم لهذا الصمت معنى ، وأنى له أن يعرف ما كان يدور برأس الفتى من هواجس ، فقال حزيناً :

- ألا تعجبك الصورة ؟

فقال اللورد هنرى :

- وكيف لا تعجبه ؟ بل كيف لا تعجب العالم كله ؟ إنها آية من أفخم آيات هذا الجيل يا بازيل ، ولا بد أن أشتريها . اطلب أى ثمن يروقك فهو لك .

- إنها ليست ملكاً لى يا هارى ؟

- من صاحبها إذا ؟

- دوريان جرای بطبيعة الحال .

- ياله من فتى مجدود .

فقال دوريان جراى وعيناه لا تنصرفان عن الصورة :

- بل إني لفتى تاعس ! نعم . إني فتى تاعس ! سوف يتقدم بى العمر ، وأصبح مخلوقًا بشعًا تنفر منه العيون ، أما هذه الصورة فستظل أبدًا ناضرة الشباب ، ولن يزيد عمرها عن هذا اليوم من شهر يونيو . ليت الأمر كان بعكس ذلك ! ليت الصورة تكبر ، وأخلد أنا فى شبابى ! إني لأنزل عن أعز ما أملك ل تتم هذه الصفقة ، وليس فى العالم كله ما أضن به ليتحقق لى هذا الحلم . هذه روى أنزل عنها مختارًا ليكون لى ما أريد .

ضحك اللورد هنرى وقال عابثًا :

- لا أحسب هذه الصفقة فى مصلحتك يا بازيل ، فالخطوط التى يرسمها الزمن ستفسد ولا شك عملك الجميل .

فأجاب هولوررد :

- طبعًا أنا أمانع فى ذلك بكل ما أملك من قوة .

عندئذ التفت دوريان جراى إليه ، وقال متفردًا فيه :

- هذا لا يدهشنى منك يا بازيل ، فأنت تقدم فك على أصدقائك ، وما مقامى عندك إلا مقام تمثال من البرنز ، بل لعل تمثال البرنز أثمن عندك منى .

فحملق الرسام فيه من فرط دهشته ، فما كان ينتظر منه أن يقول هذا الكلام . إن دوريان جراى الذى يعرفه لا يفكر على هذا النسق . أفهذا جزاؤه منه ؟ ترى ماذا حدث له ؟ وصعد الدم إلى وجه بازيل هولوررد ، واستولى عليه غضب شديد فالتهبت خداه ، ولكن دوريان مضى فى حديثه قائلاً :

- نعم . إن موقعى عندك لأبخس من موقع هرمز العاجى هذا أو هذه الغزالة الفضية التى تحرص عليها حرصك على الحياة ، وحبك لهما لن يبلى

على الزمن ، فكم يدوم حبك لى ؟ سيدوم حبك لى ما دامت لى نضرتى ،
و حين تظهر فى وجهى أول بادرة من بواذر الهرم سأخرج من قلبك جملة .
لقد أدركت الآن أن الإنسان يفقد كل شىء يوم يفقد جماله ، مهما كان حظه
من الجمال . صورتك علمتنى ذلك يا بازيل ، ولقد أصاب اللورد هنرى فى
كل ما قال ، فالشباب هو كل ما يستحق أن نتمناه لأنفسنا فى هذه الحياة ،
ولسوف أقتل نفسى حين أعرف أن شبابى قد ذهب .

عندما سمع هولوورد هذا الكلام شحب لونه ، وأمسك بيد دوريان جراى
وصاح به :

- ماذا دهاك يا دوريان ؟! ماكنت أرجو فيك أن تقول مثل هذا الكلام ،
فما أخلصت لأحد إخلاصى لك ولن أخلص . أأصبحت تغار من الجمادات
يا دوريان ؟ دع عنك هذه الأوهام ، فأنت أصفى معدنًا من كل هذه الأشياء !
- إنى أغار من كل شىء جماله لا يموت ، أغار من الصورة التى نقلتها
عنى ، فكيف يبقى جمالها ، وأفقد أنا جمالى برغمى ؟ إن كل لحظة تمضى
تقتطع منى شيئًا وتضيف إليها شيئًا ، فليت الأمر كان على عكس ذلك . واهًا
لى ! ليت الصورة تتغير وأبقى أنا على حالى . ماذا دفعك إلى رسمها ؟ إنها
ستسخر منى حين يأتى الأوان .

وفاضت عيناه بالدموع ، ونزع يده من يد هولوورد ، وألقى بنفسه على
الأريكة ، ودفن وجهه فى وسائدها كأنه يتلو الصلوات . فقال الرسام فى مرارة :

- أنت المسئول عن هذا يا هارى .

- بل هذا دوريان جراى الحقيقى .

- ليس هذا صحيحًا .

- علام تلومنى إذا ؟

قال الرسام بصوت متقطع :

- كان خليقًا بك أن تتركنا حين سألتك أن تنصرف يا هارى .

فأجابه اللورد هنرى قائلاً :

- ولكن سألتنى أن أبقى .

- اسمع يا هارى . أنت ودوريان أعز أصدقائى ، ولن أستطيع أن أخاصمكما معًا فى وقت واحد . لقد جعلتمانى أبغض أجمل شىء أنتجته فى حياتى ، ولذا سأحطم هذه الصورة . إن هى إلا خيش وألوان ، ولن أدعها تدخل بيننا فتفسد حياتنا .

فلما سمع دوريان جراى هذا الكلام رفع رأسه الذهبى من الوسادة ، ونظر إليه شاحب الخد دافع العين فرآه يسير نحو النافذة ذات الأستار العالية حيث المائدة التى يجمع فيها أدواته . ماذا عساه يفعل ؟ إنه يبحث عن شىء ، فأصابعه تتحسس شيئًا بين الأنابيب الفارغة والفرش الجافة . إنه يبحث عن المدية الفولاذية الحادة التى يستخدمها فى مزج الألوان ، ولقد وجدها ، وهى هو يهم بتمزيق الصورة .

فوثب دوريان جراى من الأريكة وقد اختنقت فى صدره زفراته ، وهجم على هولوورد وانتزع المدية من يده ، وقذف بها إلى طرف الاستديو صائحًا :

- كلا . كلا يا بازيل ! هذا والقتل سواء !

قال الرسام ببرود بعد أن أفاق من دهشته :

- أشكرك يا دوريان على هذا التقدير ، وإن جاء متأخرًا . ما كنت أظنك

ستقدر الصورة .

- لا تتحدث عن التقدير يا بازيل ، بل تحدث عن التقديس ، فأنا أعبدُها

عبادة لأنها قطعة من نفسى ، وهذا هو إحساسى الصادق .

- إذا كان الأمر كذلك فسأتركك حتى تجف أولاً ، ثم أضع عليك الورنيش لتلمع ، ثم أحبسك فى إطار ، ثم أرسلك أخيراً إلى بيتك ، وحين تصل إلى بيتك تستطيع أن تفعل بنفسك ما تشاء .
وبعد أن فرغ من كلامه مشى إلى الجانب الآخر من الغرفة ودق الجرس وقال :

- أتحب أن تتناول قليلاً من الشاي يا دوريان وأنت يا هارى ؟ هل لك فى فنجان من الشاي ، أم تراك تحتقر هذه المتع البسيطة ؟ .
فأجاب اللورد هنرى قائلاً :

- وكيف أحتقر المتع البسيطة يا بازيل ، وهى عزاؤنا الباقى كلما مللنا المتع الكبيرة ! ولكن كفى مشاحنة ، فأنا لا أحب أن أرى المناظر المؤثرة إلا على المسرح ، ولم أر أسخف منكما إنساناً . ما أبعدكما عن العقل ، فأى أحمق هذا الذى وصف الإنسان بأنه حيوان عاقل ؟ إن هذا التعريف سابق لأوانه كثيراً ، فالإنسان قد يكون متعدد الملكات ، ولكن العقل ليس من ملكاته ، وهذا ما يحببني فيه . إن احتدادكما بشأن الصورة قد ساءنى ، ومن الخير يا بازيل أن أحتفظ أنا بالصورة، فهذا الولد الطائش ليس بحاجة حقيقة إليها .

فصاح دوريان جراً قائلاً :

- اسمع يا بازيل ، لو أعطيتها لأحد سواى فلن أغتفر لك ذلك ، ثم إنى لا أسمح لأحد بأن يصفنى بأنى ولد طائش .
- أنت تعلم يا دوريان أن الصورة ملك لك ، أهديتك إياها قبل أن تخرج إلى الوجود .

- وأنت تعلم يا مستر جراى أن سلوكك لم يخل من الطيش ، وعهدى بك أنك لا تغضب إذا ذكرت أحد بحداثه سنك .

- لقد كان يجب أن أغضب هذا الصباح ، يا لورد هنرى .
- آه من هذا الصباح ! لقد فات هذا الصباح ، وانطوى من عمرك بعضه .
- وطرق الخادم الباب مستأذنا فى الدخول ، ثم دخل حاملاً صينية عليها أطيب المأكولات ، ووضعها على مائدة صغيرة بها نقوش يابانية ، وارتفع صوت الأطباق والفناجين ، والماء المغلى بخاره المكتوم يتصاعد من الإناء القديم الذى يحتويه فيصفى صفيراً مسموعاً ، ودخل خادم آخر بالصحن الصينية ، وتقدم دوريان جراى ليصب الشاى فى الفناجين على حين سار الرجال فى ثاقل صوب المائدة ، وكشفا أغطية الأوانى ليريا ما خبىء تحتها من ألوان الطعام ، وأخيراً قال اللورد هنرى :
- أقترح أن نذهب الليلة إلى مسرح ، وأعتقد أننا سنجد مسرحاً مفتوحاً ، لقد وعدت أن أتعشى هذا المساء فى مطعم هوايت ، ولكنى أستطيع أن أتغاضى عن هذا الموعد ، فهو موعد مع صديق قديم لا أكثر ، وسأرسل له برقية أعذر فيها بأن صحتى منحرفة ، أو أقول فيها إنى أرتبط بموعد آخر وهذا أفضل ، لأنه سيجد فى صراحتى مفاجأة لطيفة تنسيه الإساءة .
- وقال هولوردد :
- أنا أمقت ملابس السهرة ، فارتداؤها يضايقنى ومنظرها لا يطاق .
- أجاب اللورد هنرى :
- هذا صحيح . إن ملابس السهرة فى القرن التاسع عشر فظيعة ، فلونها قاتم مقبض ، ولم يبق لنا من الألوان الجذابة فى الحياة الحديثة إلا لون الرذيلة .
- يحسن ألا تذكر هذه الأمور على مسمع من دوريان جراى .
- أى دوريان تقصد ؟ دوريان الذى يصب الشاى لنا الآن ، أم دوريان الذى نراه فى الصورة ؟

- كليهما .

قال الفتى :

- أود أن أصحبك إلى المسرح يا لورد هنرى .

- فلنذهب معاً إذاً ، وأنت يا بازيل ، هلا أتيت معنا ؟

- كلا ، فعلى يمنعنى .

- فلنذهب بمفردنا إذاً ، أنت وأنا يا مستر جراى .

- ذلك يسرنى جداً .

فعض الرسام شفته ، وسار نحو الصورة حاملاً فنجانة فى يده وقال

فى أسى :

- أما أنا فسأبقى مع دوريان الحقيقى .

تقدم الفتى صوبه وقال :

- أهذا الذى نراه فى الصورة دوريان الحقيقى ؟ أهذه صورة صادقة منى ؟

- نعم ، هذه صورة صادقة منك .

- ما أجملها صورة يا بازيل ؟

فتنهده هولورورد وقال :

- أنت تشبهها فى المظهر على الأقل ، ولقد تتغير أنت ولكنها لن تتغير ،

وفى هذا بعض العزاء .

قال اللورد هنرى :

- ما هذا اللغو الكثير الذى يردده الناس عن الوفاء ! إن الحب نفسه مسألة

فسولوجية ولا دخل للإرادة فيها . أرى الشبان يحاولون الوفاء فيعجزون عنه ،

وأرى الشيوخ يحاولون الخيانة فيعجزون عنها . هذا كل ما ن - طيع أن نقوله

فى الموضوع .

قال هولوررد :

- لا تذهب إلى المسرح الليلة يا دوريان ، بل ابق معي للعشاء .

- لا أستطيع .

- لماذا ؟

- لأنني وعدت اللورد هنري أن أرافقه .

- ولكن اللورد هنري لن يقدر فيك الوفاء بوعودك ، فهو يخلف وعوده باستمرار . أرجوك أن تبقى معي .

فضحك دوريان جرائاً ، وهز رأسه دلالة الرفض .

- أضرع إليك أن تبقى معي .

تردد الفتى قليلاً ونظر إلى اللورد هنري فألقاه واقفاً بجوار مائدة الشاي يتأملها وهو يبتسم ، وأخيراً قال :

- لا بد أن أذهب يا بازيل .

فأجاب هولوررد وهو يضع فنجان الشاي على الصينية :

- إذا كان الأمر كذلك وجب أن تسرع فالوقت متأخر ، ولا بد أن

تستبدل ملابسك . إلى اللقاء يا هاري . إلى اللقاء يا دوريان ، ولا تغب طويلاً . تعال غداً .

- بالتأكيد .

- أرجوك ألا تنسى .

- لن أنسى بالطبع .

- اسمع يا هاري !

- نعم يا بازيل ؟
- تذكر رجائي إليك حين كنا في الحديقة هذا الصباح .
- أى رجاء هذا ؟ لقد نسيت .
- أنا أثق فيك .
- ولكنى لا أثق فى نفسى . هيا بنا يا مستر جراى فعربتى تنتظر فى الخارج ، وفى إمكانى أن أصل بك إلى بيتك . إلى اللقاء يا بازيل . لقد كان يومنا حاقلاً .
- ولما أقفل الباب دونهما ارتمى الرسام على إحدى الأرائك ، وتملكه حزن شديد .

الفصل الثالث

خرج اللورد هنرى وتون من منزله فى شارع كيرزون فى الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر اليوم التالى ، وسار إلى نادى أوليانز ليزور عمه اللورد فيرمور ، وهو شيخ أعزب ، طيب القلب ، خشن المعاملة ، تناقضت فى وصفه الآراء ، فمن يجهلونه يصفونه بالخشى والأناية ؛ لأنهم لا يستفيدون منه شيئاً ، أما عارفوه من أبناء البيوتات فيصفونه بالسخاء ؛ لأنه يطعم كل من يسلونه ، وقد كان أبوه سفيرنا فى مدريد حين كانت إيزابيلا صغيرة وپريم لم يولد بعد ، ولكنه استقال من السلك السياسى فى لحظة الضيق ؛ لأن وزارة الخارجية ضنت عليه بسفارة باريس ، وهو منصب كان يعده حقاً من حقوقه الطبيعية ، يؤهله له طيب منبته ، وكسله ، وجمال أسلوبه فى الخطابات الرسمية ، ونهمه الشديد لأطايب الحياة . أما الابن فقد كان يومئذ سكرتيراً لأبيه ، واستقال باستقالة رئيسه مما عده الناس حماقة فى التصرف . فلما أن ورث اللقب بعد بضعة شهور وأصبح اللورد فيرمور ، خصص كل ملكاته لدراسة فن الأرستقراطية العظيم ، فن البطالة ، وكان يملك منزلين فسيحين ولكنه أثر أن يستأجر شقة فى لندن ليتجنب عناء الإشراف على منزل فسيح ، وتعود أن يتناول وجباته فى ناديه ، وقد وجه اللورد فيرمور بعض التفاته إلى إدارة مناجم الفحم التى يملكها فى الميدلاندز ، وكان يعتذر عن اشتغاله بالصناعة ، وهو أمر مبتذل لا يغتفر فى چتلمان ، قائلاً إن للفحم مزية واحدة لا غناء عنها فى أى مجتمع سليم ، هى أنه يمكن الچتلمان من استخدام الخشب فى مدفاته ، وهو ترف لا تعرفه السوقه مستهلكة الفحم . وكان فى السياسة محافظاً حتى يصل المحافظون إلى الحكم فيخرج عليهم

متهمًا إياهم بأنهم عصابة من المجددين ، أما عن أخلاقه الشخصية فقد كان بطلا في نظر خادمه الخاص ؛ لأن خادمه كان يتجبر عليهم ، وكان كابوسًا في نظر أفراد أسرته ؛ لأنه كان بدوره يتجبر عليهم ، وكان يقول في كل مناسبة إن البلاد تنحدر إلى الحضيض ، أما مبادئه الرجعية فقد كانت بالية ، وأما حقه الموروث على كل جديد فلم يعدم من يدافع عنه .

ودخل اللورد هنرى الغرفة فوجد عمه جالسًا يدخن سيجارًا ، ويطالع صحيفة التايمز متذمرًا . قال السيد العجوز :

- ما جاء بك يا هارى فى هذا الوقت المبكر . لقد كنت أحسب أن أمثالك من الوجهاء لا يستيقظون قبل الساعة الثانية ، ولا يقابلون الناس قبل الساعة الخامسة .

- أؤكد لك يا عمى أن شوقى إليك هو الذى دفعنى إلى المجئ . لقد جئت لأطلب منك شيئًا .

فقال اللورد فيرمور عابسًا :

- أظنك جئت تطلب مالا . أجلس وارو لى القصة من أولها إلى آخرها . إن شباب هذا لجيل يرون أن المال هو كل شئ فى الحياة .

قال اللورد وهو يصلح من عروته :

- هذا صحيح . وحين يتقدم بنا العمر ندرك صحة ذلك ، ولكنى ما جئت لأطلب منك مالا ، فما يطلب المال إلا شخص يسدد ديونه ، وأنا لا أسد ديونى مطلقًا ؛ فالاستدانة رأس مال الابن الأصغر ، والحياة جميلة برأسمال كهذا ، ثم إنى أتعامل مع تجار دارتمور ولهذا أسلم من المضايقة ، إنما جئت لأطلب معلومات ، أقصد معلومات تافهة لا معلومات نافعة بطبيعة الحال .

- فى استطاعتى أن أخبرك بكل ما ورد فى الدليل العام يا هارى ، وإن كان الدليل العام مشحونًا بالكاذب فى هذه الأيام . لقد كانت الأمور خيراً

مما هي الآن حين كنت في السلك ، ولكن بلغنى أخيراً أنهم يعقدون امتحاناً لطالبي الالتحاق في هذه الأيام ، وهذا خطأ يا سيدى ، فالامتحانات من أولها إلى آخرها كذبة كبيرة ، والچتلمان ..

قال اللورد هنرى فى تراخ :

- جئت أسألك عن مستر دوريان جراى ، وهو لم يرد فى الليل العام يا عمى .

فقال اللورد فيرمور وهو يعقد حاجبيه الكثيفين :

- ومن يكون مستر دوريان جراى هذا ؟

- هذا ما جئت أسألك عنه يا عمى . أنا أعرف من يكون ، فهو حفيد آخر لورد كلسو وأمه سليلة ديفيرو . أمه هي الليدى مرجريت ديفيرو ، وقد جئت لك لأعرف شيئاً عنها ، فحدثنى عنها وعن زوجها . أنت عرفت أكثر أبناء جيلك ، فلعلك عرفتها فيمن عرفت ، وقد قابلت مستر دوريان جراى فى الأيام الأخيرة فأثار اهتمامى .

قال اللورد فيرمور مسترجعاً الماضى البعيد :

- حفيد كلسو ! حفيد كلسو ؟ دعنى أتذكر . حقاً ما أغبانى ! نعم ، كنت أعرف أمه معرفة جيدة بطبيعة الحال ، وأعتقد أنى حضرت الاحتفال بتعميدها . لقد كانت مرجريت ديفيرو آية من آيات الجمال ، وأثارت غيرة الرجال حين فرت مع شاب مفلس لا يساوى شيئاً . نعم ، يا سيدى ، فرت مع جندى فى فرقة المشاة أو ما يشبه ذلك ، وأنا أذكر القصة كلها كأنها حدثت البارحة . نعم ، أذكر كيف قتل ذلك الشاب المسكين بعد زواجه ببضعة شهور فى مبارزة مدبرة ، وقد سمعنا يومئذ بإشاعة مخزية تقول إن كلسو قد كرى سفاحاً بلجيكيّاً ليهين زوج ابنته أمام الناس . نعم ، يا سيدى : كراه بالمال ليقّته ، فأجهز عليه كما تجهز على حمامة وديعة ، وأخفيت الحقيقة عن الناس ، ولكن أقسم لك أن أصدقاء كلسو قاطعوه زمناً طويلاً نتيجة لذلك الحادث ، وقد بلغنى أنه رد ابنته إلى كنفه ، ولكنها رفضت أن تبادله الحديث حتى ماتت ،

وقد ماتت بعد شهرين قليلة . نعم يا سيدى ، لقد كانت قصة محزنة ، ولم أكن أعرف أنها ماتت عن ولد فقد نسيت الآن هذه التفاصيل . ما حال هذا الغلام ؟ إن كان قد ورث صورة أمه فلا بد أن يكون فتى وسيماً .

فقال اللورد هنرى مؤمناً على كلامه :

- إنه آية من آيات الجمال .

واستأنف السيد العجوز كلامه قائلاً :

- أرجو أن يجد هذا الفتى من يعتنى به ، وإذا كان كلسو قد أحسن التصرف فى ماله فسيجد هذا الغلام شيئاً كثيراً فى انتظاره ، كذلك كانت أمه من أهل الثراء ، فقد ورثت كل أملاك جدها فى سلبى ، وكان جدها يمقت كلسو ويحتقره لأنه كان كلباً قذراً . أذكر أنه هبط مدريد حين كنت بها ، فكان مصدر خجل دائم لى ، وقد سألتنى الملكة مراراً عن ذلك النبيل الإنجليزى الذى كان فى شجار مستمر مع الخوذية بسبب أجورهم ، وكانت فضيحة الموسم ، فلم أجرؤ على الظهور فى البلاط شهراً كاملاً . أرجو أن يكون قد عامل حفيده خيراً مما كان يعامل الخوذية .

فأجاب اللورد هنرى :

- لا أعرف عن هذا الموضوع شيئاً ، ولكنى أظن أنه سيصبح من أهل الثراء حين يبلغ سن الرشد ، وإن كنت أعلم أن سلبى تقع فى أملاكه لأنه ذكر لى ذلك بنفسه . أكانت أمه جميلة حقاً ؟

- نعم . لقد كانت مرجريت ديفيرو تحفة فى الجمال يا هارى ، ولم أفهم قط ما الذى دفعها إلى ذلك المسلك الشاذ ، فقد كان فى وسعها أن تتزوج من تشاء من الرجال ، فكارلنجتون مثلاً كان مجنوناً بحبها ، ولكنها كانت فتاة تميل إلى الخيال شأن سائر نساء أسرته ، ويا لهن من نساء رائعات ! أما رجال الأسرة فقد كانوا طغمة من الأوباش . وقد جثا كارلنجتون أمامها مرة كما أخبرنى بنفسه ، فضحكت منه . أقول حدث هذا وقت أن كانت جميع بنات

لندن يطاردنه ، وبمناسبة الكلام عن الزواج الشاذ يا هارى ، ما هذا اللفظ الذى أسمعته عن رغبة دارتمور فى أن يتزوج بأمرىكية . ألا يجد فى إنجلترا كلها فتاة واحدة تصلح له ؟

- إن الزواج بأمرىكيات هو آخر تطور فى الذوق الإنجليزى يا عمى .

فضرب اللورد فيرمور المائدة بقبضة يده وصاح :

- أنا أراهن بكل ثروتى على الفتاة الإنجليزية .

- لكن الناس يراهنون الآن على الأمريكيات .

فأجاب عمه :

- لقد بلغنى أنهم متقلبات .

- أعتقد أن الخطوبة الطويلة تجهدهن ، ولكنهن يعجلين فى سباق الحواجز ،

فمفتاح قلوبهن السرعة ، ولا أعتقد أن دارتمور سيصادف نجاحاً كبيراً .

قال السيد العجوز ساخطاً :

- بنت من تكون هذه الفتاة ؟ ما أسرتها ؟ ألها أسرة ؟

فأجاب اللورد هنرى ، وهو يتأهب للانصراف :

- إن الأمريكيات يجدن إخفاء نسبهن كما تجد الإنجليزيات إخفاء ماضيهن .

- أغلب الظن أن أهلها يشتغلون بعمل الجامبون .

- من مصلحة دارتمور أن يكونوا كذلك ، فقد قيل لى إن عمل الجامبون

أربح مهنة فى أمريكا بعد السياسة .

- أجميلة هى ؟

- إنها تسلك سلوك فتاة جميلة كما تفعل أكثر الأمريكيات ، وهذا

سر فتتهن .

- إذا كانت أمريكا حقاً جنة النساء كما نسمع دائماً من الأمريكيات ،

فلماذا يخرجن من هذه الجنة .

فقال اللورد هنرى :

- ولكن أمريكا جنة النساء فعلا ، وهذا بالذات ما يحملهن على الهرب منها كما هربت أمهن حواء من جنتها . والآن لا بد لى من الانصراف ، وإلا وصلت متأخراً للغداء فوداعاً يا عماه ، وشكراً على ما زودتني به من معلومات ، فأنا أحب أن أعرف كل شيء عن أصحابي الجدد ، وأحب أن أجهل كل شيء عن أصحابي القدماء .

- وأين تتناول غداءك اليوم يا هارى ؟

- عند عمتي أجاثا ، فقد دعوت نفسى ، ومستتر جراى إلى مائدتها ، فمستتر جراى آخر اكتشاف اكتشافه عمتي .

- إذا فأرجو أن تبلغ عمتك أن تعفينى من نداءات البر التى توجهها إلىّ ، فقد ضاق بها صدرى . إن هذه السيدة المباركة تخال أن عملى فى الحياة هو كتابة الشيكات لأعمالها الخيرية .

- سأبلغها ذلك يا عمى ، وإن كنت أعرف أن كلامى لن يثمر ، فأهل البر يفقدون كل شعور إنسانى .

وصدرت من السيد العجوز أصوات غير واضحة معناها أنه يوافق اللورد هنرى فى رأى ، ودق الجرس ليستدعى خادمه ، أما اللورد هنرى فصار مخترقاً ممراً سقفه ذو أقباء حتى بلغ شارع برلنجتون ، ثم سار فى اتجاه ميدان باركلى .

هذه إذا قصة دوريان جراى . إن اللورد فيرمور قد رواها له فى غير تنسيق ، ولكن أى قلب لا يضطرب لهذه الفاجعة العنيفة ، وأى خيال لا يتحرك أمام هذه القصة الغريبة ! لقد كان يحسب أن عصر الخيال قد مات ، ولكنه أدرك أن الخيال لا يزال حياً ، حتى فى القرن التاسع عشر . فيالها من مأساة مروعة ! وهذه امرأة جميلة تغامر بكل شيء لترضى شهوة جامحة . ويا لها من أسابيع مشهودة تفيض بالسعادة وتنتهى بجريمة وحشية ! ويا لها من

شهور طوال من العذاب الصامت تنتهى بميلاد طفل شقى بين الأحران ! هذه أم تموت فى ريق العمر فتترك وليدها فى كنف رجل مسن منزو لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ليسومه مر العذاب . لقد كان لدوريان جراى ماض غير مألوف ، ماض خلىق به ، فلا بد لهذا الجمال الفذ من قصة فذة تمهد له ، والجمال لا ينبت إلا فى بيت الأحران . إن الطبيعة عرفت آلام المخاض حين تفتحت فيها أول زهرة ، فكيف بدوريان جراى ذى الجمال القهار ! لقد جلس أمامه فى الليلة السالفة يتناول معه العشاء فى النادى ، وكان فاغراً فاه محملاً عاجباً ، يغمره مزيج من الخوف والطرب ، وسقط عليه من الشموع نور أحمر ضرج خده الوردى بورد جديد ، فبدا كإله فاتن مشدوه . لقد كان الحديث معه أشبه شىء بالعزف على كمان حنون ، لأن أوتار قلبه كانت تهتر لكل كلمة تقال . ما أشبه الخضوع لأفكار الغير بالعبودية ، وما أشبه إخضاع الغير لأفكارنا بالاستعباد . إن التأثير فى الغير يكسب الإنسان إحساساً بالقوة لا نظير له فى الحياة . فما أجمل أن تمتد الروح إلى الخارج وتسكن جسداً آخر ، ولو للحظات معدودات ، وما أجمل أن يسمع المرء آراءه ترتد إليه كرجع الصدى دافئة بنفس الشباب حلوة بإيقاعه الحنون ، وما أجمل أن يمتزج الطبع بالطبع امتزاج السائل السحرى بالسائل السحرى أو امتزاج العطور . إنها لذة لا تعدلها لذة ، ولعلها كل ما بقى لنا من مباحج الحياة فى هذا العصر السوقى المحدود ، هذا العصر غليظ الذوق ، رخيص الأهداف ، الساعى وراء أفراح الجسد وحدها ، ولقد كان هذا الفتى الذى عرفه مصادفة فى استديو بازيل هولورود نموذجاً عالياً لشباب الجيل ، ولو لم يكن لأمكن أن يصاغ منه نموذج عال لشباب الجيل على أية حال ، فالفتنة ملك يديه وطهارة الصبا والجمال الذى اقتبس منه رخام الأولين . إن دوريان جراى طينة لدنة فى يد من يصوغها ، ولقد يكون منه مارد شاهر أو دمية تلعب بها الأطفال ، فواهاً لهذا الجمال يوم يزول ! ثم إن هناك بازيل ، وبازيل فى ذاته دراسة نفسية ممتعة ! لقد كان بازيل صاحب أسلوب فى الفن جديد ، وصاحب نظرة إلى الحياة جديدة ،

وتلك النظرة استوحاها من إنسان ملهم لا يدري أنه ملهم ، ولقد كانت روحه فيما مضى روحاً صادقة نافرة تسكن الدغل المظلم وتمشى خفية بين الحقول ، وها هي الآن تتجلى فجأة فى وضوح الضحى كأنها حورية من حور الغاب لا تخزع من شيء لأنها صحت على رؤيا عالم عجيب ، عالم فيه كل شيء صاف ، وكل شيء يرمز لفكرة مثالية لا تتحقق إلا به . وما أعجب هذه الرؤيا ! أو لم يصف لنا أفلاطون ، فنان الفكر ، هذه الرؤيا فى القديم ؟ أو لم يجسدها لنا بوناروتى فى رخام ملون متماسك كأنه قريض شاعر عظيم ؟ ولكن هذا كان ممكناً فى الماضى ، أما فى هذا العصر فهو المعجزة الكبرى . فليكن اللورد هنرى لدوريان جراى إذا ما كانه دوريان جراى لبازيل هولوردد ، وليسيطر على نفسه سيطرته على نفس الفنان ، ولقد أصاب فى ذلك بعض النجاح ، ولسوف يملك ذلك الروح البهى فى قبضته كما يملك الساحر الجان فى قبضته . إنه ابن الحب والموت ، وهو نسب فى طرفيه عظيم .

ثم توقف اللورد هنرى فجأة عن المسير ، وأنشأ يتأمل المساكن فأدرك أنه قد تجاوز بيت عمته كثيراً ، فابتسم لشروود ذهنه وعاد إليه ، وحين دخل القاعة الموحشة أنبأه كبير الخدم أنهم يتناولون الغداء ، فسلم قبضته وعصاه ودخل حجرة الطعام ، فلما أن رآته عمته صاحت به وهى تهز رأسها مؤنية :

- أراك قد جئت متأخراً كعادتك .

فأسعفه خياله بعذر من الأعذار المألوفة ، ثم احتل مكانه فى المائدة إلى جوارها ، وأجال فى المدعوين بصره فرأى دوريان فى طرف المائدة ، وشاهده ينحنى فى خجل محيياً إياه ، وقد بدا عليه السرور لمراه ، وكانت دوقة هارلى تجلس قبالة ، وهى سيدة محبوبة طيبة القلب حلوة السمائل ، ولكنها كانت قطعة فخمة من العمارة الراضحة التى يراها مؤرخو هذا العصر فى الدوقات فيسمونها صحة وعافية ، ويرونها فى النساء العاديات فيسمونها بدانة واستكراشاً ، وعن يمينها جلس السير توماس بيردون وهو عضو من أعضاء

البرلمان راديكالى المذهب يتبع رئيس حزبه فى الحياة العامة ، ويتبع أمهر الطهارة فى الحياة الخاصة ، فتراه يأكل على موائد المحافظين ، ويشارك الأحرار نظرياتهم فى الحياة تمشياً مع المثل السائر المعروف ، وعن يسار الدوقة جلس مستر إرسكين وهو سيد مسن من أهل تريدلى لطيف المعشر واسع الثقافة لا يعيبه إلا عادة خبيثة واحدة هى صمته المستمر ، وقد اعتذر عن هذا الصمت مرة لليدى أجاثا بأنه استنفد كل ما فى جعبته من الكلام قبل أن يبلغ الثلاثين ، أما جارة اللورد هنرى ذاته فكانت مسز فاندلور وهى صديقة من أقدم صديقات عمته أجاثا لها صفات القديسات ، ولكنها زرية الهيئة تذكر بكتاب من كتب التراتيل مهلهل الغلاف ، وإلى جوار مسز فاندلور جلس اللورد فوديل وهو كهل فاشل فى عمله برغم ذكائه المتقد ، يذكرك رأسه الأصلع ببيان وزارى فى مجلس العموم ، خلا من كل تنميق ، وكانت تتحدث إليه فى جد وحماسة وهى غلطة لا تغتفر يتورط فيها ذوو النوايا الطيبة ، ولا ينجو منها أحدهم مهما اجتهد .

قالت الدوقة وهى تحبى اللورد هنرى بإشارة من رأسها :

- نحن نتحدث عن دارتمور المسكين يا لورد هنرى ، فهل تعتقد أنه سيتزوج من تلك الأمريكية الساحرة كما يقال ؟

- أنا يا سيدتى الدوقة أعتقد أنها عازمة على أن تخطبه .

فصاحت الليدى أجاثا :

- هذه نكبة ! أليس هناك من يتدخل ؟

قال السير توماس بيردون فى صلف واضح :

- لقد بلغنى من مصدر عليم أن أباهما يملك متجرًا للبضائع الجافة .

- من رأى عمى أنه يتاجر فى لحم الخنازير المحفوظ .

فسألت الدوقة رافعة يديها الكبيرتين فى تعب :

- وماذا تكون هذه البضائع الجافة ؟ نعم ، ماذا تكون ؟
فأجاب اللورد هنرى وهو يتناول سمانة :
- البضائع الجافة هى القصص الأمريكية .
فبدت الحيرة على وجه الدوقة لأنها لم تفهم معنى النكتة ، وهمست
الليدى أجاثا فى أذنها قائلة :
- لا تلقى بالاً يا صديقتى لما يقوله اللورد هنرى فحديثه هزل متصل .
وقال عضو البرلمان الراديكالى :
- لما استكشفت أمريكا ...
واسترسل فى سرد بعض التفاصيل المملة ، وأراد أن يستنفد الموضوع
فاستنفد صبر سامعيه ، وتنهدت الدوقة وباشرت حقها فى المقاطعة فقالت :
- ليت أمريكا لم تستكشف قط ، فالأمريكيات لا زلن يزاحمن بناتنا فى
سوق الزواج حتى كسدت بضاعتهم ، وهذا ليس من الإنصاف فى شيء .
قال مستر إرسكين :
- ومن يدرينا أنها استكشفت ؟ فأنا مثلاً أعتقد أننا لا نعرف عن أمريكا
إلا أنها قارة موجودة .
فأجابت الدوقة قائلة :
- هذا غير صحيح ، فقد رأيت نماذج من سكانها بنفسى ، ولا بد أن
أعترف بأنهن رائعات الجمال صاحبات أناقة يشتريين كل ملابسهن من باريس ،
وكم تمنيت أن يكون لى المال الذى يعود على بكل هذا الترف .
كانت عند السير توماس تشكيلة كبيرة من الفكاهات القديمة ، فقذف
الحاضرين بواحدة منها . قال :
- يقولون إن أبرار الأمريكيين يذهبون إلى باريس بعد موتهم .

فسأله الدوقة قائلة :

- عجباً ! أين يذهب إذا أشرار الأمريكيين ؟

قال اللورد هنرى فى صوت خافت :

- يذهبون إلى أمريكا .

فعبس السير توماس بيردون ، وقال لليدى أجاثا :

- أرى أن ابن أخيك يا سيدتى متحامل على هذا البلد العظيم . لقد زرت أمريكا بلداً بلداً فى سيارات أعدها لى مديرو الشركات ، فهم قوم يعرفون كيف تكون المجاملة ، وأؤكد لك ياسيدتى أن فى زيارة أمريكا ثقافة للزائرين .

فاعترض مستر إرسكين على ذلك بقوله :

- وهل من الضرورى أن أرى شيكاغو لستم ثقافتى ؟ يا لها من رحلة مضية .

قال السير توماس مشيراً بيده :

- إن مستر إرسكين قد جمع العالم على رفوف مكتبته ، أما أمثالنا من الرجال العاملين فنحن نفضل أن نرى الدنيا لا أن نقرأ عنها ، واعتقد أن الأمريكيين شعب جدير باهتمامنا ، فهم أهل تفكير مستقيم ، بل إن التفكير المستقيم أول صفاتهم . نعم يا مستر إرسكين ، إن الأمريكيين أهل منطق لا يخطئ ، وأؤكد لك أن الغفلة ليست من صفاتهم .

فصاح اللورد هنرى قائلاً :

- هذه مأساة ، فالقوة الصارمة يمكن احتمالها ، أما المنطق الصارم فلا سبيل إلى احتمالها ، وليس من العدل استخدامه .

قال السير توماس محتدأً :

- لست أفهم ما ترمى إليه يا لورد هنرى .

قال مستر إرسكين مبتسماً :

- أنا أفهم ما ترمى إليه يا لورد هنرى .

قال السيد توماس :

- إن التعبير عن الأشياء بنقائضها جميل فى بابه ولكن . . .

فقاطعه مستر إرسكين قائلاً :

- لست أرى فيما قاله اللورد هنرى تعبيراً عن شىء بنقيضه ، ولكن ربما

كنت مخطئاً فى فهمى . مهما يكن من شىء فالتناقض طريق الحقيقة ، فإذا

أردنا أن نتأكد من صدق شىء وجب أن نراه من جميع وجوهه . وجب أن

نرى الحق يلعب أمامنا كالبهلوان الذى يسير على حبل مشدود .

قالت الليدى أجاثا :

- ويلنا منكم معشر الرجال ، فكم تحبون الجدل ! أقسم إنى لا أفهم

كلمة واحدة مما تقولون ، أما أنت يا هارى فإنى مستاءة منك أشد الاستياء

لأنك تحاول أن تصرف مستر دوريان جراى عن الاهتمام بالفقراء ، وأؤكد لك

أن فى امتناعه عن الاشتراك فى أعمال البر خسارة لا تعوض ، فقراء الإيست

إند سيسرون به إذا رفَّه عنهم بالمقطوعات الموسيقية .

فابتسم اللورد هنرى ، ونظر إلى دوريان جراى فلقى فى وجهه

ما يشجعه فقال :

- لأننى أريده أن يرفه عنى أنا بالمقطوعات الموسيقية .

اعترضت الليدى أجاثا قائلة :

- ولكن الفقراء فى هوايت تشابل فى شقاء لا يوصف .

فقال اللورد هنرى وهو يهز كتفيه استخفاً :

- إن صدرى يتسع لكل شىء ، ولكنه يضيق بالشقاء . نعم ، أنا

لا أعطف على الشقاء ، فالشقاء بشع ، الشقاء كريح ، الشقاء يكسر القلوب ،

وأنا أرى أن اهتمام أهل هذا الجيل بالألم نوع من المرض ، فالواجب أن نهتم
بألوان الحياة الزاهية ، بجمالها ، بأفراحها ، فخير لنا أن ننسى أوجاع الحياة .

قال السير توماس وهو يهز رأسه كأنه يدلى بتصريح خطير :

- ولكن الإيست إند مشكلة برغم كل ما تقول .

فأجابه اللورد الشاب قائلا :

- لست أشك فى ذلك . إنها مشكلة العبودية ، ونحن نحاول حلها

بتسليّة العبيد .

فنظر السياسى إليه نظرة فاحصة وسأله :

- إذّا ، فأى تغيير تقترح إجراءه لحل هذه المشكلة ؟

ضحك اللورد هنرى وقال :

- أنا لا أقترح تغيير شىء فى إنجلترا إلا جوها ، ويكفينى من الإصلاح

مجرد التفكير الفلسفى فيه ، ولكن إذا كان القرن التاسع عشر قد استنفد كل

ما يملكه من عطف على فقرائه حتى أفلس تمامًا ، فأنا أقترح أن نلجأ إلى

العلم ، لعل العلم يقوم أعوجاجنا . إن مزية العواطف أنها تضللنا ، ومزية

العلم أنه خال من العواطف .

واجترأت مسز فاندلور على الاشتراك فى المناقشة ، وقالت فى حياء :

- ولكن مسئولياتنا خطيرة .

وأيدتها الليدى أجاثا قائلة .

- بل جد خطيرة .

فنظر اللورد هنرى إلى مستر إرسكين وقال :

- إن الإنسانية تهتم بنفسها أكثر مما ينبغى ، ويبدو أن هذه هى خطيئتنا

الأولى ، فلو أن رجل الكهف تعلم كيف يضحك لتغير مجرى التاريخ .

قالت الدوقة فى تنعيم مضحك :

- إن حديثك ينزل على قلبى برداً وسلاماً يا لورد هنرى ، فكلما جئت لأعود عمتك عنفنى ضميرى لقلّة اهتمامى بالإيست إند ، أما وقد عرفت رأيك فلن أخجل منها بعد الآن .

فقال اللورد هنرى :

- إن الخجل يناسب السيدات يا سيدتى الدوقة .

فأجابت :

- نعم ، إذا كن فى مقتبل العمر ، أما مثلاتى من العجائز فالخجل فيهن دلالة سيئة . واهاً على الشباب يا لورد هنرى ! هلا علمتنى كيف أستعيد شبابى !

ففكر لحظة ثم سألها :

- أتذكرين حماقة كبرى ارتكبتها فى شبابك يا سيدتى الدوقة !

قالت :

- أجل . بل أذكر حماقات وحماقات .

قال فى لهجة جادة :

- ارتكبتها إذاً من جديد ، فلن يستعيد إنسان شبابه إلا إذا ارتكب حماقاته من جديد .

فصاحت الدوقة قائلة :

- هذه نظرية جميلة ، وسأعمد إلى تطبيقها فوراً يا لورد هنرى .

قال السير توماس :

- بل هذه نظرية خطيرة !

وهزت الليدى أجاثا رأسها ولكن بدا عليها السرور ، أما مستر إرسكين فأنشأ يستمع إلى اللورد هنرى وهو يمضى فى حديثه قائلاً :

- نعم ، هذا سر من أسرار الحياة الكبرى ، فنحن اليوم يفتك بنا وباء نسميه التفكير السليم ، وهو يدب فى أعضائنا قليلا قليلا حتى يشلنا تماما فتموت ، وعندما نفقد كل شىء ندرك أن أخطاءنا هى الأشياء الوحيدة التى لا نندم عليها فى الحياة .

فضحك القوم .

فلما رأى أن الفكرة أعجبتهم أعطاهم المزيد فيها ، وطفق يلعب بها ويخرج منها شتى التخريجات ثم يستطرد ، وما توشك أن تفلت من يده الفكرة حتى يتلقفها من جديد ، وهكذا اجتهد فيها حتى وضع عليها كل توابله ، وهكذا اجتهد فيها حتى طلاها بريق الخيال ، وزودها بأجنحة التعبير السحرى ، وما إن فرغ من بيانه حتى أصبح تمجيد الحماسة بفضل فلسفة ناضجة ، وأصبحت الفلسفة الناضجة بفضل عذراء بلقاء خضب النيذ ثيابها ، وتوج الغار رأسها ، تشتاق إلى اللذة الحرام ، وترقص فوق تلال الحياة رقصة البنات الشمالى فى أساطير اليونان ، وتعنف باخوس على صحوه واتزانه ، ووطئت قدمها البيضاء حان الخيام حكيم الزمان ، وخاضتا فى عصير العنب الذى فاض من حولها أنهاراً ، وبللت صفائرها فقاقيع النيذ الأرجوانى حين طفح زبده الأحمر على جوانب الدن السوداء ، وانحدر قطرة قطرة . وكان حديثه مرتجلا لا أثر للتحضير فيه ، ولكنه ملك القلوب ، وفيما هو يتكلم أحس بعين دوريان جراى تحملقان فيه ، فذهب ذلك بجنانه ، وفتق ذكاه وجعله ينمق ويجود ويحسن التأويل لعله يوقظ وجدانه ويأسر فؤاده ، وتتابع عباراته زاهية الألوان رخيمة الأنغام خطرة على السامعين ، وفتن كلامه الحاضرين فتسى كل نفسه ، وراح يتبع هذا المزمار الطروب ، ويرقص على أنغامه الجذلة ، كل هذا ودوريان جراى لا يحول عنه عينيه ، بل ثبت فى مكانه كالمسحور يتسم الرضا على شفثيه ، وتحملق الأحلام فى عينيه .

وأخيراً أفاقوا على الحقيقة ، وكانت الحقيقة التى قطعت عليهم هذا الجو
المرح هى خادم الدوقة . دخلت الحقيقة من الباب وتردى ثياب العصر وأعلنت
أن عربة الدوقة تنتظرها ، ففركت الدوقة يديها تتكلف غصص اليأس وقالت :
- يالللنكد ! لابد أن أنصرف لألتقى بزوجى فى النادى ، ومن ثم أصبحته
إلى اجتماع سخييف فى بيت واليس ليرأس الاجتماع ، ولو تأخرت عنه
لغضب غضباً شديداً ، وأنا الآن فى حالة لا أحتمل معها الشجار ، فيجب أن
أنصرف يا عزيزتى أجاثا . الوداع يا لورد هنرى . إنك لرجل ساحر ومفسد
للأخلاق ، ولست أدري كيف أستقبل آراءك هذه . لابد أن تأتى للعشاء معنا
فى أقرب فرصة ، أيناسبك يوم الثلاثاء ؟ ما رأيك فى يوم الثلاثاء ؟

فانحنى اللورد هنرى بأدب جم وقال :

- إنى لأبطل أى موعد فى سبيل إرضائك يا سيدتى الدوقة .

فقالت :

- هذا كرم منك ، ولكنه خطأ عظيم ، مهما يكن من شىء فنحن
فى انتظارك . وخرجت الدوقة من الغرفة تتبعها الليدى أجاثا وسائر السيدات ،
ولما استعاد اللورد هنرى مكانه انتقل مستر إسكين إلى جواره ، وأمسك
بذراعه قائلاً :

- إن كلامك يملأ المجلدات يا لورد هنرى ، فلماذا لا تضع كتاباً .
فأجاب اللورد هنرى قائلاً :

- إن شغفى بالقراءة يجعلنى أزهد فى الكتابة يا مستر إسكين . لا شك
أنى أحب أن أضع قصة يوماً ما ، قصة تشبه البساط العجمى فى جمالها
وغرابة تصميمها ، ولكن الجمهور فى إنجلترا لا يهتم إلا بالصحف وبالكتب
المدرسية وبدوائر المعارف . إن الإنجليز أفسد أهل الأرض ذوقاً من
الناحية الأدبية .

قال مستر إرسكين :

- أعتقد أن هذا صحيح لسوء الحظ ، ولقد كانت لى أطماع أدبية منذ زمن طويل ولكنى طلقته . والآن يا صديقى الشاب ، هل لى أن أسألك إذا كنت حقاً تعتقد فى كل ما قلته لنا أثناء الغداء ؟

فابتسم اللورد هنرى وأجاب :

- لقد نسيت ما قلته تماماً . أكان كلامى معيباً حقاً ؟

- نعم ، كان معيباً إلى حد كبير ، وأنا أعدك رجلاً خطراً على المجتمع ، ولو أصاب الدوقة مكروه حملناك جميعاً تبعة ذلك ، ولكنى مع ذلك أتوق إلى استطلاع آرائك فى الحياة ، فالجيل الذى أنتمى إليه جيل ممل ، وإنه ليسرنى أن تزورنى فى تريدلى يوم تزهده فى لندن ، وفى تريدلى تستطيع أن تشرح لى فلسفة اللذة التى تبشر بها بين كئوس النبيذ البورغونى النادر .

- ذلك يسعدنى حقاً يا مستر إرسكين ، ففى زيارة تريدلى شرف عظيم لى ، وسوف أجد فيها مضيئاً كريماً ومكتبة رائعة .

فانحنى مستر إرسكين بأدب وأجاب :

- إن مكتبتى لن تكمل إلا بك . والآن يجب أن أستأذن عمته الفاضلة فى الانصراف ، لأن على أن أكون فى نادى الأثنيوم فقد حل موعد نوم الأعضاء .

- أتنامون جميعاً فى النادى يا مستر إرسكين ؟

- نعم . نحن أربعون عضواً ننام فى أربعين مقعداً وثيراً ، ونحن بذلك نضع نواة أكاديمية أدبية .

ضحك اللورد هنرى ونهض قائلاً :

- أما أنا فسأخرج للنزهة فى هايد بارك .

وفيما هو خارج ضغط دوريان جراى على ذراعه ، وقال بصوت خافت :

- اسمح لى أن أرافقك .

فقال اللورد هنرى :

- ألم تعد بازيل هولوردد بزيارته ؟

- هذا صحيح ، ولكننى أفضل صحبتك ، وشعورى يملئ علىّ أن أرافقك
فاسمح لى بذلك ، وعدنى بأن تتحدث إلى طول الوقت ، فما من أحد يجيد
الحديث كما تجيده أنت .

قال اللورد هنرى مبتسماً :

- لقد تحدثت اليوم بما فيه الكفاية ، وكل ما أبغيه هو أن أستعرض موكب
الحياة ، فتعال لتستعرضه معى إذا أحببت .

الفصل الرابع

مر شهر من الزمان ، وكان دوريان جراى جالساً فى استرخاء على مقعد كبير وثير بمكتبه اللورد هنرى فى بيته بحى مايفير ، وكانت المكتبة حجرة صغيرة أنيقة على طريققتها الخاصة ، تكسو جدرانها ألواح من البلوط عالية طلاؤها أخضر ، ويزدان سقفها السمنى وكورنيشها السمنى بنقوش من المصيص البارز ، ويغطى أرضها بساط من الجوخ الأحمر فوقه عدد من السجاجيد العجمية ذات الشراريب الحريرية الطويلة ، وعلى مائدة صغيرة بالحجرة وقف تمثال صغير لكلوديون وإلى جانب التمثال كانت هناك نسخة من كتاب « القصص المائة » جلده كلوفيس إيف فى الأيام الغابرة للمملكة مرجريت دى فالوا ، وعلى الكتاب وشى من الأقاصى الذهبية التى اتخذتها الملكة شارة لها ، وقد رُصّت على رف المدفأة بعض الأوانى الصينية الكبيرة الزرقاء ، ونفذ الضوء فى ذلك اليوم الصائف من النافذة فبدا لونه كلون البرتقال المنطفىء ، ولم يكن اللورد هنرى قد عاد بعد إلى بيته ، فقد كان من مبدئه أننا نضيع العمر بالمواظبة ، ولذا بدا على دوريان جراى شىء من العبوس ، وهو يقلب صحائف نسخة من قصة « مانون ليسكو » محلاة بأجمل الصور وجدها على أحد رفوف المكتبة ، وكانت بالحجرة ساعة دقاقة من طراز لويس الرابع عشر ، ظلت تدق دقاً منتظماً أثار أعصابه ، وخطر له مرة أو مرتين أن ينصرف ، ولكنه سمع أخيراً وقع أقدام فى الخارج ، وانفتح الباب فقال الفتى فى صوت خافت :

- لقد تأخرت كثيراً يا هارى !

ولكن صوتاً حاداً أجابه مصححاً :

- إن هارى لم يصل بعد يا مستر جراى .
فالتقت دوريان جراى إلى الباب بسرعة ، وحين أدرك خطأه بادر
بالوقوف وقال :

- أطلب عفوك يا سيدتى ، فقد حسبت . . .
- نعم ، حسبت أن زوجى هو الداخل . اسمح لى أن أعرفك بنفسى
فأنا زوجة هارى ، وقد عرفتك من صوتك لأننى رأيت صوراً منك كثيرة ،
وأظن أن زوجى قد جمع سبع عشرة صورة من صورتك .
- سبع عشرة صورة يا ليدى هنرى ؟

- هل أخطأت فى العدد ؟ لعله جمع ثمان عشرة ، كذلك رأيتك معه
ليلة أمس فى دار الأوبرا .

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ، ورنّت إليه بعينين ناعستين ، وكانت
الليدى هنرى امرأة غريبة حقاً ، فثيابها تدل على اضطراب صانعها واضطراب
لابسها معاً ، وكانت بلا انقطاع عاشقة بلا عشيق مما أبقى على أوهامها عن
الحب ، ثم إنها كانت تعتمد الإهمال فى ملابسها لتلفت الأنظار إلى جمالها
فتلفت الأنظار إلى إهمالها ، وكان اسمها فكتوريا ، وكانت تتردد على
الكنيسة بكثرة تدل على الجنون .

- إذا فقد رأيتنى فى دار الأوبرا ؟ أظن أن ذلك كان ليلة « لوهنجرين »
يا ليدى هنرى .

- نعم ، كان ذلك ليلة « لوهنجرين » ، وأنا أحب فاجنر أكثر من أى
موسيقى آخر ، لأن الحانه عالية الضجيج ، وهذا يدع لى فرصة للكلام أثناءها
دون أن يسمع أحد شيئاً مما أقول ، وهذه مزية كبرى . ألا توافقنى على ذلك
يا مستر جراى ؟

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ثابتة ، على حين أخذت أصابعها تعبت
بنصل من النصال التى يقطع بها الورق صنع من ظهر السلحفاة ، فابتسم
دوربان ، وهز رأسه قائلاً :

- يؤسفنى أن أختلف معك فى هذا الموضوع يا ليدى هنرى ، فأنا
لا أتكلم بتاتاً حين أسمع الموسيقى الجميلة ، أما إذا كانت الموسيقى رخيصة
فمن الواجب إسكاتها بالكلام .

- ولكن هذا رأى من آراء هارى يا مستر جراى ، أليس كذلك ؟ إن آراء
هارى تصلنى عن طريق أصدقائه ، ولولا ذلك لما عرفت منها شيئاً ،
ولا تظن يا مستر جراى أنى أكره الموسيقى الجميلة ، فأنا أقدمها ، بل أعبدها ،
ولكنها تخيفنى ، كذلك أقدم الموسيقى بل أعبدهم ، ولكم شغفت بعازفى
البيانو حتى إن هارى كان ينبهنى إلى أنى أعشقهم أزواجاً أزواجاً فى بعض
الأحيان ، ولست أعرف ما يحملنى على حبهم ، ولكن لعل منشأ حبنى لهم
أنهم أجنب ، فعازفوا البيانو جميعهم من الأجنب ، أليس كذلك ؟ حتى
الإنجليز منهم يصبحون بعد قليل أجنب ، أليس كذلك ؟ وأعتقد أن هذه
مهارة منهم ، كما أنها تحية للفن الذى يخدمونه ، فهى تخرج به عن دائرة
إنجلترا الضيقة وتصبغه بصبغة عالمية . أنت لم تحضر أية حفلة من حفلاتى
يا مستر جراى ، ولا بد أن تشرفنى مرة بزيارتك ، وإذا حضرت حفلة من
حفلاتى فلن تجد فى بيتى أزهار الأوركيد ، فهى غالية الثمن إلى حد لا يطاق ،
ولكنك ستجد فيه كثيراً من الأجنب ، لأن الأجنب يزنون البيت ، وأنا
أدعوهم باستمرار مهما غلا ثمنهم . ها قد جاء هارى ! اسمع يا هارى ، لقد
جئت لأستفسر عن شىء ، ولكن نسيت الآن ما جئت لأستفسر عنه ، وقد
وجدت مستر جراى هنا ، وتحدثنا عن الموسيقى حديثاً شهيماً ، وأعتقد أن آراءنا
متشابهة تماماً . كلا . إن آراءنا ليست متشابهة تماماً ، بل مختلفة تماماً ،
ولكنى سررت ببقائه على أية حال ، فقد كان مثال اللطف معى .

- أنا سعيد بذلك يا حبيبتي ، نعم ، سعيد ، ولا تؤاخذني يا دوريان إذ كنت قد تأخرت ، فقد قصدت شارع واردمو لأشترى قطعة من الدنتلا الأثرية ، وضاعت مني ساعات طويلة في المساومة . إن الناس في هذه الأيام لا يعرفون قيمة شيء ، ويعرفون ثمن كل شيء .

ثم حل صمت ثقيل فقطعته الليدي هنري بضحكها الصبيانية الفجائية وقالت :

- لا بد أن أنصرف الآن ، فقد وعدت الدوقة أن أرافقها في نزهتها . إلى اللقاء يا مستر جراي ، وأنت يا هاري ، إلى اللقاء . وأعتقد أنك ستتناول العشاء خارج المنزل ، فإذا كان الأمر كذلك فقد أراك في بيت الليدي ثورنبري . قال اللورد هنري :

- أرجع ذلك يا حبيبتي .

وخرجت الليدي هنري على عجل ، وتركت وراءها عطرًا خفيفًا في جو الغرفة ، فبدت كعصفور من عصافير الجنة هجر عشه طول الليل وبلله المطر ، وأغلق اللورد هنري الباب وراءها ثم أشعل سيجارة وارتمى على إحدى الأرائك ، وقال وهو ينفخ الدخان في الهواء :

- أنصحك يا دوريان ألا تتزوج من شقراء .

- لماذا ؟

- لأن النساء الشقراوات عاطفيات .

- ولكنني أحب النساء العاطفيات .

- إذاً فلا تتزوج أبدًا يا دوريان ، فالرجال يتزوجون حين يقتلهم الملل ، والنساء يتزوجن من باب الفضول ، ولكنهم جميعًا يندمون على ذلك .

- لا أعتقد أنني سأتزوج يا هنري ، فأنا أحب ، وحببي عاصف مدمر ، ومن كان حبه عاصفًا مدمرًا لا يحق له أن يتزوج . هذه حكمة أخذتها عنك يا هنري ، وها أنذا أطبقها تطبيقًا عمليًا كما أفعل بكل ما تقول .

وبعد صمت قليل سأله اللورد هنرى قائلاً :

- ومن تكون هذه المحبوبة ؟

فأجاب دوريان جراً فى خجل :

- إنها ممثلة .

فهز اللورد هنرى كتفيه استخفافاً وقال :

- هذه بداية مبتذلة ، وقد كنت أحسب أنك ستأتى بجديد .

- لا شك أن حكمك كان يختلف لو أنك رأيتها يا هارى .

وما اسمها ؟

- سييل فين .

- ما سمعت هذا الاسم قط .

- إنها الآن نكرة من نكرات المسرح ، ولكنها ستصبح علماً من أعلامه يوماً ما ، فهى فتاة نابغة .

- أنت تبالغ يا صديقى ، فالنبوغ ليس من صفات النساء ، إنما النساء تحف تزين الحياة ، فادمغتهن لا تشتمل على فكرة واحدة ، ولكن حديثهن ساحر . المرأة تمثل انتصار المادة على العقل ، والرجل يمثل انتصار العقل على الضمير .

- ما أقسى أحكامك يا دوريان !

- أنا أقدر ما أقول يا صديقى ، فأنا أشتغل الآن بتحليل نفسية النساء ، وقد وجدت الموضوع أوضح مما كنت أتوقع ، فتحليلى دلنى على أن هناك نوعين لا ثالث لهما من النساء : المرأة الطبيعية والمرأة المزججة . أما المرأة الطبيعية فلها فوائد جمّة ، ويكفى أن يراك هناك الناس تتعشى مع امرأة طبيعية

حتى يصفوك بالوقار ، أما المرأة المزججة فسحرها عظيم ولكن لها عيباً واحداً ، وهو أنها تستعمل المساحيق لتغير من سنّها . لقد كانت جداتنا يستعملن المساحيق ليجدن فن الحديث ، لأن أحمر الشفاه يلهب الذكاء ، وقد انتهى ذلك العصر ، أما اليوم فالمرأة لا يرتاح لها بال حتى تبدو أصغر من بنتها بعشر سنوات على الأقل ، أما عن فن الحديث فقد فقدته نساؤنا ، ولن نجد الآن في لندن كلها أكثر من خمس سبّادات حديثهن يشوق ، منهن اثنتان لا يسمح لهما بدخول الأوساط الشريفة ، ولكن حدثني عن فتاتك النابغة هذه . متى عرفتھا ؟

- إن آراءك تخيفني يا هارى .

- دعنا من هذا الآن . متى عرفتھا ؟

- منذ ثلاثة أسابيع تقريباً .

- وأين عرفتھا ؟

- سأروى لك حكايتها كاملة يا هارى ، ولكنى أطلب منك أن تكون منصفاً ، وتذكر أنك السبب في كل ما حدث ؛ لأن حياتى تبدلت منذ عرفتک ، لقد أثرت في رغبة جامحة لمعرفة كل شيء ، وظللت أياماً بعد لقائنا الأول يعذبني فضول شديد ، فما من مرة جلست في هايدبارك أو مشيت متسكعاً في بيكاديلى إلا وكنت أتفحص الغادين والرائحين ، وأفكر في حياتهم الخاصة كيف تكون ، وكنت أستريح إلى بعضهم ، وكان بعضهم يملؤنى جزعاً ، وهكذا انتشر في جو حياتى سم للذيد ، وتفتحت حواسى لكل ما يرضيها ، وحدث ذات مساء أن خرجت نحو الساعة الخامسة أنشد المغامرة ، وأحسست أن لندن ، مدينتنا البشعة الغبراء هذه بخلائقها الحاشدة وخطاياها الجميلة وخطاتها الأثقياء كما وصفتها أنت مرة يا هارى ، أحسست أن هذه المدينة قد خبأت لى فى مجاهلها شيئاً ، وجاء بيالى ألف خاطر وخاطر ، وأحسست بالخطر يدنو فأذكى إحساسى بالخطر إحساسى بالحياة ، وتذكرت قولك لى يوم تعشنا معاً أول مرة إن سر الحياة الحقيقى هو البحث عن الجمال ، ولم أكن

أطلب شيئاً بعينه ، بل مضيت أتجول شرقاً ، ثم ضللت طريقي فى تيه معقد من الشوارع المظلمة والميادين السوداء الجرداء ، فلما بلغت الساعة الثامنة والنصف وجدتني أمام مسرح مهمل صغير مصايحه عالية وإعلاناته خالية من الذوق ، ورأيت بيباه يهودياً يلبس صداراً لم أر مثله فى حياتي ويدخن سيجاراً قذراً ، وعلى صدره تدلت سلسلة كستها المواد الدهنية ، ولمعت ماسة ضخمة وسط قميصه ، وحين وقع بصره على رفع قبعته فى تذلل عظيم ، وهتف بى قائلاً : « أترغب فى مقصورة يا سيدى اللورد ؟ » فجذبني منظره لأنه بدا كالوحش الضارى ، ونقدته جنيهاً كاملاً ، ثم وجدت طريقي إلى المقصورة الأمامية ، ولعلك تسخر من مسلكى العجيب هذا ، ولكنى لا أعلم ماذا حملنى على الدخول ، ومع ذلك فلو لم أدخل يا صديقى لفاتنى أجمل تجربة مرت بى فى حياتى . ها أنت تضحك سخرية منى ، فما أقساك يا هارى .

- لست أضحك ، أقصد لست أضحك سخرية منك ، ولكن لا تقل أجمل تجربة مرت بك ، بل قل أول تجربة ، فسوف تجد دائماً من تحبك ، وسوف نطلب الحب لذاته دائماً ، فالعواطف الصاخبة حكر لأمثالنا من المتبطلين ، وهى المبرر الأوحى لوجود أرستقراطية خاملة . فلا تخش شيئاً يا دوريان ، لأن المستقبل يخبئ لك السعادة التى تنشدها ، وما هذه إلا البداية .

فقال دوريان جراًى غاضباً :

- أتحسبني تافه العاطفة إلى هذا الحد ؟

- كلا . بل أحسبك قوى العاطفة إلى حد كبير .

- ماذا تعنى ؟

- اسمع يا بنى إنما يؤمن بالتخصص أصحاب العقول التفاهة ، وما يسمونه بالوفاء أسميه أنا الكسل الناجم عن العادة ، أو أسميه فقراً فى الخيال حسب الحالة . إن الإخلاص فى الحياة العاطفية يشبه انتظام التفكير فى الحياة

العقلية ، كلاهما أمانة الفشل . ما هذا الوفاء الذى يتحدث عنه الناس ! لابد أن أحلله يوماً من الأيام . إنه يقوم على غريزة الملكية ، وكم من شيء لا نجد بأساً من لفظه لولا خوفنا من أن يلتقطه الآخرون ، ولكن امض فى روايتك فأنا لا أحب أن أقاطعك .

- أقول وجدتنى جالساً فى مقصورة صغيرة قبيحة المنظر ، ووجدت أمامى على المسرح مباشرة ستاراً عليه نقوش مبتذلة ، وأجلت بصرى فى جنبات الدار من وراء ستار مقصورتى فوجدتها داراً حقيرة تزينها رسوم سخيفة لكوييد وما شاكل ذلك ، وكانت الصالة والشرفات ملأى بالنظارة ، ولكن المقاعد الأمامية كانت خالية تماماً ، وكنت ترى بائعات البرتقال ، وشراب الليمون يجلسن بين الحضور ، وكنت تسمع الحضور يقشرون الفول فى جلبة لا حد لها .

- ما أشبه هذا المسرح بمسرح شكسبير !

- أعتقد أنه يشبهه من كل الوجوه ، ولكن نفسى ضاقت به ، ولم أدر ما يجب على أن أفعله ، ثم لمحت فجأة لوحة كُتب عليها اسم الرواية . فماذا تظنها كانت يا هارى ؟

- لعلها كانت رواية « الأبله » أو رواية « المغفلة البريئة » فأباؤنا كانوا يحبون هذا النوع من المسرحيات ، وأنا فى كل يوم أزداد اقتناعاً بأن ما كان يصلح لأبائنا لم يعد يصلح لنا ، سواء أكان ذلك فى الفن أم فى السياسة . والمثل الفرنسى يقول : « الأجداد دائماً مخطئون » .

- ولكن الرواية كانت « روميو وجوليت » وهى من الروايات التى تصلح لنا يا هارى ، وأعترف لك بأن فكرة تمزيق شكسبير فى ذلك الجحر القدر ضايقتنى كثيراً ، بيد أنى قررت أن أشاهد الفصل الأول ، وسبقت التمثيل قطع موسيقية عزفتها فرقة مزعجة على رأسها شاب يهودى ظل يدق على بيانو مهشم حتى كدت أنصرف من فرط غيظى ، ولكن الستار ارتفع أخيراً ، وبدأ

التمثيل ، وخطر روميو على المسرح فإذا به كهل بدين يشبه برميل البيرة ، له حاجبان مضحكان وصوت أجش يصلح فعلاً لتمثيل المأسى ، ولم يكن مركوشيو بأحسن حالا من روميو ، فقد كان يقوم بدور مركوشيو مضحك رخيص كثيراً ما زجّ بين سطور شكسبير فكاهات من عنده ، كما أنه كان يعطل التمثيل أحياناً ليتبادل الفكاهات مع الجمهور . نعم ، كان روميو ومركوشيو جديرين بالسخرية ، كما كان المنظر ذاته جديراً بالسخرية ، فقد بدا بيت السيد كايوليت بفيرونا كأنه بيت من بيوت الفلاحين ، ولكن جوليت كانت آية عجباً يا هارى ! كانت دون السابعة عشرة ، يشبه وجهها الصبوح المستدير الزهرة المتفتحة ، ويشبه رأسها الصغير الدقيق إلهة من آلهة اليونان ذات صفائر ، لا هى بالسوداء ، ولا هى بالشقراء ، أما عيناها فقد كانتا ينبوعين يفيضان بالعواطف السخية ، بل كانتا بنفسجتين يترجرج فيهما قطر الندى ، وأما شفاتها فهما أوراق الورد . نعم ، كانت جوليت آية عجباً . وأنت القائل إن مشهد الأسى لا يحرك فيك ساكناً ، وإن مرأى الجمال وحده هو الذى يزلزل كيائك ويجمع فى عينيك العبرات ، فلتصدقنى إذا يا هارى حين أقول إنى ما كدت أرى هذه الفتاة حتى استعبرت عيناى فحجبها عنى ضباب المقل ، كذلك كان صوتها آية عجباً ، بدأت خفيضاً حنوناً ، رخيم النبرات يكاد كل من يسمعه يخال أنها تتكلم له وحده ، ثم ارتفع قليلاً فحسبته صوت ناي شجى بعيد ، فلما جاء مشهد الحديقة ، وما دار فيها من مناجيات الغرام البرىء ارتعش صوتها من فرط السعادة ، فجاءنى كأغاريد البلابل فى مطلع الصباح ، ولكنه علا واضطرب حتى بلغ طبقة الجنون . وأنت تعلم يا هارى ما للصوت من وقع فى النفس ، فصوتك وصوت سيبيل فىن لا سبيل إلى نسيانهما ، وكلما أغمضت جفنى سمعتك تتكلم وسمعتها تتكلم ، ولكن شتان بين ما تقولان ، ولست أدري أى الصوتين أتبع ! لست أرى ما يمنعنى عن حبها ، وإنى لأحبها من أعماق قلبى ، فهى كل ما بقى لى فى الحياة ، وأنا أسعى لرؤيتها كل ليلة ، فهى أنا تلعب روزاليند ، وأنا تلعب

إيموجن ، ولقد رأيتها تموت فى قبر دامس بإيطاليا ، وترشف السم من شفتى حبيبها ، ولقد رأيتها تجوس خلال غابة أردن مستخفية فى زى صبي جميل يلبس تزلج وصداراً وقبعة أنيقة . رأيتها وقد جئت فى حضرة ملك فاجر تهديه إكليلاً من الأشواك يحز فى جبينه ، وباقه من الأعشاب المرة تنغص عليه مذاق الحياة . كذلك رأيتها فى ثياب ديديمونة الطاهرة ، وقد أطبقت على جيدها البض يد الغيرة السوداء . نعم ، لقد رأيتها فى كل زى وفى كل عصر . إن النساء التافهات لا يلهن الخيال ؛ لأنهن مشدودات إلى جيلهن بوثق من حديد ، ومهما أضيفت عليهن من السحر فلن يتبدل فيهن شيء ، لأن طبيعتهن خالية من الأسرار ، لأن ابتسامتهن مدروسة ثابتة لا تتجدد ، لأن حياتهن بركة ضحلة آسنة ، فصباحهن نزهة فى هايد بارك ، وعصرهن لغو حول فناجين الشاي ، لأنهن يتبعن أحاديث النماذج فى الزى وفى قواعد السلوك ، لأنهن دائماً فى انتظارك ، فأى لغز فى كل هذا يجذبنا ويشير فضولنا ؟ أما الممثلات فهن من جبلة مختلفة . أى هارى ! لماذا لم تعلمنى أن حب الممثلات هو أقيم ما فى الحياة ؟

- لم أعلمك ذلك يا دوريان لأنى أحببت منهن عدداً كبيراً .
- أظنك أحببت ذلك النوع ذا الشعر المصبوغ والوجه المدهون .
- وما ضرر الشعر المصبوغ والوجه المدهون ؟ إن سحرهما عظيم فى بعض الأحيان .
- ليتنى لم أحدثك فى موضوع سييل فىن .
- هذا مستحيل يا دوريان ، فلن تستطيع أن تكتم عنى شيئاً بعد الآن .
- هذا صحيح يا هارى ، فسلطانك على عظيم ، وهو يرغمنى على الإفضاء لك بكل شيء ، ولو أنى ارتكبت جريمة لقصدتك واعترفت بها أمامك ؛ لأنك تفهمنى وتقدر عواطفى .

- إن أمثالك من الناس يا دوريان هم النور الذى يجلو ظلام الحياة ،
وأنتم لا ترتكبون الجرائم ، ومع ذلك فأنا سعيد بهذه المجاملة . إلى بعلبة
الكبريت . والآن إلى أى حد وصلت مع سييل فين ؟
فنهض دوريان جراى غاضباً وقال :

- هذا اجتراء منك يا هارى . إن سييل فين قدس حرام !

أجاب اللورد هنرى فى حنان غريب :

- وهل غير الأقداس المحرمة يستحق أن نلمسه ؟ ثم إنى لا أفهم معنى
لغضبك ، فسييل فين ستكون ملكاً لك عاجلاً أو آجلاً ، وإن العاشق ليبدأ
غرامه بخداع نفسه ، ويختمه بخداع الآخرين ، وهذا هو ما يسمونه الحب .
أعتقد أنك على الأقل تعرفت بها .

- طبعاً تعرفت بها ، فبعد انتهاء التمثيل فى الليلة الأولى جاءنى اليهودى ،
وعرض أن يستصحبنى إلى غرف الممثلين ليعرفنى بچوليت ، فثارت ثائرتى
وزجرته قائلاً إن چوليت قد ماتت منذ قرون ، وأن جثتها مدفونة فى قبر من
المرمر بفيرونا . ولما أن سمع هذا الكلام بدت على وجهه أمارات الحيرة ،
ولعله حسب أنى كنت ثملاً .

- هذا طبيعى .

- قال : « أكتب فى الصحف ؟ » قلت : « بل لا أكتب فيها
ولا أقرؤها » فبدأ عليه غم شديد ، وأسر إلى قائلاً إن جميع نقاد المسرح
يتآمرون عليه ، وأنهم بلا استثناء قوم مرتشون .

- أعتقد أن رأيه فيهم صحيحاً ، ولكن مظهرهم الرث يدل على أن
ثمنهم ليس كبيراً .

فضحك دوريان جرای وقال :

- ولكن فهمت من كلامه أن ثمنهم أبهظه . مهما يكن من شيء فقد رأيت أنوار المسرح تنطفئ حين بلغنا هذه المرحلة من الحديث ، وكان لا بد لى من الانصراف ، فألح علىّ فى أن أدخن سيجاراً كان يعتقد فى جودة نوعه ولكنى أبيت ، وفى الليلة التالية قصدت المسرح ثانية فلما رآنى انحنى حتى كاد أن يقبل الأرض بين يدى ، وأنشأ يؤكد لى أنى حامٍ من حماة الفنون كبير . وكنت أتأذى من منظر هذا الرجل ، ولم يشفع له عندى إلا تفانيه فى حب شكسبير ، فقد قال لى ذات مرة فى شيء من الزهو إن إفلاسه أشهر خمس مرات ، وفى كل مرة كان شكسبير هو السبب كأن فى ذلك شرقاً له .

- نعم ، إنه شرف مؤكد يا صديقى ، بل شرف عظيم ، فعامة الناس يفلسون طمعاً فى نشر الحياة ، ومن جر الشعر عليه الخراب فهو بطل كريم ، ولكن متى كان أول لقاء بينك وبين الأنسة سيبيل فى ؟

- كان ذلك فى الليلة الثالثة ، وكانت تلعب دور روزاليند ، فألقيت إليها بعض الأزهار لأظهر إعجابى بها ، واختصتنى بنظرة أو خيّل إلى أنها اختصتنى بنظرة ، وأخيراً لم يسعنى إزاء إصرار اليهودى إلا أن أرافقه إلى غرف الممثلين . ألا ترى أن رغبتى عن لقائها كانت غريبة حقاً ؟

- كلا ، لست أرى ذلك ؟

- وما السبب ؟

- فلننس هذا الآن ولنؤجله إلى وقت آخر . إنما أحب أن أسمع بقية حديثك عن هذه الفتاة .

- كانت خجولا لا حد لحجلها ، رقيقة لا حد لرقتها ، تشبه الأطفال فى براءتها ، أما عيناها فقد استجابتا لإطرائى فى دويشة ساحرة حين فكرت لها رأى فى مواهبها الفنية ، فعلمت أنها لم تكن تعرف قلم نفسها ، وكنا آنذا

مضطربين يرنو أحدا إلى الآخر في سذاجة كأنه طفل غرير ، على حين وقف اليهودى العجوز بباب الغرفة يتمدح بشمائله ويتمدح بشمائلها ، ولا ينفك يلقبى بسيد اللورد حتى اضطرني أن أؤكد لسييل فين أنى لست من أهل الألقاب ، فقالت فى سذاجة « أنت عندى أشبه بأمير منك بلورد ، وسأسميك الأمير الساحر » .

- أقسم لم يا دوريان أن الأنسة فين تحسن المجاملة .

- إنك تسيء فهمها يا هارى ، فما أنا فى نظرها إلا بطل من أبطال المسرحيات . إنها تجهل الحياة جهلاً تاماً ، فهي تعيش مع أمها ، وهى عجوز فاتنة رأيتها أول ليلة تلعب دور الليدى كايولويت فى « روميو وجوليت » ويبدو لى أنها كانت أحسن حالا فيما مضى من الأيام .

قال اللورد هنرى وهو يعبث بخواتمه :

- نعم ، هذا الطراز من النساء ليس غريباً عنى .

- لقد أراد اليهودى أن يقص على ماضيها ، ولكنى أفهمته أن هذا لا يهمنى .

- حسناً فعلت ، فمآسى الآخرين فيها دائماً ما يشير فى النفس الامتعاظ .

- إن سييل فين هى كل ما يهمنى فى الموضوع ، أما نشأتها فلا تعينى ، وهى عندى ملك هبط من السماء ، وأنا أسعى إليها كل ليلة لأراها على المسرح فيزداد كل ليلة بهاؤها .

- وهذا بالطبع يفسر انقطاعك عن العشاء معى فى هذه الأيام . لقد جال ببالى أنك تمر فى اختبار جديد ، ولكنى أتصوره من نوع آخر .

- نحن نتغدى معاً كل يوم يا هارى ، فإن فاتنا ذلك جئتك فى أعجاز الليل ، وقد رافقتك مراراً إلى دار الأوبرا .

- ولكنك تتأخر فى المجىء كثيراً .

- وما حيلتى فى ذلك ؟ إنى أذهب كل ليلة لأراها بتمثل ، ولقد أنصرف بعد فصل واحد ، ولكنى لا أتخلف ، لأننى أظمأ إلى رؤيتها كل مساء ، وكلما فكرت فى الروح الصافية التى تسكن جسدها العاجى الجميل ارتجفت رهبة .

- أأستطيع أن تتعشى معى الليلة يا دوريان ؟

فهز دوريان رأسه وأجاب :

- كلا ، فهى الليلة أيموجين ، وهى غداً جوليت .

- ومتى ستكون سييل فىن ؟

- هذا لا يحدث مطلقاً .

- إذا ، فاقبل تهائنى .

- ما أقساك يا هارى ! إنها ليست شخصاً واحداً ، بل هى جميع بطلات الخيال تركزن فى شخص واحد . إنك تسخر منى ، ولكنى أؤكد لك أنها فتاة موهوبة ، وأنا أحبها ولا بد أن أجعلها تبادلى حبنى . وأنت يا من قرأت رموز الحياة وطالعت أسرارها لا تنهى عن حبها ، بل علمنى رقية أستطيع أن أسر بها فؤاد سييل فىن . أريد أن أثير الغيرة فى قلب روميو . أريد أن أهنأ معها ليشقى شهداء الغرام بهنائنا . أريد أن أهنأ معها لتحرق أنفاسنا الملتهبة رميمهم البارد المتآكل . اللهم غفرانك ! إن حبنى لها قد بلغ مبلغ الوثنية .

وفيما هو يقول ذلك كان شديد الاضطراب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ، وقد اشتعلت فى خديه نار حامية .

وكان اللورد هنرى يتأمله فى سرور خفى ، فقد رأى الصبى الخجول المنكمش الذى عرفه فى استديو بازيل هولوردد يتحول إلى فتى ذى شخصية

وإرادة . لقد نمت روحه كما تنمو الزهرة ، وتفتحت أوراقها حمراء كألجنة
اللهيب . نعم . لقد أطلت روحه من مخبئها العميق حيث لا يراها أحد ،
واندمجت فى الجسد الملهب بالأشواق فأصلتها أشواق الجسد ناراً .
قال اللورد هنرى أخيراً :

- وعلام أزمعت ؟

- تعال معى إلى المسرح أنت وبازيل هولوردد ، لتشهدا تمثيلها ، وأنا
واثق من النتيجة تماماً ، فما من شك فى أنكما ستقنعان بأنها فتاة موهوبة ،
وبعد ذلك لا يبقى إلا أن نتشلها من براثن اليهودى ، فهى مرتبطة معه بعقد
مدته ثلاث سنوات بقيت منها سنتان وثمانية شهور ، ولا بد أن أعوضه بالمال
عن فسخ العقد ، وحين يتم لى ذلك أستأجر لها مسرحاً فى الوبست إند
وأظهرها للناس بما يتناسب مع كفايتها ، ولسوف يجن بها الناس جنونى بها .
- هذا محال يا دوريان .

- نعم . سوف يجن الناس بها ، فهى تملك الشخصية الناجحة فضلاً عن
استعدادها الفنى وتمكنها من أصول التمثيل ، ولقد قلت لى فى أكثر من
مناسبة إن عصرنا تسيره الشخصيات لا المبادئ .

- إذا كان الأمر كذلك فمتى نذهب ؟

- اليوم يوم الثلاثاء ، فليكن موعدنا ليلة الغد فهى تمثل جوليت .
- اتفقنا إذاً ، وليكن لقاءنا بمطعم بريستول فى الساعة الثامنة ،
وسأتيك ببازيل .

- بل فى السادسة والنصف يا هارى ، فلا بد أن نكون هناك قبل رفع
الستار . نعم ، لا بد أن تراها فى الفصل الأول حين تقابل روميو .

- ماذا دهالك يا هذا ؟ إن شهود التمثيل فى السادسة والنصف عمل
لا تستسيغة النفس كأكل اللحم مع الشاى أو قراءة القصص الإنجليزية ، فلنلتق

فى الساعة السابعة وإلا فلا ، فما من چتلمان یتعشى قبل الساعة . أینا یتصل ببازیل ؟

- مسکین بازیل ، فأنا أعامله أسوأ معاملة ، وقد احتجبت عنه أسبوعاً كاملاً ، وهذا جحود منى شدید لأنه أرسل إلى صورتنى بعد أن وضعها داخل إطار جمیل صممه بنفسه ، وأنا جد سعيد بهذه الصورة برغم أنى أغار منها ، فهى تصغرنى بشهر کامل ، ولعله حائق علىّ ، فمن الأصوب أن تكتب أنت إلیه بهذا الموعد ، وأنا أكره أن أواجهه وحدى ، وأضيق بكثير من حديثه لأنه لا ینفك یسدى إلى نصائحه الأخلاقية .

فابتسم اللورد هنرى وقال :

- إن الناس یجودون للغير بما هم فى أمسّ الحاجة إلیه ، وهذا ما أسمیه الكرم الذى زاد عن حده فانقلب إلى ضده .

- ولكن بازیل خیر من عرفت من الرجال برغم أنه محدود الأفق بعض الشئ ، وقد أدركت ذلك فیه منذ أن عرفتک یا هارى .

- إن بازیل يضع كل صفاته الجذابة فى عمله ، وبذلك لا یبقى لنا منه إلا أحكامه الفاسدة ومبادئه القومية ومنطقه السليم . وما عرفت فناً قط جذاب الشخصية إلا وكان تافه الفن ، أما كبار الفنانین فأشخاصهم تبنى تماماً فى عملهم ، فلا یبقى للعالم من أشخاصهم ما یشیر اهتمام أحد . والشاعر الفذ ، أقصد الشاعر الفذ بمعنى الكلمة ، رجل خلت حياته من الشاعرية ، أما صغار الشعراء فیسخرون الدنيا بشخصياتهم العجيبة ، وكلما انحطت قوافیهم ارتفعوا فى عیون الناس ، حتى لتجد أن مجرد نشر دیوان من الشعر الرکیک یجعل من صاحبه شخصية تأسر القلوب ، فصغار الشعراء یمارسون الشعر الذى عجزوا عن قوله ، وكبارهم یقولون الشعر الذى خافوا من ممارسته فى الحياة .

قال دوریان جرای وهو یصب شيئاً من العطر على منديلہ من زجاجة كبيرة على المائدة غطاؤها ذهب خالص :

- أصحيح ما تقوله يا هارى ؟ لا بد أنه صحيح لأن كل ما تقوله صحيح .
والآن يجب أن أنصرف ؛ فأيموچين فى انتظارى . وداعاً ، ولا تنس موعد الغد .
ولما انصرف دوريان جراى أغمض اللورد هنرى جفنيه الثقيلين واسترسل
فى التفكير ، وكانت الصلة بينهما موضوع تفكيره . وجد اللورد هنرى أن
اهتمامه بدوريان جراى أكيد لا شك فيه ، ومع ذلك فإن اهتمام دوريان جراى
بشخص آخر لم يثر فى نفسه لواعج الغيرة كما أثار من قبل فى نفس بازيل
هولوورد ، بل أثار فيها الغبطة والسرور ، وكان يجد لذة فى دراسته فازدادت
بذلك لذته . لقد كان اللورد هنرى شديد الإعجاب بمنهج التاريخ الطبيعى ،
ولكنه كان يجد أن مادة هذا العلم مادة تافهة لا قيمة لها ، لم يكفه تشريح
الحشرات ، فبدأ بتشريح نفسه ، وانتهى بتشريح الآخرين ، وامتلاً إيماناً بأن
الحياة الإنسانية هى كل ما يستحق الدراسة على وجه الأرض ، وأن كل
ما عداها ثانوى إذا قيس بها ، ولكن دراسة الحياة الإنسانية لا ريب تؤثر فى
صاحبها ، ولقد تعصف به عصفاً شديداً ، فمن يتأمل النفس الإنسانية تنصهر
فى البوتقة بنار الألم آناً ، وبسعر اللذة آناً ؛ لا يستطيع أن يحتفظ بهدوئه كأن
على وجهه قناعاً من زجاج جامد ، ولا يستطيع أن يمنع دخان العواطف
المتأججة من أن يملأ شعاب رأسه بالأحلام البشعة المزعجة والأوهام الكدرة
السوداء . إن فى الحياة سموماً عجيبة لا سبيل إلى معرفة خواصها إلا أن
تتسمم بها النفس ، وإن فى الحياة أمراضاً غريبة لن يفهمها بنو الإنسان إلا إذا
نزلت بهم ثم خرجوا منها ناقهين ، ولكن ثمرة الاختبار شهية ، والحياة حلو
مذاقها لمن عرف حقيقتها ، وما ألد أن يتأمل الإنسان العاطفة الرقيقة تقسو
حتى تصير كالصارم المشحوذ ، والعقل الغليظ يرق وتضفى عليه العاطفة
جميل الألوان ، ويرى كيف يلتقيان وكيف يفترقان ! إن الثمن الذى ندفعه
لنظفر بهذه التجربة بخس مهما علا ولوجدنا بالحياة ذاتها ، فالإحساس أثنى
ما فى الوجود ، وفى سبيل الإحساس يهون كل شىء .

كان اللورد هنرى يعلم أن كلماته المختارة ذات الجرس الجميل هى التى جعلت روح دوريان تتجه إلى هذه الفتاة الصغيرة ، وتمثل أمامها فى خشوع ، وحين فكر فى ذلك أضاء فى عينيه بريق السرور ، فكان يحس بأنه خلق هذا الفتى خلقاً جديداً بعد أن كان محض حلية أنيقة تكمل جمال الصالونات ، وأنه أنضج قبل الأوان . إن عامة الناس ينتظرون حتى تكشف الحياة لهم عن خباياها ، أما الأقلون ، وهم الأصفياء ، فيرون خبايا الحياة قبل أن يسقط عنها الحجاب . وما هذه وظيفة الفن ، بل وظيفة الأدب على وجه التخصيص لأنه يتصل بالعقل وبالعاطفة ، ولكن الحياة تجود من آن لآخر بشخصية فذة معقدة تؤدي وظيفة الفن ، وهذه الشخصية الفذة المعقدة هى فى ذاتها أثر فنى صاغته يد « الحياة » وما الحياة بأقل قدرة على الخلق من الشعراء أو الرسامين أو المثالين ، فلا عجب أن تخلق الحياة النماذج البشرية الرائعة .

نعم ، إن الفتى قد نضج قبل الأوان ، وهما هو ذا يجنى الثمار وهو بعد فى باكورة الربيع ، تضطرم فيه حرارة الشباب ويجرى دمه الدفاق ، ولكن دوريان جرى قد بدأ يعى ما يحدث له ، ولذا كان تطوره متعة كبرى لمن يتبعه عن كثب ، فهو جميل المحيا ، جميل الروح ، وهو فتنة للناس ، فسيان أن تطيب نهايته أو تسوء ، فما كان أشبهه بشخص سحرى فى مسرحية سحرية نرى أبطالها يرفلون فى حلل السعادة فلا نهتز لأفراحهم ، ثم تنزل بهم الكروب فتشجينا أحزانهم وتبدو لنا جراحهم كالورود الحمراء .

عجباً للروح وعجباً للبدن ! عجباً للبدن وعجباً للروح ! إن الروح لا تخلو من المادية ، والمادة تعرف لحظات الوجد الروحى . ولقد تسمو الحواس وتصفو ، ولقد يظلم العقل ويكفهـر ! هل منا من يعلم أين تنتهى نوازع الجسد ، وأين تبتدى نوازع الروح ؟ إن التعاريف التى يتفضل بها علينا علماء النفس تعاريف أولية لا تنهض على أسس مكينة ، ونحن مع ذلك

لا نستطيع أن نتتصر لفريق منهم على فريق . والسؤال الذى سأل الإنسان منذ القدم لا يزال بلا جواب : ترى الروح شبح يسكن الجسد ، بيت الخطيئة ؟ ترى الجسد كائن فى الروح كما قال جيوردانو برونو ؟ إن فصل الروح عن المادة لغز قد حير ألبابنا ، كما أن زواج الروح بالمادة لغز بلبل أفهامنا .

ثم بدأ يتساءل عما إذا كان فى وسع الإنسانية حقاً أن تجعل من علم النفس علماً بالمعنى الموضوعى الكامل ، علماً يفسر لنا كل نبضة من نبضات الكائن الحى ، فنحن إلى هذه اللحظة نخطئ فى فهم أنفسنا ولا نصيب فى فهم الآخرين إلا قليلاً ، وليس للاختبار أية قيمة أخلاقية بيننا ، فهو لا يتجاوز أن يكون كلمة نطلقها على ما نرتكبه من أخطاء . أما علماء الأخلاق فقد دأبو على تصوير الاختبار على أنه تحذير للمستقبل من أغلاط الماضى ، وتقويم لا بد منه فى تكوين الشخصية ، وتنويه لنا بما يجب أن نتبعه وما يجب أن نتجنبه فى الحياة ، ولكن الاختبار ليست له قوة غائبة ، فهو عمل سلبى يوجد دون أن نسعى إليه كالضمير الذى يتكون فىنا سواء بسواء ، وكل ما تعلمناه من هذا الدرس هو أن مستقبلنا لا يختلف البتة عن ماضينا ، وأن الخطيئة التى ارتكبتها مرة على مضض نرتكبها مراراً فى شوق وإقبال .

وكان اللورد هنرى يؤمن بأن المنهج التجريبي هو المنهج الوحيد الذى نستطيع أن نحلل به العواطف تحليلاً علمياً . ولا شك أن دوريان جراى كان موضوعاً صالحاً للتجربة ، فهو رهن إشارته فى كل وقت ، وهو يتوقع من هذه التجربة التى يجريها عليه أغنى الثمار ، فحب دوريان جراى لسيبل فىن كان ظاهرة نفسية لها خطرهما ، ولا جدال فى أن دافع الفضول كان عنصراً هاماً فى هذا الغرام الغريب ، وأن الشوق إلى اختبار الحياة ساقه إليه سوقاً ، ولكن الاكتفاء بهذا الوصف تبسيط لهذه العاطفة المركبة ، لقد تحولت بفعل الخيال أشواق الجسد التى تعذب يفاعته إلى شىء لا أثر للجسد فيه ، فهو إذاً

يتوهم هذه الروحانية توهماً ، وهذا يجعلها أبلغ خطراً . كذلك تولدت فيه عواطف ، عواطف كم استبدت بنا ، وكم خاتلنا أنفسنا فى حقيقتها ومنشئها فإن أتفه العوامل التى تحركنا لهن العوامل التى نعيها ونستقصيها ، وما أكثر ما يحدث أننا نجزى التجارب على أنفسنا حين نظن أننا نجريها على الآخرين .

وفيما كان اللورد هنرى سابحاً فى تأملاته هذه طرق خادمه الباب ، ثم دخل ليذكره بأن وقت العشاء قد أوف ، وأن عليه أن يستبدل ثيابه استعداداً لحياة المساء . فنهض وأجال بصره فى الشارع ، فوجد أن الشفق قد ضرج النوافذ العليا فى المنازل المقابلة بذهب أحمر ، فتوهج زجاجها كأنه ألواح من معدن مصهور ، وبدت السماء حمراء كالوردة الذابلة ، فتذكر الحياة الحمراء التى يحيها صديقه ، وعجب للنهاية كيف تكون .

وحين عاد إلى بيته بعد منتصف الليل وجد برقية تنتظره على مائدة القاعة ، ففضها وقرأها ، فإذا بها من دوريان جراى ، وإذا بها تنبئه بأن دوريان جراى قد عقد خطبته على سيبيل ثين .

الفصل الخامس

دفنت سيبيل فين وجهها فى حجر أمها العجوز الفانية ، وكانت أمها العجوز الفانية تجلس فى مقعد كبير لم يكن بالغرفة مقعد سواه ، ظهرها لبصيص النور الذى تسلل كالمتطفل فى تلك الغرفة الموحشة ، وهمست الفتاة قائلة :

- ما أسعدنى يا أماه ! إنى سعيدة ، وينبغى أن تقاسمينى سعادتى .
- فأفاقت مسر فين ، ومسحت بيدها البيضاء على رأس ابنتها وقالت :
- أنا لا أذق السعادة يا سيبيل إلا حين أراك تمثلين ، فلا تفكرى فى شىء خارج عملك ، لأن مستر إيزاك رجل من أهل المروءة وقد أقرضنا مالا كثيراً .
- فتجهم وجه الفتاة ورفعت رأسها قائلة :
- ولكن ما قيمة المال يا أماه ؟ إن الحب أهم من المال .
- لا تنسى أن مستر إيزاك أقرضنا خمسين جنيهاً لنسدد بها ديوننا ، ولنشتري الكساء اللازم لأخيك جيمس ، وهذا ليس بالمبلغ الهين . إن مستر إيزاك شهم كريم .
- فنهضت الفتاة ومشت نحو النافذة وقالت :
- لست أرى فيه صفات الچتلمان ، وهو يحدثنى بأسلوب بغيض .
- قالت العجوز فى تذمر :
- وما يكون حالنا بدونه ؟
- فهزت سيبيل فين رأسها وقالت ضاحكة :

- لم تعد بنا حاجة إليه يا أماء ، فالأمير الساحر سيدبر لنا أمرنا بعد اليوم .
ثم سكنت ، وتورد خذاها واضطربت أنفاسها وارتعشت شفتاها وانفرجتا ،
لقد هبت عليها ريح الجنوب الساخنة فألهبتها وعبثت بطيات ثوبها الجميل .
قالت فى بساطة :
- أنا أهواه !

فأجابتها أمها فى إصرار البيغاء :

- يا لك من طفلة حمقاء ! يا لك من طفلة حمقاء !

وتحركت أصابعها المعوجة الناحلة ، وتحركت معها خواتمها ذات الفصوص
الزائفة ، وكانت إشارتها مضحكة لغرابتها فضحكت الفتاة ثانية ، وكان صوتها
الغرد يشبه صوت عصفور حبيس ، وضحكت عيناها كذلك وعبرتتا عن
سعادتها ببريق ، ثم غضت الفتاة طرفها كأنها تريد أن تخفى عن أمها سرًا ،
ثم فتحت عينيها فإذا هما مخضلتان بندى خفيف هو ندى حلم عبر .

وتكلمت أمها العجوز بشفتين باليتين من مكانها فى المقعد البالى فجاء
صوتها كصوت ربة الحكمة ، وذهبت تنصح بألا تجازف بشيء وتعدد لها
الأقوال المأثورة التى تحض على طلب السلامة من كل ما نتعلمه فى كتاب
الجن ويقره المجتمع باسم التفكير السليم ، فلم تلق الفتاة بالأشياء مما سمعت ،
فقد كانت فى شغل بغرامها القوى ، وانطلقت روحها فى كل مكان تبحث عن
الأمير الساحر لتعود به وتسكنه أبراج خيالها ، وقد عادت به ، وقد سكن
أبراج خيالها ، وقد أحرقت قبلاته شفتيها ، وقد أدفأت أنفاسه جفنيها .

ولكن ربة الحكمة لم تلبث أن غيرت نهجها فى التفكير ، وشرعت
تتحدث عن وجوب التعرف على حقيقة هذا الفتى ؛ فلئن كان من أهل اليسار
وجب تدبير الزواج . واستمعت سيبيل طويلا إلى حديث المادية السافرة ،
ورأت المثل العليا تمزق فى غير رحمة ، ولكنها برغم ذلك ابتسمت وهى ترقب
شفتى أمها الباليتين تتلوان عليها هذا الحديث .

وكان صمتها مزدحمًا بالخواطر فأحست فجأة بحاجة إلى الكلام ، ولما أن ضاق صدرها بما يضطرب فيه من عواطف قالت :

- أماه ! لِمَ يحبني كل هذا الحب يا أماه ؟ أما أنا فأعلم لم أحبه ، فهو إيروس رب الغرام تجسد لى . فماذا يحمل فتى مثله أن يحب فتاة مثلى ؟ كلا يا أماه ، أنا لا أستحق أن أكون موضع حبه ، ومع ذلك فأنا لا أحس بأنى مخلوق تافه برغم رفعة مكانته فى المجتمع وضعة مكانتى ، وإنى لفخور بنفسى ، جد فخور . حدثينى يا أماه ، هل أحببت أبى كما أحب أنا الأمير الساحر ؟

فشحب وجه العجوز الذى لطخته المساحيق ، ونزل بها الألم فجأة وارتجفت شفتاها ، فبادرت سبيل إليها ، وطوقت جيدها بذراعيها وقبلتها قائلة :

- اصفحى عنى يا أماه ، فأنا أعلم كم يوجعك ذكر أبى ، ولكنك تتعذبن من فرط إعزازك لذاكراه . لا تبتئسى فأنا اليوم سعيدة كما كنت أنت منذ عشرين سنة ، فليت سعادتى تدوم !

- أنت يا بنيتى مازلت صغيرة ، ولا تفهمين معنى الحب ، ثم إنك لا تعرفين عن هذا الفتى كثيراً أو قليلاً ، بل أنت لا تعرفين ما اسمه ومن يكون ، فالمسألة من ألفها إلى يائها محزنة ، وقد كان خليقاً بك أن تظهرى بعض العطف لى ، فأخوك جيمس راحل إلى استراليا ، ونفسى مثقلة بالهموم .

ومع كل ، فإذا كان صاحبك هذا من أهل اليسار كما تزعمين . .

- أناشدك ألا تحطى سعادتى يا أماه .

فنظرت إليها مسرعة وعانقتها عناقاً مسرحياً ، وهى عادة لازمتها فى حياتها الخاصة كما تلازم عامة الممثلين . وفيما كانا على هذا النحو انفتح الباب ودخل منه فتى ممتلىء البنية ذو شعر خشن أصفر ثقيل عيناه ويدها على شئ من الضخامة ، وفى حركاته غلظة واضحة ، ولم يكن هذا الفتى قد نال

من التهذيب ما نالته أخته سييل ، حتى إن المرء لا يتصور أن بينهما صلة دم .
وتفحصته مسز فين بنظراتها فازداد وجهها إشراقاً فقد تخيلت أنه يمثل جمهور
النظارة ، وارتاح فؤادها إلى المشهد . قال الفتى فى مزيج من
العطف والتذمر :

- هلا ادخرت بعض قبلاتك لى يا سييل ؟

فأجابت الفتاة :

- ولكنك تكره أن يقبلك الناس يا جيم . ما أشبهك بدب عجوز !
ثم أسرعت إليه وعانقته . فنظر جيمس فين فى وجه أخته فى حنان وقال :
- هيا بنا للنزهة معاً يا سييل ، فلعل هذه آخر مرة أرى فيها هذه المدينة
القييحة لندن ، ولست براغب فى العودة إليها بعد رحيلى .
وتنهدت مسز فين وهى تمسك بثوب من أثواب المسرح مهلهل ، وبدأت
ترقع الثوب . لقد ساءها أن ابنها لم ينضم إلى المشهد ليتم ماله من
طابع مسرحى .

- لا تقل مثل هذا الكلام المفزع يا ولدى .

- هذه هى الحقيقة وأنا أعنى ما أقول .

- هذا الكلام يوجعنى يا ولدى ، وأعتقد أنك سوف تعود من أستراليا
بعد أن تجمع مالا كثيراً ، فالحياة فى المستعمرات ليس فيها حياة اجتماعية
أو شىء يستحق أن يوصف بهذا الوصف على ما أعتقد ؛ ولذا ستعود إلى لندن
بعد أن تجمع المال الكثير ، وتجد لنفسك فيها مكاناً .

قال الفتى :

- وما قيمة الحياة الاجتماعية ؟ أنا لا أحب أن أعرف عن هذه الحياة شيئاً ،
وكل ما أبغيه هو أن أجمع بعض المال حتى أبعدكما عن المسرح ، فإننى أبغضه
بغضاً شديداً .

فضحكت سيبيل وقالت :

- ويحنا منك يا جيم ! ما أقساك علينا ! ولكن أتحب حقاً أن نخرج معاً للنزهة ؟ إن فعلت ذلك أدخلت السرور على قلبى . لقد كنت أحسبك تنوى توديع بعض أصدقائك كتوم هاردى الذى أهداك تلك البيبة القبيحة ، وندلانجتون الذى يسخر منك كلما رآك تدخنها ، وإنى أشكر لك قضاءك آخر ساعاتك معى ، فأين تحب أن نذهب ؟

هيا بنا إلى هايد بارك .

- كلا يا سيبيل ، فأنا زرى المنظر ولا يتنزه فى هايد بارك إلا الوجهاء .

قالت سيبيل وهى تمسح سترته :

- دعك من هذا الكلام الفارغ يا جيم .

فتردد لحظة ثم قال فى النهاية :

- هيا بنا إذاً ، ولكن عجلى بارتداء ملابسك .

فخرجت من الغرفة وهى ترقص وصعدت إلى الطابق العلوى وهى تغنى فملاً صوتها أرجاء البيت ، وسمع جيم قدميها الصغيرتين تضربان سقف الغرفة ، وطفق يمشى جيئه وذهاباً ، ثم التفت إلى أمه الجالسة فى المقعد الكبير لا تبدى حراكاً وسألها قائلاً :

- هل أعددت أمتعتى يا أماء ؟

كانت مسز فين تصلح من الثوب فلم تتوقف عن العمل ، وأجابته بأنها قد أعدت كل شئ . وكانت الأم فى الشهور الأخيرة تضطرب كلما وجدت نفسها وحيدة مع ولدها الحازم الخشن الطباع ، وكلما تلاقى عيونهما اضطربت نفسها وجلت لأنها كانت تشك أحياناً فى أنه يعرف شيئاً عن سرها . وكان جيمس فين كثير الصمت فزاد ذلك الموقف حرجاً ، وبدأت تتذمر من صمته كعادة النساء اللاتى يجدن فى الهجوم خير وسيلة للدفاع ، ويجدن فى الاستسلام أضمن وسيلة للانتصار . قالت الأم :

- أرجو أن تجد السعادة التى تنشدها فى حياتك الجديدة هذه ، حياة الملاحه والأسفار ، وتذكر دائماً أنك اخترت لنفسك هذا المصير ، فقد كان فى إمكانك أن تلتحق بمكتب محام ، والمحامون طبقة لها مكانة فى المجتمع عالية ، ومن كان منهم يعمل فى الريف يختلط بأرقى الأسر .
فأجاب الفتى قائلاً :

- ولكنى أمقت المكتب وأمقت الكتبة ، ولقد أصبت فيما قلت من أننى اخترت هذا المصير بنفسى ، وكل ما أرجوه منك أن تسهرى على سيبيل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وأن تدفعى عنها الشرور . نعم يا أماه ، اسهرى على سيبيل وادفعى عنها الشرور .

- هذا كلام عجيب يا ولدى ، فأنا ساهرة على سيبيل فعلاً ، ولا محل لمخاوفك .

- بلغنى أن سيداً يزور المسرح كل ليلة ويقصد إلى غرف الممثلين ليراها .
ألا ترين فى هذا ضرراً ؟

- هذه أشياء لا تفهمها يا جيمس ، فقد جرت العادة فى مهنة التمثيل أن نجد من الجمهور كل رعاية ، ونحن نسر بهذه الرعاية ونعدها مقياس النجاح ، ولقد كنت فى صباى أقبل باقات الزهر من المعجبين ، ولكن تلك الأيام انقضت ولم يعد الناس يقدرّون التمثيل حق قدره . أما سيبيل فأنا أجهل الآن إذا كانت جادة فى صلتها بهذا الشاب أم غير جادة ، ولكنى لا أرتاب فى أن هذا الشاب چنتلمان لا غبار على سلوكه ، فهو جم الأدب معى ، ومظهره يدل على أنه من أهل اليسار ، والأزهار التى يرسلها إلى أختك جميلة حقاً .

قال الفتى فى خشونة :

- ولكنك تجهلين اسمه .

فأجابت الأم فى هدوء :

- هذا صحيح ، فهو لم يبح باسمه الحقيقي لها ، وأنا أرى أن هذا يضيف إلى جمال الموقف ، فلعله من أبناء الطبقة الأرستقراطية .

فغمض جيمس عين شفته وصاح بأمه قائلاً :

- اسهرى على سييل يا أماه ، اسهرى على سييل .

- أنت تحزننى كثيراً بهذا الكلام يا ولدى ، فما انقطعت قط عن العناية بسييل ، ولكنى لا أرى ما يمنع أن ترتبط سييل بهذا السيد برباط الزواج ، إذا كان من أهل اليسار ، وأغلب ظنى أنه من أبناء البيوتات ومظهره يدل على ذلك ، ولقد يكون فى هذا الزواج فرصة ذهبية لسييل ، وأرى أن زواجهما سيكون غاية فى الانسجام فجمال هذا الفتى نادر حقاً ، يئده كل من رآه .

أخذ الفتى يتحدث إلى نفسه بصوت خافت ، وينقر زجاج النافذة بأصابعه الغليظة ، فلما التفت ليقول لأمه شيئاً انفتح الباب ودخلت منه سييل ، قالت :

- مالى أراكما واجمين ؟ ماذا حدث ؟

فأجاب الفتى قائلاً :

- لم يحدث شيء إطلاقاً ، وسؤالك لا معنى له ، فمن الطبيعى أن يعتمد الإنسان إلى الجد من وقت إلى آخر . إلى اللقاء يا أماه ، وسأعود للعشاء فى الساعة الخامسة . لا تهتمى بامتعتى فكل ملابسى مرتبة ما عدا القمصان .

فانحنت الأم فى وقار أنهكتة الشيخوخة وقالت :

- إلى اللقاء يا ولدى .

ولكن لهجته أحققتها ، فما كان له أن يحدث أخته بهذا الجفاف ، كما أن نظراته أخافتها . واقتربت شفتا الفتاة الورديتان من خدها الذابل وطبعتا عليه قبلة أرسلت فيه الدفء ، فجالت الأم بنظرها فى سقف الغرفة كأنها تبحث عن جمهور من النظارة ، وقالت فى لهجة مسرحية مضطربة :

- بنتاه يا بنتاه !

وكان الفتى يبغض الأسلوب المتكلف الذى تصطنعه أمه فى الحديث فنقد صبره وقال يستعجل أخته :

- هيا بنا يا سييل .

وخرجوا إلى الشارع فوجدوا النسيم يداعب ضوء الشمس ، وسارا فى طريق بوستون الموحش ، وكان المارة يعجبون لمراى هذا الفتى العابس الغليظ البنيان الرث الثياب الذى يرافق عادة رشيقة مهذبة رقيقة ، وبدا جيمس فى لعينون المارة كبستانى جلف فى يده باقة من أجمل الورود .

وكان وجه جيم يتجههم بين حين وآخر لفضول المارة ، فقد كان يكره أن يحملق الناس فيه كرهاً لا مزيد عليه ، كرهاً كالكره الذى يملك أوساط الناس لأنظار المتطفلين ، كرهاً كالكره الذى يملك العباقرة فى نهاية حياتهم لأنظار المعجبين . على أن سييل لم تحس بالأثر الذى كانت تحدثه فى نفوس العابرين ؛ لأن قلبها كان متيماً معموداً ، وكان الحب الذى يملأ قلبها يشيع فى شفيتها بشراً وإشراقاً . لقد كانت تفكر فى أميرها الساحر ، ولم تشأ أن تطرد عنها خياله الجميل فلم تجعله موضوع الحديث ، بل طفقت تلغو عن السفينة التى سيبحر عليها جيم ، وعن الذهب الذى سيجده جيم فى انتظاره حين يصل إلى استراليا ، وعن سيدة القصور الجميلة التى سينقذها جيم من براثن حراس الأحراش ، فجيمس لن يبقى بحاراً طول حياته . كلا ! لن يبقى جيمس بحاراً طول حياته ، لأن همته لن تسمح له بذلك . لن تسمح له همته أن يبقى طول حياته حبساً على ظهر سفينة قبيحة تتقاذفها الأمواج العاتية وتمزق قلوها الرياح المسطرة السوداء وتهشم صواريتها الأنواء ! إن جيمس سوف يقصد ربان السفينة حين تبلغ ملبورن ويستودعه الله فى أدب كثير ، ثم يترك السفينة وربانها ، ويقصد فوراً إلى مناجم الذهب ، وقبل أن ينتهى الأسبوع سيعثر ولا شك على سبيكة ضخمة من الذهب الخالص ، سبيكة لم يعثر

إنسان على مثلها من قبل ، ويحملها إلى الساحل فى عربة يحرسها ستة من رجال الشرطة ، ولسوف يهاجمهم حراس الأحراش ثلاث مرات فيردوا عنها ثلاث مرات بين قتل وجريح ولائذ بالفرار ، أو لعل جيمس لا يقصد إلى مناجم الذهب أصلاً ، فهى بقاع مقفرة يسكنها السكارى ، ويقتل الناس فيها بعضهم بعضاً فى الحانات ، ويستخدمون أفحش الألفاظ . لعله يصبح راعياً أنيساً من رعاة الأغنام ، وفيما هو عائد إلى بيته ذات مساء يرى رجلاً من قطاع الطرق يختطف سيدة جميلة من سيدات القصور ، ويطير بها على جواده الأسود فيطارده حتى ينقذ السيدة ، ويعود بها إلى آلهة سالمة ، ولسوف تحبه سيدة القصور من أعماق قلبها ، ولسوف يحبها هو من أعماق قلبه ، ولسوف يتزوجان ثم يعودان إلى لندن حيث يقيمان فى دار فخمة هى بهجة الناظرين ، ولكن ينبغى عليه أن يكون حسن السلوك ، وألا يدع للغضب سلطاناً على نفسه ، أو يبذل ما جمعه من المال فى حماقة ، ولسوف تكون السيدة أكبر منه بعام واحد ، ولكنها تعرف عن الحياة الكثير ، فتحميه بتجاربها وتقيه بحكمته . كذلك سوف يكتب لها جيمس خطاباً مع كل عربة يريد ، وكذلك سوف يذكر أن يتلو صلواته كل مساء قبل أن ينام ، ولسوف يحرسه الله لأن الله يحب الناس ، ولسوف تصلى هى من أجله كذلك ليحرسه بدل المرة مرتين ، وبعد أن تنقضى سنوات قليلة سيعود إليها هنئ النفس واسع الثراء .

كان الفتى يستمع إلى حديثها فى وجوم دون أن يجيب عليها بشيء ، فقد كان حزين النفس لفراق أهله .

ولم يكن هذا كل ما أحزن نفسه . لقد كان يحس برغم قلة تجاربه فى الحياة بالخطر الذى يتهدد سبيل ، فهذا الوجيه الشاب الذى يناجى أخته بغرامه لا يمكن أن يكون سليم الطوية . لقد كان من طبقة السادة وهو لهذا يمقته ، وهو يحقد عليه بالغريرة دون أن يجد مبرراً لذلك ، يحقد عليه حقداً طبيعياً متأصلاً قوياً ، كذلك كان يعرف ما فطرت عليه أمه من الغرور وحب المظاهر ، وهذا ما جسّم خوفه على سبيل ومستقبلها . إن الأطفال يبدئون حياتهم

بإعزاز الوالدين ، ثم يكبرون فيزنون فضائل الوالدين ورذائلهما ، ولقد يغفرون لهم ذنوبهم أحياناً .

لقد فكر فى أمه كثيراً ! وكان يقلقه شيء أراد أن يسألها عنه . نعم ، شيء أقض مضجعه الليالى الطوال ، لقد سمع قوماً ذات ليلة يتهامسون عنهما فى سخرية وهو فى انتظارهما بيباب المسرح الخلفى ، فتلاطمت فى رأسه الأفكار السوداء ، وعادت تلك الهمسات الساخرة إلى ذاكرته فأوجعته كأنها الشياطين هوت على وجهه دون رحمة ، وعبس من جديد ، وعضته البرحاء فعرض شفته السفلى . قالت سيبيل :

- لقد كنت منصرفاً عنى يا جيم ، فلم تسمع كلمة واحدة مما قلت ، على حين كنت أنا أضع أجمل المشروعات لحياتك المستقبلية . تكلم يا فتى وقل شيئاً .
- وماذا تنتظرين منى أن أقول ؟

فابتسمت وقالت :

- قل مثلاً إنك ستكون فتى باراً ، وأنتك لن تنسانا .

لكنه هز كتفيه استخفاً وأجاب :

- بل نسيانك إياى أقوى احتمالاً من نسيانى إياك .

فصعد الدم إلى وجهها وسأله قائلة :

- ماذا تعنى يا جيم ؟

- لقد بلغنى أن لك صاحباً جديداً . من يكون هذا الرجل ، ولماذا أخفيت على أمره ؟ أعتقد أنه لا يضمرك خيراً .

فصاحت به :

- كفى يا جيم ! لا تقل فيه كلمة سوء فأنا أحبه .

قال الفتى :

- وكيف تحبين رجلاً تجهلين اسمه ؟ من يكون هذا الفتى ؟ إن من حقى أن أعرف .

- اسمه الأمير الساحر ، ألا يعجبك هذا الاسم ؟ أنت لا تعرفه أيها الولد الطائش ، ولو أنك رأيته لوجدت فيه صورة الكمال ، ولسوف تقابله يوماً ما بعد عودتك من استراليا ولسوف تولع به . إن كل من يعرفه يولع به ، أما أنا فأحبه . ليتك تأتى إلى المسرح هذا المساء ، فلسوف يكون هناك ، وأنا الليلة جولييت ، ولسوف أجيد التمثيل إجادة ما بعدها إجادة ، ولسوف يجلس قبالتى ، وأمثل لأرضيه وحده . لسوف أجيد حتى أسحر أعضاء الفرقة أو أخيفهم منى ، فالحب سبيل الكمال ، ولسوف يصيح ذلك البائس إيزاك بصعاليكه ومتسكعيه فى الحان قائل : « تعالوا واشهدوا ! إن سيبييل فىن ممثلة من ممثلات الجيل ! » لقد آمن مستر إيزاك بمواهبى إيماناً أعمى حتى اليوم ، ولسوف يرى مواهبى تتكشف أمامه كرؤيا من رؤى الفردوس ! إنى لأحس بذلك من أعماقى ، وكل ما أنا فيه قبس منه فهو ضيائى ، قبس من أميرى الساحر ، أميرى وحيبى وملهمى بمعانى الجمال . إنه غنى بكل شىء ، وأنا فقيرة فى كل شىء ، ولكن الفقر لن يغير من أمرنا شيئاً ، يقولون إن الفقر إذا دخل من الباب خرج الحب من الشباك ، أما أنا فأقول إن الفقر إذا دخل من الباب دخل الحب من الشباك . إن أمثالنا تحتاج إلى تنقيح يا جيم . إن أمثالنا وضعت فى زمهرير الشتاء ونحن الآن فى صيف الحياة ، بل أنا الآن فى الربيع ذى البراعم والعطور والسماء الضحوك .

قال الفتى فى وجوم :

- إن صديقك هذا من طبقة الأشراف ، أليس كذلك ؟

فقال بصوت عذب :

- بل هو أمير كريم .

- إنه يريد أن يستعبدك .

- وأنا أقبل هذه العبودية طائعة مختارة .

- احذريه يا سيبيل .

- كيف أحذره وأنا أثق فيه ثقة عمياء ، وكيف أتخوف منه بعد أن اتخذت منه صنمى .

- هذا الحب جنون يا سيبيل .

فضحكت سيبيل وأمسكت بذراعه قائلة :

- جيم ، يا حبيبى ، إنك تتكلم كأنك شيخ طاعن فى السن وما أنت إلا حدث صغير ، وسوف يأتى يوم تذوق فيه الهوى بنفسك فتعرفه على حقيقته ، فدع عنك هذا الوجوم يا جيم . ألا يسعدك وأنت راحل إلى استراليا أن تعرف بأنك ستتركنى أسعد نفساً منى فى أى زمن مضى ؟ لقد قست الحياة علينا معاً ، بل حطمتنا تحطيماً ، أما الآن فالأمور على خير ما يرام ، فأنت نازح إلى عالم جديد ، وأنا قد وجدت عالماً جديداً . هيا بنا نجلس على هذين المقعدين ونتأمل سراً الناس غادين رائحين .

وجلسا ترقبهما أنظار الناس ، وكانت أزهار التوليب فى الجانب الآخر من الطريق تهتز فى الهواء وتضىء كالجمر الملهب ، واهتزت فى الهواء كذلك سحابة معلقة بيضاء وبدت الشمسيات الزاهية الألوان التى يحملها السادة كأنها فراش جسيم .

وحملت سيبيل أخاها على أن يتحدث عن نفسه وعن آماله وأمانيه ، وكان يتكلم فى مشقة وأناة ، وتبادل الأخ والأخت الكلام فى عناية كأنهما لاعبان يتبادلان الكرة . أما سيبيل فقد اختنقت بأفراحها ولم تستطع الإفصاح عما بها ، وكان كل ما ظفرت به من أخيها ابتسامة ارتسمت على فمه الحزين . ومرت بهما عربة مكشوفة ، وفجأة لمحت سيبيل الأمير الساحر ذا الشعر الذهبى والقم البسّام داخل العربة . لقد كان دوريان جراى يتنزه مع سيدتين .

ونفضت سيبيل من مكانها وصاحت قائلة :

- هو ذا ! هو ذا !

قال جيم فين :

- من ؟

أجابت وهي تتبع العربى ببصرها :

- الأمير الساحر .

فنهض الفتى وأمسك بذراعها فى خشونة وقال :

- أين هو ؟ أين هو ؟ لا بد أن أراه !

ولكن مركبة الدوق بيرويك مرت أمامهما فى تلك اللحظة وحجبته عنهما ، فلما أخلت أمامهما الطريق كانت عربى دوريان قد انطلقت خارج هايد بارك .

قالت سيبيل فى أسف :

- لقد خرج ، فليتك رأيته يا جيم .

- نعم ، ليتنى رأيته ، فإننى أقسم أمام الله أنى قاتله لو مسك بسوء .

فارتاعت الفتاة ، ولكن الفتى أعاد عليها كلماته فنفدت كالمدى إلى قلبها ، وبدأ الناس يحملقون فيهما ، وكانت على مقربة منهما سيدة أخذت تضحك منهما كالأطفال . قالت الفتاة :

- هيا بنا يا جيم . هيا بنا .

وشقت طريقها بين المتنزهين يتبعها أخوها ، وأحس جيم بالراحة بعد أن أسمعها وعيده ، وحين بلغا تمثال آخيل التفتت إلى أخيها تكلمه وقد زخر قلبها بالعطف فضحكت وهزت رأسها وقالت له :

- إنك لا زلت صبيًا أحمق يا جيم . إنك لا زلت صبيًا شرسًا أحمق لا أكثر ولا أقل ، وأنت لا تفهم معنى ما تقوله . كل ما هنالك أنك تغار منه وهذا سر سخطك عليه ، فليتك تجرب الحب يا جيم ، إن الحب يهذب طبائع الناس ، وما قلته الآن يدل على سواد قلبك .

فأجاب جيم :

- بل أنا أفهم معنى ما أقول ، فأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، ولقد لاحظت أن أمنا لا تسهر على سلامتك . إنها لا تفهم كيف تكون التربية الصالحة ، وإنى لأفضل العدول عن السفر إلى استراليا لأضع حداً لهذا الخطر وأحميك من الغواية ، ولولا أن أوراقي قد تم توقيعها فعلاً لبقيت معكما .

- لا تغتم كل هذا الاغتمام يا جيم ، فالخطر الذى نتحدث عنه وهم من نسج خيالك ، وأنت الآن تبدو كبطل من أبطال تلك المسرحيات العنيفة السخيفة التى كانت أمنا مولعة بتمثيلها ، فلن أحاسبك على ما قلت ، ولن أفسد بالشجار هنائى الآن بعد أن رأيت الأمير الساحر ، وأنا أعلم أنك لن تؤذى إنساناً أعزه أنا ، أليس كذلك يا جيم ؟

فأجابها قائلاً :

- نعم ، فلن أمسه بسوء طالما أنك تحببته .

قالت :

- سأحبه حتى الموت .

- وإلام سيحبك هو ؟

- سيحبنى حتى الموت كذلك .

- من الخير له أن يخلص لك دائماً .

فنفرت منه خوفاً ، ولكنها عادت فضحكت وأمسكت بذراعه ، فقد تذكرت أن جيم لم يكن سوى صبي غريب .

وبلغا ماربل آرتش فى ركن هايد بارك ولوحا لأمنيوس فوقف الأمنيوس وحملهما إلى نقطة قريبة من بيتهما المتواضع فى طريق بوستون ، وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ، وكان على سيبيل أن تستريح نحو الساعتين قبل أن تبدأ التمثيل ، وألح جيم عليها فى أن تستريح وأراد أن يودعها قائلاً إن

تلك اللحظة كانت أنسب لحظة للوداع ، فأمهما لم تكن حاضرة ، ولو قد كانت لجعلت من الوداع مشهداً مؤثراً كعاداتها في كل شيء ، وهو يمقت المشاهد المؤثرة مقتاً شديداً . وتوادع الأخ والأخت في غرفة سييل ، وكان قلب الفتى يلتهب بالغيرة ، وكانت عيناه تومشان بشر مستطير ، فقد توهم جيم أن هذا الدخيل ما جاء إلا ليفرق بينهما فثار في نفسه حقد قاتل ، ولكنه ضعف أخيراً حين عانقته أخته وذهبت تعبث بأصابعها في شعره ، ورق فؤاده فقبلها قبله الحنان الصادق ، وحين نزل على الدرج كانت الدموع تترقرق في عينيه .

وكانت أمه تنتظره في الطابق الأرضي ، فلما رآته بدأت تلومه على تأخره فلم يجيبها بشيء ، بل جلس إلى المائدة ليتناول زاده القليل ، وطن الذباب حول المائدة ، ودب على المفروش الملوّث ، وكان يسمع عجيج الأمتيسوس وضجيج العربات الرائحات الغاديات في الخارج فيزداد إحساسه بفوات الزمن ، وعلم أنه لا بد راحل بعد قليل .

وبعد لحظة دفع بالطبق بعيداً عنه ووضع رأسه بين يديه ، وأحس أن من حقه أن يعرف الحقيقة . لقد كان الشك يأكله أكلاً ، ولو أن شكه كان في موضعه لوجب على أمه أن تطلعه على الحقيقة من قبل .

وكانت أمه ترقبه في خوف عظيم . كانت تتحدث إليه على نحو آلى دون أن تفقه كثيراً مما تقول ، وكانت أصابعها تعبث طيلة الوقت بمنديل ممزق حتى دقت الساعة السادسة فنهض ومشى إلى الباب ، لكنه التفت إليها وأنشأ يتأملها وتلاقت عيونهما فقراً في عينيها معاني الاستعطاف الشديد فغضب غضباً شديداً وقال :

- لدى سؤال أود أن أطرحه عليك يا أماء .

فتأمت عيناها في أنحاء الغرفة لا تستقران على شيء ولم تجب بكلمة . فاستأنف الفتى حديثه قائلاً :

- صارحيني بالحقيقة ، فمن حقى أن أعرف كل شىء . أكنت متزوجة من أبى ؟

فتنهدت فى ارتياح . ها قد جاءت اللحظة العصبية التى كانت تخشاها الأيام والليالى . جاءت أخيراً ، ولكنها لم تشعر بالرعب القاتل الذى كانت تنتظره . حقاً لقد خاب أملها شيئاً ما ، فقد كانت تتوقع موقفاً حرجاً كمواقف المسرح ، وهى ولوع بمواقف المسرح ، ولكن السؤال جاء بسيطاً لا تنمىق فيه ، بسيطاً إلى حد الابتذال ، وكان لا بد من جواب بسيط كذلك . نعم ، لقد كان السؤال خشناً لا يدل على لباقة ، جاء بلا تمهيد فذكرها ببروفة غير موفقة . أجابت فى بساطة :

- كلا .

وعجبت لبساطة الحياة ، وعجبت لما فى هذه البساطة من غلظة .

قال الفتى وهو يجمع قبضتيه :

- إذا فقد كان أبى وغداً .

فهزت رأسها وأجابت :

- لقد كان مقيداً بامرأة أخرى ، وكنت أعلم ذلك عنه ، ولكننا تبادلنا الحب ، ولو أنه عاش لجعل لنا معاشاً منتظماً . لا تقل فيه سوءاً يا بنى فهو أبوك على كل حال ، ولقد كان فوق ذلك سيداً كريماً . نعم ، لقد كان أبوك من أسرة كريمة .

فخرجت من فمه اللعنات وقال :

- أنا لا أفكر فى أمرى ، ولكن أفكر فى أمر سيبل ، فهذا الذى يحبها أو يزعم أنه يحبها سيد كريم كذلك ، ولعله من أسرة كريمة . فما أشبه اليوم بالبارحة .

ومرت لحظات أحست فيها المرأة العجوز بذل عظيم ، فطأطأت رأسها
ومسحت دموعها بيد ترتجف وقالت :

- إن لسييل أمًا تحميها ، أما أنا فلم تكن لى أم .

فتأثر الفتى أيما تأثر ، واقترب منها وقبلها ثم قال :

- لقد آلتك يا أماه بالكلام عن أبى فاصفحى عني ، وأرجو أن تعتقدى
أنى اضطررت إلى ذلك اضطراراً . والآن ينبغى أن أرحل فوداعاً ، ولا تنسى
أنه لم يعد لديك الآن إلا شخص واحد تسهرين عليه ، وثقى أنه لو أصاب
سييل مكروه بسبب هذا الرجل فإنى لمطارده فى أركان المعمورة الأربع وإنى
لقاتله أشنع قتلة . أقسم بذلك أمام السماء .

وانتعث الجو حول مسز فين فقد كانت ترتاح إلى المواقف المسرحية ،
وما هو ذا ولدها يرغبى ويزيد ويهدد ويتوعد ويشير بيديه إشارات حانقة . لقد
ألفت هذا الجو على المسرح وكانت تختنق كلما خرجت منه ، فلما سمعت
ولدها يتحدث على هذا المنوال عادت إلى حالتها الطبيعية. وأحست نحوه
بإعجاب شديد لم تحس به من قبل ، ولقد كانت تود أن يستمر الموقف على
هذه الدرجة من التوتر لولا أن ابنها وضع له حداً ، فالحقائب لا بد من حملها
إلى الخارج ، والكوفيات والمناديل وما أشبه ذلك لا بد من البحث عنها ،
والوقت ضيق ، وقد تم كل ذلك فعلاً وأعقبته مساومة الحوذى على أجره .
ولقد منيت مسز فين بخيبة أمل أخيرة ، فقد كانت ترجو أن تكون لحظة الوداع
عنيفة بدموعها ، عنيفة بالحسرات ، ولكنها وجدت نفسها تلوح لابنها فى
النافذة بمنديلها الممزق والعربة تبتعد به رويداً رويداً ، نعم . لقد أفلتت منها
فرصة كبرى كانت تستطيع أن تعرض فيها ملكاتها ، ولكنها استعاضت عما
فاتها بأن شرحت لسييل مبلغ وحشتها المستقبلية بعد أن رحل جيمس ، فالآن
لم يعد لها سوى شخص واحد تسهر عليه ، ويا لوحشتها المستقبلية .
وأعجبته الفكرة ، فاستظهرت العبارة استظهاراً ، لعل الحاجة تدعو إليها فى

مناسبة أخرى ، ولكنها لم تشر بكلمة إلى ما سمعته من وعيد . لقد كان
الوعيد واضحاً لا ريب فيه ، قوياً ، أكيداً ، ولكنها لم تجد ما يبرره وأحست
بأنه سيكون موضع سمرهم فى يوم من الأيام .

الفصل السادس

كان بين اللورد هنرى وبازيل هولورود ودوريان جرای موعـد بمطعم برستول فى ذلك المساء ، فلما دخل هولورود إلى الحجرة الصغيرة التى أعد فيها الطعام لثلاثتهم قال اللورد هنرى :

- لعلك سمعت آخر الأنباء يا بازيل .

فأجاب الفنان وهو يسلم معطفه وقبعته لخدام المطعم الذى انحنى أدباً :

- كلا يا هارى ، ما سمعت شيئاً ، فما الخبر ؟ أرجو ألا تروى على أخبار السياسة فأنا لا أهتم بها ، ولست أجد بين أعضاء مجلس العموم شخصاً واحداً يستحق أن أرسمه ، وإن كانت كثرتهم المطلقة تحتاج إلى ترميم كثير .

قال اللورد هنرى وهو يتأمل صاحبه ليرى فعل كلماته فى نفسه :

- إن دوريان جرای قد عقد خطبته على فتاة .

ففزع هولورود وأظلم وجهه وقال :

- هذا مستحيل !

- بل هذا صحيح .

- ومن تكون هذه الفتاة ؟

- ممثلة .

- هذا كلام غير معقول ، وعهدى بدوريان أنه أرشد من أن يرتكب

حماقة كهذه .

- أليس من الرشد أن نرتكب الحماقات بين حين وآخر يا بازيل ؟
- ولكن الزواج ليس من الحماقات التى نستطيع أن نرتكبها بين حين وآخر ،
يا هارى .

أجاب اللورد هنرى فى تراخ :

- هذا صحيح ، ولكنه لا ينطبق على أمريكا . على أنى لم أقل إنه قد
تزوج فعلا ، كل ما قلته إنه عقد خطبته على هذه الفتاة ، والفرق عظيم بين
أن تخطب الفتاة وأن تتزوج منها ، فأنا لن أنسى أنى متزوج مع أنى نسيت أيام
الخطبة ، بل إنه ليخيل إلى أنى لم أمر فى دور الخطبة كسائر الناس .
- ولكن ألا يروعك أن يتزوج دوريان على نبيل محتده وعلو مكانته وسعة
جاهه من فتاة أقل منه فى كل شىء ؟

- إذ سمع دوريان منك هذا الكلام فهو لا بد ماض فى عزمه ، فالحماقة
التي نرتكبها تأتى عادة من الدوافع النبيلة فينا .

- أرجو أن تكون هذه الفتاة طيبة القلب ، ويسوءنى أن أرى دوريان
مشدوداً بوثاق من حديد إلى مخلوق بغيض يهوى به إلى الحضيض
العقلى والخلقى .

فقال اللورد هنرى وهو يشرب بعض الفرموت وعصير البرتقال :

- إنها جميلة ، والجمال أعلى من طيبة القلب . نعم ، لقد قال لى
دوريان إنها جميلة ، وهو قلما يخطئ فى تقدير هذه الأمور ، إن الصورة
التي رسمتها له كان لها أثر عجيب فى تنمية إحساسه بالجمال لا يقل عن أثر
تعاليمى ، ونحن الليلة ذاهبون لرؤيتها ، هذا إذا لم يخلف دوريان ميعاده .

- أنت جاد فيما تقول ؟

- طبعاً يا بازيل . لم أكن أكثر جدّاً فى أى وقت منى الآن .

وشرع الرسام يقطع الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم عض شفته ألماً وقال :

- ولكن أوافق أنت على هذا الزواج يا هارى ؟ محال أن توافق فما هو إلا نزوة عارضة .

- لم أعد أوافق أو أعترض فى هذه الأيام يا بازيل ، فقد وجدت أن هذه فلسفة سخيفة نواجه بها الحياة . نحن لم نأت إلى هذا العالم لنطلع الآخرين على أحكامنا الأخلاقية صحيحة كانت أم فاسدة ، فأنا لا أكرث لما يقوله الدهماء ، وأنا لا أتدخل فيما يفعله الخاصة ، فإن جذبتنى شخصية إنسان ما وجدت ما يستهوينى فى كل عمل يعمل به ، وفى كل كلمة يقولها ، أيا كانا . فمثلا إذا أحب دوريان فتاة جميلة تمثل دور جوليت ورأى أن يخطبها إلى أهلها ، فلست أجد على ذلك اعتراضا ، ولو قد تزوج الأمبراطورة مسالينا لما ارتفع فى نظرى عما هو الآن . أنت تعرف أنى لست من أنصار الزواج ، فالنكبة الحقيقة فى الزواج هو أنه يزيل أثرة الإنسان ، والأثرة شىء لازم يضاف على الشخصية قوة وسحرا ، ومن خلوا منها خلوا من الشخصية المستقلة ، ومع ذلك فإنى أقول إن من الشخصيات ما يزداد بالزواج تعقدا ، فيستعيد أثرته المفقودة ، بل تصبح الأثرة جملة أنوات ، فلا يكتفى بحياة واحدة يحياها وإنما تتعدد فيه الشخصية وتصبح حياته منظمة متماسكة ، وأحسب أن النظام والتماسك هما هدف الاختبار الإنسانى ، وأضيف إلى ذلك أن لكل اختبار قيمته فى الحياة ، ومهما ساء ظننا فى الزواج فلن نستطيع أن ننكر أنه اختبار من اختبارات الحياة ، وأرجو أن يتزوج دوريان جراى من هذه الفتاة ويحرق لها الشموع ستة أشهر أو نحو ذلك ، ثم يزهد فيها ويتحول عنها فجأة إلى غانية أخرى ، فإن فعل ذلك كان موضوعا للدراسة شائقا .

- أنت لا تعنى كلمة واحدة مما تقول يا هارى ، وأنت أول من يعرف ذلك ، ولو أن مكروها نزل بدوريان جراى لكنت أول من يأسف لحاله ؛ فأنت كريم النفس وإن تكلفت القسوة تكلفا .

فضحك اللورد هنرى وقال :

- إن منشأ احترامنا للآخرين هو خوفنا من ألا يحترمنا الآخرون ،
وأساس التفاؤل هو فزعنا من الكوارث لا أكثر ولا أقل ، وإذا أحسنا الظن
بجارنا نسبنا إليه من الفضائل ما قد يعود بالفائدة علينا ، فنحن نقرض مدير
البنك لعله يقرضنا بعض المال ، ونصف قاطع الطريق بالبطولة لعله يتجاوز
عما في جيوبنا . إنما قصدت كل كلمة قلتها يا بازيل ، وأنا أحتقر التفاؤل
احتقاراً لا مزيد عليه . أما ما تذكره من أن حياة دوريان قد تتحطم فيدخل في
باب الهراء ، لأن الحياة لا تتحطم إلا إذا توقفت عن النمو ، وإذا ما أردت
إفساد نفس فعليك بإصلاحها . أما الرباط المقدس فغلطة حمقاء ، وهو بديل
سيء لروابط أخرى بين الرجال والنساء أجدى عليهم وأعظم سلطاناً على
نفوسهم ، روابط أويدها أنا بكل ما بي من قوة ، لأنها تعبر عن روح العصر
الذي نعيش فيه ، ولكن كفى لغواً فهذا هو ذا دوريان قادم بنفسه علينا
وسيزودك بما أجهل من أخباره .

قال الفتى وهو يصافح صديقه الواحد بعد الآخر :

- أمطرا على التهانى يا عزيزى هارى وأنت يا عزيزى بازيل ، فما
أسعدنى الآن . لقد تمت المسألة كلها فجأة ، ولكن هذه سنة الحياة ،
فكل ما فيها من متع حقيقة تأتينا على غرة منا ، ومع ذلك فإنها تبدو لى كأنها
الشيء الوحيد الذى كنت أبحث عنه طول حياتى .

وفيما كان يتكلم كان الدم يجرى فى وجنتيه من فرط السرور فزاده ذلك
جمالاً على جمال .

قال هولوردد :

- أتمنى لك السعادة المتصلة يا دوريان ، ولكنى لا أغتفر لك إخفاء
خطبتك عنى مع أنك أطلعت هارى عليها .

ووضع اللورد هنرى يده على كتف الفتى وقال :

- وأنا لا أعتذر لك تأخرك فى العشاء . فلنجلس لنرى ماذا أعدد لنا الطاهى الجديد ، وفى هذه الأثناء تسرد أنت علينا كيف ثم كل شىء .

قال دوريان ، وهم يجلسون إلى المائدة الصغيرة المستديرة :

- ليس عندى ما يستحق السرد ، وكل ما حدث هو أنى حين تركتك بالأمس يا هارى ، عدت إلى منزلى وارتديت ملابس السهرة، ثم تناولت عشاءى فى ذلك المطعم الإيطالى بشارع روبرت الذى دللتنى عليه ، ولما بلغت الساعة الثامنة قصدت إلى المسرح ، وكانت سييل تمثل روزاليند ، وبطبيعة الحال كانت المناظر بشعة ، بل كان كل شىء بشعاً ما خلا سييل فقد تجلت فى أبهى حال ، ولما خطرت أمامى فى زى صبى بدت آية من آيات الإبداع . كانت سترتها مخملاً أخضر ذا أكمام صفراء ، وكانت تلبس تزلكاً رقيقاً داكن الصفرة وقبعة خضراء رشيقة عليها رياش مثبتة فى جوهرة كريمة ، وكان يغطى كتفها معطف نصفى مخطط بالأحمر الداكن ، فبدت لى أجمل ما تكون ، وأشبهت فى دقة تكوينها ذلك التمثال الإيطالى الصغير الذى يحلى أستوديو بازيل ، وبدا وجهها وسط شعرها كوردة بيضاء وسط أوراق الشجر الكثيفة ، ثم مثلت فأبدعت ، ولسوف تريانها الليلة فيتحقق لكما ما أقول . إنها فنانة موهوبة ملكت على حواسى وأنا جالس فى المقصورة الحفيرة ، فأنستنى أنى كنت فى لندن ، وأنى أعيش فى منتصف القرن التاسع عشر ، وحملتنى على جناح الخيال مع محبوبتى إلى غابة نائية لم ترها عين بشر . وبعد انتهاء التمثيل قصدت إلى غرف الممثلين وتحدثت إليها ، وفيما نحن جالسان رأيت فى عينيها بريقاً جديداً لم أعهده فيهما ، واقتربت شفتائى من شفتيها وقبلتها . أما إحساسى فى تلك اللحظة فلا سبيل إلى وصفه ، لقد خيل إلى أن حياتى كلها قد تركزت فى ذرة واحدة من السعادة التى ما بعدها سعادة ، وأخذت تنتفض بين يدي كأنها نرجسة بيضاء تنتفض أمام ربح خفية ، ثم جثت على ركبتيها وقبلت يدي . ما كان ينبغى أن أقول لكما ذلك ، ولكن قوة قاهرة

تسوقنى إلى الإفضاء بكل شيء . ومهما يكن من أمر فخطبتنا لا تزال سرّاً لا يعرفه أحد ، حتى أمها ذاتها ، ولست أدري كيف يستقبل أوصيائي هذا النبأ ، ولكن مما لا شك فيه أن اللورد رادلى سوف يغضب غضباً شديداً ، فإن غضب فلست مقيماً لغضبه وزناً ، لأننى سأبلغ سن الرشد بعد عام واحد على كل حال . ألا ترى أنى قد أحسنت صنعاً حين التمسيت فتاة أحلامى من عرائس الشعر ، واخترت شريكة حياتى من بين بطلات شكسبير ؟ إن هاتين الشفتين اللتين علمهما شكسبير فن الحديث قد همستا فى أذننى أسرار قلبها العميق ، ولقد طوقتني روزاليند بذراعيها الجميلتين ، ولقد قبلت ثغر جوليت فسكرت على الرحيق .

قال هولوردد فى تودة :

- نعم يا دوريان أعتقد أنك أحسنت صنعاً .

وسأل اللورد هنرى دوريان جراً قائلاً :

- رأيته اليوم يا دوريان ؟

فأجاب الفتى وهو يهز رأسه دلالة النفى :

- كلا . فقد تركتها فى غابة أردن ، وسأجدها فى بستان بفيرونا .

قال اللورد هنرى وهو يشرب كأس الشمبانيا فى تدبر عميق :

- قل لي يادوريان ، متى أشرت إلى الزواج صراحة ؟ وماذا أجابت حين عرضت عليها الزواج ؟ أظنك قد نسيت كل ما جرى .

- كلا يا صديقى هارى ، ولكنى لم أبحث الزواج معها كما يبحث تاجر صفقة ، بل إنى لم أطلب الزواج بصورة رسمية ، كل ما حدث هو أنى ذكرت لها أنى أحبها ، فأجابت بأنها لا تستحق أن تكون زوجاً لى ، فما أشد تواضعها يا هارى ! إن العالم كله لا يساوى عندى خردلة إذا قيس بها .

فقال اللورد هنرى بصوت خافت :

- إن النساء عمليات إلى حد بعيد . نعم . إن تفكيرهن أكثر عملية من تفكير الرجال ، ففي مثل هذه المواقف كثيراً ما ننسى أن نشير إلى الزواج ، ولكنهن يذكرننا دائماً به .

فأمسك هولوردد بذراعه قائلاً :

- كفى يا هارى . لا تعرض دوريان على الغدر ، فهو يختلف عن سائر الناس . إن طبيعته الصافية تأبى عليه أن ينزل بأحد ضرراً ، وإنك لتغضبه بهذا الكلام .

فأجاب اللورد هنرى بقوله :

- إن دوريان لا يغضب منى أبداً . لقد سألته هذا السؤال بدافع الفضول ، وهو الدافع الوحيد الذى يجيز لنا أن نسأل الأسئلة ، ومن رأى أن النساء هن اللاتى يخطبنا ، اللهم إلا عند أبناء الطبقة المتوسطة ، وتفسير ذلك أن الطبقة المتوسطة طبقة رجعية .

فضحك دوريان جراًى وهز رأسه قائلاً :

- لا سبيل إلى إصلاحك يا هارى ، ولكن قل ما تشاء فلن يغضبني كلامك ، ولو أنى أردت أن أغضب منك لما استطعت ذلك . إن الرجل الذى يمس سبيل فى بسوء جبان دنىء ، ولسوف تشاركنى رأى حين تراها ، ثم إنى لا أفهم كيف يلوث إنسان الشئ الذى يحبه ، فأنا أحب سبيل ، ولذلك ترانى أود أن أضعها على قاعدة من ذهب سبيك ، وأن أشاهد العالم يتعبد للمرأة التى أملكها . وما الزواج ؟ أليس الزواج عهداً لا ينقض ؟ إنك تسخر من الزواج يا هارى ، ولكن موقفك موقف خاطيء ، أما أنا فأريد أن آخذ على نفسى عهداً لا ينقض ، ولسوف تجعلنى ثقتها فىّ وفياً على الميثاق ، ولسوف يجعلنى إيمانها بى أصفى نفساً وأنقى ضميراً ، لقد بدلنى حبها من حال إلى حال ، فإن مست يدها يدي ألهمتني عن كل ما فى الدنيا ، ألهمتني عنك وعن نظرياتك الجميلة السامة .

قال اللورد هنرى وهو يتناول قليلا من السلطة :

- أى نظريات تعنى ؟

- أعنى نظرياتك فى الحياة ، وفى الحب ، وفى اللذة ، بل أعنى كل نظرياتك يا هارى .

فأجاب اللورد هنرى بصوت عذب بطيء :

- اللذة هى الشيء الوحيد الذى يستحق أن توجد فيه النظريات ، ومع كلّ فأننا لا ادعى أن نظرياتى من عملى فهى من عمل الطبيعة . إن اللذة مقياس الطبيعة ودليل رضاها ، فالسعداء دائماً أخيار ، ولكن الأخيار ليسوا دائماً سعداء .

قال بازيل هولوردد :

- ولكن ماذا تفهم من كلمة الخير ؟

وقال دوريان جراى وهو يغوص فى مقعده وينظر إلى اللورد هنرى من وراء الأزهار الحمراء التى تزين المائدة :

- نعم . ماذا تفهم من كلمة الخير يا هارى ؟

فأجاب اللورد هنرى وهو يقبض على كأسه بأصابعه الشاحبة النحيلة :

- الخير هو انسجام الإنسان مع نفسه ، والفوضى هى اضطراب الإنسان للانسجام مع الغير . إن حياة الإنسان هى كل ماله فى هذا الوجود ، أما حياة الجيران فليست من اختصاصنا ، وإن كنا نظهر الاهتمام بها من باب النفاق الاجتماعى ، أو من باب التدين الشديد ، ثم إن للفردية غاية سامية هى ضمان التقدم ، ولقد أصبح المقياس الحديث فى الأخلاق قبول مقياس العصر الذى نعيش فيه ، أما أنا فأقول إن قبول مقياس العصر الذى نعيش فيه عمل مناف للأخلاق ، وخطأ لا يغتفر لأى رجل مثقف .

قال الرسام :

- ولكن من عاش لنفسه فقط دفع الثمن غالياً يا هارى .

- نعم، فنحن الآن ندفع ثمن كل شيء غالياً ، حتى السلع التي نشترها ، وإنى أعتقد أن المأساة الحقيقية فى حياة الفقراء هى أنهم لا يملكون إلا تضحياتهم يجودون بها للمجتمع ، أما الخطايا فهى ترف لا يملكه إلا الأغنياء .

- لم أقصد أننا ندفع الثمن نقداً يا هارى .

- إذ ! فكيف ندفعه يا بازيل ؟

- قصدت أن الثمن الذى ندفعه هو تأنيب الضمير والآلام والإحساس بالانحطاط .

فهز اللورد هنرى كتفيه وقال :

- إن فن العصور الوسطى جميل حقاً ، ولكن أفكار العصور الوسطى أفكار بالية ، وعواطف العصور الوسطى لا مجال لها فى العصر الحديث . نحن بالطبع نستطيع أن نستفيد منها فى القصص الذى نكتبه ، ولكن هذا من خصائص القصص ، فكل ما ننبذه فى الحياة نجد له مكاناً فى القصص . أؤكد لك أنه ما من متحضر يأسف على لذة جناها ، وما من رجل متبربر يعرف اللذة كيف تكون .

قال دوريان جراى :

- اللذة عندى هى أن أتعبد لكائن ما .

فقال اللورد هنرى وهو يعبث ببعض الفواكه الموضوعة على المائدة :

- هذا أفضل من أن يتعبد الغير لك ، لأن ذلك مدعاة للضجر . إن النساء يعاملتنا كما نعامل نحن الآلهة ، فهن يحرقن لنا البخور ويضايقنا بمطالبهن التى لا تنتهى .

وبدا الجد على وجه الفتى وقال :

- يخيل إلى أنهن يأخذن ما أعطين لا أكثر ولا أقل . لقد غرسن فى قلوبنا الحب ، وأعتقد أن من حقهن أن يطلبن استرداد هذا الحب .

فقال هولوررد :

- أنا من رأيك يا دوريان ، فهذا صحيح تمامًا .

قال اللورد هنرى :

- ليس فى الوجود ما هو صحيح تمامًا .

فقاطعه دوريان قائلاً :

- ولكن لابد أن تعترف يا هارى بأن النساء يعطين الرجال أنفس شىء فى حياتهن ألا وهو ذهب الشباب .

فأجاب اللورد هنرى :

- هذا جائز ، ولكنهن بلا استثناء يردن استرداد هذا الذهب منا مفكوكًا ، وهذا ما يحزن الإنسان . إن النساء كما وصفهن ذكى من أذكىاء فرنسا يلهبن فىنا الرغبة فى القيام بروائع الأعمال ، ثم يمنعننا عن تنفيذ هذه الرغبة .
- أنت شخص لا يطاق يا هارى ، ولست أدرى فىم تعلقى بك .

فأجاب اللورد هنرى :

- إنك ستعلق بى دائماً . ألكما فى قليل من القهوة ؟ هات لنا بعض القهوة وبعض الشمبانيا وبعض السجائر يا چون . كلا يا چون ، لا تأت بسجائر لأن معى منها ما يكفى . لن أسمح لك يا بازيل بأن تدخن السيجار فخذ سيجارة ؛ إن السيجارة هى أحسن مثل لأحسن متعة ، فهى لذيذة وهى لا تشبع حواسك تمامًا ، وهل بين متع الحياة ما هو خير من ذلك ؟ نعم يا دوريان ، إن حبك لى لن يفترا أبداً ، فأنا أمثل لك جميع الرذائل التى لا تجرؤ على الانغماس فيها .

فقال الفتى وهو يشعل سيجارته من نار قدمها خادم المطعم له تخرج من فم تين صنع من الفضة :

- ما هذا الهراء يا هارى ! هيا بنا إلى المسرح ، ولسوف تتغير أراؤك فى الحياة حين تشاهد سيبيل تخطر أمامك على الخشبة ، فهى تمثل جانباً من الوجود لم يصل بعد إلى علمك .
أجاب اللورد هنرى :

- هذا مستحيل لأن علمى أحاط بكل شىء ، ولكنى نهم إلى كل إحساس جديد ، وإن كانت نفسى كذلك لا تتسع لإحساس جديد لأنها جربت كل شىء . مهما يكن من شىء فمن الجائز أن تثيرنى صديقتك الصغيرة الفاتنة ، فأنا أحب التمثيل وأجده أقرب إلى الواقع من الحياة . هيا بنا . اركب معى يا دوريان فى عربتى ، أما أنت يا بازيل فيؤسفنى أن أطلب إليك أن تستأجر عربة وتلحق بنا لأن عربتى لا تتسع إلا لشخصين .

ونهمض ثلاثتهم وارتدوا معاطفهم وشربوا قهوتهم وقوفاً ، أما الرسام فكان صامتاً منشغلاً بالبال عليه وجوم . لقد كان يجد فى هذا الزواج غلطة كبرى ، ومع ذلك فقد أحس أنه أهون شراً من سواه . وبعد دقائق كانوا جميعاً خارج المطعم ، وسعت به العربة التى استأجرها تتبع عربة اللورد هنرى فأنشأ يتأمل أنوارها الباهرة ، وغمره شعور بأنه أضاع شيئاً ثميناً ، أحس بأن دوريان جراى قد خرج من حياته ، ولم يعد يلهمه بشىء كما كان يفعل فى الماضى . لقد حالت بينهما الحياة ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وسبحت أمامه المصابيح الثاقبة ، ولم يعد يرى المارة فى وضوح ، فلما أن بلغ باب المسرح أحس بأنه قد نما أعواماً وأعواماً .

الفصل السابع

كانت دار التمثيل فى تلك الليلة تعج بالنظارة لسبب لا يعلمه أحد ، ووقف اليهودى البدين بباب الدار يستقبلهم وهو منشرح الصدر طافح بالبشر ، وقاد ثلاثتهم إلى المقصورة الخاصة بهم فى احتشاد عظيم وفى خيلاء معاً ، مشيراً بيديه الغليظتين المرصعتين بالجواهر فى كل اتجاه متحدثاً إليهم فى صوت مرتفع كأنهم صم لا يسمعون ، فأحس دوريان جراى نحوه بغيض شديد ، أحس بأنه قدم ليرى ميراندا فلم ير إلا كاليبان . أما اللورد هنرى فقد ارتاح إليه ، أو على الأقل زعم أنه ارتاح إليه ، ولم ينس أن يصفحه بحرارة ، وأكد له أنه فخور بمعرفة رجل مثله أفقره الشعر ، واستطاع أن يستكشف عبقرية مدفونة كسيبيل فىن ، على حين كان هولوردد يسلى نفسه بتصفح وجوه الرعاع المحتشدين فى المقاعد الرخيصة ، وكان الحر قائظاً ، وتدفق فى المسرح شعاع عظيم بقى من الشمس الغائبة ، شعاع بدا كزهرة جسيمة صفراء أوراقها لهب هائلة ، وخلع الشبان الذين ملأوا شرفات الدار ستراتهم ووضعوها بجانبهم ، وأنشأ بعضهم فى طرف المسرح يتحدث إلى بعضهم فى الطرف الآخر ، ويقتسمون ما معهم من البرتقال مع الفتيات ذوات الهيئة الرثة الجالسات إلى جوارهم ، ورن ضحك النسوة من أسفل القاعة فجاء حاداً مزعجاً ، ومن البار ارتفع صوت الفلين يخرج من زجاجات الشراب . قال اللورد هنرى :

- يا لها من مباءة بخسة هذه التى وجدت فيها قدسك !

فأجاب دوريان جراى :

- نعم إنها لمباءة بخسة ، ولقد وجدت فيها قدسى . إن سيبيل فىن قبس من الله لم يحل بعد فى بشر ، ولكنك ستنسى هذه المباءة حين تراها تمثل ،

ولسوف تبصر هذه الوحوش الآدمية الغليظة الملامح الخشنة الطباع تستأنس حين
تخطر سبيل أمامها على المسرح ، ولسوف تراها تجلس فى صمت شاخصة
العيون ، تضحك وتبكي بإيماءة منها . إن قلوبهم تستجيب لها استجابة الكمان
للقوس ، إنها تبث فيهم من عندها روحاً وتسمو بهم عن صدى المادة ، وحين
أراهم فى هذه الحالة أحس بأنهم خلقوا حقاً من طينتنا ، نحن النبلاء .

فقال اللورد هنرى وهو يتفحص الأوباش فى الشرفات بمنظاره المكبر :
- هذه قسوة منك يا دوريان ، فكيف تقول إنهم خلقوا من طينتنا .

قال الرسام :

- لا تلق إليه بالا يا دوريان ، وأنا أفهم بالضبط معنى ما تقول ،
وأشاركك إيمانك بهذه الفتاة . إن فتاة تختصها أنت بحبك لا بد أن تكون درة
بين النساء ، وإن فتاة تترك فى نفسك كل هذا الأثر لا بد أن تكون مخلوقاً
سامياً نبيلاً . نعم ، إن فتاة تنفخ الروح فى هذه الجمادات المتحركة ، وتودع
الإحساس بالجمال فى نفوس ممسوخة مظلمة ، وتزرع الأثرة من قلوبهم فتستدر
دموعهم لفجائع لا تمسهم شخصياً خليقة بحبك العظيم ، بل خليقة بأن
تقدسها الدنيا بأسرها ، لقد عدلت عن رأى السابق وإنى لأوافق على هذا
الزواج من كل قلبى . إن الآلهة خلقت سبيل فى من أجلك يا دوريان ،
ولن تكتمل نفسك إلا بها .

فأمسك دوريان جراى بيده وضغط عليها فى حرارة وقال :

- شكراً لك يا بازيل ، لقد كنت أعرف أنك ستفهمنى ، أما هارى فهو
ساخر بكل شئ ، وهذا يرعبنى ، ولكن كفى حديثاً الآن فقد بدأت الموسيقى
تمهد للتمثيل ، وأرجو أن تحتملها فى صبر لأن هذه الألحان المزعجة ستنتهى
فى دقائق حين يرتفع الستار ، وعندئذ ستريان الفتاة التى سأكرس حياتى
لإسعادها ، نعم ، ستريان الفتاة التى وهبتها خلاصة نفسى .

وبعد ربع ساعة ظهرت سيبيل فين على المسرح بين دوى من التصفيق يصم الآذان ، وقد نجحت في الامتحان الأول نجاحًا باهرًا ، فقد رأى الرجلان جمالها الرائع وأخذاه به ، بل إن اللورد هنرى رأى أنها نادرة بين النساء ، وبدأت كحورية خجول جفلى ، وحين وقع بصرها على الحشد الحاشد المتحمس فى جنبات الدار أحمر خدها حياء فبدأ كخيال وردة فى صفحة فضية ، وتراجعت خطوات وارتجفت شفتاها فنهض بازيل هولوردد وأنشأ يصفق تحية لها ، واسترسل دوريان جراى فى حلم طويل محملاً فيها كالمخلق فى رؤيا عجيبة ، أما اللورد هنرى فكان يتأملها بمنظاره ويردد قوله : « ما أبدعها حقًا ! ما أبدعها ! » .

وكان المشهد صحن دار كابيوليت ، ودخل روميو مع مركشيو وأترابه فى زى زائر الحرم وعزفت الفرقة بعض الألحان الإيقاعية ، وبدأ الرقص ، ومشت سيبيل فين بين جمهرة الممثلين ذوى الثياب البالية كأنها مخلوق علوى موفد من عالم الأحلام ، وتثنى جسدها أثناء الرقص كعود الخيزران ، ولاحت تجاعيد جيدها كطيات السوسن الأبيض ، وبدأت يداها الناعمتان كأنهما قدتا من العاج الأملس المنعش .

ولكن فتورها كان ملحوظًا ، وحين وقع بصرها على روميو لم يبد عليها الفرح لمراه ، وحين بدأت تقول : « أيها الزائر الحرم ، ألا رفقًا بيدك . . » وما أعقب ذلك من كلمات قليلة بدا حديثها متكلفًا للسامعين ، كان صوتها جميلًا حقًا ، ولكنه كان زائف التلوين لا إحساس فيه ، فأفسد طعم الشعر الجميل ، وجعل من عاطفة جوليت الصادقة عاطفة باردة مصطنعة .

وشحب وجه دوريان جراى وهو يتبع كلماتها واستبد به القلق وحرار فى أمرها ، ولم يجسر صديقه على مكاشفته بحقيقة الأمر ، بأن سيبيل فين ممثلة ساقطة ، بأن سيبيل فين خيت ظنهما إلى أبعد حد .

ومع ذلك فقد أحسا بأن منظر الشرفة فى الفصل الثانى هو المقياس الحقيقى لكن جوليت ، فأزمعا على الانتظار ليصدرا فيها حكمًا نهائيًا .

وجاء منظر الشرفة فأطلت منها وغمرها نور القمر فكانت آية في الفتنة ،
ولكن تمثيلها كان مفتعلا إلى حد لا يطاق ، بل كان يزداد افتعالا باطراد حتى
أمست إشاراتها مضحكة ، وكانت تؤكد كل عبارة تقولها بلا داع فمسخت
جمال الأبيات التالية :

وإن ما سمعت من كلامي
ألهب في خفر العذارى
لكن كف الليل يا حبيبي
لثم بخمار نكس وجهي
فلم تعد ترى ضرام خدي
ورنت في آذان سامعيها كقطعة من المحفوظات تلقيها تلميذة تولى تدريبها
مدرس في الإلقاء لا يتقن فنه ، وحين اتكأت على الشرفة وقالت :

أنت ملكت القلب ، بيد أني
أضرع لك لا تستعجلني
باغتنا الغرام يا غرامى
كالسيل ، أو كالبرق في الجوزاء ،
تأكله الظلماء قبل قوى :
« انظر لقد ابرقت السماء ! »
إلى الغد المأمول يا حبيبي
عسى براعم الهوى بقلبي
تزهو عند الصبح ، فوداعا !

خرجت الكلمات من فمها ميتة كأنها لا تعنى شيئا ، ولم يكن بها أدنى
اضطراب ، بل كانت تملك زمام نفسها بيدها مما زاد الموقف سوءا . نعم ،

لم يكن هناك موضع للاعتذار لها ، فلقد كانت تجهل أصول فنها وهذه خلاصة القول ، ولقد كان فشلها ذريعاً ، حتى السوق الذين غصت بهم شرفات الدار ومقاعد الرخيصة تملأوا في أماكنهم ، وبدءوا يتحدثون بأصوات مسموعة ويصفرون استنكاراً . كل ذلك واليهودى مدير الدار واقف فى منتصف الدار يضرب الأرض بقدمه ويفوه بالألفاظ النابية ، وكانت سيبيل فى الشخص الوحيد الذى لم يهتز لشيء مما يجرى ، ولما انتهى الفصل الثانى ارتفعت صيحات التهكم من كل جانب .

ونهض اللورد هنرى وارتدى معطفه وقال :

- إنها فاتنة حقاً يا دوريان ، ولكنها لا تعرف عن فن التمثيل . لنصرف الآن ، فهيا بنا .

فأجاب الفتى فى مرارة شديدة .

- سابقى أنا لأشاهد الرواية حتى نهايتها ، ولكم يؤسفنى أنى أفسدت عليك المساء يا هارى . أرجو أن تقبلا اعتذارى .

فقاطعه هولوردد بقوله .

- لا جناح عليك يا صديقى دوريان ، فلعل الأنسة فى مريضة ، وسوف نأتى لشهودها فى ليلة أخرى .

قال دوريان جراً .

- ليتها كانت مريضة ، ولكن الحقيقة تخالف ذلك ، فقد بدت لى باردة خلّت من كل شعور ، وأؤكد لك أنها لم تكن كذلك من قبل . لقد كانت بالأمس فنانة من الطراز الأول ، وهى اليوم ممثلة فاشلة لا تعرف عن صناعتها شيئاً .

قال هولوروك :

- لا تتكلم بهذه اللهجة عمن تحب يا دوريان ، فالحب أسمى من الفن بدرجات .

فقال اللورى هنرى :

- إنما الحب والفن أسلوبان فى التقليد ، ولكن هيا بنا يا بازيل . أما أنت يا دوريان فلست أنصح لك بالبقاء ، لأن مشاهدة التمثيل الزائف تفسد الأخلاق ، ثم إن المسألة ليست ذات بال ، فأعتقد أنك لن تسمح لزوجتك أن تظهر على المسرح . إنها جميلة حقًا ، ولو أن خبرتها بالحياة كانت قليلة كخبرتها بالتمثيل لكنت لك فيها دراسة ممتعة ، ففى الناس نوعان يخلبان لى ، الناس الذين يعرفون كل شىء والناس الذين لا يعرفون شيئًا ، إن من يراك الآن يا دوريان يحسب أنك فجعت فى أعز عزيز لديك ، فدع عنك هذا الوجوم لأن الأمر لا يستحق كل هذه اللوعة ، ولأذكرك بأن سر الشباب هو المرح الدائم ، تعال معنا إلى النادى حيث نشرب نخب جمال سيبيل فى . هى جميلة ما فى ذلك ريب ، فماذا تطلب أكثر من هذا ؟

قال الفتى :

- اتركانى وحيدًا ، فإننى أريد أن أخلو بنفسى . هيا انصرف يا هارى ، وأنت يا بازيل انصرف . ألا تريان أن قلبى يتمزق . واغرورقت عيناه بالدمع السخين ، وارتجفت شفتاه ، وعاد إلى مقصورته على عجل ، وهناك مستنداً إلى الحائط وقد دفن وجهه فى راحتيه .

قال اللورد هنرى فى حنان ليس من طبعه :

- هيا بنا يا بازيل .

وانصرف الرجلان .

وبعد لحظات أضاءت أنوار المسرح ، وارتفع الستار ، وبدأ الفصل الثالث ، وأخذ دوريان جراى مكانه من المقصورة شاحب الوجه بادهى الفتور وقد استعاد كبرياءه المجروح ، ومرت الرواية ثقيلة كأنها بغير نهاية ، وانصرف نصف الحاضرين وهم يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة ويضحكون ساخرين ، وحين جاء الفصل الأخير كانت الدار خاوية عدا رجل هنا ورجل هناك ، وانسدل الستار فضحك قوم وتأوه آخرون . لقد سقطت الرواية .

وما إن انتهى التمثيل حتى باد دوريان جراى بالذهاب إلى غرف الممثلين ، وكانت الفتاة واقفة بمفردها هناك ، وعلى محياها إمارات الانتصار وفى عينيها بريق جميل ، وكانت تشع نوراً كأنها ملك من السماء ، وقد انفرجت شفتاها الباسمتان فلاح أن لديها سرّاً تخفيه ، وحين دخل دوريان جراى تأملته فسرت فى فؤادها نشوة عظمى . قالت :

- ما كان أقبح تمثيلى الليلة يا دوريان !

فأجاب وهو يحملق فيها عاجباً :

- لا حد لشناعته . لا حد لشناعته . أمرضة أنت ؟ لا حد لشناعته . لقد أشقيتنى شقاء لا مزيد عليه .

ابتسمت الفتاة وقالت وهى تترنم باسمه :

- لقد كان ينبغى أن تفهم يا دوريان ، ولكنك تفهم الآن ، أليس كذلك ؟

فأجابها غاضباً :

- أفهم ماذا ؟

- تفهم السر فى سقوطى الليلة ، بل تفهم السر فى سقوطى من الآن فصاعداً ، لن أستطيع الإجابة بعد اليوم يا دوريان .

هز كتفيه وقال فى استخفاف :

- أعتقد أنك مريضة ، وحين تكونين تجنبى التمثيل لأنك تضحكين الناس منك . لقد كان معى صديقان فقتلهما الملل ، ولقد قتلتى الملل كذلك .

وبدا عليها أنها منصرفة عنه . لقد غمرتها سعادة عظمى ألقتها عن كل شىء . قالت :

- لقد كانت التمثيل عندى شغل الحياة قبل أن أعرفك يا دوريان ، بل لقد أصبحت الحياة عندى تمثيلاً وأصبح التمثيل الحياة ، فأنا الليلة روزاليند وغداً بورشيا ، وكان أفراح يياتريس أفراحى وأحزان كورديليا أحزاني ، وكنت

أرضى بكل شيء فهؤلاء الممثلون التافهون كانوا موضع إعجابى ، وكانت
مناظر المسرح هى الدنيا التى أعيش فيها . هذه الظلال ملأت حياتى فخلتها
حقائق حتى جئت أنت يا حبيبى ، واعتقت روحى من هذا الإسار وعلمتنى
الحقيقة ما تكون ، وهذه أول ليلة فى حياتى أحس فيها بأن هذا الموكب الذى
أسير فيه زائف أجوف سقيم . هذه أول ليلة أحس فيها بأن روميرو الذى
يشخص على المسرح أمامى رجل قبيح مزوَّق بالطلاء ، وبأن نور القمر
والحديقة زائفان جميعاً ، وأن الكلمات التى أتفوه كذلك ، لأنها لم تكن
كلماتى ولم تعبر عن الشعور الذى يخالجنى ، أما أنت فقد منحتنى شيئاً
لا زيف فيه ، شيئاً أسمى من الفن ، شيئاً ما وجد الفن إلا ليعبر عنه ، لقد
جعلتنى أفهم معنى الحب الحقيقى ، أنت حبيبى ومولاى وأميرى الساحر ،
ولقد سئمت الظلال يا حبيبى ، وإنك عندى لأثمن من فنون العالم جميعاً ،
فما بقائى بين هذه الدمى التى لا حياة فيها ؟ لم أفهم فى البدء كيف تبدل
حالى وخلت أنى سأوفق الليلة توفيقاً عظيماً ، فلما بدأت أتكلم عرفت أن كل
شئ قد ضاع منى وأنى الآن مخلوق جديد ، ثم أدركت فجأة أن هواك هو
الذى بدل نفسى فطربت طرباً شديداً ، وحين سمعت الناس يتهمون بى
لم أغضب ، بل ابتسمت لأنى أعرف ما لا يعرفون ، وكيف يعرف هؤلاء
السوقة معنى غرامنا العظيم ، إنى أمقت المسرح يا دوريان فخذنى معك حيث
تشاء ، لنعيش فى عزلة عن الناس . وكيف أمثل بعد اليوم ؟ إنى إن استطعت أن
اصطنع عاطفة لا أحس بها فلن أستطيع أن اصطنع عاطفة تكوى قلبى وتفردى
كبدى . أنت تفهم الآن سر سقوطى الليلة يا دوريان ، ولو أنى استطعت أن
أجيد بعد اليوم لكان تدنيساً لحبنا أن أمثل دور المحبة وأنا محبة . لقد تعلمت
هذا منك يا دوريان .

فارتمى على أريكة بالغرفة وأشاح بوجه قائلا :

- لقد قتلت حبيبى لك .

فنظرت إليه عاجبة وضحكت ، ولكنه لم يقل شيئاً فدنت منه وأنشأت
تعبث بشعره ثم جثت إلى جواره وأمسكت بيديه وضمتها إلى شفتيها فسرت
في جسده رعشة قوية وجذب يديه بعيداً ، ثم نهض وسعى إلى الباب وقال :
- لقد قتلت حبي لك ، فقد كنت تحركين خيالي ، أما الآن فأنت لا تحركين
في شيئاً حتى فضولى . لقد ضاع أثرك في نفسي ، ولم يعد لك عليها سلطان ،
لقد أحببتك لأنك كنت صاحبة فن عظيم ، لأنك أوتيت الفطنة والنبوغ ،
لأنك حققت أحلام الشعراء وجسدت ظلال الفن ، ولكنك تخليت عن كل
هذه الأشياء فما أغباك وما أتفهاك . يا إلهي ! لقد كان حبي لك جنوناً مطبقاً
فما كان أغبانى ، ولكنك خرجت من قلبي تماماً ، فلن أسعى لرؤيتك بعد
اليوم ، ولن يرد اسمك على فمي . لقد كنت لى بهجة الحياة ، بل كنت لى
قوت الروح فما أشقانى الآن . لقد أفسدت على جمال الحياة فليتنى لم أعرفك
مطلقاً ، فإن كنت تحسبين أن الحب يفسد الفن فما أجهلك بالحب ! وأنت بغير
الفن لا تساوين شيئاً ، ولكنك اخترت سبيل الضلال ، ولو أنك آمنت بالفن
لا تساوين شيئاً ، ولكنك اخترت سبيل الضلال ، ولو أنك آمنت بالفن
لجعلتك قبلة الأنظار ، ورفعتك على سائر النساء ، ووهبتك اسمى ، وسموت
بك حتى يراك كل من فى الدنيا ، ولكنك ركلت كل هذا بقدمك فماذا جنيت
من ذلك ؟ وما أنت الآن إلا ممثلة تافهة لها وجه صبور .

فشحب لون الفتاة وارتعت فرائصها وانطبقت يداها واحتبس الصوت فى
حلقها وقالت :

- أنت جاد فيما تقول يا دوريان ؟ إنك تمثل دور الحائق لتخيفنى .

قال الفتى فى مرارة :

- بل أترك التمثيل لك لأنك تحذقينه كل الحذق .

فنهضت الفتاة ومشى إليه فى ألم بالغ وأمسكت بذراعه وأنشأت تقرأ
ما تقوله عيناه ، فدفعها بعيداً عنه وقال :

- لا تمسينى .

وجئت الفتاة عند قدميه ، وانبعث منها أنين مكتوم فبدت كزهرة جميلة
سحقتها الأقدام ، وأخيراً همست قائلة :

- لا تتركنى يا دوريان ، لا تتركنى . لقد كنت أفكر فيك طول الوقت
فألهانى ذلك عن إجادة عملى ، فاغفر لى ذلك ، وإنى لأعدك بأنى سأجتهد
فى المستقبل أن أتقن دورى ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . لقد ملأ حبك نفسى
فجأة ، ولولا أنك قبلتنى لما عرفت الحب . أجل . لولا تلك القبلة لما استيقظ
حبنى ولظل نائماً فى صدرى ، فقبلنى يا حبيبى مرة أخرى لتطفئ شوقى إليك .
أضرع إليك لا تتركنى ، إن أخى توعد بأن .. ولكنه لم يكن جاداً فى وعيده .
الا تستطيع أن تغفر لى ما حدث الليلة ؟ لا تنس أن هذه أول مرة
أقصر فيها ، وسوف أجتهد لأتقن عملى ما وسعنى الاجتهاد . لا تقس فى
عقابى لأنى أحمل لك كل هذا الحب ، ولكنى أرى الآن أنك على حق فيما
تقول ، فقد كان خسة فى أن أستخف بالفن لأنى عرفت الحب ، أو أن أجد فى
الحب ما يصرفنى عن الفن ، أعترف لك بأن هذا كان حماقة منى ، ولكنى لم أكن
مختارة فيما فعلت ، فأرجو منك الصفح على ما مضى ولا تتركنى ، أواه ! لا تتركنى !

وخنقتها العبرات فلم تقو على الكلام ، وظلت طريحة على الأرض كأنها
حيوان جريح ، فأخذ دوريان ينظر إليها فى احتقار قاتل ارتسم على شفثيه
الجميلتين واضحا قويا ، وسخر من فيض العاطفة الذى غمرها لأنك كف عن
حبها ، فبدت سبيلا فى له مسرحية تسرف فى عرض حبها إلى درجة تدعو
إلى السخرية ، ولم يهتز لدموعها الجارية بل ضاق بها ذرعاً ، وأخيراً قال
بصوت هادئ واضح :

- سأنصرف الآن فى غير رجعة ، وما أقصد بهذا إيلا ملك ولكنك نحييت
أملى فيك .

فبكت فى صمت ولم تجب بشيء ، ولكنها زحفت نحوه وامتدت يدها
كأنها تريد أن تستوقفه ، ولكنها أولاها ظهره وخرج من الغرفة ، وفى دقائق
معدودات كان خارج الدار .

وسار على غير هدى لا يعرف لنفسه وجهة أو طريقًا ، كل ما ذكره أنه
جاء فى شوارع قليلة الأنوار ، ومر بأقبااء متهاوية قائمة الظلال ، وبمنازل
مقبضة كأنها أوكار الغدر والجريمة .

كذلك ذكر أنه صادف فى سيره نسوة استوقفنه بأصوات خشنة وأرسلن
وراءه ضحكات خشنة ، وأنه مر بسكارى يترنحون فى مشيتهم ويتفوهون
بأقذع الألفاظ ويحدثون أنفسهم كأنهم قرودة ممسوخة ، وأنه رأى أطفالا
لا كالأطفال تحملهم أمهاتهم على عتبات المنازل ، وسمع صرخات تنبعث من
أفنية مظلمة يصاحبها سباب شنيع .

وعندما انبلج الفجر وجد نفسه قرب كوفت جاردن ، ورأى الظلام ينقشع
والسمااء تبدو كالدرة الصافية وقد خضبتها حمرة خفيفة ، وسمع ضجيج
العربات وهى تسير ببطء فى الشارع النظيف الخاوى ، وملأ الهواء أريج
الأزهار فاستشفت بجمالها نفسه المتعبة ، وتبع العربات حتى بلغت السوق
وشاهد الحمالين يفرغون حمولتها ، وتقدم إليه أحدهم بقليل من الكريز فأخذه
شاكراً وهو يعجب لأن الرجل رفض أن يقبل ثمن ما أعطى ، وأنشأ بأكل
فاكهة فى غير شهية ، وكانت الفاكهة قد قطفت عند منتصف الليل وكان
لمسها رطبياً كأن نور القمر البارد قد نفذ فيها ، ومر أمامه صف طويل من
الصبيان يحملون صناديق بها شتى أنواع الأزهار ، وشقوا طريقهم بين أكداس
الخضر على حين وقفت بباب دار الأوبرا ذى الأعمدة الشهباء التى لفحتها
الشمس جماعة من البنات متسكعات عاريات الرؤوس ينتظرن انتهاء المزاد ،
ووقفت جماعة أخرى عند أبواب المقهى فى البياتزا ، كل هذا والخيال الضخمة
التى تجر العربات تضرب الأرض الخشنة بحوافرها وتهز الأجراس المعلقة فى
أعناقها ، والحمام ذات الرقاب البيضاء والأقدام الحمراء تسعى هنا وهناك
تلتقط الحب .

وبعد قليل مرت عربة فاستوقفها وعاد بها إلى بيته ، وحين بلغ البيت لم يدخل بل وقف ببابه قليلاً يتطلع إلى الميدان الساكن وما به من نوافذ خشبية جرداء وما به من نوافذ كستها الستائر ، وبدت له السماء في تلك اللحظة كفيروزة كبرى نقية من كل وشب ولمعت تحتها سطوح المنازل كما تلمع الفضة ، ورأى الدخان يتصاعد في ذوائب خفيفة من مدخنة بيت مقابل فيلوح لرائيه كالشرائط البنفسجية المتطايرة في الهواء الذي تألق كالصدف المصقول .

ثم دخل الحجرة الأولى ذات الجدران المحلاة بخشب البلوط ، فوجد الأنوار لا تزال تضيء من ثلاث عيون مشتعلة داخل مصباح كبير مذهب جىء به قديماً من البندقية حيث كان يحلى جندول حاكم تلك المدينة ، وكان المصباح يتدلى من سقف الحجرة ، فأطفأ العيون ، وبعد أن قذف بقبعته وعباءته على المائدة دخل إلى مكتبته ووقف بباب حجرة النوم وهى مثمرة الأضلاع فى الدور الأرضى زين جدرانها حين نما فيه حبه الجديد للبذخ ببسط من عصر النهضة غريبة التصميم ، وجدها بين مجموعة مهمة فى غرفة مهمة بمتحف سلبى فابتاعها ، وفيما هو يدير مقبض الباب وقعت عينه على الصورة التى رسمها له بازيل هولوردد فأخذه عجب شديد ، ثم دخل حجرة النوم قلق الخاطر ، وبعد أن فك أزرار سترته تردد قليلاً ثم رجع إلى الصورة وتأملها ملياً ، فخيل إليه أن الوجه قد تغير قليلاً ، فقد كان التعبير المرتسم عليه مختلفاً عما كان فى الماضى ، خيل إليه وهو ينظر إلى الصورة فى الضوء المكبوت الذى تسرب من بين الستائر الحريرية الصفراء أن شيئاً من القسوة قد ارتسم فى موضع الفم فعجب لذلك أيما عجب .

ثم سعى إلى النافذة ، وأزاح عنها الستار فتدفق فى الحجرة نور الفجر الوضاء ونسخ الظلال الجديدة وجمعها فى أركان الحجرة القائمة وهناك رقدت الظلال منكمشة ترتعش ، ولكن الضوء الغامر الذى ملأ المكان لم يمح ذلك التعبير الغريب الذى شاهده فى صورته بل أكّده ، وسقط ضوء الشمس على

موضع الفم فأظهره له فى وضوح أمارات القسوة ، وخيل إليه أنه يرى وجهه فى مرآة بعد أن ارتكب إثماً فاحشاً وترك آثاره فى محياه .

فتجهم وجهه وكانت على المائدة مرآة يضاوية الشكل ذات إطار عاجى زينتها نقوش لكوييد كثيرة كان اللورد هنرى قد أعطاه إياها بين ما أعطاه من هدايا كثيرة ، فأمسك بها ونظر إلى خياله على عجل فلم يجد أثراً لذلك الخط الذى شوه جمال شفتيه فى الصورة ، فحار فى الأمر .

وظن أن ما به خداع حسى ، ففرك عينيه واقترب من الصورة ليدرسها من جديد فلم يجد بها أى تبدل ، ولكنه لم يشك فى أن الوجه بأكمله يحمل معنى جديداً . نعم . إن ما يراه حقيقة لا ريب فيها ، وهى تنطبق فى معالم الوجه بجلاء تام آثار الرعب فى قلبه .

وارتمى على مقعد وبدأ يفكر ، وفجأة تذكر عبارة قالها وهو فى استوديو بازيل هولورد يوم أن فرغ الرسام من الصورة ، وعادت تلك العبارة إلى ذهنه كأنه قالها بالأمس .

لقد صارح صديقيه يومها بأنه يتمنى لو أن شبابه يدوم له وتحمل الصورة عنه عبء السنين ، لو أن جماله الناضر يظل ناضراً ويتحمل الوجه المرسوم على اللوحة وزر آثامه وشهواته ، لو أن آثار الهم والشقاء تتقل من محياه إلى الخطوط والألوان فتسكن فيها وتمزقها تمزيقاً ، حتى يبقى لمحياه غضارة النرجس فى مطلع الربيع ، فهل تحققت له هذه الأمنية ؟ هذا محال لأن مثل هذه الأمنى محال أن تتحقق ، بل أن مجرد التفكير فى هذه الأمنى بدا له جرم رهيب ، ومع ذلك ، فهى هى ذى الصورة أمامه تحمل معانى القسوة بعد أن كانت آية فى الصفاء .

ولكن كيف كان هجره لسييل فى قسوة منه عليها . إنها خيبت آماله فنالت ما تستحق من عقاب ، لقد كان يحب فيه الفنانة الموهوبة لا الفتاة صاحبة الوجه المليح . إلا أن الندم عض قلبه حين تذكرها وهى جاثية عند قدميه تذرف العبرات ، وتذكر بروده الشديد وهو يتأملها تستجدى عطفه ،

فبدأ يلوم نفسه على جموده تارة ويعتذر لنفسه بأنه قد ذاق مثل ما ذاق من عذاب . لقد مرت به الساعات الثلاث التي استغرقتها الرواية كأنها ثلاثة قرون ، وشقى أثناءها شقاء لا مزيد عليه وإن حياته لأثمن من حياتها ، فإذا كان قد أشقاها دهرًا فما ذلك إلا لأنها أشقته لحظات ، وهذا عدل ، ثم إن النساء أقدر من الرجال على تحمل الآلام ، فالعواطف قوام حياتهن ، والعواطف قوام تفكيرهن ، ولقد قال له اللورد هنرى إن النساء يعشقن الرجال ليستسنى لهن خلق المواقف المؤثرة ، واللورد هنرى عليم بأسرار النساء ، ثم ما كل هذا التفكير فى سبيل فين ؟ ألم يتتبع كل شئء بينه وبينها ؟

نعم ، ولكن هناك الصورة . فما العمل فى هذه الصورة التى تعلن مكونات نفسه وتسرد قصة حياته دون حاجة إلى ألفاظ ؟ لقد علمته الصورة أن يتعشق جمال تكوينه ، أفترأها تعلمه الآن أن يمقت بشاعة روحه ؟ وهل من الخير له أن يتبع التغيير الجارى فيها فى مستقبل الأيام .

ما هذا إلا هوس انتابه فهو محطم الأعصاب تخدعه حواس . ما هذا إلا أثر الليلة السالفة العصبية التى انقضت وتركت ورائها أشباحها ، لقد كادت الخواطر المتضاربة أن تصرعه ، لقد كادت الشكوك أن تذهب بلبه . كلا . إن الصورة لم تتغير وحنون أن يظن أنها تغيرت . نعم . إن الصورة قد تغيرت ، وها هو ذا الوجه الجميل قد أصابه كدر خفيف ، وها هو ذا الفم الباسم قد أفسدته قسوة واضحة . ها هو ذا الشعر الذهبى يلمع تحت شمس الصباح الباكر ، والتقت عيناه بعينيها فكاد يبكى رحمة بها ورثاء ؛ فلقد تغيرت معالمها فعلا ، ولسوف تتغير كل يوم فالشعر الذهبى ، سوف ينطفئ مع الأيام ويتحول إلى فضة شهباء ، والورد الأحمر فى شفتيها والورد الأبيض فى خديها سوف يذبل ثم يموت ، وكلما اقترب إثما من الآثام سجلته على صفحة وجهها غضونا عميقة وخطوطا ملتوية تشوه جمالها ، لسوف تكون هذه الصورة مرآة نفسه وصفحة ضميره ، وهو لهذا سيقاوم الغواية ما أمكنه ذلك ،

ويقتلع من نفسه جذور الخطيئة ، ولسوف يتجنب رؤية اللورد هنرى بعد اليوم ، فإن رآه لم يستمع إلى نظرياته السامة التى تتسرب إلى عقله كالشراب السحري ، تلك النظريات التى سمعها فى حديقة بازيل هولورود حركت فى نفسه لأول مرة ، رغبة مدمرة فى أن يأتى بعجائب الأمور ، ولسوف يرجع إلى سيبيل فىن ويطلب رضاها ويتزوجها ويجتهد فى أن يعيد حبها إلى قلبه . نعم . إن هذا واجبه ولا مفر من أداء الواجب ، لابد أنها شقيت أكثر مما شقى ، فيالها من فتاة تاعسة . لقد كان لا يفكر إلا فى نفسه فيقسو فى حكمه عليها ، وهذه منه أثره لا تغتقر وهو لابد مكفر عنها ، ولا شك أن سلطانها عليه سيعود ، وأنهما سيعيشان فى سعادة مثل سعادة الملائكة الأطهار .

ونفض من مقعده وأسدل على الصورة ستاراً كبيراً أخضر ، فيما هو يفعل ذلك نظر إلى الصورة فسرت من جسده رعشة ، فقال محدثاً نفسه « يا للشناعة » ثم مشى إلى النافذة وفتحها ، وخرج إلى حديقة بيته وسار على الحشائش وملاً رثيته بنسيم الصبح فطرد نسيم الصبح عنه هواجسه وبقيت فى خياله صورة واحدة هى صورة سيبيل ، وعأوده قليل من حنانه القديم إليها ، وسمع الأطيوار تغرد فى الحديقة المبللة بالندى ، فخيل إليه أن الأطيوار تقص على الأزهار قصتها .

الفصل الثامن

وصحبا من نومه بعد الظهر بوقت طويل ، وقد دخل عليه خادمه الخاص فكتور أثناء نومه أكثر من مرة على أطراف أصابعه ليرى أكان قد استيقظ أم لا ، وعجب من أمر سيده الشاب الذى لم يعتد أن يأوى إلى فراشه فى مطلع الفجر ، وأخيراً دق دوريان جرای الجرس فدخل فكتور يحمل الشاى وبعض الخطابات على صينية سيفر قديمة ، وأزاح عن النوافذ الثلاث العالية ستائر الخضر ذات الخوافى اللامعة الزرقاء ، وقال فكتور مبتسماً :

- أرجو أن يكون سيدى قد نام هذا الصباح نوماً هنيئاً .

فسأله دوريان جرای ، هو نصف نائم :

- كم الساعة الآن يا فكتور ؟

أجابه الخادم بلكنة فرنسية :

- الواحدة والربع يا سيدى .

عرف أنه نام طويلاً فجلس فى فراشه ، وبعد أن شرب قليل من الشاى انصرف إلى خطابه يقلبها فوجد بينها خطاباً من اللورد هنرى جاء به رسول ، فتسرد لحظة ثم وضعه جانباً ، وفتح الخطابات الأخرى فى ضيق واضح ، فوجدتها كالعادة تحتوى على دعوات الغداء ودعوات لزيارة أماكن خاصة ، وبرامج الجمعيات الخيرية ، وبرامج الحفلات الموسيقية وما شابه ذلك من رقايع تصل الشباب من الوجهاء خلال الموسم ، وكان بين بريده فاتورة ضخمة بمجموعة من أدوات الزينة من طراز لويس الرابع عشر لم يجرؤ بعد على إرسالها إلى أوصيائه العامة بأنهم من أصحاب الآراء البالية الذين لا يفهمون أن

ألزم الأشياء لنا هى الأشياء التى لا لزوم لها ، كما كان بينهم بعض خطابات من مرابى جرمين ستريت صيغت فى لياقة شديدة وأدب جم يعرضون فيها خدماتهم العاجلة مقابل فائدة معقولة .

وبعد عشر دقائق كان يرتدى الروب دى شامبر الصوفى المطرز بالحرير ، ودخل الحمام المرصوف بالفسيفساء ، وأنعشه الماء البارد فأحس كأن تباريح الأمس لم تكن ، وبين وقت وآخر جاءه هاتف بأنه كان بطل مأساة غريبة ولكنه أشبه ذكرى حلم بعيد ، رحين فرغ من ارتداء ثيابه دخل المكتبة وهناك وجد فطوره الخفيف معداً له على مائدة مستديرة بالقرب من النافذة فجلس يتناوله ، وأحس بجمال الصباح ، وبدا له أن الهواء الدافئ محمل بروائح الطيوب ، ودخلت من النافذة نحلة طنت حول إناء أمامه وضعت فيه أزهار صفراء بلون الكبيرت فغمرته السعادة .

ووقعت عينه فجأة على الستار الذى حجب به الصورة فتملكه الاضطراب ، ولاحظ خادمه اضطرابه ، فقال وهو يضع أمامه طبقاً من العجة :

- أشعر سيدى بالبرد ؟

قال دوريان جراى هو يهز رأسه :

- كلا ، لست أشعر بالبرد .

وعادت إليه شكوكه الأولى فحار فى أمر الصورة ، ولم يدر أتغيرت حقاً أم تغيرت فى خياله ، وها هو ذا الآن ينطق بشر دفين ، ولكن من قال إن القماش يتغير والألوان تتبدل ؟ إن هذه لسفاهة فى التفكير ، وهى أشبه بالأساطير التى ينسجها الخيال . نعم . إنها لأسطورة سوف يقصها على بازيل هلوورد يوماً من الأيام ليدخل على فؤاده السرور ، ولكن كيف تكون أسطورة وهو قد رآها بعينه ؟ إنه تذكر بجلاء أمارات القسوة إلى أبصرها تشوه جمال الشفتين عندما تمعن فى الصورة قبل مطلع الفجر ، وبعد مطلع الفجر ، واستبد به الخوف حتى لقد أحب أن يستبقى خادمه معه فى المكتبة ، فلو أنه

وجد نفسه وحيداً لما تردد في كشف الغطاء عن الصورة ، ودخل فكتور بالقهوة والسجائر ثم همّ بالانصراف فأحس دوريان جرای برغبة شديدة في أن يأمره بالبقاء ، ولكنه ضبط شعوره ، فلما أن خرج الخادم من الحجرة وأغلق الباب وراءه استدعاه ، فوقف الرجل ينتظر أوامره ولكن دوريان رمقه بنظرة طويلة ثم تنهد وقال :

- اصرف كل زائر يجيئني اليوم يا فكتور .

فانحنى الرجل وانسحب من الحجرة .

ثم ترك دوريان جرای المائدة وأشعل سيجارة وألقى بنفسه على أريكة فاخرة أمام الستار ، وكان الستار ستاراً قديماً صنع من الجلد الإسباني المذهب عليه رسومات من طراز لويس الرابع عشر فيها شيء من الإسراف ، فأنشأ يتأمل ويسأل نفسه كم من الأسرار حجبها ذلك الستار قبل أن يصل إلى يديه . وبدأ يفكر جدياً في إزاحة الستار عن الصورة ، ولكنه لم ير فائدة يجنيها من وراء ذلك ، فلو أن الصورة قد تغيرت حقيقة لكان ذلك كارثة عظيمة ، ولو أنها لم تتغير لما كان هناك ما يدعو إلى القلق ، ولكن للمسألة وجهاً آخر ، فماذا يكون الأمر لو أن شخصاً آخر استطاع أن يصل إلى الصورة ويطلع على ما جرى فيها من تغير شنيع ؟ بل كيف يكون الأمر لو أن بازيل هولوردد طلب أن يرى الصورة التي رسمها ؟ ما من شك في أن بازيل سيفعل ذلك يوماً من الأيام ، وعلى ذلك فالواجب يقضى بفحص الصورة دون تردد كيما تكون النتيجة ، فالنتيجة مهما كانت خير من هذا الشك المضني .

ونفض وأقفل باب الحجرة بالمفتاح ، فليس من الخير أن يطلع سواه على سجل آثامه ، ثم أزاح الستار ووقف يتأمل صورته فلم يعد لديه أدنى ريب في أن الصورة قد تغيرت .

كانت موقفاً رهيباً حقاً انطبع في ذاكرته فلم ينسه زمناً طويلاً ، فقد بدأ يفحص الصورة أولاً كما يفحص عالم أثراً من الآثار كأن الأمر لا يخصه ،

فعجب لنفسه أشد العجب . لقد كان التغير مستحيلاً في نظره ولكن لا جدال في أنه موجود فعلاً . وذهب يفترض الفروض لتعليل ما رأى فزعم أن هناك صلة جائزة لا نعرفها بين روح الإنسان وبين دقائق الذرات التي تتألف منها الألوان والأشكال على اللوحة ، وبذلك تسجل دقائق الذرات خوالج النفس وتحقق للنفس أحلامها ، فإذا لم تكن هذه الصلة جائزة فقد يكون هناك تعليل آخر أشق دوريان جرای أن يفكر فيه ، وارتعدت لذلك فرائضه وتملكه فزع شديد وعاد إلى الأريكة واستلقى عليها وعيناه لا تتحولان عن الصورة .

ولكنه خرج من كل هذا بمغزى واحد ، ألا وهو أن الصورة التي رسمها بازيل هولوردد له ستكون نبراساً يهتدى به في ظلام الحياة ، وها هي ذى قد علمته أن سلوكه مع سييل فين كان سلوكاً قاسياً وشائناً ، ولعل في إمكانه إصلاح ما أفسده ، فهو لا يزال يستطيع أن يتزوجها فتصفو بذلك روحه ويتجرد من أنانيته ويتحول غرامه الزائف وقت تأثيرها الصالح إلى عاطفة نبيلة . نعم . سوف يستهدي الصورة الطريق المستقيم ، فهي ضميره الحى وهي مقياس الخير والشر وهي تذكرة له من عند الله . إن الضمائر قد تنام ومقاييس الخير والشر قد تختل والتذكرة قد تغيب عن عقل الإنسان ، أما هذه الصورة فهي الشاهد القائم على دنس الخطاة ، وهي الرمز الأبدى للدمار الذى يتزله الإنسان بروحه كلما تنكب عن نهج الصالحين ، وأين يجد دوريان عذراً بعد هذا النذير ؟

ودقت الساعة الثالثة ، ثم الرابعة والنصف لكن دوريان جرای ظل ثابتاً في مكانه من الأريكة ، وكان يسترجع ماضيه وما ملأه من أحداث عنيفة وعواطف هوجاء ويحاول أن يخرج من هذه الأحداث والعواطف بمغزى فلم يهتد إلى شيء ، وأخيراً قصد إلى المائدة وكتب لسييل فين خطاباً طويلاً ملتهب العبارات يفيض بالحزن والوجعة يسألها فيه الغفران عما بدر منه ويتهم نفسه بالجنون ، فنحن نجد لتأنيب النفس لذة عظيمة ، وحين نؤنب أنفسنا نحس بأن الغير لا يملك حق تأنيبنا ، فالاعتراف هو الذى يغسل خطايانا ، وليس الكاهن

الذى نعترف أمامه . وحين أتم دوريان الخطاب أحس بأن زلته قد غفرت له فعلا .

وسمع بالباب طرْقًا وجاء صوت اللورد هنرى فى الخارج يقول :
- لابد أن أراك يا دوريان فافتح الباب فوراً ، فأنا لا أحتمل أن أراك
تعتزل العالم على هذا النحو .

فلم يجب بادئ الأمر ولبث صامتاً فى مكانه ، فلما توالى الطرق واشتد
نهض مسرعاً ليفتح الباب ، فقد وجد أن من الخير له أن يرى اللورد هنرى
ويشرح له أسلوب حياته الجديدة ، وأن يختصم معه إذا لزم الأمر ، بل أن
يخاصمه إذا اقتضت الضرورة ، وغطى الصورة بالستار ثم فتح الباب فدخل
اللورد هنرى وهو يقول :

- لقد تأملت لما حدث أشد الألم يا دوريان ، ولكنى أوصيك بأن تصرف
نفسك عن التفكير فيه .

وقال الفتى :

- أتقصد ما فعلته سبيل فى ؟

فجلس اللورد هنرى على مقعد وأجاب وهو يخلع قفازه الأصفر :
- بالطبع . إنه لشئ مؤلم إلى حد بعيد ، ولكنك لست مسئولاً عما
جرى . هل ذهبت لرؤيتها فى غرف الممثلين بعد انتهاء الرواية ؟
- نعم .

- لقد كنت واثقاً من ذلك . وهل تشاجرتما ؟

- لقد عاملتها بوحشية لا مزيد عليها ، ولكن نفسى الآن قد هدأت
ولست أسفاً على شئ مما حدث ؛ لأن هذا الاختبار علمنى الكثير عن نفسى .
- أحيى فىك هذه الشجاعة يا دوريان ، وقد كنت أخشى أن أجذك
مهموماً تعنف نفسك وتمزق شعرك الذهبى الجميل هذا .

قال دوريان وهو يتشم ويهز رأسه :

- لقد فرغت من كل ذلك ، وأنا الآن أسعد ما أكون ، فلقد عرفت كيف يكون عذاب الضمير ، وأرجوك يا هارى ألا تسخر من الضمير بعد اليوم ، فإن كان لابد لك من أن تسخر منه فلا تسخر منه أمامى ، لأننى أريد أن أحيى حياة صالحة ، وأنا لا أحتمل أن تتلوث روحى .

- اهتثك يا دوريان على اهتدائك إلى هذا المقياس الجميل ، ولكن كيف ستبدأ حياتك الجديدة ؟

- سأبدأها بأن أتزوج من سييل فين .

فنهض اللورد هنرى ونظر إليه فى حيرة بالغة وصاح :

- تتزوج من سييل فين ؟ ألم تعرف يا دوريان . . .

- نعم يا هارى ، أعرف ما ستقوله لى . أعرف آراءك القاسية فى الزواج ، فاحتفظ بها لنفسك ، ورجائى إليك هو أن تحتفظ لنفسك بجميع آرائك الشاذة ، فلست أحب أن أسمع شيئاً منها بعد الآن . لقد طلبت إلى سييل منذ يومين أن تتزوجنى ولن أحنث بوعدى . نعم . إن سييل سوف تصبح زوجتى .

- ولكن كيف تكون سييل زوجتك ؟ أما وصلك خطايبى . لقد كتبت لك صباح اليوم رسالة حملها إليك خادمى الخاص .

- نعم . أذكر أنى تسلمت رسالة منك ، ولكنى لم أقرأها بعد يا هارى ، فقد خفت أن أجد فيها كلاماً يسوءنى ، فأنت تمزق الحياة إرباً إرباً بأقوالك الغريبة .

- إذا فأنت تجهل ما حدث ؟

- ماذا تعنى .

فتقدم إليه اللورد هنرى وجلس إلى جواره وأمسك يديه وشد عليها فى قوة قائلاً :

- لا تنزعج يا دوريان . كتبت لك أقول إن سيبييل فين قد ماتت .
فتأوه الفتى تأوه المطعون فترع يديه من يدي اللورد هنرى وقال :
- أتقول إن سيبييل ماتت ؟ هذا غير صحيح ، بل هذه فرية دنيئة . كيف
تجرؤ على هذا الافتراء ؟
قال اللورد هنرى مكتئباً :

- بل ما قلت غير الحقيقة يا دوريان . لقد نشرت النبأ صحف الصباح
جميعاً ، وقد كتبت لك لأطلب إليك ألا تقابل أحداً حتى أجيئك ، فأنت
تعرف أن التحقيق سيجرى فى الحادث ، ومن المصلحة أن تظل أنت بعيداً عن
كل شيء . إن مثل هذه الأشياء تجعلك قبلة الأنظار فى باريس .
أما فى لندن فالأمر يختلف . من الخطأ أن يبدأ الإنسان هنا حياته
الاجتماعية بفضيحة ، والأنسب أن يؤجلها لأيام شيخوخته حتى يظل اسمه
على ألسنة الناس بعد أن يوارى من الحياة العامة . أظن أنهم لا يعرفون اسمك
فى المسرح ، فإذا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج . هل
رأك أحد تدخل غرفتها ؟ اجتهد أن تتذكر فهذه نقطة مهمة .
مرت لحظات عجز فيها دوريان عن الكلام لأن الرعب قد عقد لسانه ،
وأخيراً قال فى صوت متقطع يشبه الهمس :

- أتقول أن هناك تحقيقاً يجرى يا هارى ؟ ماذا تقصد بذلك ؟
أتراها - أواه ! لم أعد احتمل يا هارى ، فعجل وقص على كل ما حدث .
- أنا لا أشك فى أن وفاتها لم تكن نتيجة خطأ يا دوريان ، ولكن يجب
أن تخفى الحقيقة عن الجمهور ، والمعروف أنها خرجت من المسرح فى صحبة
أمها نحو الساعة الثانية عشرة والنصف ، ثم احتجت بأنها نسيت فى غرفتها
شيئاً ما ولما طال انتظارها صعدوا إلى غرفتها فوجدوها مسجاة على أرض
الغرفة وقد فارقتها الحياة بعد أن شربت مادة سامة من تلك المواد التى

يستعملونها فى المسرح لا علم لى بها على التحقيق ، ولكنى أعرف أنها تحتوى
إما على حامض البراسيك أو الرصاص الأبيض ، والأرجح أنه الأول لأنها
ماتت فوراً .

فصاح الفتى قائلاً :

- يا للفجيعة ! يا للفجيعة !

- نعم يا دوريان ، إنها لمأساة أليمة، ولكن يجب ألا يدخل اسمك فى
الحادث . إن صحيفة الاستاندارد تقول إنها فى السابعة عشرة من عمرها ،
وقد كنت أظنها أصغر من ذلك سنأ . لقد كانت تبدو كطفلة غريبة ، ويظهر
أن علمها بأصول التمثيل ضئيل . اسمع يا دوريان : يجب عليك أن تحتفظ
برباطة جأشك وهدوء أعصابك . تعال لتعشى معاً ، ثم نذهب إلى الأوبرا
بعد ذلك . إنى أدعوك إلى مقصورة أختى ، وستجد هناك بعض مليحات لندن .

قال دوريان جراى وكأنه يحدث نفسه :

- إذا فقد قتلت سيبييل فىن ، ذبحتها بيدي ذبحاً ، ومع ذلك فورود
الحديقة الجميلة لا تزال جميلة ، والأطيار تغرد فيها ألحانها الطروب كما كانت
من قبل تغرد وأنا الليلة أتعشى معك ، ثم أذهب إلى دار الأوبرا . وما أشبه
الحياة بمأساة عنيفة ! فلو أننى قرأت كل هذا فى كتاب لبللت الكتاب بدموعى .
أما وقد وقعت هذه الحوادث لى فعلاً فما أنت ترانى عصى الدمع من فرط
الذهول . هذا أول خطاب غرامى أكتبه بشعور صادق . أفليس عجيباً أن
أكتب أول رسائل غرامى إلى فتاة ميتة ؟ ترى أبحس سكان القبور بما يجرى
فى عالم الأحياء ؟ ولى عليك يا سيبييل ! أتراها تحس بدخيلة نفسى أو تسمع
صوتى المتهدج هذا أو تعرف ما أنا فيه من اضطراب ؟

كم أحببتها يا هارى قبل تلك الليلة المشئومة ، ولكن هذا كله قد فات ،
هو الآن جزء من تراث الماضى السحيق . لقد ملأت أفق حياتى . حتى كانت
تلك الليلة المشئومة فكسر قلبى بفضاعة تمثيلها . ، بالى أقرر تلك الليلة

المشئومة كأنها ليلة من اليالى الخوالى ، وماهى إلا ليلة الأمس ؟ ولقد شرحت لى سر سقوطها بعبارات تفتت الحجر الأصم ، ولكنى لم أرق لنحيبها ، بل ظننتها امرأة تافهة لا تحس شيئاً فى الحياة ، ثم حدث لى شىء جعلنى أحاسب نفسى وأخاف المستقبل ، فعلمت أنى قد أسأت إليها وعزمت أن أعود إليها طالباً الصفح ، ولكن ها هى ذى قد ماتت فماذا أفعل يا هارى ، ماذا أفعل ؟ الرحمة يا إلهى ! الرحمة من عندك يا إلهى ! إنى لأسير على شفاة هوة عميقة ولا أجد فى الدنيا ما أستهديه سبيل الرشاد . لو أنها عاشت لكانت لى النجم الهادى والمرفأ الحنون . إن حياتها لم تكن ملكاً لها ، فمن الخسة أن تقتل نفسها وتتركنى هنا أضرب فى الأرض بغير رائد .

فقال اللورد هنرى هو يخرج سيجارة من علبة وكبرت مذهبة :

- إن الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها امرأة أن تهدى رجلاً هى أن تدخل الضيق فى نفسه حتى يفقد كل رغبة فى مباحج الحياة ، ولو أنك تزوجت من هذه الفتاة لشقيت عامة عمرك . أنا لا أشك فى أنك كنت ستعاملها معاملة حسنة ، ولكن هذا موضوع آخر ، فنحن نستطيع أن نحسن معاملة من لا نكثر بهم ، وقد كان من المحقق أن تستكشف هى هذا بعد فترة وجيزة ، وحين يتبين للمرأة أن زوجها لا يكثر بها تراها إما تهمل فى مظهرها إلى حد مزر ، وإما تسرف فى ارتداء الثياب الفاخرة التى يدفع ثمنها زوج امرأة أخرى ، كذلك لاتنس أن التفاوت الاجتماعى الهائل بين مكانتك ومكانتها كان كفيلاً بتعقيد الأمور ، ولقد كنت عازماً على تجنبك هذا الخطأ مهما كلفنى هذا الأمر . نعم ، لاشك فى أن مثل هذا الزواج كان خليقاً بالفشل .

قال الفتى وهو يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ، وقد بدا عليه شحوب مخيف :

- أرجح أن هذا صحيح ، ولكن الواجب كان يقضى علىّ بالوفاء بوعدى ، وأنا لا ألام إذا كانت هذه المأساة الأليمة قد منعتنى من أداء الواجب . إنى

لأذكر ما قلته لى ذات مرة من أن القدر يكيد لنا كلما عزمنا على فعل شيء جميل ، فالنوايا الطيبة تأتى دائماً بعد فوات الوقت ، وهذا يصف حالتى أحسن وصف .

- إن النوايا الطيبة تدخل لا جدوى منه فى سير القوانين العلمية ، ومنشؤها الغرور لا سواه ، أما نتيجتها فصفر لا أكثر ولا أقل ، ونحن نستمد منها بين وقت وآخر بعض اللذة العقيمة التى تستهوى قلوب الضعفاء ، وهذا كل ما لها من مسوغ . إن النوايا الطيبة لتشبه شيكات يسحبها الناس على بنوك ليس لهم فيها رصيد .

فقال دوريان جراى وهو يجلس إلى جواره :

- ما السر فى إنى لم أفجع لهذه المأساة إلى الحد الذى أريد ؟ لست أظن أنى شخص ميت الشعور . أعتقد ذلك فى يا هارى ؟

أجاب اللورد هنرى بصوته العذب الحنون :

- كلا . فإن تاريخك الحافل بالحماقات فى الأيام القليلة الماضية لا يؤهلك لمثل هذا الوصف .

فعبس الفتى وقال :

- أنا لا أَرْضى بتفسيرك هذا يا هارى ، ولكنى مغتبط لأنك لا ترانى شخصاً ميت الشعور ، فما أنا كذلك ، وإنى لوائق من هذا ، ولكنى برغم ذلك أعترف بأنى لم أحزن لفقدان سييل كما كان ينبغى أن أحزن ، فهو يبدو لى الآن كنهاية رائعة لرواية رائعة لا أكثر ، نعم . لقد كانت قصتنا مأساة لها ما لمأسى الإغريق من جمال مدمر ، مأساة كنت أنا فيها البطل الأول .

- إنها لمسألة تستحق الاهتمام ، بل إنها لمسألة تستحق كل الاهتمام ، وأظن أن تفسيرها الحقيقى هو أن مأسى الحقيقة تحل بالناس خالية من كل تصميم فنى ، فتؤذينا وحشيتها الساذجة وتناقضها المطلق وقلة مدلولها وافتقارها

التام لكل أسلوب ، فهي تؤثر فينا تأثير الأشياء المتبدلة فينا ، أى أنها تستحقنا سحراً بمالها من قوة غشوم ، ونحن نمقت القوم الغشوم ، ولكن بين آن وآخر تقع فى حياتنا مأساة لها طابع فنى ، فإذا كانت عناصر الجمال التى نجدها فى هذه المأساة عناصر صحيحة لا زيف فيها ، تركت فينا أثراً يشبه الأثر الذى تتركه فينا مسرحية من المسرحيات ، وعندئذ يزايِلنا الإحساس بأننا ممثلون فى هذه المسرحية ونعتقد أننا من النظارة ، أو على الأصح نشعر بأننا من الممثلين ومن النظارة فى وقت واحد ، بذلك نشاهد أنفسنا كل يقوم بدوره فيسحرنا هذا المشهد ، وفى حالتك أنت بالذات كل ما حدث هو أن فتاة انتحرت لأنها تحبك ، وهو اختبار ممتع ، أو لو أنه حدث لى ، فهو كفيل بأن يجعلنى من أنصار الحب بقية حياتى . إن كل من عشقنى من النساء ، وهن قليلات ، قد حرصن كل الحرص على الحياة بعد أن نضب حبل لهن أو جهن لى ، بل لقد زاد وزنهن وأصبحن مصدر ملل دائم لى ، فكلما قابلت إحداهن اختلت بى وذهبت تبادلى الذكريات . إن قوة ذاكرة المرأة لشيء مزعج ، وهى إن دلت على شيء فهو أن عقولهن لا تشتغل أبداً ! إن جمال الحياة فى ألوانها الخاطفة ، أما التفاصيل فجديرة بالنسيان ، فالتفاصيل أشياء مبتذلة .

قال دوريان جراى متهدداً :

- لا بد أن أزرع الخشخاش فى حديقتى تحية لذاكرها .

فقال اللورد هنرى :

- لا داعى لذلك ، فالحياة تحمل أزهار الخشخاش فى يديها دائماً ، ولقد تخلو منها يداها بين الحين والحين ، فأنا أذكر أنى وضعت البنفسج فى عروتى موسماً بأكمله حداداً على غرام لا يريد أن يموت ، ولكنه مات والله الحمد آخر الأمر ، وإن كنت لا أذكر ماذا قتله ، أعتقد أنها قالت لى مرة إنها على استعداد لتضحى بكل ما فى الدنيا من أجلى ، فأجهز هذا على ما بقى فى قلبى من الحب . إن عبارات الوفاء تنتشر الرهبة فى نفوسنا ، فنحن نخاف من

والإخلاص الدائم خوفاً من الأبدية ، ولعلك لا تصدقنى إذا قلت لك أنى التقيت منذ أسبوع بهذه السيدة التى حدثتك عنها فى مأدبة عشاء أقامتها الليدى هامبشير ، وكان من نكد طالعى أن جلست بجوارها إلى المائدة ، فما كان منها إلا أن نبشت الماضى ونبشت المستقبل كذلك ، وأنشأت تذكرنى بكل ما حدث بينى وبينها ، وزكدت لى أنى قد أفسدت حياتها . لقد دفنت غرامى فى نعش من أوراق السوسن فاستخرجته من جديد . أجل . زعمت أنى قد أفسدت حياتها ، فلما رأيتهما تتناول عشاءها بشهية عظيمة زال القلق الذى ساورنى بشأنها . أقول هذا لأنه دليل على فساد ذوقها . إن أجمل ما فى الماضى أنه مضى ، ولكن النساء لا يعرفن متى ينسدل الستار على كوميدى الحياة ، وهن دائماً يرغبن فى إطالتها بإضافة فصل سادس لها ، بعد أن تكون بهجتها قد نضبت ، ولو أننا تركنا الأمر لهن لانتهدت كل كوميدى نهاية محزنة ، ولاستحالت كل مأساة فى النهاية إلى مهزلة . إن النساء يتكلفن فى كل شىء وهذا ما يحجبهن إلينا ، ولكنهن خلون من كل ذوق فنى ، ولقد كنت أسعد حظاً منى فى سوق الغرام يا دوريان ، فأنا أؤكد لك أنه ما من امرأة ممن عرفت من النساء كانت لتقتل نفسها بسببى كما قتلت سيبيل فى نفسها بسببك ، فالنساء العاديات يجدن دائماً ما يعزيهن عن الغرام الضائع ، ومنهن من يلتمس العزاء فى ارتداء الثياب ذات الألوان المؤثرة ، وأنا أحذرك يا دوريان من كل امرأة تلبس ثياباً بنفسجية أيّاً كان عمرها ، وإذا صادفت امرأة تخطت الثلاثين تتزين بالشرائط الوردية فاجتنبها كذلك ، فمثل هؤلاء لهن ماض ، ومن النساء من يتعزين عن غرامهن باكتشاف محاسن أزواجهن فجأة ، وتراهن يثرثن فى كل مكان عن سعادتهن الزوجية كأن السعادة الزوجية ثمرة محرمة شهية قطفنها وحدهن من دون خلق الله ، ومن النساء من يلتمس العزاء فى الدين ، ولقد قالت إحداهن لى إن ألغاز الدين لها ما للغزل من سحر فى نفوسهن ، وأنا أصدقها ، ثم إن للناس يجدون فى الخطيئة مصدراً للفخر ، ومنشأة الأثرة هو ضمير الإنسان . من هذا ترى أنه لا أحد لأسباب العزاء التى تجدها النساء فى هذه الأيام ، ومما ذكرت منها أهمها .

فسأله الفتى فى فتور :

- وماذا يكون هذا يا هارى ؟

- إن أول ما تفعله المرأة حين تفقد عشيقها هو أن تسلب امرأة أخرى عشيقها ، وهذا كاف فى المجتمع الراقى أن يرد للمرأة اعتبارها ، ولكن لابد أن سيبيل فىن كانت تختلف عن سائر النساء اللاتى نعرفهن يا دوريان . إن موتها لفاجعة جميلة ، وإنى لسعيد بأنى أعيش فى عصر تحدث فيه مثل هذه العجائب ، فمثل هذه العجائب تثبت إيماننا بحقيقة الحب والعاطفة والخيال وسائر الأشياء التى نلهو بها فى هذه الحياة .

- ولكنك تنسى أنى قسوت عليها قسوة مرة .

- إن النساء يستطبن القسوة ، بل يستطبن القسوة التى تصل إلى حد الهمجية ، لأن غرائزن لا تزال فى دور الفطرة ، وهذا ما يفتنى فيهن ، لقد منحناهن الحرية ولكنهن بقين كما كن عبيداً يبحثن عن سادة ، وهن يطلبن من الرجل أن يفرض سلطانه عليهن ، ولست أشك فى أنك قمت بهذا الواجب خير قيام ، وإنى وإن كنت لم أدركك قط غاضباً غصباً جارفاً فإنى لا أتصور منظرك الجميل حيث ثُرْتُ على سيبيل فىن كالبركان ، ثم إنك قلت لى منذ يومين شيئاً ظننته إسرافاً منك فى الأوهام ، ولكنى أدرك الآن أنه حقيقة لا جدال فيها وهو يفسر كل ما حدث .

- ماذا تعنى يا هارى ؟

- قلت لى إنك تجد فى سيبيل فىن جميع بطلات الخيال ، فهى يوماً ديدمونة ويوماً أوفيليا وأنت تشيعها إلى مقرها الأخير فى صورة جوليت فإذا بها تعود إلى الحياة فى شخص إيموجن .

قال الفتى وهو يدفن وجهه فى راحتيه :

- ولكنها لن تعود إلى الحياة بعد الآن .

- بلى ، لن تعود إلى الحياة بعد الآن فقد لعبت دورها الأخير ، ولكن يجب عليك يا دوريان أن تتصور ميستها الموحشة في غرفتها بالمرشح منظرًا غريبًا عاصفًا من مسرحية جميلة لويستر أو فورد أو سيريل تيرنر أو أترابهم من كتاب عصر جيمس الأول الذين كلفوا بالعنف والإغراب ، فسييل لم تنتم يوماً إلى عالم الأحياء ، ولهذا كان خطأ منك أن تحسب أنها ماتت ، فقد كنت تراها في وادي الأحلام فتخالها طيفاً يخطر بين مسرحيات شكسبير ويشيع فيها من سحره سحراً ، وتسمعها فتحسبها نادياً شجياً يثك ألحان شكسبير فتزداد به الألحان حلاوة ، وحين أرادت أن تحيا في الحقيقة أفسدتها الحياة فكانت بذلك نهايتها . فابك شباب أوفيليا إذا أحببت ، ولطخ خديك بالتراب حزناً على كورديليا الأمانة ، والعن السموات بأعلى صوتك لأن ديدمونة الطاهرة قد أسلمت روحها ، ولكن لا تُرقِ دمة واحدة على سييل فين ؛ لأنها طيف من نسج الأحلام ، أما هن فمن بنات الحقيقة .

ثم أعقب هذا صمت مستطيل وانتشر الظلام في الحجرة بمجيء المساء ، ومن الباب دخلت أشباح الحديقة في هدوء فلم يسمع أحد لأقدامها وقعاً ، أما الألوان فتقاربت وتداخلت فلم يعد أحد يميز من بينها لونها .

وبعد قليل رفع دوريان جراى رأسه وقد عاد إليه هدوءه . قال :

- لقد شرحت لى دخيلة نفسى يا هارى ، ولقد كنت أحس بكل شيء ذكرته لى ، ولكنى لم أجد الشجاعة الكافية لأصارع نفسى به . فما أصدق معرفتك بى ! ولكن دعنا من الماضى ولنسدل عليه ستاراً وكل ما أقوله فيه أنه كان اختياراً رائعاً ، أنظن أن الحياة تخبىء لى الكثير من هذا القبيل ؟

- نعم يا دوريان ، فالحياة تخبىء لك كل شيء ، فليس هناك ما يستعصى على وجهك الجميل هذا .

- ولكن ماذا يكون الحال يا هارى إذا ما ضاع شبابى وشحب لونى وتغضن وجهى ؟

فقال اللورد هنرى وهو يتأهب للانصراف :

- عندما يحدث ذلك يا عزيزى دوريان لن يأتيك نصر إلا لكفاحك ، أما الآن فأسباب المجد تساق إليك سوقاً . نعم يا دوريان ، لا بد لك من الاحتفاظ بجمالك ، فنحن نعيش فى جيل أسرف فى الاطلاع حتى فقد الحكمة ، وأسرف فى التفكير حتى أضاع الجمال ، ولن نجد ما يغنيننا عنك فابق لنا كما أنت الآن ، ولكن يجدر بك أن تسرع بارتداء ملابسك وتأتى معى إلى النادى ، فقد تأخرنا .

- سألحق بك فى الأوبرا يا هارى ، لأن التعب قد قتل شهيتى للأكل فما رقم مقصورة أختك .

- سبعة وعشرون ، وستجد اسمها على باب المقصورة فلن يطول بحثك ، ولكن يؤسفنى أنك ترفض دعوتى للعشاء .

قال دوريان جراى فى فتور :

- اعفنى هذه المرة ، فلن أستطيع أن أكل شيئاً ، ولكن يجب أن أقول لك قبل أن تنصرف إنى مدين لك بالكثير ؛ فكلماتك قد طيّبت نفسى ، ولن أجد بين الناس صديقاً مثلك يخفف عنى الأحمال ، فما من أحد نفذ إلى سريرتى نفاذك أنت إليها .

فأجاب اللورد هنرى وهو يصافحه :

- ما نحن إلا فى بداية الطريق يا دوريان ، وأرجو أن تقوى صداقتنا على الأيام . آمل أن أراك قبل منتصف الساعة التاسعة ، ولا تنس أن باتى يغنى الليلة فى الأوبرا ، فإلى اللقاء .

وبعد أن أغلق الباب وراءه دوريان جراى الجرس يطلب خادمه فدخل عليه فكتور يحمل المصابيح وأسدل على النوافذ ستائرهما ، وبدا لدوريان جراى

أنه يتلکأ فى عمله فنفذ صبره ، ولكن فکتور خرج أخيراً فأسرع إلى الصورة وأزاح عنها الغطاء ليستطلع مدى التغير الذى حل بها فى الفترة الأخيرة ، فوجدها كما كانت قبل أن يزوره اللورد هنرى ، فعرفت أنها علمت بموت سيبييل فىن قبل أن يعلم هو ، وعرف أنها تستجيب لكل ما يحدث فى الحياة وقت حدوثه ، فإذا كان الأمر كذلك فأمارات القسوة التى طالعها فى موضع الفم لا بد ظهرت لحظة أن قتلت سيبييل فىن نفسها ، ثم خطر له أن الصورة إن هى إلا مرآة روحه ، فهى لا تتأثر بما ينجم عن مسلكه عن نتائج ، وإنما تسجل كل تغير ينتاب روحه ، ولم يجد جواباً شافياً على مزاعمه المضطربة ، ولكنه تمنى أن يرى بعينه التغير يجرى فى الصورة يوماً من الأيام ، وفيما هو يفكر فى هذه الأمر اقشعر بدنه من هول الفكرة .

يا لسيبييل من فتاة تعسة ! ويا له من غرام فاجع ! كم ذقت على المسرح كأس المنية حتى قبضت المنية روحها وخطف الموت السر من بين جنيها . تراها أتقنت آخر منظر فى مأساة حياتها ؟ تراها لعتته وهى تموت ؟ ولكن كيف تلعنه وهى قد ماتت فى هواه ؟ كلا . لقد أصبح الحب طريقة للخلاص فلقد مسحت عنه بموتها آثامه ، فليس إذا ما أنزلت به من عذاب فى ليلة الفراق ، وليذكرها كعذراء أرسلتها المقادير إلى مسرح الحياة لتثبت للناس حقيقة الحب ، ويالها من عذراء تبهر الناظرين ! وترقرقت الدموع فى عينيه حين استحضر فى خياله محياها البرىء وحياها الخلاب ، وطباعها العجيبة ، فجففها لفوره وعاد يتطلع إلى الصورة من جديد .

وأحس بأنه يقف فى مفترق الطرق ليختار من السبل ما يشاء ، ولكن كيف يختار من السبل ما يشاء وقد اختارت له الحياة السبل الذى يسلكه ؟ أجل ، إن الحياة قد فصلت له فى أمره نيابة عنه لأن به شغفاً بالحياة لا يحد بحدود ، فالشباب دائم النضرة ملك يديه والعواطف الجارفات كالسيول ، واللذات الخفية واللذات التى لم تعرفها نفس أبداً ، والأفراح المجنونة والخطايا

المجنونة ، كل هذا من نصيبه ، وما على الصورة إلا أن تحمل وزر حياته النكراء .

وعندما تصور المسخ الذى سيصيب وجهه الجميل على اللوحة اقشعر بدنه مرة أخرى . لقد أراد ذات مرة أن يقلد الإله الذى عشق نفسه فى أسطورة النرجس ، فقبل تلكما الشفتين اللتين تكايدانه فى اللوحة بما تحملان من قسوة ، ولكم جلس يوماً بعد يوم قبالة الصورة يتغزل بجمالها . أتراها الآن تسجل عليه كل ما يجرى فى دخيلة نفسه ؟ أتراها تزدداد كل يوم بشاعة حتى تصبح فى النهاية مسخاً رجيماً يجب أخفاؤه عن العيون وإقصاؤه إلى حجرة محكمة الإيصاد بعد أن كانت تغتسل كل يوم فى ضوء الشمس ويبرق شعرها المتموج فيه كسبائك النضار ؟ واهاً ثم واهاً .

وأراد أن يسجد ضارعاً للسماذ أن تضع حداً لهذا التجاوب المقيت بينه وبين الصورة ، وبعد ، ألم تتغير الصورة إجابة لصلاته الأولى ؟ ! فليس مستحيلاً إذاً أن تثبت على حالها إجابة لصلاة ثانية ، ولكنه لم يقو على ذلك الإغراء لأن الإغراء كان عظيماً ، فهل بين الأحياء الذين ذاقو طعم الحياة من يرفض أن يشتري الشباب الدائم مهما غلا ثمنه ؟ ثم من يدريه أن الصورة رهينة برغباته ؟ من يدريه أنها تغيرت لأن صلاته قد أجيبت ؟ أليس جائزاً أن هناك تفسيراً علمياً لكل ما يحدث ؟ أليس جائزاً أن الفكر الذى يؤثر فى الكائنات الحية مستطيع كذلك أن يؤثر فى الكائنات الجامدة ؟ ثم أليس جائزاً كذلك أن أشياء العالم الخارجى تستجيب لخواطرنا وأهوائنا دون فكر أو وعى فتجذب ذرة فيها ذرة بقانون الحب المخبوء فى كل شىء ، ولكن كيفما كان التعليل فهو لا يغير من الأمر شيئاً ، وهو لن يثير بعد اليوم بصلواته القوى الرهيبة فى هذا الموجد ، وكفاه ما كان . فلتتغير الصورة إذا كان مقدراً لها أن تتغير ، فما له فى ذلك حيلة ، ولا داعى للتفكير فى العلل والنتائج .

لسوف يجد لذة فى مشاهدة التطور الذى يتزل بها ، ولسوف يقف على
مكونات عقله التى لا يعرف عنها شيئاً يوماً بعد يوم . لسوف تكون الصورة
مرآته السحرية التى تعكس له تلافيف نفسه كما عكست له ثانياً جسمه ، وحين
يحل عليها الشتاء فيذويها ، يختال هو بين الربيع الناضر والصيف القوى ،
وحين يفيض الدم فى وجنتيها ويترك وراءه صفحة شاحبة بيضاء ومقلة أطفأتها
السنون يبقى له سحر الصبا . أجل . لن تذوى زهرة واحدة فى بستانه اليانع ،
ولن يهدم فيه عرق ينبض الآن بالحياة ، ولسوف تبقى له فتوته أبداً وخفته
أبداً ومرحه أبداً كأنه إله من آلهة الإغريق ، فماذا يهم لو تبدلت الصورة أو
شاهت أو تهشمت ؟ إنه فى حصن حصين لا تصل إليه يد الزمن ، وهذا كل
ما يصبو إليه .

وغطى الصورة بالستار مرة أخرى وابتسم فى رضا ، ثم دخل حجرة النوم
حيث كان خادمه ينتظره ، وبعد ساعة كان دوريان جراى فى الأوبرا ، وكان
اللورد هنرى يتحدث إليه بصوت مهموس .

الفصل التاسع

وفى الصباح التالى جلس دوريان جراى ليتناول فطوره ، وفيما هو كذلك دخل عليه بازيل هولوررد وقال مكتئباً :

- أنا سعيد الحظ لأنى وجدتك أخيراً يا دوريان ، وقد مرت بك ليلة الأمس فقيل لى إنك فى دار الأوبرا ، فلم أصدق ذلك ، ولقد كنت أودّ لو أنك بعثت إلى بىرقية عقب علمك بالحادث مباشرة ، أما أنا فقد طالعت النبأ فى طبعة متأخرة من صحيفة الجلوب عثرت عليها فى النادى بمحض المصادفة ، فجئت فوراً وأحزنتنى أنى لم أجذك ، فقد أشفقت أن تردف أنت هذه المأساة بمأساة أخرى ، وأقتضت هذه الفكرة مضجعى طول الليل فلم أذق للنوم طعماً . كان يجدر بك يا دوريان أن تترك كلمة تعين فيها المكان الذى قصدت إليه ، فقد أشقانى القلق عليك شقاء ما بعده من شقاء ، كما أحزنتنى موت سيبيل حزناً ما بعده من حزن ، وإنى لأحس بأثر الفجيعة فيك فتجمل بالصبر ، ولكن أين كنت ليلة الأمس ؟ أذهبت لتواسى أم الفتاة ؟ لقد خطر ذلك ببالى ، وكدت أن أتبعك إلى بيتها ببوستون رود الذى قرأت عنوانه فى الصحيفة ، ولكنى خفت أن تكون زيارتى لهذا البيت الحزين فضولاً يضر أكثر مما ينفع ، فهذه فجيعة فريدة لا يفيد فيها عزاء ، وكيف تتعزى من رزئت فى وحيدتها ، فيا لأمها الشكلى من امرأة منكودة الطالع . ما من ريب فى أن قلبها قد مزقته الأحزان . قل لى ، كيف تراها استقبلت الحادث يا دوريان ؟

قال الفتى وهو يرشف بعض النبيذ الأصفر من كأس دقيقة التكوين مزخرفة بالذهب صنعت من زجاج البندقية ، وقد بدأ عليه الملل الشديد :

- كيف أعلم ذلك وقد كنت فى الأوبرا ؟ لیتك جئت معنا ، فقد كانت ليلة ممتعة تعرفت فيها لأول مرة على اللیلدى جوندولين ، أخت هارى ، وقد كنا فى مقصورتين فوجدتها امرأة فاتنة حقاً ، وكان پاتى یغنى فأجاد الغناء . لا تتحدث يا بازيل عن الموضوعات المحزنة ، فالشئ الذى لا نتحدث عنه لم یحدث البتة ، لأن التعبير كما قال هارى هو الذى یکسب الأشياء صفة الحقيقة ، ولكنى أحب أن أذكر لك عَرَضاً أنه لمسر فىن ابناً لا یشتغل بالتمثيل بل یعمل كبشار ، وأعتقد أنه فتى لطیف ، والآن فلتحدثنى عن نفسك وما ترسمه فى هذه الأيام .

قال هولوررد فى بطء وكان صوته ینم عن ألم بالغ :

- أتقول إنك ذهبت إلى الأوبرا ؟ أتقول إنك ذهبت إلى الأوبرا حین كان سیبیل ین مسجاة فى بیتها المقبض ؟ أتتحدث بجمال غیرها من النساء وبروعة غناء پاتى قبل أن تجد حبیبك القبر الذى تستريح فيه ، أنسیت أن الدود ینتظر جسدھا البض الصغیر فى شوق ولهفة ؟

فنهض دوریان من مكانه وصاح به قائلاً :

- كفى يا بازيل ، ولا تذكر هذه الأشياء أمامى مرة أخرى ، وانس ما فات ، فلیس لأحد سلطان على الماضى .

- أسمى الأمس بالماضى ؟

- وما دخل الزمن فى كل هذا ؟ إنما یحتاج السذج إلى أعوام طويلة لیبرءوا من عاطفة ما ، أما من تعود أن یكون سید نفسه فأحزانه تخضع لإرادته یصرفها حین یشاء ، ولذاته طوع بنانه یخلقها متى أحب ، وأنا لا أريد أن أدع عواطفى تستبد بى ، بل أريد أن أستخدمها وأنعم بها وأسیطر علیها .

- هذه قسوة يا دوریان ، ولا بد أن شیئاً قد بدل من طباعك تماماً . أنت ما زلت كما كنت دائماً ذلك الفتى الصبوح المحیا الذى كان یجیئنى فى الاستودیو يوماً بعد يوم لأرسمه ، ولكنك كنت أنقى منَ عرفت من الناس ،

أما الآن فأنت تتحدث حديث شخص ميت الإحساس ، وهذا لا ريب أثر هارى فيك .

فاحمر وجه الفتى ، ومشى إلى النافذة وأنشأ يتأمل حشائش الحديقة الخضراء التى تلمع فى ضوء الشمس لحظات ثم قال :

- إن دينى لهارى أثقل من دينى لك يا بازيل ، فأنت لم تعلمنى إلا أن أغتر بنفسى .

- إذا كان الأمر كذلك فقد حل بى غضب السماء أو سيحل يوماً من الأيام .

التفت الفتى إليه وقال :

- لست أفهم ما تقول يا بازيل . ماذا تريد منى ؟ أجب .

فأجاب الفنان بنفس حزينه :

- أريد منك أن أرى فيك دوريان جراى الذى اعتدت أن أرسمه .

فسعى الفتى إليه ووضع يده على منكبه قائلاً :

- لقد جئت متأخراً يا بازيل ، فحين سمعت البارحة أن سيبيل فى قد

انتحرت . . .

فحملق هولوردد فيه فزعاً وصاح :

- انتحرت ! يا إلهى ! أهذا مقطوع به ؟

- بالطبع انتحرت . هل انطلى على ذكائك الوقاد يا عزيزى بازيل أن

موتها كانت نتيجة حادثة عادية .

فدفن الرسام وجهه فى كفيه وقال وهو يرتجف :

- يا للفظاعة ؟

قال دوريان جراى :

- ليس فى الأمر فظاعة ، فلقد كان مصرعها مأساة من أجمل مآسى العصر ، فأنت تلاحظ أن المشتغلين بالتمثيل يعيشون كعمامة الناس عيشة مملة لا خيال فيها برغم أنهم يتجرون بالخيال ويبيعون الأحلام ، فتجد منهم الأزواج الأفاضل والزوجات الوفيات ، وما شاكل ذلك من الفضائل التى تتميز بها الطبقة المتوسطة ، أما سبيل فقد كانت تختلف كل الاختلاف ، فقد كانت تلعب دور البطلة فى مآسى المسرح وفى مآسى الحياة ، وفى آخر ليلة مثلت فيها ، وهى ليلة أن رأيتها ، سقطت فى التمثيل لأنها لمست حقيقة الحب فكشفت لها حقيقة الحب عن زيف الفن ، فلما أدركت زيف الفن ماتت ، ولكنها لم تمت كما تموت بنات الحياة ، بل ماتت كما تموت بنات الخيال ، ماتت ميتة جوليت ، فدخلت حرم الفن من جديد بعد أن خرجت منه ، وهى فى عداد الشهداء لأن لموتها كل ما للاستشهاد من جمال ضائع وتضحية لا طائل وراءها ، ولا تحسبنى أنى لم أحزن لوفاتها ، فلو قد جئتنى بالأمس نحو منتصف الساعة السابعة لوجدتنى أبكى ، وهارى ذاته الذى حمل إلى نأ وفاتها لم يعرف مبلغ شقائى ساعتها . نعم ، لقد حزنت عليها حزناً كثيراً ثم زال الحزن عنى ، ولن أستطيع أن أسترجه فما تعودت أن أكرر عواطفى ، لأن هذا خليك بأصحاب العواطف الزائفة ، ولست منهم ، فأنت كما ترى يا بازيل تظلمنى ظلماً فاحشاً إذ تقول بأنى ميت الإحساس ، لقد جئتنى لتعزىنى وهذا جميل منك ، فتجدنى متعزياً فيغضبك أن أكون كذلك ، فهل أنت من أصحاب العواطف الزائفة ؟ أنت تذكرنى بقصة رواها لى هارى عن رجل من أولئك الرجال الذين أتعبهم حب البشر أضعاف من عمره عشرين عاماً فى إصلاح قانون ظالم ، فلما وفق أخيراً إلى ذلك وارتفع الظلم أصيب بخيبة أمل شديدة ، فقد وجد نفسه عاطلاً تماماً لا يجد ما يعمل حتى كاد الملل أن يقتله ، فانقلب من محب للبشر إلى ناقم على البشر ، ثم إنك لو أردت أن تواسينى يا عزيزى بازيل فلخير لى أن تعلمنى كيف أنسى ما حدث من أن تذكرنى به ، لخير أن تعلمنى كيف أستقبل هذه المحنة استقبال الفنان من أن

تطلب إلى أن استقبلها الإنسان العادى ، أليس جوتييه هو القائل بأن الفن يوأسى النفس ؟ هذه عبارة قرأتها فى كتاب به وجدته مصادقة أيام أن كنت أزورك فى الاستوديو ، ولست كذلك الشاب الذى ذكرته لى عنه حين كنا معاً فى مارلو أنه يقول إن ملمس الأطلس الناعم ينسبه كل ما فى العالم من أحزان ، فأنا أتعشق الأشياء الجميلة ولا أقنع منها القليل . أنا أحب التماثيل البرنزية والتماثيل العاجية والقماش المزخرف القديم وأدوات الترف وأسباب البذخ ، وبالجمله أحب أن يكون كل ما تقع عليه حواسى جميلاً فيه أثر الفن . مثل هذه الأشياء تجعل الحياة بهيجة ولكن قيمتها الأولى عندى هى أن تلهمنى بالخواطر الفنية أو تعرض علىّ ما فيها من فن على أقل تقدير . فاجتناب آلام الحياة لا يكون إلا بعلو الذات ، ووقوف الإنسان موقف المشاهد من نفسه كما قال هارى . أعلم أن حديثى هذا يذهلك لأنك لم تتعوده منى ولكنك تنسى أنى قد نموت . لقد عرفتنى حين كنت تلميذاً لا خبرة لى بالحياة أما الآن فأنا رجل كامل النمو ، وأفكارى اليوم غير أفكارى بالأمس وعواطفى اليوم غير عواطفى بالأمس ، وإذا كنت قد تغيرت فهذا لا يستتبع تخفف من حبك لى ، بل ينبغى لك أن تظل كما كنت دائماً صديقى الوفى برغم أنى قد تغيرت . وأنا أحب حباً لا شك فيه ، ولكنى أعتقد أن أطيب نفساً . نعم . أنت أطيب نفساً برغم أنه أقوى منك شخصية وأقل خد من الحياة . تذكر يا بازيل كيف كنا سعيدين معاً فى الماضى فأرج ألا تقاطعنى أو تتشاجر معى ، وإذا كنت ترجو منى أن أعود كما كنت فمخطيء ، وواجبك أن تقبلنى على علاتى . هذه وجهة نظرى قد بسطتها لى وليس لدى ما أضيفه إليها .

وتأثر الرسام لهذا الكلام ، فقد كان يحب الفتى أيما حب ، ويعلم شخصيته قد ألهمته بأسلوب فى فنه جديد ، ولهذا لم يحتمل أن يسترسأ لومه ، وقد كان يعرف فيه النبيل وكرم النفس فظن أن فتوره فى الأيام لا ليس إلا نوبة عارضة .

فقال أخيراً وهو يتسم ابتسامة حزينة :

- لن أحدثك مرة أخرى فى هذا الموضوع الفظيع يا دوريان ، وكل ما أرجوه ألا يرتبط اسمك بالحادث على صورة ما . إن التحقيق سيجرى عصر اليوم ، فهل استدعتك النيابة ؟

فهز دوريان رأسه دلالة النفى ، وبدا عليه الاستياء من ذكر التحقيق ، فقد كان يرى فى أشباه هذه الأشياء أنها تصلح للرعاع لا للسادة . قال :

- إنهم يجهلون اسمى .

- ولكن الفتاة كانت تعرفه بلا شك .

- كلا . إنما كانت تعرف اسمى الأول فقط ، وأنا واثق من أنها لم تبح به لمخلوق ، فقد ذكرت لى مرة أنهم كلما سألوها عنى أجابتهم بأن اسمى الأمير الساحر ، فأحسنت بذلك صنعا . أرجوك يا بازيل أن ترسم لى صورة من سبيل لأنى أحب أن يبقى لى منها شىء يذكرنى بها غير القبلات القليلة التى تبادلناها والكلمات الحزينة التى سمعتها منها .

- إذا كان هذا يرضيك يا دوريان فسأحاول أن أرسم صورة منها ، ولكنى أطلب إليك أن تعود إلى لأرسمك من جديد فقد انقطع عنى الوحي منذ أن غبت عنى .

فجفل الفتى وأجاب :

- هذا مستحيل يا بازيل ، فلن أستطيع أن أقف أمامك مرة أخرى لترسمنى .

فحملق الرسام فيه وقال :

- ما هذا الهراء يا عزيزى ؟ أفهم من هذا أن الصورة التى رسمتها لك لم تعجبك ؟ ولماذا تحجبها بهذا الستار ؟ دعنى أرها فهى خير ما أنتجت فى

حياتي ، أرجوك أن تنزع عنها الستار يا دوريان ، واعلم أن خادمك قد تجاوز حدود الذوق حين حجب هذه الصورة عن الأنظار ، لقد لاحظت أن منظر الحجرة غير مألوف لدى لحظة أن دخلتها .

- إن خادمي لا صلة له بهذا الأمر يا بازيل . أتخسب أنني أسمح له بأن يتصرف في حجرتي كما يشاء ؟ إن كل ما أسمح به لفكتور هنا هو ترتيب الأزهار من وقت إلى آخر . لقد غطيت الصورة بنفسى لأن الضوء الساقط عليها قوى فخفت أن يفسدها .

- من أين جئت بهذه النظريات يا عزيزي ؟ إن هذا أنسب مكان لها . دعني أرها .

وسار هولورود إلى ركن الحجرة قاصداً الصورة ، فشحب وجه دوريان جرای ، وانبعثت منه صيحة فزع وأسرع ليعترض سبيله قائلاً :

- أنا أمنعك عن رؤية هذه الصورة يا بازيل .

فقال هولورود ضاحكاً :

- وكيف تمنعني عن رؤية عمل من أعمالي ؟ إنك لا ريب تهزل .

- كلا ، فأنا جاد فيما أقول تماماً ، وإذا أنت حاولت رؤيتها يا بازيل فإنني أقسم لك بشرفي أنني لن أكلمك ما حييت . لا تطلب إلى إبداء أسباب ، فإن فعلت فلن تظفر مني بشيء ، ولكن تذكر أنك لو جذبت هذا الستار فإن كل صلة بيننا تنتهي .

نزلت هذه الكلمات على هولورود نزل الصاعقة ، ونظر إلى دوريان جرای في عجب شديد ، فرأى الدم قد غاض من وجهه غضباً ، ورأى قبضتيه معقودتين ، وفي عينيه اشتعلت نيران زرقاء ، وأبصر كل جارحة فيه تتفرض انتفاضاً . قال :

- ما لك يا دوريان ؟!

- صه .

فتركه الرسام ومضى إلى النافذة ، وقال ببرود :

- ماذا انتابك يا دوريان ؟ إذا كنت تكره أن أرى الصورة فلن أراها بطبيعة الحال ، ولكن من السخف أن يحال بيني وبين عملي على هذا النحو وخاصة لأننى أنوى عرضها فى باريس فى الخريف القادم ، وأحسب أنها ستحتاج إلى طبقة جديدة من الورنيش قبل عرضها ، فإذا كنت سأراها فى يوم من الأيام فما الفرق بين رؤيتها الآن ورؤيتها غداً .

فتملك الفزع دوريان جراى وصاح به :

- أتريد أن تعرضها ؟ أتريد أن تعرضها ؟

إذاً فسيقف العالم كله على سره ويعجب الناس لهذا اللغز العظيم .

ولكن هذا مستحيل ، لأن دوريان جراى لن يسمح بذلك . نعم . لا بد من عمل شيء أيا كان ليحول دوريان جراى دون ذلك . قال الرسام :

- نعم ، أريد أن أعرضها ، وأحسب أنك لا تمنع فى ذلك . إن جورج پتى سوف يجمع أجود صوري ويرسلها إلى معرض خاص بشارع سيز بباريس ، وهذا المعرض سيفتح أبوابه فى الأسبوع الأول من أكتوبر ، ولن تغيب عنك الصورة أكثر من شهر واحد ، ولن تخسر بذلك شيئاً كثيراً لأنك ستغادر لندن إبان ذلك الشهر على أية حال ، وإذا كنت تحجب الصورة دائماً بهذا الستار فيستوى لديك وجودها وعدم وجودها .

ومر دوريان بيده فوق جبينه ليمسح العرق المتصبب منه ، وأحس بخطر هائل يحدق به . وقال :

- أما قلت لى منذ شهر إنك لن تعرض الصورة قط ؟ فلم عدلت عن قرارك هذا ؟ إنى لأرى أن أمثالك من الناس الذين يتمسكون بالمعقولية لا يقلون قلباً فى أهوائهم عن غيرهم ، وكل ما هنالك أن نزواتكم سفيهة

لا معنى لها ، أنسيت أنك أكدت لى بكل ما تملك من قوة أنه لن يحملك على عرضها شيء فى الوجود . ألم تقل لهارى نفس هذه الكلام ؟

ثم توقف فجأة عن الحديث ولمع فى عينيه بريق ، فلقد تذكر أن اللورد هنرى قال له ذات مرة بين الجدل والبدعابة : « إذا أردت أن تقضى ربع ساعة من أعجب ما مر بك فاجعل بازيل يدلى إليك بالأسباب التى تمنعه من عرض الصورة ، ولقد أدلى إلى بهذه الأسباب فعلمتني عنه شيئاً لم أكن أعرفه فيه » نعم . من الجائز أن لبازيل كذلك سرّاً يريد أن يحتفظ به لنفسك ، فليحاول إذاً أن ينزع منه هذا السر .

ومشى الفتى إليه ثم نظر إليه نظرة ثابتة وقال :

- اسمع يا بازيل ، إن لكل منا سرّاً يود أن يحتفظ لنفسه به ، فلو بحث لى بسرك بحث لك بسرى . لماذا كنت ترفض عرض الصورة فى بادئ الأمر ؟ فارتجف الرسام برغم أنه حاول أن يضبط شعوره وأجاب :

- لو أننى ذكرت لك السبب يا دوريان لجاز أن ينقص ذلك من حبك لى ، ولستخرت منى بغير شك ، وأنا حريص على حبك حريص على احترامك ، وإننى لراض بما يرضيك ، فإذا كان يرضيك ألا أرى الصورة أبداً فإنى بذلك راض ، ويكفينى أن أراك دائماً أمامى فلا حاجة لى إذاً بالصورة ، وإذا كان يرضيك أن تحجب أجمل صورة رسمتها عن أنظار العالم ، فهذا يرضينى كذلك ؛ لأن صداقتك أعز عندى من كل شهرة أوصيت .

فقال دوريان ملحفاً فى سؤاله :

- بل يجب أن تذكر لى السبب فمن حقى أن أعرفه .

وزال عن دوريان جراى إحساسه بالفزع وحل محله الفضول ، وصح عزمه على انتزاع هذا السر من بازيل هولوورد مهما كلفه ذلك ، وبدا على الرسام القلق وهو يقول :

- فلنجلس يا دوريان ، فلنجلس . . ولكن قبل أن أعترف لك بشيء
أجبنى عن هذا السؤال :

هل لاحظت فى الصورة شيئاً غريباً ، شيئاً لم تره فيها أولاً ، ثم ظهر
فيها فجأة ؟

فحملك الفتى فيه فى رغب وذهول وارتجفت يداه وقبضتا على ذراعى
مقعده وصياح :

- وكيف عرفت يا بازيل ؟!

- أرى أنك لاحظت فى الصورة شيئاً غريباً كما قلت . فلا تقاطعنى
يا دوريان وتريث حتى تسمع أقوالى كلها . لقد كان لشخصيتك سلطان عظيم
على نفسى منذ أن تقابلنا يا دوريان ، فامتلكت روحى وعقلى وسائر ملكاتى ،
وصرت أرى فى صورة المثل الأعلى الذى يأتينا معشر الفنانين من وادى
الذكريات ، ولا يفتأ يلم بنا إلام الحلم الجميل ، ولقد عبت هذا المثل الأعلى
فى شخصك حتى بت أغار من كل من تتحدث إليه ، وأحسست أنه
سيصرفك عنى ، وأردت أن أستحوذ على كل ما فىك وحدى ، وكانت
السعادة تجيئني بمجيئك وتغيب عنى بغيبتك ، ولكنك كنت حاضراً فى فنى
دائماً أبداً كلما غاب شخصك عنى ، ولم يكن فى استطاعتى بطبيعة الحال أن
أبوح بهذا السر ، فما كنت لتفهم معناه فأنا ، صاحبه لم أكن أفهم معناه ،
وكل ما فهمت منه أنى رأيت الكمال رؤية العين ، وأنى أحسست ببهجة الحياة
بعد أن كنت شقيماً ، ولعلنى أسرفت فى ابتهاجى بالحياة فقد لازمنى الإحساس
بخطر محدق ، فقد كنت أخاف من فقدانك وقد كنت أخاف من إبقائك ،
وهذا من خصائص الحب المدمر ، وكلما مرت الأيام زاد اندماجى فىك ،
ولقد رسمتك فى صورة أدونيس حاملاً رمحاً مصقولاً لابساً بزة الصيادين ،
ورسمتك فى زورق هادريان توجت رأسك أزهار اللوتس الثقيلة ، وامتد
بصرك وراء مياه النيل المضطربة الخضراء ، ورسمتك فى صورة إله النرجس

تأمل وجهك الجميل فى غدير صاف ساكن بين أدغال اليونان ، وقد لزمته حدود الفن الصحيح فى كل ذلك ، فكان عملى مثالياً بعيداً عن الحياة لا دخل للوعى فيه ، ثم جاءت نقطة تحول ، عزمت ذات يوم على أن أرسم صورة منك عظيمة ، بل صورة لك كما أنت فى الواقع وفى ملابس العصر الذى تعيش فيه ، ولست أدري ماذا دفعنى إلى ذلك ، أهو جمال الأسلوب الواقعى؟ أم جمالك أنت يا دوريان ؟ وقد ظهر شخصك لى مجرداً عن أساطير الفن . ولكنى أحسست وأنا أرسمك بأن كل خط أمدته ، وكل طبقة من اللون أضعتها على اللوحة تفضح سرى ، وأشفقت أن يرى الناس هذه الوثنية الجديدة فى عملى . أحسست يا دوريان بأننى قد بحث للناس بأكثر مما ينبغى لى أن أبوح به ، وأننى قد وضعت فى الصورة من نفسى أكثر مما ينبغى أن أضع ، وهذا ما جعلنى أقرر ألا أعرض الصورة ، وقد أحنقتك كلماتى قليلاً ، ولكنك لم تفهم وقتئذ معنى الصورة عندى ، أما هارى فقد صارحته بهذه الحقيقة فضحك منى ساخراً ، ولكنى لم أكرث لسخريته لأنى أفهم أسلوب تفكيره ، فلما إن تمت الصورة وجدت نفسى على انفراد معها فتبينت صدق احساسى ، ولكن الصورة انتقلت من الاستوديو إلى بيتك بعد بضعة أيام فزال سحرها فى نفسى ، وخلت أنى تركت نفسى فريسة للأوهام حين رأيت فى الصورة شيئاً غير عادى ، ولم أعد أرى فيها إلا أنها صورة شاب جميل بيد رسام ماهر ، بل أنا الآن أحس أنا من الغباوة أن يحسب إنسان أن العواطف التى تصاحب عملية الخلق عند الفنان تتجلى فى الأثر الذى يخلقه ، فالفن شىء مجرد على عكس ما نعتقد ، والقالب واللون لا يدلان إلا على القالب واللون ، وكل ما خرج عن هذا من نسج الخيال ، وكثيراً ما يجول ببالى أن الفن يطمس شخصية الفنان ولا يظهر منها إلا القليل ، وهذا ما جعلنى أقرر أن أجعل من صورتك اللوحة الأساسية فى معرضى حين وصلتني هذه الدعوة من باريس ، ولم يخطر ببالى قط أنك سترفض ، ولكنى أرى الآن على صواب ، والصورة لا يمكن أن تعرض ، وأرجو ألا تغضب لما قلت يا دوريان ، فأنت لم تخلق إلا لتعبد ، هذا رأى ، وقد صارحت به هارى ذات مرة .

تنفس دوريان جرای الصعداء ، وتوردت وجتاه من جديد ، وهم بأن يتسم ، فلقد زال عنه الخطر وأحس أنه بمأمن في تلك الساعة ، واختلج فؤاده بالرتاء للرسام الذى فرغ منذ لحظة من هذا الاعتراف الغريب ، ثم انصرف إلى التفكير فى نفسه ، واستبعد أن يحدث له ما حدث لبازيل هولوردد ، أن يكون لأحد عليه كل هذا السلطان مهما بلغ حبه له . إن اللورد هنرى كان يفتنه لأنه رجل خطر ، ولكن هذا كل ما فى الأمر ، إن ذكاء اللورد هنرى شديد إلى الحد الذى يخيفه ، وسخريته من كل شىء فى الحياة تقف سداً حائلاً بينهما ، ولهذا كان مستحيلاً أن يحب دوريان جرای اللورد هنرى كل هذا الحب العميق ، أهنك شخص تخبئه له المقادير سيفعل به ما فعله هو بالرسام ، ويملؤه بهذه الوثبة العجيبة ؟ قال هولوردد :

- عجب أن ترى هذا فى الصورة يا دوريان . أصحيح أنك رأيته ؟ فأجاب الفتى :

- لقد رأيت فى الصورة شيئاً . . شيئاً بدا لى عجيباً .

- والآن وقد عرفت كل شىء أسمح لى برؤية الصورة .

فهز دوريان رأسه قائلاً :

- كلا يا بازيل ، أرجوك ألا تسألنى ذلك مرة أخرى ، فلن أسمح لك بأن ترى الصورة .

- ولكنك ستسمح لى بذلك فى المستقبل ، أليس كذلك ؟

- كلا ، لن أسمح لك بذلك أبداً .

- ربما كنت مصيباً فى هذا يا دوريان . والآن لا بد لى من الانصراف ، فإلى اللقاء ، لقد كنت الشخص الوحيد الذى ترك فى فنى أثراً دائماً ، وإنى لمدين لك بكل ما فى إنتاجى من جمال ، ولكنك لا تعرف كم كلفنى الإفضاء إليك بهذا الكلام .

فقال دوريان :

- ولكنك لم تفض إلى بشيء يا عزيزى بازيل سوى أن إعجابك بى قد استبد بك ، وهذا ليس شيئاً مذكوراً ، فهو لا يصلح حتى أن يكون مجاملة .
- أنا لم أقصد به أن يكون مجاملة ، وإنما قصدت به أن يكون اعترافاً .
والآن وقد اعترفت على يدك أرانى أحس بأنى قد فقدت شيئاً .
لعل الصلوات تفسد العبادات .

- إذا كان ذلك اعترافاً فقد خاب أملى فيه .
- وكيف كان ذلك يا دوريان ؟ أكنت تتوقع شيئاً آخر ؟
أرأيت فى الصورة شيئاً آخر ؟ أجبنى . أجبنى .
- كلا ، ولكن لم تسأل هذا السؤال ؟ لا تتحدث عن العبادة بعد الآن
يا بازيل ، فما نحن إلا صديقان وصادقتنا يجب أن تدوم .
فقال الرسام بقلب حزين :

- ولكن ماذا يهملك من أمرى ؟ إن لك فى هارى ما يؤنس وحشتك .
فأجاب الفتى ضاحكاً :
- إن هارى يقضى أيامه فى قول الغرائب ، ويقضى لياليه فى فعل
العجائب ، هذا ما يعجبنى فيه ، ولكنى لا أعتقد أنى ألتجىء إلى هارى إذا
أصابنى مكروه ، فأنت أدنى إلى منه .
- أنا أنتظر منك أن تأتبنى لأرسمك مرة أخرى .

- هذا محال .
- أنت تفسد حياتى الفنية برفضك هذا يا دوريان بعد أن عثرت فىك على
مثلى الأعلى ، فقليل من الناس من يجد المثل الأعلى ، أما أنا فقد أوتيت
مثلين : أنت وفنى ، وهذا ما لم يحظ به إنسان .

- لا تطلب منى تفسيراً يا بازيل ، ولكن محال أن أسمح لك برسمي مرة أخرى . يخيّل إليّ أن للأقدار يداً في كل صورة ترسم ، وكأن الصور تحيا كما يحيا الإنسان . نعم ، محال أن أسمح برسمي مرة أخرى ، ولكنني سأزورك لأتناول معك الشاي وفي هذا نفس المتعة .

- ربما وجدت أنت فيه نفس المتعة أما أنا فلا . إلى اللقاء يا دوريان . كم يحزنني أنك لا تأذن لي برؤية الصورة مرة أخرى ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ، وإنني لأقدر شعورك حق قدره .

ثم انصرف ، فابتسم دوريان ابتسامة الراضى عن نفسه . إن بازيل المسكين قد مضى وهو يحسب أنه وقف على سر دوريان جراً ، وما وقف على شيء البتة ، ثم أليس عجيباً أن ينجح في انتزاع ذلك الاعتراف من صدر بازيل بعد أن كان على أهبة الاعتراف بسر له ؟ لقد فسر اعتراف بازيل هولوورد له الكثير مما كان خافياً عليه ، فسر له نوبات الغيرة الحمقاء التي كانت تعترى الرسام فلا يستطيع لها كبتاً ، فسر له تفانيه الكامل في حبه ، فسر له إسرافه في إطرائه ، فسر له الصمت الطويل الغريب الذي كان يلزمه بين وقت وآخر . كل هذه الأشياء اتضحّت له بعد إبهام ، فتألم لحاله ألماً عظيماً ، وأحس بأن صداقة كهذه اصطبغت بألوان الخيال تنذر بفاجعة أكيدة .

وتنهّد ثم دق الجرس . لقد عزم على شيء ، وليس هناك ما يشنيه عن عزمه ، يجب أن تخفى الصورة عن الأنظار مهما كانت النتائج ، فلن يعرض سره للافتضاح بعد الآن ، لقد كان جنوناً منه أن يترك الصورة ولو لساعة واحدة في حجرة تطوّها كل قدم .

الفصل العاشر

دخل فكتور فنظر دوريان جرای إليه نظرة فاحصة لعله يرى إن كان قد جال بباله أن يكشف الحجاب ليرى الصورة المخبوءة خلفه ، لكن وجه الخادم بدا له كالقناع الخالي من كل تعبير ، وظل الرجل ثابتاً في مكانه ينتظر أوامره ، وأشعل دوريان سيجارة ومشى حتى بلغ المرأة وأنشأ يتأمل خياله فيها ، كذلك أبصر خيال فيكتور فيها ، وبدا الخادم له كتمثال للخضوع فزال عنه خوفه عنه ولكنه لم ينزل عن رغبته في الحذر .

وطلب دوريان من خادمه في لهجة بطيئة أن يرسل إليه المدبرة ثم يقصد إلى النجار ويسأله أن يوفد إليه رجلين من قبله فوراً ، وحين انصرف فيكتور خليل إلى دوريان أنه ألقى نظرة على الستار ، ولكن لعله كان واهماً .

وبعد دقائق دخلت مسز ليف المكتبة في جلبة واضحة ، وكانت تلبس ثياباً حريرية سوداء انقرض زيتها منذ زمن ، وطلب دوريان منها أن تعطيه مفتاح الحجرة التي كان يستعملها أيام الدراسة ، فقالت المدبرة :

- ولكن حجرة الدراسة قدرة يكسو الغبار كل ما فيها يا مستر دوريان ، ولا بد أن أتولى تنظيفها وترتيبها أولاً قبل أن تدخلها ، فهي في حالة سيئة جداً .
- ولكني لا أريد أن أراها نظيفة ومرتبّة ، وكل ما أريده هو المفتاح يا مسز ليف .

- إذا دخلتها يا سيدي فسوف يتساقط عليك التراب وتتراكم العناكب ، فقد ظلت مغلقة منذ وفاة سيدي اللورد .

فعبس دويان جرای حين سمع اسم جده ؛ فقد كان يبغض ذكراه .

وقال :

- هذا لا يهم ، فكل ما أريده هو أن ألقى نظرة على المكان ،
فهات المفتاح .

فأنشأت السيدة العجوز تبحث بيدين مضطربتين عن المفتاح بين مجموعة
من المفاتيح مربوطة فى حلقة وهى تردد :

- ها هو ذا المفتاح يا سيدى . ها هو ذا المفتاح يا سيدى . تريث حتى
أخرجه من الحلقة ، ولكن أرجوك يا سيدى ألا تنتقل إلى حجرة الدراسة فأنت
هنا فى أتم راحة .

وأخذ منها المفتاح وهو يقول فى ضيق :

- كلا يا مسز ليف ، لن أنتقل إلى حجرة الدراسة ، وأشكرك على
المفتاح . لن أحتاج إلى شىء آخر .

ولكنها لم تنصرف فوراً ، بل طفقت تشرح له بعض الشئون المنزلية التافهة ،
فابتسم لها وأفهمها أنه قد أطلق يدها فى الأمر تتصرف فيه كما تشاء ،
فانصرفت مغتبطة بهذه الثقة .

ولما أغلقت الباب خلفها وضع دوريان المفتاح فى جيبه ثم نظر فى أنحاء
الحجرة فوقعت عينه على غطاء حريرى فى لون البنفسج موشى بالذهب فى
كثير من أجزائه ، وكان هذا الغطاء تحفة فى فن النسيج صنع فى البندقية فى
نهاية القرن السابع عشر ، وقد عثر عليه جده فى دير من أديرة النساء بالقرب
من بولونيا ، ووجد دوريان فى هذا الغطاء ستاراً مناسباً يستر به الصورة
البغيضة ، ولعل الغطاء كان فى الماضى كفاً يغطى به الموتى ، وهو اليوم يستر
شيئاً لا يقل عن الجيف تعفنأ ، شيئاً تقشعر الأبدان لمراه ولا سبيل إلى زواله .
إن خطاياها قد أصبحت تفعل باللوحة ما تفعله الديدان بالجثث ، ولسوف
تذهب بجمالها وتشوه فتنها وتدنسها تدنيساً شديداً ، ومع ذلك فلن يضع
شىء لحياتها حداً لأنها خالدة .

وارتجف وعضه الندم على إخفاء الحقيقة عن بازيل ، فلو أنه فعل لمساعدته بازيل على التخلص من نفوذ اللورد هنرى عليه ، بل لمساعدته على كبح جماح نفسه التي كانت تميل بفطرتها للشر ، فالحب الذي أكنه بازيل له لم يكن مجرد إعجاب بجماله نشأ في الحواس ، ينتظر أن ينطفئ بانطفائها ، بل كان شوقاً عقلياً ، شوقاً نبيلاً ، شوقاً كذلك الشوق الذي ملأ حياة ما يكل أنجلو ومونتين وفنكلمان وشكسبير نفسه . نعم ، كان في استطاعة بازيل أن ينقذ روحه من الهلاك الذي ينتظرها ، ولكن لقد فات الأوان وهو يستطيع أن يتنكر لماضيه ويمحقه محققاً إما بنسيانه أو بإنكاره وبالندم عليه ، ولكن المستقبل لا مفر منه فهو أسير نفسه ، ونفسه أمارة بالسوء ، وهو عبد رغباته ، وهى شريرة .

ونزع دوريان جراى من الأريكة ذلك الغطاء البنفسجى الكبير الموشى بالذهب الذى كان يكسوها وسار به حتى بلغ الستار المنشور على الصورة وجذبه عنها ، وتأمل وجهه فى اللوحة فلم يدر أكانت ملامحه قد ازدادت بشاعة . . إن مظهر الوجه يدل على أنه لم يتغير ومع ذلك فقد اشتد كرهه له ، فالشعر الذهبى والعينان الزرقاوان والشففتان الورديتان ، كل هذه كانت تطالعه فى الصورة كما كانت تفعل قبلاً ، ولكن التعبير قد تغير ، وهذا ما حز فى فؤاده حزاً شديداً . إن الصورة لتؤنبه على فعاله ، ولغتها الصامتة أقسى من تأنيب بازيل ألف مرة . لقد أطلت روحه من اللوحة لتذكره بسوء المصير ، فلما أن غلبه الألم نشر الغطاء البنفسجى المزخرف على الصورة فحجبها ، وفيما هو يفعل كذلك طرق الباب طارق ، وابتعد دوريان جراى حين لمح خادمه يدخل الحجرة . قال الخادم :

- لقد حضر الرجال يا سيدى .

وأحس دوريان جراى بأن خادمه مصدر إزعاج فرأى أن يتخلص منه ، إذ ليس من الحكمة أن يعرف مقر الصورة الجديد . لقد كان فيكتور ماكراً شيئاً ما ، كما أن فى عينيه ما ينم عن الخبث ، ولذا وجب استبعاده . بذلك جلس

دوريان جراى إلى مكتبه وخط سطوراً معدودات إلى اللورد هنرى يسأله فيها أن يسعفه بكتب يقرأها ويذكره بأن مواعدهما فى الثامنة والرّبع من ذلك المساء ، ثم سلم الرسالة إلى خادمه قائلاً :

- جئنى برد اللورد هنرى ، وقبل أن تذهب أدخل الرجال .

ومرت دقائق قليلة سمع بعدها ببابه طرْقاً ، ثم دخل عليه مستر هبارد صانع الإطارات المعروف فى شارع سوٲ أودلى بشخصه ، وفى معيته مساعد له كرية المنظر ، وكان مستر هبارد رجلاً ضئيل الجسم أحمر السوالف ممتلئاً بالحياة يحب الفن حقاً ، ولكن حماسه للفن قد خفف منها أن أغلب عملائه من الفنانين مفلسون ، وهو حريص على أن يتقاضى ثمن ما يصنع من إطارات ، ولم يكن مستر هبارد لينتقل إلى بيت عميل مهما علا شأنه ، ولكنه كان يستثنى دوريان جراى من هذه القاعدة ، فلقد كان دوريان جراى يجذب كل عارفيه ، وكان مستر هبارد كسائر الناس يغيٲ لرؤيته ، وقال هو يفرك يديه اللتين بدت عليهما آثار الجدرى :

- أى خدمة تريدها منى يا مستر جراى ؟ إنه ليشرفى أن أحظى برؤيتك ولذلك ترانى جئتكَ بشخصى . لقد ابتعت اليوم فقط إطاراً بديعاً عثرت عليه فى مزاد وهو إطار من الطراز الفلورنسى القديم وأعتقد أنه آت من فونتهيل ، وسوف تجد أنه يناسب صورة موضوعها دىنى .

- يؤسفنى أنك قد أزعجت نفسك بالحضور شخصياً يا مستر هبارد فالمسألة ليست ذات بال ، ولا شك كثيراً أنى سأزورك لأرى الإطار بنفسى برغم أنى فى هذه الأيام لا أكثرث كثيراً للفن الدىنى ، وكل ما أريده الآن هو نقل صورة عندى إلى غرفة بأعلى المنزل ، وقد رأيت أن أطلب رجلين من رجالك لهذا الغرض .

- ليس فى مجيئى أى إزعاج لى يا مستر جراى ، بل إن فيه سروراً عظيماً لى ، فأية صورة تريد نقلها يا سيدى ؟

فقال دوريان وهو يزيح عن الصورة الغطاء :

- هذه الصورة يا مستر هبارد ، أتستطيع أن تنقلها كما هي بغطائها ، أرجو ألا تصاب الصورة بخدش أثناء نقلها .

فأجاب الرجل الطيب مستر هبارد :

ثم شرع يخلع السلاسل النحاسية التي كانت الصورة معلقة بها في الحائط بمساعدة زميله ثم أردف :

- والآن يا مستر جراى إلى أين تريد نقلها ؟

- اتبعنى يا مستر هبارد إذا سمحت . إن الغرفة التي أريد نقل الصورة إليها فى أعلى البيت ، وسنستخدم السلم الأمامى فهو أعرض من السلم الآخر ، ويبدو لى أن من الأفضل أن تتقدمنى أنت . وأمسك الباب المفتوح حتى نقتد الرجلان منه إلى القاعة وشرعا فى الصعود ، ثم لحق بهما ، وكانت الصورة أضخم من المعتاد ؛ لأن إطارها المزخرف كان أضخم من المعتاد ، لذلك كان دوريان جراى من وقت لآخر يساعدهما على الرغم من اعتراضات مستر هبارد الكريم الذى كان يعز على نفسه أن يرى أى «چتلمان» يشترك فى عمل نافع . وحين بلغوا آخر قاعدة فى السلم مسح مستر هبارد العرق المتصبب على جبينه وقال وهو يلهث :

- إنها حمل ثقيل يا سيدى .

فأجاب دوريان قائلاً :

- نعم يا مستر هبارد ، إنها حمل ثقيل .

ثم فتح لهما باب الغرفة التي أراد أن تحجب سره عن عيون الناس .

لم يكن دوريان قد دخل غرفة الدراسة منذ زمن طويل ، وكان آخر عهده بها أيام كان يلعب فيها طفلاً ، ثم أيام أن كان يستذكر دروسه فيها صبيًا .

وكانت الحجرة واسعة متناسقة بناها اللورد كلسو خصيصاً لحفيده دوريان ليقصيه عنه ما أمكن ذلك ، فقد كان يشبه أمه إلى حد غريب ، واللورد كلسو كان يكره كل ما يذكره بابتته التي فرت مع ذلك الصعلوك الفقير وجعلت اسمه مضغرة في أفواه الناس . وحين دخل دوريان الحجرة وجدها على حالها القديم ، ورأس الصندوق الكبير المذهب الحواشي المصنوع في إيطاليا ذا الجوانب خرافية النقوش ، ذلك الصندوق الذى اعتاد أن يختبئ فيه أيام كان صبياً يلهو . كذلك رأى حمالة الكتب تحمل كتبه الدراسية ومن ورائها تدلت على الحائط رقعة بالية من القماش الفلمنكى المشغول تحمل صورة ملك وملكة يلعبان الشطرنج فى وسط حديقة وبجوارهما كوكبة من الصيادين على أفراسهم يحملون على معاصمهم صقوراً رءوسها مغطاة ، وقد انطمست على الرقعة الألوان ، وعادت إليه ذكريات الحداثة جميعاً وهو يتفحص محتويات الحجرة ، وتذكر طفولته الموحشة وصباه الطهور ، فاستنكر أن يكون هذا المكان الأمين مخبأ لتلك الصورة البشعة ، وتحسر على أيامه الفائتات .

ولكنه لم يجد بالبيت حجرة أصلح من هذه الحجرة لإخفاء الصورة ، فهو يحمل مفتاحها ولا سبيل لأحد غيره أن يفتحها دون علم منه ، وهنا يستطيع الوجه المختبئ وراء الغطاء البنفسجى أن يتحول كما يشاء فما من عين تراه . يستطيع أن يمتلىء بالدنس والقساوة والوحشية ، ولن يكثرث هو لذلك فهذه آخر مرة يرى الصورة فيها ، فما به حاجة إلى أن يتبع انحطاط روحه درجة درجة . ولقد بقى له شبابه وهذا يغنيه عن كل شئ فى الوجود ، أما روحه التى ضاعت منه فلقد يستردها من جديد . نعم . فما أدراه أن المستقبل مظلم كالماضى ؟ أو ليس جائزاً أن تصفو روحه وتخلص من أوشاب الشر ؟ أليس جائزاً أن يذوق الحب من جديد فيظهر الحب روحه ، ويقيه من الخطايا الخفية التى زينها له ولعه بالعجائب . جائز إذاً أن تختفى دلائل القسوة من الشفتين الدقيقتين الجميلتين ، وعندئذ لن يجد حرجاً فى أن يعرض هذا العمل الفنى الخالد على أنظار الناس .

ولكنه عاد فعدل عن هذه الأوهام ، فقد تذكر أن الصورة تكبر فى العمر
كما يكبر الإنسان ، وتسجل الخطوط التى ترسمها السنون على صفحة الوجه
شهراً فشهرأ ، بل ساعة فساعة ، ولقد تنجو الصورة حقاً من آثار الخطيئة
ولكن هل من الزمن نجاة ؟ لسوف يغور خداه أو يترهلان ، لسوف يتسع فمه
كما يتسع فم الأبله أو يسترخى ، لسوف تذبل عيناه وينطفئ وهج شعره
الذهبي ويتجعد وجهه وتبرد يده المعروقة وتنحنى قامته وتلتوى سائر أعضائه كما
التوت أعضاء جده القاسى من قبل . نعم . يجب أن تحجب الصورة عن
الأنظار ، وأخيراً التفت دوريان جراى إلى الرجلين وقال فى إعياء :

- أرجوك أن تدخل الصورة يا مستر هبارد ، وإنى لأسف لإهمالى إياكما
طول هذا الوقت فقد تحولت أفكارى إلى شىء آخر .

وكان مستر هبارد لا يزال يلهث من الإجهاد فأجاب :

- بل لقد أتح لنا أن نستريح يا مستر جراى ، ونحن نشكرك على ذلك
والآن أين تريدنا أن نضع هذه الصورة يا سيدى ؟

- أينما تحب . ضعها هنا مثلاً واسندها إلى ، الحائط فلست أرغب فى
أن أراها معلقة . أشكرك .

- أياذن لى سيدى فى رؤية الصورة ؟

قال دوريان فى ارتياح :

- ليس فى الصورة ما يثير اهتمامك يا مستر هبارد ، ولقد انتهى عملك
بهذا ، وإنى لأشكرك مرة أخرى على مجيئك بشخصك .

ولم تتحول عيناه عن الرجل ، ولو أنه اجتراً على كشف الغطاء الجميل
الذى يستر أسرار روحه لانقض عليه وأدبه تأديباً .

- لا شكر على واجب يا مستر جراى ، لا شكر على واجب ، وإنى
رهن إشارتك دائماً يا سيدى .

ونزل مستر هبارد يجر قدميه على السلم جرّاً ومن ورائه مساعده ،
والتفت هذا الأخير إلى الخلق كأنه يتزود بنظرة أخيرة من دوريان جراى ،
وارتسمت على وجهه الغليظ دلائل الخجل والدهشة معاً ، لأن جمال دوريان
جراى قد هز أوتار قلبه .

واختفى وقع الأقدام ، فأوصد دوريان الباب ، ووضع المفتاح فى جيبه ،
وأحس بالطمأنينة لأن عيون الناس لن تقع على هذا الوحش المسوخ وتعرف
منه جرائم روحه الآثمة .

ودخل المكتبة فوجدها على حالها ووجد الشاى فى انتظاره ، كذلك وجد
رسالة من اللورد هنرى بجانبها كتاب أصفر الغلاف ممزق مبتل الأطراف ،
وجدهما على مائدة صغيرة من الخشب الأسمر الزكى الرائحة المطعم بالصدف
أهدتها إليه الليدى رادلى زوجة وصيه ، وهى امرأة وسيمة الطلعة تحترف
السقم لتقضى شتاءها فى القاهرة وصيفها فى الريفيرا ، وعلى صينية الشاى
رأى الطبعة الثالثة من صحيفة سانت جيمس ، فعلم أن فكتور قد عاد ،
وخطر له أن يكون خادمه قد التفى بمستر هبارد وصاحبه أثناء انصرافهما ،
واستخلص منهما سر مجيئيهما ، ولا شك أنه سيفتقد الصورة ، بل لا شك
أنه افتقدها فعلاً وهو يضع آنية الشاى على المائدة ، وهذا مكانها فى الحائط
ظاهر فى وضوح ، فلقد نسى دوريان أن ينشر عليه الستار ليخفيه . وبدأت
الهواجس تلعب برأسه ، فتصور فكتور متسللاً ذات ليلة إلى الطابق العلوى ،
ومحاولاً أن يفتح باب الحجرة عنوة . لقد كان يسمع بكثير من القوم الذين
قاسوا طول حياتهم من تهديد خدمهم ، لأن خدمهم قرءوا خطاباً من
خطاباتهم الخاصة ، أو عثروا على ورقة تحمل عنواناً مريباً ، أو وجدوا زهرة
ذابلة أو قطعة من الدنتلا المتكسرة تحت وسادة من وسائدهم ودار بخلده أن
فكتور يتجسس عليه ، فأحس بأن الحياة على هذا الشاكلة لا تحتمل .

وتنهّد ثم صب لنفسه فنجاناً من الشاى ثم فض رسالة اللورد هنرى . فإذا
اللورد هنرى لا يقول فيها إلا أنه قد أرسل إليه صحيفة المساء وكتاباً لعله يجد

فيه متعة ، وأنه سيكون بالنادى فى الساعة الثامنة والنصف . وفتح دوريان الصحيفة فاستلقت نظره فى الصفحة الخامسة جرى تحتها القلم الأحمر وقرأ فيها ما يلى :

« التحقيق فى مصرع ممثلة : أجرى مستر دانبى مأمور قسم هوكستون صباح اليوم فى بل تافرن بطريق هوكستون التحقيق فى مصرع سييل فين ، وهى ممثلة صغيرة السن تعاقدت أخيراً مع دار التمثيل الملكية بحى هوبورن ، وقد أسفر التحقيق عن أن الوفاة كانت نتيجة خطأ ، وقد عبر المحقق عن ألمه الشديد لوالدة القتل التى غلبتها أحزانها إدلائها بشهادتها وعند سماعها شهادة الدكتور بيريل الذى قام بفحص الجثة » .

وبعد أن فرغ من تلاوة هذا النبأ تجهم وجهه ومزق الصحيفة إرباً ، ثم ألقاها فى ركن الغرفة . لقد عادت إليه بشاعة الموقف وأحس ببشاعة الحياة ذاتها ، واغتاض من اللورد هنرى لأنه أرسل إليه تقرير المأمور ، ورأى فى إشارته بالقلم الأحمر إلى سطور الخبر غباوى كبرى ، لأن إمام فكتور باللغة الإنجليزية يكفيه لفهم مضمون الفقرة ، ولعل هذه الإشارة أغرته بقراءتها فعلاً ، وإذا كان فكتور قد قرأها فلا شك فى أنه بدأ يشك فى أمره ، ولكن ما أهمية شكه ودوريان جراى لا صلة به بموت سييل فين .

ووقع بصره على الكتاب الأصفر الذى أرسله اللورد هنرى إليه ، وأراد أن يعرف موضوعه ، فسار حتى بلغ الحامل الثمانى الأضلاع اللؤلؤى اللون الذى كان يبدو له دائماً كخلية فضية جسيمة الأطوال بنتها جماعات من النحل العجيب ، وتناول الكتاب ثم جلس فى مقعد كبير وأنشأ يتصفح المجلد ، وفى دقائق معدودة كان دوريان جراى يقرأ الصفحات فى نهم شديد ، فقد كان الكتاب أعجب كتاب وقع فى يده ، ومرت أمام عينيه الخطايا السبع فى موكب جميل راقصات على إيقاع سحرى متسريلات بأفخر الثياب ، وبدأت أحلامه الغامضة تأخذ أشكالاً محسوسة ، أما خفايا اللذة فقد طافت بعقله كالأحلام .

كان الكتاب قصة لا عقدة لها ، وليس فيها غير شخص واحد ، أو بمعنى آخر كان دراسة نفسية لشاب باريسى من أبناء القرن التاسع عشر تنكر للقرن الذى يعيش فيه ، وحاول أن يجرب العواطف التى جربتها القرون الأخرى ، ويعتق المبادئ التى آمنت بها تلك القرون ، وبالجملة حاول أن يركز فى نفسه سائر الأطوال التى مرت بها الروح الإنسانية منذ القدم ، فهو آنأ يقبل الزهد الذى يلقيه الحمقى بالفضيلة لما فيه من خروج على الطبيعة ، وهو آنأ يقبل على المعاصى التى يلقيها العقلاء بالرديلة ، وكان أسلوب الكتاب أسلوباً غريباً منمقاً واضحاً وغامضاً فى وقت واحد ، اجتمع فيه اللفظ الدارج واللفظ القديم والتعبير العقلى والتعبير العاطفى مما يميز كتاب المدرسة الرمزية فى فرنسا ، وكانت به من الكلمات النابية واللطيفة معاً ، وظهرت فيه الشهوات فى صورة فلسفة صوفية ، فاخلتط عليه الأمر حتى أمسى لا يدرى أيطالع وصفاً لرؤيا قديس من أهل العصور الوسطى ، أم يقرأ اعترافات فاسق أصيل من أهل جيله ، لقد كان كاتباً مسموماً ، ما فى ذلك شك ، ومن صفحاته صعدت عطور ثقيلة هيجت ذهن دوريان جراى ، وأخذت غيبوبة من أثر التنعيم اللفظى وإيقاعه الراتب الممل الذى كان قائماً على التكرار المدروس ، واستغرق فيما يشبه الحلم وهو يطوى فصول الكتاب فصلاً فصلاً فلم يشعر بزوال النهار ودنو الليل .

وفى المساء بدت قبة السماء لا هى بالخضرة ولا هى بالحمراء ، ولمع فيها نجم ثاقب واحد استضاء بنوره دوريان جراى حتى تعبت عيناه ولم يعد يستطيع أن يمضى فى القراءة ، وبعد أن دخل خادمه عليه جملة مرات ليذكره بتأخر الوقت ، ، فنهض من مكانه ودخل الغرفة المجاورة ووضع الكتاب على مائدة فلورنسية صغيرة كانت تلازم فراشه باستمرار ، ثم بدأ يستبدل ثيابه تأهباً للعشاء .

وحين بلغ النادى كانت الساعة قد بلغت التاسعة أو ما يقرب من ذلك ، وفى النادى وجد اللورد هنرى يجلس بمفرده فى صالون الصباح وقد بدت عليه أمارات الملل القتال فقال لهم :

- أرجو أن تصفح عني يا هارى فما تأخرت إلا لأن الكتاب الذى أرسلتنيه قد سحرنى حتى ألهانى عن الوقت .
- فأجاب اللورد هنرى وهو ينهض من مكانه :
 - لقد توقعت أنك ؛ ستجبه .
- لم أقل إنى أحبه يا هارى ، وإنما قلت سحرنى والفرق بينهما عظيم .
- قال اللورد هنرى بصوت خافت :
 - أراك قد اكتشفت هذه الحقيقة بنفسك .
 - ثم دخل الرجلان حجرة الطعام .

الفصل الحادى عشر

كان لهذا الكتاب سلطان عظيم على دوريان جرى لازمه سنوات عديدة ، أو بتعبير أدق ، لم يسع دوريان جرى إلى التخلص من سلطان هذا الكتاب على نفسه ، وقد بلغ من افتتانه به أنه ابتاع من باريس جملة نسخ من طبعته الأولى لا تقل عن تسع ، كلها ن القطع الكبير ، وجلدها فى ألوان مختلفة تستريح إليها نفسه فى أطوارها المتقلبة ، وترتاح إليها طبيعته التى باتت تحكمها الأوهام ولم يعد لإدراوته عليها سلطان ، فلقد وجد فى ذلك الشاب الباريسى العجيب بطل القصة الذى اجتمع فيه الولع بالخيال والولع بحقائق العلم مرآة لنفسه المعقدة ، بل لقد وجد فى الكتاب بأكمله ليس إلا ترجمة لحياته كتبت قبل أن يخرج هو إلى الوجود .

ولكنه كان ينعم بشئ واحد لم ينعم به بطل القصة العجيب ، ذلك أن دوريان جرى قد نجح من ذلك الرعب الشديد الذى كان يستولى على الشاب الباريسى كلما وقعت عليه على مرآة أو لوح من المعدن المصقول أو صفحة من الماء الصافى ، ذلك الرعب الشديد الذى لازمه وهو لا يزال فى شرح الشباب ، فقد كان فى مثل عمره آية من آيات الجمال ثم زال عنه جماله قبل الألوان فبات لا يقوى على مجابهة الحقيقة . وكان دوريان جرى يقرأ القسم الأخير من الكتاب ، وهو القسم الذى يصور أحزان هذا الفتى الباريسى وقد فقد جماله ، فى لذة ما بعدها لذة مصدرها الشماتة ، وهى قسوة تلازم اللذة أيا كان نوعها . إن جمال دوريان باق لا يذبل كجمال الرياحين فى شاطئ الكوثر الموعود ، وهو يلهم بازيل هولويرد بآيات الفن وهو الذى رقق لدوريان قلوب عارفيه ، ولقد يطلق فيه شائوه هجر القول فى مجتمعات لندن ونواديها

فما إن يروه حتى يضعفوا أمام شوكة جماله ويكذبوا أنفسهم لظنها أن مثل هذا الجمال الفريد تلوثه الآثام ، فلقد بدا دوريان دائماً كمن صان نفسه من أكرار الحياة ، وكانت براءة الملائكة تنطق في محياه ، وكان الناس يغتابونه اغتياباً فما إن يدخل عليهم حتى تخرس ألسنتهم ، ويحسوا بأن طهارة وجهه تؤنبهم تأنيباً شديداً على سوء ظنهم به ، فكأنما يذكرهم محضره بالجمال الذى دنسوا والحرمة التى انتهكوا ، ويعجبوا لهذا الشباب النضير كيف نجا من أوحال الحياة فى عصرهم ، عصر الفجور والشقاء .

وكانت له غيبات طويلة لا يعرف أحد عنها شيئاً تحمل أصدقاء وعارفيه على تفسير اختفائه بأعجب التكهّنات ، وكا دوريان جراى يصعد بعد عودته من هذه الرحلات العجيبة إلى الغرفة المغلقة ، ويدخلها حاملاً فى يده مرآة ويقف أمام الصورة ناظراً تارة إلى الوجه المغضن الشرير المطل من اللوحة ، وتارة إلى الوجه الصبوح المعكوس فى المرآة ، وكان يجد فى ذلك لذة كبرى ، لأن الاختلاف الكبير بينهما كان يطمئنه على شبابه وجماله ، حتى لقد بدأ يتعشق نفسه ويرتاح إلى تدهوره الروحى ، وكان بين وقت وآخر يفحص الخطوط البغيضة التى يرسمها الزمن على الجبين بعناية عظيمة تدل على اغتباطه الشديد بهذا العمل ، ليعرف أيهما أفتك بالصورة ، آثار الزمن أن آثار الشر ، وما أكثر ما كان يضع يده الجميلتين بالقرب من يدي الصورة الشائھتين ويبتسم ابتسامة الرضا ، وما أكثر ما كان يهزأ بالجسم البشع والأعضاء الضامرة التى يراها على اللوحة .

ولكنه كان فى قليل من الأحيان يقضى الليل مؤرقاً تارة فى غرفته العاطرة ، وطوراً فى غرفة قدرة بحان صغير سيء السمعة كان يقصد إليه مستخفياً تحت اسم مستعار ؛ حيث يفكر فيما أنزله بروحه من دمار وينتحب لمصيره الأليم فى ندم صادق لا زيف فيه ، وكيف لا يكون ندمه صادقاً وهو محض أثره فيه . على زن هذه الأوقات كانت نادرة لأن الانغماس فى اللذات زاد

فضوله للمعرفة ، ذلك الفضول الذى كان اللورد هنرى أول من ألهمه فيه ، وكلما زاد اختباره فى الحياة زادت رغبته فى الاختبار ، كلما أشبع نهمه للحياة اشتد جوعه إليها .

ولكنه برغم ذلك كله كان يبالى برأى المجتمع فيه ، وقد دأب على أن يقيم فى كل موسم حفلات منتظمة فى يوم الأربعاء من كل أسبوع ، كذلك كان يقيم الحفلات فى الشتاء مرة أو مرتين كل شهر ، وكان يفتح أبواب بيته الجميل لأبناء البيوتات ويستخدم العازفين ليطربوا ضيوفه ، وكلما أقام حفلة عشاء كان اللورد هنرى يساعده فى اختيار المدعوين ، وفى ترتيب مكانهم من المائدة ، وفى انتقاء الأزهار التى تزين مائدته الفاخرة ، ولقد كان دوريان جراى عند كثير من الأيفاع النموذج الكامل لما يجب أن يكون عليه فيتان إيتون أو فيتان أكسفورد ، وهو عندهم مزيج من الشاب الذى ثقفته الكتب والشاب الذى ثقفته الحياة ، وقد كان دوريان جراى عندهم أحد أولئك الذين وصفهم دانتي بأنهم يسعون «لتكملة نقصهم بعبادة الجمال» أو قال فيهم توفيل جوتيه : «إن العالم المحسوس قد خلق ليشبع حواسهم» .

ومهما يكن من شىء فلا جدال فى أن أول فن تخصص فيه دوريان جراى هو فن الحياة ، وما كانت بقية الفنون المعروفة فى نظره إلا تمهيداً لهذا الفن الجليل . لقد كان تطور الذوق مع الأيام يفتنه حقاً ، لأن يزين غير المعقول لعقول الناس ، ولو إلى أجل قصير ، كذلك كان التأنق يفتنه لأنه وجد فيه ما يثبت على وجه ما أن الجمال ليس من تراث الماضى بل من عمل العصر ، وقد كان للأزياء التى اصطنعها اصطناعاً أثر ملموس فى الأيفاع من رواد المراقص الراقية بحى مايفير وما شاكل ذلك من المجتمعات المترفة ، لأنهم تأثروا خطاه فى كل ما فعل ، واجتهدوا فى أن ينقلوا عنه ابتكاراته الرشيقة التى كان يلهم بها فى أوقات فراغه برغم أنه لم ينظر إليها فى يوم من الأيام على أنها عمل جدى .

فدوربان جرای كان حريصاً على المكانة التي خصصها المجتمع له منذ أن بلغ سن الرشد ، وأحب أن يلعب في لندن الحديثة الدور الذي لعبه مؤلف ساتيريكون في روما القديمة أيام قيصيرية نيرون ، ولكنه برغم ذلك كان يتمنى من صميم قلبه أن يكون شيئاً اسمه من مجرد قائد من قادة الأناقة ويحتكم إليه في طرق لبس الجواهر ، ويستشار في طرق عقد أربطة الرقبة ، ويحتذى في طرق حمل العصا ، كان يحلم بأن يستكر أسلوباً جديداً له لفلسفة تبرره وأسس متماسكة تقومه ، أسلوباً في الحياة غايته العليا التصوف عن طريق الحواس .

فلقد وجد دوربان جرای الناس يستنكرون عبادة الحواس ، ووجد هذا فيهم أمراً طبيعياً ، فالناس يفرعون بالغريزة من الشهوات الجارفة والإحساسات التي تضعف أمامها نفوسهم ، وهم يدركون أنهم يشتركون فيها مع الأحياء الأخرى التي تقل عنهم رقياً وانسجاماً ، ولكنه رأى أن طبيعة الحواس لم تفهم قط على حقيقتها ، وأن الحواس ما بقيت على حالها الحيوانى الأول إلا لأن المجتمع أجاعها وأذلها وسامها سواء العذاب ، بدلاً من أن يجعل منها سبيلاً إلى روحية جديدة قوامها تذوق الجمال بالفطرة ، وكان يرى أن تاريخ الإنسانية لا يبشر بالخير ؛ فهو سلسلة من الهزائم التي أضاع الإنسان فيها إنسانيته ليظفر بأشياء لا نفع فيها ، فلقد نزل الإنسان عن سعادته برضاه ، وأنكر ذاته برضاه ، وكان حافزه إلى ذلك كله هو الخوف ، وما جنى من ذلك إلا الانحلال التام الذي يقاس به ذلك الانحلال المزعوم الذي يسعى للناس جهلاً منهم للنجاة منه ، فالتبيعة تسخر من سخرية لاذعة حين تسوق الناسك إلى المفازة الجرداء ليأكل مع وحوشها وتؤلف بينه وبين بهائم الحقول .

نعم سيكون عبادة الجمال بعث قريب كما تنبأ بذلك اللورد هنرى ، وحين تبعث عبادة الجمال من جديد سوف تجدد الحياة على الأرض ، وتنشلها من التطهر المتلف الذي ينخر في شجرة الحياة في عصرنا هذا ، وسيخدم العقل

هذا المذهب الجديد بغير ريب ، ولكن فى الحدود التى تصون العاطفة ،
ولسوف يكون الهدف الأول لعبادة الجمال هذه الاختبار ذاته بحلوله ومره وليس
ثمرات الاختبار ، أما الزهد الذى يطفى الحواس ، والتهتك الرخيص الذى
يميتها فلن يتسع لهما هذا الدين الجديد ؛ لأنه سيذكر الناس بأن العمر برهة ،
ويحثهم على اقتناص هذه البرهة .

نحن نصحو قبل انبلاج الفجر فى بعض الأحيان بعد ليلة هادئة تنقطع
فيها الأحلام فتشبهنا فى الموت وهدوئه ، زو بعد ليلة مزعجة تزدهم فيها
الأشباح المسوخة والرغبات المحرمة ، فتملأ كهوف الخيال وتزمزم كأنها
العواصف الهوجاء وتعصف بها كأنها وحى فنان قوطى ، فما الفن القوطى إلا
تجسيد هواجس الخيال المخموم ، وهذا الاختبار يمر فيه أغلب الناس ، وقلما
ينجو منه أحد . نستيقظ قبل الفجر فيخيل إلينا أننا نرى أصابع شاحبة تعبث
بالستائر فتتهتز الستائر ، وتزحف أمامنا الظلال القائمة الماردة الأطوال فى صمت
عند أركان الحجرة وتقع هنالك ، وفى الخارج تتحرك الطيور بين أوراق الشجر
فنسمع حفيفها ، أو يدب الناس ساعتين إلى أرزاقهم فنسمع وقع أقدامهم ،
أو تعوى الريح بين التلال وتنزل بمضاجعنا الساكنة بخطى خفيفة كأنها تشفق أن
توقظ النيام ، ولكن عليهما أن تناشد النوم أن يخرج من كهفه الأحمر ،
وترتفع الحجب رقيقة الغشاء حجاباً حجاباً ، وتعود إلى الأجسام ألوانها
وأشكالها رويداً رويداً ، ونرى الفجر يبنى الطبيعة على نسقها القديم ، وتمشى
الحياة من جديد فى المرايا فتعكس الكائنات ، وتلتفت حولنا فنجد القنديل
المطفأ كما تركناه ليلة أمس ، وإلى جواره الكتاب الذى لم نفرغ بعد من
قراءته ، أو الزهرة التى كانت فى عروتنا ونحن فى المرقص ، أو الخطاب الذى
لم نجد الشجاعة لفضه وتلاوته ، أو الخطاب الذى قرأناه عشرين مرة ، ومن
ظلال الليل تخرج حقائق النهار التى نعرفها فنستأنف الحياة حيث تركناها ،
ويغمرنا إحساس بوجوب المضى فيما تعوناه من أعمال راتبة مملة ، أو نرجو

أن نفتح الأجفان ذات صباح فنجد عالماً جديداً يحقق أحلامنا ، أعدته لنا المقادير فى ظلام الليل ، عالماً ألوانه زاهية وأشكاله جديدة وأسراره غير ما ألفناه من أسرار ، عالماً لا أثر فيه للماضى أو لذكره ، فواجبات الأمس وآلامها قد طمستها يد النسيان ، حتى أفراح الأمس تشقينا وسعادته تحببنا فىنا الأحران .

كان دوريان جراى يرى أن الحياة لا قيمة لها إلا إذا فتحت أمام النفس هذه الدنيا الجديدة ، ولطالما خرج من طبيعته الحقيقية واستسلم لمثل هذه الأفكار لا لشيء إلا لأنه يبحث عن الإحساسات الجديدة والإحساسات السارة والإحساسات الشاذة ، وبعد أن يرضى فضوله العقلى بها تراه ينبذها فى استخفاف غير منتظر ، ولم يكن هذا الاستخفاف نتيجة نقص العواطف ، بل نتيجة اتقادها .

لقد أرجف عنه المرجفون ذات مرة أن أزمع على اعتناق الكاثوليكية ، ولم يكن هذا غريباً لأن طقوس الكنيسة الكاثوليكية كانت تلهب خياله ، فالقربان اليومى فيها كان فى نظره أشد رهبة من قوانين الوثنية الأولى ، والقربان اليومى كان عنده إنكاراً جميلاً لماهية الحواس ، وقد اهتز فؤاده لفكرته الفطرية الساذجة ، وتأثرت نفسه للمأساة البشرية التى يرمز لها ذلك القربان ، وكان يحب السجود على الدرج الرخامى البارد ليرى القسيس وهو يزيع عن الهيكل الحجاب فى أناة بيد شاحبة تكسوه مسوحه الكنيسة السميكة المزركشية ، أو يرفع وعاء السر المقدس الشبيه بالمصباح المرصع بالأحجار الكريمة ، وفيه الرقاق الذى يبدو حقاً كأنه زاد الملائكة ، أو يدق صدره ندماً على خطاياها وهو يحمل كأس الاعتراف فى زى من أزياء المسيح ، كذلك كانت المباحرة المتقدمة التى يحملها صبية المقبرة ذوو الأردية الحمراء الموشاة ويطوحونها فى الهواء بين المصلين تفتن خياله ، وكان دوريان جراى كلما خرج من كنيسة كاثوليكية ينظر إلى كرسى الاعتراف الأسود عاجباً ، ويتمنى أن يختبئ خلفه لسمع النسوة خلصة يروين تاريخ حياتهن الحقيقى من وراء القضبان .

ولكنه برغم ميله الشديد إلى هذه المراسم لم ييتر تفكيره بقبول مبادئ الكثلركة ، أو ينسى أن هذا الخان الروحانى لا يصلح للسكنى ، وإنما يصلح لقضاء ليلة أو ساعات معدودات فى جو خلت سماؤه من النجوم واكتمل القمر ، فالتصوف تسلط عليه فترة من الزمن لما فيه من غرابة ، ولما فيه من نقض خفى للأوضاع الخلقية ، والمادية الداروينية كما بشر بها الألمان تسلطت عليه فترة من الزمن لأنها فسرت له الأفكار والعواطف تفسيراً عضوياً قد سره فيها أنها تجعل النفس خاضعة لظروف الجسم ما صحّ منها وما سقم ، ولكن النظريات فى الحياة لم تلهه عن الحياة ذاتها ، وأحس بأن التفكير مجهود عقيم ما لم يقترن بالاختبار العملى ، وأدرك أن الحواس لها ما للنفس من وظيفة روحية .

ودفعه ذلك فى وقت ما إلى دراسة العطور وأسرار صناعتها ، وزخذ يجرى عليها تجاربه الخاصة ، فكان يمزج الزيوت وطيوب الشرق نفاذة الرائحة وكان يرى أن كل حالة من حالات العقل لها ما يقابلها فى عالم الحواس ، وأنشأ يبحث فى العلاقة القائمة بين الحس والتفكير ، وأراد أن يستقصى السر الذى يجعل البخور يثير التصوف فى الإنسان ، والعنبر يثير فيه الشهوات ، وأزهار البنفسج تثير فيه ذكريات الغرام الدفين ، والمسك يشوش العقل ، والشنبق يشوش الخيال ، وأراد أن يضع لفلسفة العطور أساساً علمياً فيصف تأثير الأعشاب والأزهار والزيوت والأشجار زكية الرائحة وصفاً تحريياً صحيحاً .

كذلك دفع فى وقت آخر إلى دراسة الموسيقى ، فكان يدعو أصحابه إلى حفلات موسيقية بهم يألّفها أحد فى غرفة مستطيلة سقفها يرتقالى وجدرانها خشراء كالزيتون نوافذها ذات عوارض ، وهناك كان المدعوون يسمعون همجى الأنغام ، فكنت ترى العجر المجانين يعزفون ألحاناً هائجة على آلات وترية صغيرة ، وكنت ترى التونسيين فى عباءاتهم الصفراء يعزفون على عيذان جسيمة قبيحة المنظر ، والزنوج العابسين يقرعون طبولاً نحاسية قرعاً راتباً يجلب النعاس إلى العيون ، على حين كان الهنود المعممون نحاف الأجسام

يجلسون على حصر حمراء ، وينفخون فى مزامير طويلة بعضها من الغاب وبعضها من النحاس ، وكأنهم يسحرون بها الشعابن الطوال والشعابن القصار الغليظة .

وكان فؤاده فى بعض الأحيان يهتز لهذه الأنغام الهمجية ولا يتحرك لعدوبة شوبرت ، أو جمال شوبان الحزين ، أو قوة بيتهوفن الدفاعة ، وألف مجموعة وافية من الآلات الموسيقية العجيبة جاءت من كل بقعة من بقاع العالم ، بعضها من مخلفات الحضارات البائدة ، وبعضها من بلاد المتوحشين الذين أبوا أن يحتكوا بالرجل الأبيض ويجربوا مدنيتهم ، وكان فى مجموعته آلة جوريار العجيبة التى يستعملها آل ريو المولدون من هنود وزنوج ، تلك الآلة التى حرمت على النساء رؤيتها ، وفرض الصوم ، وضرب السياط على كل فتى يريد أن يراها ، كذلك جاءت من بيرو آنية من الصلصال لها صوت حاد كصوت العصافير ، كما جاءت نايات صنعت من عظم البشر كتلك التى سمع ألفونسودى أوفالى نداءها فى بيرو ، وأحجار اليشم الخضراء حلوة الصوت التى توجد بالقرب من كوزكو ، وكانت لديه جوازات مطلية بالألوان بداخلها حصى يخشخش حين تهز ، وآلة مكسيكية طويلة تعرف بالكلارين لا ينفخ العازف فيها بل يمص الهواء ، وأخرى خشنة من عند قبائل الأمازون تعرف بالتورا ينفخ فيها الديدبان الجالس طيلة النهار فى قمة الشجرة فيقطع نداؤها ثلاثة فراسخ كما يزعم القوم ، وثالثة هى التبونازلى لها لسانان من الخشب يترددان تردد الأوتار بضربها العازف بعصى يغطى أطرافها المطاط وهو عصارة الشجر المتجمدة ، ورابعة هى أجراس مجتمعة فى هيئة عنقود واسمها اليوتل تستخدمها قبائل الأزتيك ، ثم خامسة هى طبل عظيم الحجم أسطوانى الشكل تكسوه جلود الشعابن كالطبل الذى رآه برنال دياز حين دخل المعبد المكسيكى فى صحبة كورتيز ، ووصف لنا دقاته الحزينة أبلغ وصف . لقد كانت غرابة هذه الآلات تفتنه وجعلته يعتقد أن للفن وحوشه ذات الخلقة المسوخة

والأصوات المنكرة ، كما أن للطبيعة وحوشها ذات الخلقة الممسوخة والأصوات المنكرة ، ولكنه بعد أن جمع من هذه الوحوش ما جمع ، زهد فيها وعاد إلى مكانه في الأوبرا أنا وحيداً وأنا برفقة اللورد هنرى يستمع إلى تانهاوز في نشوة تشبه الوجد ، ويلتمس في مقدمة هذه الأوبرا الخالدة ترجمة صادقة للمأساة التي نزلت بروحه .

وكما درس دوريان جراى العطور والموسيقى ، درس كذلك الأحجار الكريمة ، وقد ظهر مرة في حفلة تنكرية في زى آن چوايز إمبرالة فرنسا ، وكانت ترصع ثوبه مائة وستون درة ، وقد تحكمت فيه هذه الهواية سنوات طويلة بل لازمته بقية حياته ، وكان في بعض الأحيان يقضى اليوم بأكمله في تصفيف ما جمع من حلى كل في علبته ، وكان لديه منها أنواع نادرة كالزبرجد الأخضر الذى يستحيل أحمر في نور المصباح ، والزبرجد الأحمر الذى يضرب فيه خط من الفضة كأنه سلك ممدود ، والزبرجد الأصفر الذى يميل إلى لون الفستق ، والياقوت الوردى ، والياقوت الأصفر ، والياقوت الأحمر الدموى الذى يخلج نوره في هيئة نجمة رباعية ، والأماتوس المشتعل كاللهب ، والأماتوس البنفسجى ، والأماتوس البرتقالى المطعم بالياقوت الأحمر والياقوت الأزرق ، وكان شديد الكلف بحجر الشمس وضيائه الذهبى ، وبحجر القمر وضيائه اللؤلؤى ، وبعين الهر اللبنى الذى تتجمع فيه ألوان الطيف وتتكسر ، وقد اشترى من امستردام ثلاث زمردات جسيمة الحجم لونها يسحر الناظرين ، وكان في مجموعته فيروزة من «الصخر القديمة» يحسده عليها هواة الأحجار الكريمة .

وقد وقع أثناء اشتغاله بجمع الأحجار الكريمة على طائفة من القصص التى تدور حول الجواهر ، فقرأ فى كتاب «تعليم الكهنة» لألفونسو عن ثعبان له عين من الياقوت الأصفر الحقيقى ، وعرف عن ألكسندر فاتح أماثيا ذى التاريخ العجيب أنه وجد فى وادى الأردن حيات تكسو ظهرها طبقة من الزمرد

الصافى ، وقرأ فى فيلوسترات عن تنين فى فمه ذرة إن رأى رداء أحمر وحروفاً ذهبية غلبه نوم سحرى وأمكن للناس قتله ، كذلك عرف من مطالعته فى أعمال الكيميائى العظيم الذى اشتغل بالسحر پير دى بونيفاس أن فى الماس قوة تخفى الإنسان ، وفى عقيق الهند قوة تزيد من فصاحته ، أما عقيق كونيلىا فيزيل الغضب ، والياقوت الزعفرانى يجلب النعاس ، والأماتوس يوقظ المغمور من نشوة الخمر ، والعقيق الرومانى يطرد الشياطين وجوهرة الماء تطفئ لجن القمر ، والبازهر المستخرج من قلب الظبى العربى ترياق للسم ودواء للطواعين ، وجوهرة الطير التى تضعها طيور العرب الأصلية فى أعشاشها وقاء لحاملها من النيران كما روى ديموقريط الحكيم .

ودرس الأساطير التى تتواتر عن الأحجار الكريمة وفعلها العجيب ، فقرأ أن ملك سيلا طاف فى موكب حافل يوم تتويجه بأرجاء مدينته حاملاً فى يده ياقوتة حمراء ، وأن أبواب قصر يوحنا الراهب «مصتوعة من حجرة السرد ، وقد نحت فيها قرن الشعبان ذى القرن المسموم حتى لا يدخل القصر رجل يحمل السم» وفوق سطح القصر «تفاحتان من ذهب ، وفى التفاحتين ياقوتتان بلون الجمر» ، فالذهب يضىّ نهاراً ، والياقوت يضىّ ليلاً ، وفى رواية لودج الغربية «مرغريت الأمريكية» قرأ أن فى غرفة الملكة «تماثيل من فضة للملكات العفاف فى التاريخ يتأملن وجوههن فى مرايا من الياقوت الأحمر والياقوت الجمرى والياقوت الأزرق والزمرد الأخضر» . كذلك عرف عن ماركو پولو أنه رأى سكان زيبانجو يحشون أفواه موتاهم بدرّ وردى اللون ، وقرأ عن وحش من وحوش البحر تعشق درة استخرجها غراص من بطن الماء وأعطاهها للملك بيروز ، ففتك الوحش بالغواص الغاصب وبات فى حداد على معشوقته حتى غاب القمر السابع ، وفى رواية پروكوبيوس أن الملك بيروز ، قذف بالدرّة حين استدرجه أمراء الهون إلى الهوة الكبرى فضاعت الدرة ولم يعثر عليها أحد ، برغم أن إمبراطور إنستاس وعد من يجدها بخمسمائة سبيكة من الذهب ، كذلك قرأ عن ملك ملبار أنه كشف لتاجر من تجار البندقية عن

مجموعة من اللآلئ تبلغ الثلاثمائة والأربع عدداً ، كل لؤلؤة منها تمثل معبوداً من معبوداته .

وفى رواية برانتوم أنه لما زار الدوق فالتينو ولد إسكندر السادس ملك فرنسا لويس الثانى عشر كان جواده محملاً بأوراق الذهب ، وكان فى قبعته يومئذ صفان من الياقوت يسطع منهما بريق هائل ، كذلك روى عن شارل الأول ملك إنجلترا أنه كان يملك جواداً تدلت من مهمازه واحدة وعشرون وأربعمئة قطعة من ألماس ، روى عن ريتشارد الثانى أنه كان يملك سترة قدر ثمنها بثلاثين ألف مارك عليها عدد عظيم من اليواقيت ، وفى كتابات هول أن هنرى الثامن ذهب قبل تنويجه إلى لندن «عليه سترة من صفائح الذهب صدرها محلى بالألماس وغيره من الأحجار الكريمة ، وحول عنقه بنية عالية مزينة بضخم اليواقيت » وكانت خلية جيمس الأول تلبس قرطاً من زمرد فى إطار من سلوك الذهب ، وقد أهدى إدوارد الثانى إلى جافستون درعاً من الذهب الأحمر مرصعاً بالياقوت وبنية نقشت عليها ورود ذهبية مطعمة بالفيروز وخوذة مزينة بالدر ، وكان هنرى الثامن يلبس قفازاً يبلغ المرفقين تحليه الجواهر ، ويملك قفازاً آخر عليه اثنتا عشرة ياقوتة ! واثنان وخمسون لؤلؤة من لآلئ المشرق يرتديه كلما أراد حمل صقوره ، أما شارل السور ، آخر من تقلد دوقية بورغونيا من أسرته المجيدة ، فقد كانت قبعته التى يرتديها فى المراسم تزدان بالياقوت الأزرق فيتدلى منها دور تشبه الكمثرى فى هيئتها .

كل هذا حبب إلى دوريان جرای الحياة فى تلك العصور ، ولقد كان يجد فى قراءة تلك الحقائق والأساطير عن ترف الملوك الغابرين لذة ما بعدها لذة .

لكنه لم يكتف بدراسة العطور والموسيقى والأحجار الكريمة ، بل انصرف كذلك لدراسة الأقمشة الموشاة والأقمشة المنقوشة التى يكسو أهل الشمال بها جدران منازلهم الباردة ، كما يكسو أهل الجنوب جدران منازلهم المشرقة بالرسوم الملونة ، وخصص دوريان جرای كل وقته كعاداته حين ينصرف إلى

هواية ما لجمع بدائع النسيج هذه ، وأحزنه أن يرى يد الزمن تعبت بكل شيء جميل ، ولكنه وجد بعض العزاء فى أن شخصه أفلت من هذا المصير ، فهذا هو ذا الصيف يتلو الصيف ، والنسر ينفتح ثم يذبل حولاً بعد حول ، وليالى الفسق تأتى وتروح فليس فيها خزي جديد ، ولكنه باق على حاله مبق على جماله ، فلا رياح الخريف عصفت بعوده البض ، ولا ثلوج الشتاء شوهت وجهه النضير ، ولكنه حتى يتمتع بنعمة الحياة ، أما الجماد فيذهب مع الريح . ترى أين يذهب ؟ أين ذلك الثوب الذى نسجته الفتيات السمرات ليرضين الربة أثينا ، فأئذه الآلهة واستخدموه ليقاتلوا عليه العمالقة ؟ أين الخيمة الكبرى التى ضربها نيرون فوق لكوليزيوم بروما ، تلك الخيمة الأرجوانية التى رسمت عليها السماء ذات النجوم الثواقب ، وفيها أبولو يسرع بعربته ذات الجياد البيضاء ، بجياده ذات الأعنة المذهبة ؟ أين المناديل العجيبة التى نسجت لكاهن الشمس ورسمت عليها أطايب المائدة جميعاً فكأن رائيها فى وليمة زاخرة ؟ أين أكفان الملك شليريك التى رسمت عليها ثلاثمائة نحلة ذهبية ؟ أين تلك الثياب التى أثارت غضب أسقف بونت «بسباعها وفهودها ودبيتها وكلابها وغاباتها وصخورها وصياديتها وكل ما يمكن لرسام أن ينقله عن الطبيعة» ؟ أين سترة شارل دوق أورليان التى نقش على أكمامها أغنية مطلعها «لقد غمرنى الفرح يا سيدتى» ومع الألفاظ علاماتها الموسيقية مكتوبة بسلوك من ذهب رءوسها در ؟ لقد قرأ دوريان جراى عن تلك الغرفة التى أعدت بقصر رينس خصيصاً لحنة ملكة بورغونيا وزينت «بأقمشة مطرزة رسم عليها بالخيوط ألف وثلاثمائة وواحد وعشرون ببغاء تحمل جميعاً شعار الملك منقوشاً بالذهب وخمسمائة وإحدى وستون فراشة تتحلى أجنحتها جميعاً بشعار الملكة منقوشاً بالذهب كذلك» ، كذلك قرأ عن كاترين دى مديسيس أنها كانت تملك سريراً يعرف بسرير الأحزان صنع مخمل أسود رسمت عليه أهلة وشموس ، وكانت للفراش أستار من الدمقس موشاة بأكاليل الزهر رسمت على أرض مذهبية وأرض مفضضة ، والأستار تنهى بأطراف تدلى منها اللائى ،

والسرير قائم فى غرفة جدرانها مكسوة برقاع من النسيج مصففة تحمل شعار الملكة مرسوماً على القماش المفضفض بالمخمل الأسود المقصوص ، وقرأ أن لويس الرابع عشر كانت لدية أعمدة عالية مرسومة على بسط صنعت على هيئة النساء ارتفاعها خمسة عشر قدماً كلها موشاة بالذهب ، وقرأ عن سويسكى ملك بولندا أن فراشه الملكى كان مغطى بحربر وذهب من أزمير خطت عليه آيات من القرآن بالفيروز ، أما عمدة فكانت قشرتها من فضة عليها نقوش ماهرة ركت فيها أوسمه لا عد لها مرصعة بالجواهر مطعمة بالخزف ، وقد كان هذا الفراش قبلا فى معسكر الترك خارج فيينا ترفرف عليه راية المسلمين .

وظل دوريان جراى يسير على هذا النهج علماً بأكمله يكسأ أجمل ما تقع عليه من الأقمشة المطرزة والأقمشة ذا الرسوم ، فمن موسلين دلهى البديع المصنوع بالخياط الذهبية المكسو بأجنحة الجعلان البراقة ، إلى غلائل داكل التى بلغ من شفوفها أن عرفت بين أهل المشرق بالهواء المنسوج ، وبالماء الصافى وبندى المساء ، إلى أقمشة من جاوة عليها رسوم غريبة ، إلى أستار صينية صفراء دقيقة الصنع ، إلى كتب مجلدة بالحرير الأسمر النحاسى اللون أو الحرير الأزرق الجميل محلاة بالزئبق والطير وما أشبه ذلك من الصور ، إلى أقنعة من الحرير موشاة على طريقة المجر ، إلى دمقس صقلية وأثواب المخمل الإسبانى السميك ، إلى منسوجات جورجيا ذات الأركان المذهبة ، إلى حرائر اليابان الخضراء ذات العصافير البديعة الأجنحة .

كذلك استهواه جمع الأيأ الكنسية ، وقد كان هذا مظهراً من مظاهر كلفه بالكنيسة وكل ما يتعلق بها ، وفى الصناديق المستطيلة المصنوعة من خشب الشربين التى اصطفت فى شرفة بيته الفريدة ، كدس دوريان جراى عدداً عظيماً من الثياب الجميلة النادرة التى تلبسها الكنيسة «عروس المسيح» كما يسميها الكاثوليك ، وهى ثياب فاخرة تحليها الجواهر قصد بها أن تخفى جسد هذه العروس الشاحب الذابل الذى برته البرحاء وأدمته الآلام ، وما أنزل أحد بها هذه البرجاء ولا تلك الآلام ولكنها سعت إليها اختباراً ، كذلك كان فى

مجموعته معطف كبير من الحرير القرمزى ، والدمقس ذى الخيوط الذهبية نسجت فيه حلية متكررة على صورة رمان كثير نبتت كل رمانة منه فى زهرة سداسية الأوراق ، وعلى يمين الرمان وعلى يساره رسمت ثمار الأناناس بالدرر الصغيرة ، وكانت تصور مناظر عن حياة مريم العذراء من بينها تتويج مريم ، وقد رسم تاجها بالحرير الملون فوق الإزار الذى يغطى رأسها ، وهو من عمل فنان إيطالى عاش فى القرن الخامس عشر ، وكان فى مجموعته معطف آخر من المخمل الأخضر موشى بياقات من أوراق الأكانتا الشوكية رسمت على هيئة قلوب ، ومن هذه الأوراق خرجت أزهار بيضاء طويلة السيقان رسم تصميمها الداخلى بالخيوط الفضية والبلورات الملونة ، وعلى الأبريم رأس ملاك منسوجة بخيوط ذهبية بارزة ، أما الشرائط فكانت منسوجة من الحرير الأحمر والحرير الذهبى ومرصعة بالأياقين التى تصور الشهداء والقديسين ، ومن بينهم القديس سباستيان ، كذلك كانت فى حوزته حلة كنسية من حرير لونه عنبر وحرير لونه أزرق وحرير لونه ذهبى ، ودمقس لونه أصفر ، ونسيج من ذهب ، على الحلة الكنسية صور تمثل آلام المسيح وصلبه ، ثم صور تمثل السباع والطواويس وغيرها من الرموز ، وكانت لديه عباءات كنسية من الحرير الأبيض والدمقس الوردى محلاة بأزهار التوليب وأزهار الزنبق وحوار الماء ، وكان لديه عدد من كسّى الهياكل المصنوعة من المخمل والكتان الأزرق ، وعدد من أغطية القربان وأقنعة الكأس المقدسة والمناديل التى تحمل صورة المسيح ، وكان يجمع هذه الأشياء لأنها ترمز لطقوس دينية تذكى فيه الخيال .

وكان يتخذ من هذه النفائس التى جمعها فى بيته الجميل وسيلة لنسيان مخاريه والهرب ولو إلى حين من مخاوفه القاتلة ، وفى داخل الغرفة الموحشة الموصدة التى قضى فيها الشطر الأكبر من صباه كانت الصورة الرهيبة تستند إلى أحد الجدران حيث وضعها هناك بنفسه ، وأسدل عليها الستار الملون

بأرجوان وذهب ، ومعالمها المحجوبة تتغير يوماً بعد يوم وتسجل التدهور الذى ينزل بحياته ، وكان يحجم الأسابيع الطويلة عن دخول الغرفة ، بل ينسى الصورة المسوخة وينسى معها العذاب الذى يفتك بروحه ويسترد مرحة الأول وشوقه إلى الحياة ، ثم يخرج من داره فجأة ذات مساء ، ويقصد إلى وكر من تلك الأوكار الموبوءة ، وهناك يقضى أياماً متصلة حتى يقصيه أهلها فيعود إلى داره ويجلس قبالة الصورة حزينا كاسف البال يمتلئ قلبه بالمقت للصورة ولنفسه معاً ، أو يجلس قبالتها مغتبطاً بخطاياها الفريدة لأنها فريدة ، راضياً بالمسخ الذى يحقق بخياله الشائه لأن المقادير كتبت عليه أن يحمل أوزار حياته النجسة .

وبعد أن مرت أعوام شق عليه أن يطيل من أسفاره إلى الخارج فنزل عن الفيلا التى كان قد كراها ببلدة توفيل مع اللورد هنرى ، كما نزل عن البيت العربى الأبيض الذى كان قد كراه كذلك بمدينة الجزائر مع اللورد هنرى ، وقضى فيه الشتاء بعد الشتاء ، شق عليه أن ينفصل عن الصورة طويلاً لأن الصورة صارت جزءاً متمماً لحياته ، واستبد به الخوف من أن يقتحم الغرفة أحد أثناء غيبته برغم أن أحكم إيصادها بالقضبان .

وكان يعلم أن سره الرهيب لن يطلع عليه إنسان لأن ملامحه قد أوشكت أن تنطمس من الصورة ، ولم يبق منه فيها إلا شبه ضئيل لا يزال ملحوظاً تحت الوجه القبيح المسوخ ، ولكن هذا لن يدل أحداً على شئ مما جرى ، ولن يغيره أحد بأنه صاحب الوجه قبيحاً وممسوخاً ، بل أن يكون الوجه آية فى القبح والمسخ ، لو أنه صارع الناس بالحقيقة لكذبوه .

ومع ذلك فقد كان فزعاً واجافاً ، تراه فى بيته الكبير بمقاطعة نوتجهام يؤنس أصفياه من الشباب الوجهاء ، ويعرض عليهم ما يذهلهم ويذهل جديع الناس من ألوان البذخ ومظاهر السخاء ، وفيما هو كذلك تراه يترك أضيافه فجأة ويعود إلى لندن على استعجال ليتحقق من أن باب الغرفة ما زال سليماً

والصورة ما زالت في موضعها ، وكان العرق البارد يتصبب من جسده كلما تصور أن الصورة قد سرقت ، فقد كان يخشى أن يطلع الناس على سره الرهيب ، بل لقد كان يحس أحيانا أن الناس قد بدءوا يشكون في حقيقة أمره .

لقد كان معجبه كثيرين ، ولكنه نجح كذلك في إثارة الريب في قلوب البعض ، وهو يذكر كيف أنه أراد ذات مرة أن يلتحق بناد من نوادي لندن يؤهله نسبة الكريم ومكانته في المجتمع للعضوية فيه فأوشك طلبه إن يرفض ، وقد قيل عنه إن صديقاً له استصحبه مرة إلى نادى تشرشل فما إن دخل قاعة التدخين حتى نهض الدوق بيرويك وسيد آخر في استياء واضح وانصرفا ، وحين تجاوز الخامسة والعشرين من عمره كثرت عنه الأقاويل الغريبة ، قيل عنه إنه رأى في شجار مع بعض الملاحين من الأجانب في بؤرة قذرة بمجاهل حتى هويت تشابل الوضع ، وقيل عنه إنه كان متصلاً بعصابة من اللصوص ومزيفي النقود ، وأنه درس عليهم فنون اللصوصية والتزييف ، وكان في كل مرة يختفى لا يعلم أحد مقره أو علة غيابه فتكثر الشائعات على ألسنة الناس ، وما إن يظهر في المجتمع من جديد حتى يتهاوس عنه الناس في أركان الغرفات أو يتجاهلونه في احتقار أو يلقون عليه نظرات باردة فاحصة لعلمهم ينفذون إلى سره الخبي .

ولكنه كان ثابت الجأش لا يعبأ بشئ من هذه الإهانات ، وكان أكثر الناس يعتقدون أن حاسديه ينفسون عليه مرحة الدائم الذي لم تعكره الأحزان يوماً ، وابتسامته الساحرة الساذجة وشبابه الناضر الذي تحدد الزمن فيطلقون عنه هذه التهم النكراء التي ترددها الألسنة ، ولكن الناس كانوا يلحظون أن بعض أخصائه يجافونه من وقت إلى آخر ، وأن بعض اللاتي عشقنه عشقاً لا مزيد عليه وكسرن من أجله أقدس التقاليد ، وتعرض في هواه لأفحش أنواع النقد كن يشحن لونا من فرط الحزى أو من فرط الرعب كلما حل دوريان جرای .

غير إن هذه الفضائح زادت فتنة في نظر الكثيرين ، وأحاطته بجو من الرهبة والغموض ، وقد صانت له ثروة الطائلة مكائته الاجتماعية ، لأن المجتمع ، المتحضر على الأقل ، لا يبادر إلى قبول الأوقاويل التي من شأنها أن تحطم من اجتمعت لهم الفتنة والجاء ، وهو يرى بغريزته أن السلوك الاجتماعي أهم شأناً من الأخلاق ، فخير للمرء ألف مرة أن يكون له طاه ماهر من أن يكون له وقار المحافظين ، فلو قدم لك رجل عشاء مؤملاً أو نبذاً تافهاً فكيف يعزبك أن تخرف أن حياة مضيفك الخاصة نقية لا غبار عليها ؟ لقد قال اللورد هنري مرة إن أسمى ما في العالم من فضائل لن تعوض على الإنسان خسارته إن هو أكل لحماً لم يتم تسخينه ، ولعل في قوله شيئاً كثيراً من الصواب ، فمقاييس المجتمع السليم هي مقاييس الفن السليم ، فإن لم تكن واجب أن تكون كذلك ، لأن الشكليات الجوهرية في كل مجتمع راق ، والواجب يقضى بأن تنال منا ما تستحقه من حفاوة واحتفال ، وأن نسرف فيها حتى تبتعد بنا عن الواقع ، والواجب يقضى بأن يجتمع فيها كل ما في التمثيلات الغرامية من نفاق ، وكل ما في هذه التمثيلات من سحر وذكاء يحببنا إلى قلوبنا ، فما النفاق برذيلة ، وما النفاق إلا وسيلة تتعدد بها شخصياتنا .

مهما يكن من شيء فقد كانت هذه فلسفة دوريان جرای ، وكثيراً ما كان يعجب لتفاهة القائلين بأن الأنا شيء بسيط ثابت جوهرى يصح الاعتماد عليه ، لأنه كان يرى أن الإنسان مخلوق مركب متعدد الشخصيات لا حصر لإحساساته ، وتراكم في نفسه تراث من الأفكار والعواطف على تراث من الأفكار والعواطف ، ودنس جسد أسقام الموتى وهي مخزنة بشعة ، وكان يشاق كثيراً إلى استعراض صور أسلافه في القاعة الموحشة الباردة بيته الريفى ، ويتفحص وجوه أولئك الذين جرت في عروقه دماؤهم ، فهذا فيليب هربرت الذى وصفه فرنسيس أوزبورن في مؤلفه «مذكرات عن عهدى الملكة إليزابيث والملك جيمس» بأنه «كان صفى رجال البلاط لحسن طلعتة وجماله الذى ذوى

قبل الأوان» لقد كان يخيل لدوريان جراً أحياناً أن حياته ما هي إلا صورة من حياة هيربرت الشاب ، وأن سم الرذيلة انتقل هكذا من جسد إلي جسد عبر القرون حتى مشى في عروقه . أترى صلاته العجيبة إلى الإلهة أن تبقى له على شبابه ، وتفعل ما بدا لها بالصورة ، صلاة المخبول كما وصفها بازيل هولورد ، أترى تلك الصلاة التي غيرت مجرى حياته تماماً نبتت دون وعي منه من حسرته الغامضة على أطلال هذا الجمال القديمة ؟ ثم هذا السير أنتوني شيرارد يقف أمامه مرتدياً صدره الأحمر الموشى بالذهب ، ومسترته المرصعة بكريم الجواهر ، فذهب الكمين حول المعصمين ، وقد ارتاح درعه الأسود المفضض عند قدميه ، ترى ماذا ورث عن هذا الرجل ؟ لقد كان السير أنتوني شيرارد خليل جيوفانا غانية نابولي : أفتراه زورثة الميل إلى الفجور ؟ أليس جائزاً أن مغامرات دوريان جراً إن هي إلا الأحلام التي لم يجسر هذا الميت على تحقيقها ؟ ثم هذه الليدي إليزابيث ديفيرو تطل عليه من اللوحة الباهتة في إشراق وقد كست رأسها بغلالة شفافة وزينت وسطها باللاكي وجرت في كميتها عروق خضراء ، إنها تحمل يمينها زهرة وتمسك يسراها إناء مطعماً بالخزف فيه ورود حريرية ، بيضاء وبجوارها مائدة ، وعلى المائدة تفاحة وماندولين ، وعلى خدائهما الدقيقين وردتان كبيرتان خضراوان منسجج ، لقد كان يعرف قصة حياتها والأقاويل التي تروى عن عشاقها الكثرين ، أتراه ورث عنها طبعها ؟ إن عينيها البيضاءين عليهما جفنان ثقيلان وهما ينظران إليه نظرة لا يفهم لها معنى ، ثم هذا جورج ويلوبي يلبس شعره المستعار المغطى بالمسحوق وثيابه العجيبة الألوان ، لقد كان منظره جهنمياً ، فوجهه قاتم عابس حزين ، وشفتاه الشهوانيتان قد ارتسم عليهما احتقار الناس ، وعلى يديه الصفراوين سقط سواران من حرير دقيق الصنع فاوشكا أن يخفيا الخواتم الكثيرة التي تزين أصابعه ، لقد كان أميراً من أمراء الأناقة في القرن الثامن عشر ، وكان في شبابه من اصفياء اللورد فيرارز ، وغير هؤلاء جميعاً كان هناك اللورد بيكنهام صديق جورج الرابع أيام أن كان وصياً على عرش إنجلترا ، ونديمه أيام دعارته

وأحد شهود زواجه بمسز فتزهربرت ، لقد بدا آية في الملاحه بشعره الكستنائى
المجعد ووقفته التى تنبئ بالصلف ، ترى ماذا ورث عنه ؟ لقد ساءت سمعة
اللورد بيكنهام فى كل مكان ، وكان يترأس الحفلات البوهيمية الحمراء فى
كارلتون هاوس ، ومع ذلك فقد رصعت صدره نجمة وسام ربطة الساق ، وهو
الوسام الأول فى المملكة كإنه بطل قومى ، وها هى ذى صورة زوجته قائمة
إلى جوار صورته ، وهى امرأة صفراء الوجه رقيقة الشفتين متشحة بالسواد ،
إن دمها يجرى كذلك فى عروق دوريان جراى ، فىا للعجب لهذا الخليط ! ثم
ها هى ذى أمه تطل عليه من لوحاتها بوجه يشبه وجه اللىدى هاملتون محبوبة
نلسون ، وكان شفتيها مبللتان بالنيذ . إن دوريان جراى يعرف ما أخذه عن
هذه المرأة ، لقد أخذ عنها جماله وعشقه لجمال الآخرين . وها هى ذى تنظر
إليه فى إشراق وهى فى ثوبها المحلول الذى يشبه أثواب العذارى السكارى فى
أساطير اليونان ، وعلى شعرها انتشرت أوراق العنب ، وقى يدها كأس سال
منه النيذ الأرجوانى . لقد ذبلت أزهار القرنفل التى زين بها الرسام صورتها ،
ولكن بريق عينيها لا يزال قوياً وصفاء عينيها لا يزال عميقاً . نعم ، إن عينيها
تتبعانه أينما توجه .

لكن دوريان جراى لم يكن له أسلاف فى الدم فحسب ، بل كان له
أسلاف فى الأدب كذلك ، أسلاف لعلهم أوثق به رباطاً من أصلابه ، وأقرب
إليه منهم فى الطبع والشخصية ، وهؤلاء تأثيرهم واضح فى النفس لاخفاء فيه ،
بل لقد كان يتسوهم أحياناً أن تاريخ الرنسانية ليس إلا ترجمة لحياته هو ،
لا حياته الواقعة بأحداثها وظروفها ، ولكن حياته كما رسمها له وصورتها له
عواطفه ، وكان يحس بأنه يعرف الأبطال الذين زينوا الرذيلة لعيون الناس
وتفننوا فى الشر ، يعرفهم واحداً واحداً ، وبدا له أن حياتهم لم تكن
إلا نسخاً متكررة من حياته .

فبطل القصة العجيبة الذى كان له سلطان عظيم على نفسه كان يشاركه
هذا الإحساس بأن الدنيا قد اجتمعت فيه ، وهو يقول فى الفصل السابع إنه

جلس جلسة الإمبراطور تايريوس فى حديقة بجزيرة كابرى تغطى رأسه أوراق الغار لتمنع عنه الصواعق مطالعاً كتاب إلفانتيس المخزى ، على حين كانت الأقزام والطواويس تخال من حوله ، ويرقص أمامه عازف الناي كما يرقص حامل المبخرة ، وهو يقول إنه ثمل وعربد مع ساسة الخيل ذوى القمصان الخضراء فى مزاودهم ، ثم أكل فى صفحة عاجية مع جواد على صدره كسوة رصعتها الجواهر ، كما فعل القنصل كاليجولا وهو يقول إنه جال كما جال دوميتياس شاحب الوجه فى دهليز على جانبيه مرايا من رخام ، باحثاً فى صفحتها عن خيال الخنجر الذى اعتزم أن يقضى به على نفسه وقد أتلف روحه الملل ، ذلك الداء الذى يصيب من حبتهم الحياة بكل شئ ولم تبخل عليهم بشئ ، وهو يقول إنه نظر إلى حوانيت القصابين فى سوق المدينة خلال زمردة شفافة صافية ثم وجد نفسه محمولاً فى عربة من أرجوان ودر ، تجرها بغال فضية الحدى ، والعربة تجرى فى شارع الرمان قاصدة إلى قصر الذهب ، وسمع الناس بطول الطريق ينادون : يا نيرون ، يا نيرون ! كذلك يقول أنه صبغ وجهه بالألوان كما فعل الأجبال وجلس بين النساء يغزل كما يغزلن وأتى بالقمر من قرطاجنة وزوجة بالشمس وزواج الروح بالروح .

كم قرأ دوريان جرای هذا الفصل وما بعده من فصول ! لقد قرأ فى الفصل الثامن والفصل التاسع وصفاً عجيباً ساحراً لأولئك الأشقياء الذين هاموا بالرديلة وكلفوا بالدماء وضاقوا بالضجر فاستحالوا وحوشاً ضارية أو ضاع صوابهم فدخلوا فى زمرة المجانين . قرأ عن فيليو ، دوق ميلان الذى ذبح زوجته وبلل بالسسم شفيتها لعل عشيقها يلعبه فيموت ، قرأ عن پیارو باربی عاھل البندقیة الذى عرف باسم لوبس الثانى ، وكيف دفعه الغرور إلى أن یلقب نفسه ببولس الجمیل ، وكيف باع تاجه بشهوة أثیمة نكراء وهو یقدر بمائتى ألف فلورین ، كذلك قرأ عن چان ماریا فسكونتى الذى كان یستخدم كلاب الصيد لتطارده الأدمین ، وكيف وجدت جثته بعد قتله مغطاة بأزهار نثرتها علیه بغی كانت متیمة بحبه ، وقرأ عن بورچیا قاتل أخیه وعن جواده

الأبيض وعن مسعطفه الملطخ بدم بيروتو ، وقرأ عن بيترور ياريو كاردينال فلورنسا الصغير وولد الباب سيكستوس الرابع المفضل لديه ، وهو الذى أذهل الناس بجماله وفجوره معاً ، وهو الذى استقبل ليونورا ملكة أرجوان فى خيمة من الحرير الأبيض القرمزى ملأى بالخور ووحوش الأساطير وطلا صبيًا من الصبيان يقوم بخدمته فى هذه الوليمة بماء الذهب لغله يبدو كهيلاس أو كغانيميد ساقى الآلهة ، وقرأ عن الطاغية عزلين الذى أصيب بداء الكآبة ولم يفرج عنه إلا مرأى القتلى وطعم الدماء حتى لقد قيل عنه إنه ولد شيطان من الشياطين راهن أباه على روحه وغشه فى اللعب ، وقرأ عن چان باتستا تشيبو الذى لقب نفسه بتشيبو البرئ وهو الذى حقنه طبيب يهودى بدم ثلاثة من الصبية ، وقرأ عن سيجيسموندو مالاتستا عاشق إيزوتا وسيدريمينى وهو الذى أحرقت فى روما صورته ولقبه الناس بعدو الله والناس لأنه خنق پوليسينا بمنديل كبير ووضع السم لجيزفا ديستى فى كأس من الزمرد وبنى كنيسة وثنية لیتعبد فيها المسيحيون تخليداً لجريمة من جراذمه المخزية ، وقرأ عن شارل السادس الذى عشق زوجة أخيه عشقاً قوياً مدمراً حتى لقد تنبأ له رجل أبرص بالجنون ، فلما أن ذهب عقله لم يكن يهدئ من هياجه إلا مرأى رقاع غريبة رسمت عليها صور ترمز للحب والموت والجنون ، وكذلك قرأ عن جريفونيتو باليونى ذى الشعر المجعد والقبعة المرصعة باللالى والسترة المحبوكة وهو الذى فتك بأستورى وبعروسه وبسيمونيتو وخادمه فلما أن حضرته الوفاة بقصر بيروجيا الأصفر بكاه أعداؤه لفرط جماله وباركته اتالانتا بعد أن صبت عليه اللعنات .

كل هؤلاء قرأ دوريان جرای عنهم فسحرتهم فظاعتهم ، وكان يراهم فى اليقظة والنام . حقاً لقد رأى عصر النهضة الأوربية من فنون السم عجباً . عرف الخوذة المسمومة والمشعل المسموم والقفاز المسموم والمروحة المسمومة والمسبحة المسمومة والمعطرة المسمومة

أما دوريان جرای فقد فتك بروحه كتاب مسموم ، فلقد كان يجد فى الشر أحياناً ما يحقق فكرته عن الجمال .

الفصل الثانى عشر

فى ليلة التاسع من نوفمبر وهو اليوم السابق لعيد ميلاده الثامن والثلاثين حدثت أحداث جسام جعلت دوريان جراى يذكر ذلك اليوم طويلاً .

خرج دوريان جراى حوالى الساعة الحادية عشرة من بيت اللورد هنرى ، بعد أن تناول معه العشاء وسار قاصداً بيته ، وكان يلبس الفراء السميك ليتقى بها شر تلك الليلة الباردة التى انتشر فيها الضباب وفى منعطف ميدان جروفنور وساوث أودلى ستريت خرج من الضباب رجل يسرع فى المسير وقد رفع ياقة سترته الرمادية وكان يحمل فى يده حقيبة ، ومر هذا الرجل بدوريان جراى فإذا به بازيل هولوردر ، واعتري دوريان فزع غريب لم يفهم له سبباً ، فتجاهله واستأنف المسير نحو بيته على استعجال ، ولكن بازيل هولوردر تبينه فتوقف عن المسير أولاً ثم استدرد وأسرع ليلحق به وقد كان ، وبعد لحظات قليلة كان الرسام قابضاً على ذراعه يقول

- ما أعجب هذه الصدفة يا دوريان لقد انتظرتك فى مكتبك منذ الساعة التاسعة ، فلما طالت غيبتك أشفقت على خادمك الذى أنهكه السهر ، فطلبت إليه أن يأوى إلى فراشه ثم انصرفت ، إني ذاهب إلى باريس بقطار منتصف الليل ، ولقد كان يهمنى أن أراك قبل رحيلي ، فلما أن لمحتك فى الضباب عرفت ، أو على الأصح خيل إلى أن هذا الفراء فراؤك . ألم تعرفنى يا دوريان ؟

- وكيف أعرفك فى هذا الضباب يا عزيزى ! إني لا أستطيع أن أتبين ميدان جروفنور نفسه فكيف تنتظر ذلك منى ؟ بل إني أحس بأن بيتى فى هذه المنطقة ، ولكنى لا أعرف مكانه على التعيين . يؤسفنى أن أسمع برحيلك يا بازيل ، فلقد مضى زمن طويل لم نلتق فيه ، ولعلك لن تغيب طويلاً .

بلى سوف أقيم فى الخارج ستة أشهر ، وقد صحح عزمى على استئجار استوديو بباريس أعتزل العالم فيه حتى أفرغ من رسم صورة عظيمة تصميمها يملأ رأسى ، ولكن دعنا من هذا الآن فما جئتك لأتحدث عن نفسى .
ها قد وصلنا إلى بابك فهلا أذنت لى بالدخول حتى أفضى إليك بحديث هام ؟
قال دوريان جراى فى تكاسل وهو يصعد الدرج ويدير المفتاح فى ثقب الباب :

- يسرنى أت أدعوك يا بازيل ، ولكن ألا يعطلك هذا عن قطارك ؟
فنظر هولوررد إلى ساعته على نور المصباح الذى خنقه الضباب ثم قال :
- لا تزال أمامى فسحة من الوقت ، فالقطار لا يغادر المحطة إلا فى الثانية عشرة والربع ، والساعة الآن لا تزال الحادية عشرة ، والواقع أنى حين لقيتك كنت فى طريقى إلى النادى لأبحث عنك ، ومن هذا ترى أنى لن أحتاج إلي وقت لجمع أمتعتى ، فقد سبقتنى القطع الثقيلة منها إلى المحطة وكل ما سأحمله هو هذه الحقيبة ، ومحطة فكتوريا لن تحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة .

فابتسم له دوريان وقال :

- ما أعجب منظرى فى هذه السترة عريضة الياقة وبهذه الحقيبة المنتفخة !
هيا ادخل وإلا دخل قبلك الضباب ، ولكنى أنهاك عن الكلام فى أى شىء ذى بال ، فنحن نعيش فى عصر خلا من كل شىء ذى بال ، أو على الأقل يجب أن يخلو .

تبع هولوررد دوريان إلى المكتبة وهز رأسه حين سمع هذا الكلام ، وكانت النار تتقد بشدة فى المدفئة المكشوفة ، والمصابيح تشتعل ، وفى الغرفة مائدة صغيرة عليها صندوق مفتوح من الفضة الهولندية اصطفت فيه زجاجات الشراب ويجوارها بعض زجاجات الصودا وأكواب زجاجية ضخمة .

قال هولوررد مشيراً إلى الخمر :

من هذا ترى يا دوريان أن خادملك قد جعلنى أحس بأنى فى بيتى ،
وأعطانى كل ما طلبته بما فى ذلك سيجائرك المذهبة ، فهو رجل كريم وهو
يفضل خادملك الأول الفرنسى ألف مرة ، وبهذه المناسبة قل لى : ماذا حدث
لخادملك الفرنسى ؟

فهز دوريان كتفيه قائلاً :

- أعتقد أنه تزوج بوصيفة الليدى رادلى ، وفتح لها محلاً بباريس
لتفصيل الملابس على الأزياء الإنجليزية ، وقد بلغنى أن التطور الأخير فى
الدوق الفرنسى هو الجنون بكل ما هو إنجليزى . أليس هذه غباوة من
الفرنسيين ؟ ولكن فكتور كان خادماً مرضياً على عكس ما تظن . صحيح أنى
كنت أنقر منه شخصياً ، ولكنه لم يدع لى مجالاً للشكوى حين كان فى
خدمتى ، ، وكم شككت فيه ولكن شكوكى كانت على غير أساس ، فقد كان
فى الواقع شديد الإخلاص لى ، وبدا عليه التأثير العميق حين ترك خدمتى .
أترغب فى كأس آخر من الكونياك مع الصودا يا بازيل أم تفضل نبيذ الرين مع
الغازوزة ؟ إن نبيذ الرين مع الغازوزة هو شرابى المفضل ، ولا بد أن لدى ،
منه بقية فى الغرفة المجاورة .

أجاب الرسام وهو يخلع عنه قبعته ومعطفه ويلقيهما فوق الحقيبة التى
وضعها فى ركن الغرفة :

- أشكرك ، وكفانى ما شربت ، والآن فإنى أرغب فى أن أحدثك حديثاً
جدياً يا دوريان ، وأرجوك ألا تعبس هذا العبوس فهو لا يشجعنى على المضى
فى الحديث .

فقال دوريان فى جفافه المعهود وهو يرتقى على الأريكة .

- عم تريد أن تحدثنى ؟ أرجو ألا تحدثنى عن نفسى فأنا برم بنفسى هذه
الليلة ، وأود أن أكون شخصاً آخر .

فأجاب الرسام بصوت حاد عميق :

بل أريد أن أحدثك عن نفسك يا دوريان ، ولا بد لى من الإفضاء إليك بهذا الحديث ، لن أقطع من وقتك أكثر من نصف ساعة .

تنهد دوريان ثم أشعل سيجارة وقال :

- نصف ساعة بأكملها ؟

- أنا لم أطلب منك شيئاً مذكوراً يا دوريان ، ثم إنى أتوخى مصلحتك بهذا الكلام ، فأعتقد أن من الصائب أن تعرب أن الناس فى لندن يتناقلون عنك أشنع الأقاويل .

- لست أحب أن أعرف شيئاً هما يقال فى ، فأنا أحب الفضائح إذا رويت عن الآخرين ، أما الفضائح التى تروى عني فلا يهمنى أمرها ، لأنها لا تأتى بجديد ، وهى كذلك خالية من الطلاوة .

- ولكن الواجب يقضى عليك بأن تهتم لها ، فأنت جنتلمان ، والجتلمان تهمة سمعته . أنت بالطبع لا تحب أن ييسط الناس ألسنتهم فيك ويصوروك فى صورة المجرم الآثم . لست أشك فى أن مكانتك عالية وثروتك ضخمة ، ولكن المكانة والثروة لا تغنيان عن المرء شيئاً إن هو ساءت سمعته . وأناؤكد لك أنى لا أصدق من وشايتهم شيئاً ، أو على الأقل أرانى أرفض تصديقها كلما رأيتك ، فالرذيلة تطبع على وجوه الناس أثراً لا يمحي ولا يخفى ، ووجهك مثال الطهر والنقاء . أسمع الناس يتحدثون أحياناً عن الرذائل المستورة وفى رأى أن الرذيلة المستورة شىء لا وجود له ، فإذا ما ابتلى أحد الرذيلة رأيت آثارها واضحة فى خطوط فمه ، وفى تهدل جفنيه ، بل فى هيئة يديه كذلك . لقد اءنى فى العام الماضى رجل من معارفك لن أذكر لك اسمه يطلب إليّ أن أرسم صورته ، ولم أكن قد رأيته أو سمعت به من قبل ، ولكنى عرفت عنه الكثير بعد ذلك ، وقد عرض علىّ أجراً سخياً مسرفاً فى السخاء ، ولكنى رفضت لأنى شاهدت فى هيئة أصابعه ما كرهت ، وقد تحقق لى الآن أنى كنت على صواب فى ظنونى ، وعلمت أن حياته دنسة إلى حد مفرج . أما أنت يا دوريان فليست أصدق كلمة واحدة مما يقال فيك ؛ لأن

وجهك الناصر ينطق بالبراءة ، ولكنى لا ألك إلا غراراً ، وأنت لم تعد تأتى إلى الأستوديو ، وحين أسمع الناس يتهامون عنك بهجر القول لا أعرف ماذا أقول . ماذا جعل الدوق بيرويك ينصرف من النادى حيث حللت به أنت يا دوريان ؟ ما الذى حمل عدداً كبيراً من وجهاء لندن على مقاطعتك . لقد كنت صديقاً للورد ستافلى ولكنى لقيته فى حفلة عشاء فى الأسبوع الماضى وانتهى بنا الحديث إليك بمناسبة الصور المصغرة التى أعرتها لمرض ددلى ، فلوى ستافلى شفته امتعاضاً وقال إنك قد تكون من أصحاب الذوق الفنى النادر ، ولكنك رجل لايجوز لفتاة طاهرة أن تتعرف إليه ، ولايجوز لامرأة عفة أن تجلس فى مكان أنت فيه جالس ، فلما نبهته إلى أن صديقك وطلبت إليه أن يفسر كل شىء سرد لى عنك الأعاجيب أمام جميع الحاضرين ، وبالحالها من تهم شنعاء تلك التى كالحا لك يا دوريان . قال إنك تحطم حياة الشبان بتأثيرك السيئ فيهم ، فمنهم ذلك الفتى التاعس ضابط الحرس الذى انتحر ، وقد كنت من أخلص أصدقائه ، ومنهم السير هنرى آشتون الذى اضطر إلى الرحيل عن إنجلترا ملوث الشرف ، وقد كتما متلازمين ، ومنهم السير آدريان سنجلتون الذى انتهت حياته نهاية فاجعة ، ومنهم ولد اللورد كنت الذى أضعت مستقبله .

لقد قابلت أباه المسكين أمس فى شارع سانت جيمس فرأيت الحزن والعار قد هداً بنيانه ، ثم دوق بيرث ؟ إن حياته آلان جحيم لا يطاق ، ولن يرضى أحد يحترم نفسه أن يخالطه .

عض الألم دوريان فعرض دوريان شفته ، وقال بصوت ينم عن الاحتقار البالغ :

- كفى كلاماً يا بازيل ! إنك تلغو عن أشياء لا تعرف عنها شيئاً ، إنك تسألنى عما يحمل بيرويك على ترك النادى حين أحل أنا به ، وأنا أقول إنه يفعل ذلك لأنى أعرف كل شىء عن حياته لا لأنه يعرف أى شىء عن حياتى إن الدم الذى يجرى فى روق بيرويك لهو دم الإثم والجريمة ، فكيف يتظر

من مثله أن يحيا حياة صالحة ! إنك تسألني عن هنري آشتون ودوق بيرث ،
فهل أنا الذي لقتها مبادئ الرذيلة ؟ ثم إذا كان ولد كنت يؤثر أن يتصيد لنفسه
زوجة من الشارع ، فكيف ألام أنا على كان ذلك ؟ وإذا كان أدريان سنجلتون
يوقع على الصكوك بأسماء أصدقائه فما أنا بالواصي عليه المسئول عن فعاله .
أنا أعرف ميل الإنجليز إلى الولوغ في أعراض الناس ، فأبناء الطبقة المتوسطة
يعرضون أخلاقياتهم العتيقة على موائدهم الخالية من الذوق ، ويتهامسون عن
فضائح سادتهم النبلاء ليحسوا بأنهم داخل المجتمع الراقى لا خارجه ،
وليوهم بعضهم بعضاً بأنهم من أصفياء أبناء البيوتات الذين يلوثون أراضهم ،
وفي إنجلترا يكفي أن يجتمع لك شرف المولد والذكاء معاً لكي يطلق أوساط
الناس ألسنتهم فيك غيرة وكمداً ، ثم أين هذه الحياة الفاضلة التي يحياها
أولئك الذين يتشددون عن الفضيلة ؟ أنت تنسى يا عزيزي أننا نعيش في
وطن النفاق .

فقال هولوردد :

- هذا خارج عن الموضوع يا دوريان ، فأنا أعرف أن إنجلترا بلد منحط ،
وأن المجتمع الإنجليزي مجتمع فاسد من أساسه ، ولهذا أردت أن تكون
نموذجاً للكمال يحتذى ، ولكنك خيبت ظني فيك . إن من حقي أن أحكم
على أي إنسان بالأثر الذي يتركه في أصدقائه ، وأصدقائك قد فقدوا
إحساسهم بالشرف وقدرتهم على الخير ورغبتهم في النقاء . لقد نقت فيهم
الكلف باللذات إلى حد الجنون فهووا بذلك إلى الحضيض ، وأنت الذي
سقتهم إلى هذا المصير . نعم ، أنت الذي سقتهم إلى هذا المصير ، وها أنت
ذا تبسم كأنك لم تأت وزراً ، وما ذكرت لك إلا القليل عن فعالك ، فأنت
وهاري أخوان لا يفرقان ، ومع ذلك فقد جعلت اسم اخته مضغة في أفواه
الناس ، وقد كان يجميل بك أن ترعى للأخوة حقها .

- أفهم ما تقوله يا بازيل ، فقد تجاوزت حدودك .

- بل لابد أن أقول كل شيء ، وعليك أن تسمع ما أقول . نعم .
لسوف تسمع ما أقول . إن الليدى جويندولين كانت حين قابلتها أول مرة سيدة
فضلى لا يمسه لسان بسوء ، فهل بقيت فى لندن سيدة كريمة واحدة ترضى
بأن تخرج معها للنزهة فى هايدپارك ؟ لقد بلغ من سوء سمعتها أن أطفالها قد
نزعوا منها ، ثم هناك روايات شتى ، روايات تقول أن الناس رأوك تتسلل عند
الفجر خارجاً من دور الفحش ، وتتردد مستخفياً على أقدر مباءات لندن .

أصحيح هذا يا دوريان ؟ بل أيجوز أن يكون ذلك صحيحاً ؟ لقد كنت
أضحك حين أسمع عنك هذه الأقاويل ، أما الآن فإنى أرتجف كلما سمعتها .
إن بيتك الريفى قد أضحى بيت دعارة . إنك لا تعرف ما يقال عنك يا دوريان ،
أنا لا أقول لك إنى سأجنب المواعظ ، فإنى أذكر أن هارى قال مرة إن هواة
الوعظ يبدءون وعظهم بقولهم إنهم لا يحبون الوعظ ، ثم يثبت عكس ذلك ،
أما أنا فأعترف لك بأنى أريد أن ألقى عليك موعظة لعلك تتعظ .

أسألك يا دوريان أن تحيا حياة شريفة تلزم الناس لاحترامك . أسألك
يا دوريان أن تتخلى عن رفاق السوء . أسألك يا دوريان أن تغسل عن اسمك
الأقذار التى علقت به ، وأن تكون صفحتك بيضاء ، ولا تتكلف عدم
الأكتراث كما تفعل الآن ، فإن لك تأثيراً قوياً فى أقرانك ، فليكن هذا التأثير
تأثيراً حميداً لا تأثيراً هداماً . يقولون إنك تفسد كل من تخالطه ، وإنك
ما دخلت بيتاً إلا وحررت له العار فى أعقابك ، ولست أدري أصحيح هذا القول
أم كاذب ، وأنى لى أن أعرف وأنا لا أراك إلا نادراً . يقولون عنك أشياء لها
قوة الحقائق ، فاللورد جلوستر مثلاً ، وهو صديق من أوفى أصدقائى الذين
عرفتهم أيام كنت أدرس فى أكسفورد ، أطلعنى على خطاب كتبته زوجته إليه
وهى على فراش الموت بمتون حيث تخلى عنها الجميع ، وفى الخطاب قرأت
اسمك مقترناً بأشنع اعتراف مر بى حتى هذه اللحظة ، فقلت له إن هذا غير
معقول لأننى أعرفك معرفة تامة ، وأعرف منك أنك تستطيع إتيان شىء
مما نسب إليك ، ولكنى الآن فى حيرة من أمرى ومن أمرك ، ولم أعد واثقاً
من أنى أعرفك حقاً ، ولن تتبدد شكوكى إلا إذا رأيت روحك .

فنهض دوريان جرای من الأریكة وجلأ ، وشحب لونه أیما شحوب وقال :
- إلا إذا رأیت روحی !

أجاب هولوورد فی تؤده بصوت عمیق یرن بالأسی :
- أجل . إلا إذا رأیت روحك . ولكن الله وحده یرى روحك .
فارتفعت من دوریان جرای ضحكة تشوبها المرارة والسخریة معاً ، وحمل
مصباحاً من فوق المائدة وقال :

- بل سوف تراها أنت هذه اللیلة ، فیها بنا إليها فهی من صنع یدیک .
لست أجد ما یمنع أن تراها ، وبعد رؤیتها أنت فی حل من أن تصفها أمام
العالم كله فلن یصدقك أحد ، وإن صدّقك الناس فسیزداد إعجابهم بی ؛ فأنا
قلت هیا بنا ، فقد قلت ما فیة الكفاية عن انحطاط الروح ، والآن فلتر هذا
الانحطاط وجهاً لوجه .

وكانت كل كلمة فاه بها تحمل معانی الكبرياء الشدید ، وضرب الأرض
بكعبه بطریقته الصبیانیة الوقحة ، وشاع فی نفسه فرح عظیم لأن سره الذی
أضناه کتمانہ سیخرج الآن إلى النور ، ولأن الرجل الذی رسم الصورة التی
خلّدت عاره سوف یقضی بقیة حیاته شقیاً بذکر ما جنت یداه .

واقترب منه وتفرس فی عینیة الثابتین واستأنف كلامه قائلاً :
- نعم ، سوف أریك روحی . سوف ترى ما لا یراه إلا الله كما تقول !
فجفل هولوورد وارتد قليلاً وصاح به :

- هذا كفر یا دوریان ! فلا تقل مثل هذه الأشياء لأنها شائنة ، ولأنها
خلت من كل معنی .

وضحك دوریان ثانية وقال :

- أظن ذلك ؟

بل أعرفه . أما قلته لك الليلة فما كنت أبغى به إلا نفعلك ، فأنت تعرف
أنى كنت دائماً صديقاً لك وفيّاً .

- ابتعد عني ، وأتم حديثك إذا شئت .

فتقلص وجه الرسام كأنه طعن بمذبة وسكت لحظة ثم شاع في قلبه
إحساس عميق بالرثاء لحال دوريان جرای ، وأنب نفسه لتطفله على حياته
الخاصة ، وهى ملك له وحده يفعل بها ما يشاء ، وأن عذاب ضميره ليغنيه
عن كل تقريع ، فلو أنه ارتكب عشر معشار ما نسبته المرجفون إليه من آثام
لوجب أن يعيش فى جحيم مقسيم ! واعتدل بازيل هولوورد ، ثم سار نحو
المدفأة وأنشأ يتزمل الخشب المحترق فيها والرماد الأبيض الذى يكسو الجمر
المتأرجح ، وأخيراً قال الشاب بصوت واضح قاس :

- أنا فى انتظارك يا بازيل .

- كل ما أريد أن أقوله هو هذا : أسألك أن تجيب عن هذه التهم الشنيعة
التي يلصقها الناس بك ، ولو أنك قلت لى أنها نهاية فريفة عظمى من ألفها
إلى يائها لصدقتك ، أنكر هذه التهم يا دوريان ، أجل ، أنكرها أكن سعيداً ،
ألا ترى ما أعانيه من عذاب ؟ يا إلهى ! لست أحتمل أن تعترف لى ...
بأنك حقاً ممسوخ النفس ، منحط الخلق ، وتعيش فى العار .

فابتسم دوريان جرای ويدت عليه فى شفثيه أمارات الازدراء ، وقال فى هدوء :

- تعالى معى إلى الطابق العلوى يا بازيل ، فهناك أكتب يومياتى بانتظام
ولا أسمح لأحد أن ينقلها من مكانها ، فتعال معى أطلعك عليها .

- سأذهب معك إذا كان هذا يرضيك ، لقد فاتنى القطار ، ولكن هذا لا
يهم ففى استطاعتى أن أرحل غداً إلى باريس ، ولا تطلب إلى أن أقرأ الليلة
شيئاً ، فكل ما أبغيه جواب صريح عن سؤال صريح .

- ستجد هذا الجواب الصريح فى الطابق العلوى ، أما هنا فلن أجيب
عن شئ ، تعالى معى لتقرأ الجواب ، ولن تقرأ طويلاً .

الفصل الثالث عشر

خرج دوريان جرای من الغرفة وبدأ يصعد السلم ومن ورائه بازيل هولوررد ، وكانت خطواتهما رقيقة ؛ فالإنسان ترق خطاه بحكم الغريزة ليلاً . وألقى المصباح ظلالاً ماردة على السلم وعلى الحائط ، وهبت نفحة من الريح هزت نوافذ الدار فقعقت ، وحين وصلا إلى نهاية السلم وضع دوريان جرای المصباح على الأرض ، وأخرج من جيبه المفتاح وأدار في الباب ثم قال بصوت خفيض :

- ألا تزال تصر على جواب يا بازيل ؟

- نعم .

- فأجاب الفتى مبتسماً :

- هذا يدعوني إلى الاغتباط .

ثم أضاف في قليل من الخشونة :

- أنت الشخص الوحيد الذي يحق لها أن يعرف عني شيئاً ، فقد تركت في حياتي أثراً لا تعرف أنت مداه .

ثم رفع المصباح وفتح الباب ودخل ، فلطمه تيار من الهواء البارد وارتفع نور المصباح برهة واشتد لهبه البرتقالي ، وارتجف دوريان جرای وهمس لصاحبه وهو يضع المصباح على المائدة .

- أقفل الباب وراءك .

ونظر هولوررد حوالياً في كل صوب يتفقد الغرفة وبدلت عليه الحيرة . رأى أن الغرفة لم يستعملها أحد لسنوات ، ورأى على الحائط قطعة من

القماش الفلمنكى عليها رسوم نسخها الزمن ، ورأى صورة يحجبها ستار ورأى صندوقاً إيطالياً قديماً وحمالة كتب تكاد أن تكون فارغة ومائدة وكرسیاً ، وفيما عدا ذلك لم ير فى الغرفة شيئاً ، وعندما كان دوريان جراى يوقد شمعة فوق المدفأة نصفها مستهلك ، لاحظ بازيل هولوردد أن التراب يكسو كل ما بالغرفة وأن البساط ممزق ، ورأى فأراً يجرى وراء ألواح الحائط ، وشم رائحة عفنة نقلتها رطوبة الهواء ، وقال دوريان بصوت قاس ينم عن عاطفة ميتة :
- إذا فأنت تحسب يا بازيل أن الله وحده يرى أرواح الناس ، أزح هذا الستار تر روحى .

فأجاب هولوردد عابساً :

- أنت تهذى كالمجنون يا دوريان ، فإن لم تكن مجنوناً فلا بد أنك تمثل دوراً لا أفهمه .
قال الشاب :

- ألا تريد أن تزيع الستار ؟ إذا فسأزيحه أنا نيابة عنك .

ونزع الستار من القضيب المعلق فيه وألقى به على الأرض .

فلما أبصر الرسام الوجه الشائه يتهجم له من الصورة فى النور الخافت صدرت منه صيحة فزع وأحس بالملت والتقزر مما رآه ، لقد كان الوجه وجه دوريان جراى حقاً ، وبرغم من نزل به من مسخ وبيل بقيت له معالمه الأولى وشيء من جماله القهار ، حتى قرمز شفثيه الشهوانيتين وذهب شعره الجميل بقى منهما أثر ، وزرقة عينيه الساحرتين وخطوط أنفه المنحوت وجيده الوضاء بقى منها دليل على ماكان ، أجل ، إنه دوريان لا سواه ولكنه مسخ رجيم ، فمن يا ترى رسم هذا المسخ الرجيم ؟ أنه يرى ريشته وألوانه واضحة فى الصورة ، وكذلك استطاع أن يتميز الإطار فهو واضح تصميمه ، وأمسك بالشمعة واقترب بها من الصورة فقرأ اسمه فى ركنها الأيسر منقوشاً بحروف مديدة برتقالية لامعة .

وظن برهنة أنها دعابة سمجة من مقلد بذئ أراد أن يسخر منه ، فهو لم يرسم هذا الوجه الشائه قط ، ومع ذلك فقد كان يعرف فى قرارة النفس أن الصورة صورته ، وجمد الدم فى عروقه ، إنها صورته ! إنها صورته ! فما معنى هذا ؟ وكيف أصابها هذا التغير ؟ والتفت إلى دوريان ورمقه بعينين ذابلتين ، وارتجف فمه ، وانعقد لسانه ، وارتفعت يده إلى جبينه كمن يريد أن يجمع أشتات خواطره فوجد جبينه ينضج بالعرق المتلبك الكثيف .

وكان الشاب متكئاً على سطح المدفأة وقد بدا على وجهه الاهتمام الكامل كأنه مستغرق فى مشاهدة ممثل عظيم ، فلا الحزن يملأ فؤاده ولا الفرح ، بل كل ما هنالك إحساس بأنه يشاهد أمراً جليلاً ، وفى عينيه ما يشبه وميض الانتصار ، وخلع الزهرة من عروته وذهب يشمها أو يتظاهر بشمها .

وأخيراً صاح دوريان قائلاً :

- ما معنى هذا ؟

وكانت نبرات صوته حادة فأنكرتها أذناه .

ومزق دوريان جراى الزهرة بين أنامله وقال :

- منذ سنوات طويلة لقيتني وكنت يومئذ صبياً ، واطريتني وعلمتني كيف أغتر بجمالى ، وذات يوم عرفتني بصديق من أصدقائك فشرح لى فلسفة الشباب ، وأتممت أنت صورة كنت يرسمها لى فعرفت منها الجمال كيف يكون ، فمرت بى لحظة جنون تمنيت فيها أمنية تشبه صلاة المصلين ، أمنية لا أدرى حتى هذه الساعة أندم عليها أم لا .

- أنا أذكر هذه الأمنية ، وهى مطبوعة فى خلدى كأنى سمعتها بالأمس . كلا يا دوريان ، محال أن تكون الزمنية قد تحققت ، إن الرطوبة تملأ الغرفة وقد دب التعفن فى خيش اللوحة ، ولا بد أن الألوان الزيتية التى استخدمتها كانت تحوى بعض العناصر السامة ، أقول لك إن هذا محال .

فمضى الشاب إلى النافذة ، وأسند جبهته إلى زجاجها البارد المغطى بالضباب وقال :

- ما هو هذا المحال ؟

- ألم تقل لى إنك قد دمرت الصورة ؟
- أجل ، ولكنى كنت مخطئاً ، لأن الصورة قد دمرتنى .
- محال أن تكون هذه الصورة التى رسمها .
- فقال دوريان بمرارة :
- ألا تستطيع أن تتبين فيها مثلك الأعلى كما كنت تفعل فى الماضى ؟
- مثلى الأعلى كما تسميه .
- بل كما سمعته أنت .
- مثلى الأعلى لم يكن فيه شر ولا عار ، لقد كنت لى نموذجاً فريداً لكل شىء سام فى الحياة ، أما هذه فوجه شيطان .
- إنه صورة روحى .
- رحماك أيها السيد المخلص ! أفهذا هو الضم الذى عبدت ! إن له عيني شيطان .
- قال دوريان فى يأس قاتل :
- لقد اجتمعت فى كل منا الجنة والجحيم يا بازيل .
- وانصرف هولوورد إلى الصورة وذهب يتأملها ثم صاح قائلاً :
- الرحمة يا الله ! لون أن هذا كان صحيحاً ، فإن ما ظهر للناس من حقيقتك لا يقاس بما خفى عليهم منها .
- وأمسك بالمصباح ثانية وطفق يتفحص الصورة من جديد ، فوجد أن سطحها لم يتغير قط وأن مخايل الدنس والإجرام تطل عليه من داخل الصورة ، فعرف أن قوة باطنية قد جعلت آثار الخطيئة تفتك بالوجه الجميل شيئاً فشيئاً ، ورأى فى الصورة جيفة حية دونها الرمم التى تبلى فى بطون القبور .
- وارتعشت يده فسقطت الشمعة من مقبضها إلى الأرض ، وظلت هناك تحترق فداستها بقدمه وأطفأها ، ثم ألقي بنفسه على الكرسي المتهدم القائم بجوار المائدة ودفن وجهه فى كفيه وأخذ يقول :
- الله يا غفور ! ما أقسى هذا الدرس يا دوريان .

ولكن دوريان لم يجب ، بل ظل يتتحب بجوار النافذة بصوت مسموع .
- صل إلى الله يا دوريان ، صل إليه ، ماذا تعلمنا أن نقول ونحن بعد
أطفال ؟ «أبنان الذي في السموات ، لا تدخلنا في تجربة ، اغفر لنا ذنوبنا ،
امسح خطايانا » . فلنصل معاً يا دوريان ، إن السماء قد استجابت لصلاة
دوريان المستكبر ، وهي الآن تستجيب لصلاة دوريان المستغفر ، لقد عبدتك
من دون الله فنلت جزائي ، ولقد عبدت نفسك من دون الله فنلت جزاءك ،
فلنصل معاً يا دوريان .

فالتفت دوريان جراى إليه فى بطاء والدموع تنهمر من عينيه وقال :
- لقد فات الأوان يا بازيل .

- كلا يا دوريان ، إن باب السماء مفتوح للطارقين ، فلنسجد ولنحاول
أن نرتجل صلاة إذا كنا نسينا الصلوات ، ألا تذكر ترنيمة تقول : « خطاياك
حمراء بلون ، ولكنى سأجعلها بيضاء بلون الثلوج ؟ » .
- هذه الكلمات لم تعد عندي ذات مغزى .

- صمتا ! لا تكفر ، وكفاك ما ارتكبت فى حياتك من آثام . رباة !
ألا ترى ذلك الوحش اللعين ينظر إلينا فى شماته .

والتفت دوريان جراى إلى الصورة وفجأة مشت فى صدره كراهية لبازيل
هولوورد قوية لا سبيل إلى كبتها ، وكأنما استوحاها من مرأى صورته على
اللوحة ، أو همست بها فى أذنه تلكما الشفتان الحاقدتان ، وتحرك فيه إحساس
كإحساس الحيوان المطارد ، واضطرب فى قلبه بغض جهنمى للرجل الجالس
بجوار المائدة ، بغض لم يحمله لأحد قبل ، وتلفت حوله مهتاجاً فرأى شيئاً
يلمع فوق الصندوق المدهون القائم قبالة ، ولما استقر بصره عليه عرفه ، فإذا
به مدية كان قد جاء بها من قبل ليقطع بها حبلاً ، ثم نسيها فى موضعها ،
وتقدم منها على مهل وهولوورد جالس فى منتصف الطريق ، فلما أن وجد
نفسه خلف هولوورد أمسك بالمدية ودب إليه ، وأبصر به يتململ فى كرسية
كأنه يريد أن ينهض عليه وغرس المدية فى عنقه فمزق الوريد الجارى تحت
الأذن ، وتحامل على رأسه حتى ارتطمت بالمائدة ، وانهاى عليه طعناً .

وصعدت فى الغرفة أنه مكتسومة ، ثم صوت رجل يختنق بدمه ، وارتفع ذراعا الرجل ثلاث مرات بقوة عصبية ، وتحركت أصابعه الجامدة فى الهواء فطعنه مثنى ، فكف عن الحراك ، وبدأ يسمع قطرات الدم تتساقط على أرض الغرفة ، وانتظر لحظات ضاغظاً بيده على رأس فريسته ثم ألقى المديّة على المائدة وأرهف أذنيه .

لكنه لم يسمع شيئاً إلا صوت القطرات المتساقطة على البساط ، ففتح الباب وخرج إلى أعلى السلم ، فوجد البيت ساكناً كأنه قبر موحش ، ولم يكن به أحد ، وممرت ثوان ظل يحملق أثناءها فى بئر الظلمات متكئاً على مسند السلم ، ثم استخرج المفتاح من جيبه وعاد إلى الغرفة وأغلق الباب ، وأحذب الظهر ووجد الجثة لا تزال جالسة على المقعد وقد انكفأ منها الرأس على المائدة وتهدل الذراعان الطويلان ، ولولا فتحة حمراء غير منتظمة فى العنق وبركة من الدم المتجمد على المائدة تتسع قليلاً قليلاً لبدا الرجل وكأنه يستغرق فى نوم عميق .

لقد تمت الجريمة فى دقائق ، وأحس بهدوء عجيب ، ومضى إلى النافذة وفتحها وخرج منها إلى الشرفة ، وكانت الريح قد اكتسحت ضباب الليل فبدت السماء صافية كذيل طاووس عائل عجيب مزدانة بألف ألف عين ذهبية وأطل فى الشارع فوجد الشرطى يعس فى تطوافه ويسلط نور مصباحه على أبواب المنازل الهادئة ، وفى مختلف الشارع رأى عربة ذات ضجيج لمعت فى الظلام كالبقعة القرمزية تم توارث عن بصره ، كذلك رأى امرأة على رأسها شال يرفرف فى الهواء تمشى الهويّنا بجوار أسوار المنازل وكأنها تترنح ، وبين وقت وآخر تتوقف عن المسير وتلتفت إلى الوراء ، وسمعتها تبدأ الغناء بصوت قبيح أجش وأبصر الشرطى يتقدم نحوها ويقول شيئاً ثم رآها تتعثر بعيداً عنه وتقهقه ، وهبت فى الميدان ريح صرصر باردة فاضطربت مصاييح الشارع وآضت زرقاء اللهب واهتزت فروع الأشجار الجرداء وبدأت كقضبان الحديد الأسود ، وارتجف دوريان جرای وعاد من حيث جاء وأغلق النافذة وراءه .

وبلغ الباب ، وأدار المفتاح وفتحه ، ولم يلق على القتل نظرة لأنه وجد أن من الخير له ألا يفهم الموقف على حقيقته ، واكتفى من كل ذلك بأن الصديق الذى رسم الصورة هادمة سعادته قد خرج من حياته نهائياً .

ثم تذكر المصباح ، وعن له أن الخادم قد يفتقده فيبحث عنه ، فهو مصباح مراكشى ثمين صنع من فضة غبشاء اللوون مطعمة بنقوش عربية صنعت من الفولاذ اللامع ومرصعة بقطع الفيروز الخشنة ، وتردد لحظة ثم عاد وأخذه من المائدة ، وفيما هو يفعل ذلك وقع بصره على الجثة على الرغم منه ، يا لهدوء الموتى ! ثم تلكما اليدان الطويلتان البيضاءوان ما كان أظفح شحوبهما ! ما أشبه الجثة بتمثال من الشمع !

وبعد أن أغلق الباب وراءه نزل على السلم فى احتراس ، ولكن الدرج الخشبي قعقع تحت قدميه فيهيئ له أنه يستغيث ، وتوقف مراراً عن السير وانتظر فلم يسمع شيئاً . كان كل شئ هادئاً ولم يسمع إلا وقع قدميه .

وحين دخل المكتبة رأى المعطف والحقيبة قابعين في ركنها ، ولم يكن بد من إخفائهما ففتح كوة يسترها خشب الحائط ، كوة كان يضع فيها أدوات تخيفه ولا يعلم عنها أحد شيئاً ، وفي الكوة وضع المعطف والحقيبة ، حتى يجد متسعاً من الوقت ليوقد فيها ناراً ، ثم أخرج ساعته فإذا بها الثانية إلا ثلثاً .

وارتاح على مقعد وبدأ يفكر . المشنقة ! نعم ، المشنقة ! ففي كل عام بل فى كل شهر من شهور السنة يشنق من إنجلترا أناس لأنهم فعلوا فعلته . إن الجريمة تملأ جو إنجلترا ، فلعل نجماً أحمر اقترب من مسار الأرض فألهب فى الناس الشهوة إلى الدماء ، ومع ذلك فمم يخاف ؟ أى دليل هناك ضده ؟ إن بازيل هولوردد خرج من دار دوريان جراى فى الساعة الحادية عشرة ، ولم يره أحد حين عاد إليه ، فأغلب الخدم فى سلبى وخادمه الخاص يغط فى فراشه . ألم يقل بازيل إنه يقصد إلى باريس ؟ نعم . إن بازيل قد رحل إلى باريس بقطار منتصف الليل ، تماماً كما أزمع أن يفعل . إن بازيل رجل غريب الأطوار لا يطلع أحداً على كثير من شئونه ، فلن تستيقظ الشكوك قبل أن تمضى شهور ، وقبل أن تمضى شهور لن يصعب عليه محو كل دليل .

ثم لمعت فى خاطره فكرة فارتدى قبعته ومعطفه الذى تكسوه الفراء وانتقل إلى القاعة ، وفى القاعة وقف حين سمع خطوات الشرطى الثقيلة البطيئة وهو يسير على إفريز الشارع ورأى شعاع مصباحه معكوساً على زجاج النافذة فانتظر معلق الأنفاس .

وبعد لحظات أزاح المزلاج وخرج وأغلق الباب فى رفق شديد ، ثم شرع يرق الجرس ، وبعد خمس دقائق فتح له الباب خادمه الخاص نعيان ناقص الملبس وقال وهو يدخل البيت :

- يؤسفنى أنى أيقظتك من نومك يا فرانسييس ، ولكنى نسيت المفتاح . كم الساعة الآن يا ترى ؟

فنظر الرجل إلى ساعة الحائط مختلج الجفنين وقال :

- الساعة الثانية وعشر دقائق يا سيدى .

- الثانية وعشرة دقائق ! لقد تأخرت ولا بد أن توقظنى غداً فى الساعة التاسعة لأن لدى بعض الأعمال .

- حسناً يا سيدى .

- أجبني أحد هذه الليلة ؟

- نعم يا سيدى ، جاءك مستر هولوردد وانتظرك هنا حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ثم انصرف ليلحق بقطارة .

- يؤسفنى أنى لم أره . وهل حملك أى رسالة لى ؟

- كلا يا سيدى . لم يقل إلا أنه سيكتب إليك من باريس إن لم يجدك فى النادى .

- شكراً يا فرانسييس ، ولا تنس أن توقظنى غداً فى الساعة التاسعة .

- لن أنسى يا سيدى .

ومشى الرجل مثاقلاً فى الدهليز يجر خفيه جرّاً .

ووضع دوريان جرای قبعته ومعطفه على المائدة ودخل المكتبة ، وظل
يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً نحو ربع ساعة ، يفكر في أمره ويعرض شفته
بين لحظة وأخرى ، ثم تناول «الدليل العام» من أحد الرفوف وبدأ يقلب
صفحاته باحثاً عن عنوان ، وأخيراً وجدته : «ألان كامبل ١٥٢ شارع هرتفورد ،
مايفير» . نعم . هذا هو الرجل المنشود .

الفصل الرابع عشر

فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى دخل عليه خادمه حاملاً صينية عليها فنجان من الكاكاو وفتح النافذة ، وكان دوريان نائماً على جانبه الأيمن يغمره هدوء الملائكة وقد طوى يده تحت خده فبدأ كصبي أنهكه طوال الدرس أو طول اللعب .

واضطرب الخادم إلى أن يمسه على كتفه برفق ليوقظه ، وحين فتح عينيه ارتسمت على شفثيه ابتسامة خفيفة ، وكأن يستمتع بحلم لذيذ ولكنه لم يحلم بشئ أثناء نومه ، بل قضى ليلة صافية لم تعكرها أطراف السبات جميلها أو رهييها ، إنما يتسم بغير داع ، وهذه آية من آيات سحره .

وتقلب فى فراشه ثم اتكأ على مرفقه وشرع يشرب فنجان الكاكاو ، وشمس نوفمبر تدفقت أشعتها الرقيقة فى الغرفة ، والسماء كانت ضحوكاً ، وفى الجو دفء لذيذ ، والبشر يملأ الآفاق فيعيد ذكرى الربيع .

ثم عادت إلى ذاكرته حوادث الليلة الماضية شيئاً فشيئاً ، ومشت فى خاطره بأقدام خضبتها الدماء لا يسمع لها حفيف ، فاسترجع كل ما جرى فى وضوح مخيف ، وعبس حين ذكر ما مر به من شقاء فى الليلة السابقة ، وعاد إليه ذلك البغض الشديد نحو بازيل هولوردد ، وذلك البغض الذى دفعه إلى الفتك به وهو جالس على المقعد ، فشحب لونه من فرط الانفعال ، فالرجل لا يزال جالساً على المقعد بأعلى الدار ، بل فى وضوح النهار ، وقد كان خليقاً به أن يحتجب فى رداء الظلمات ، فما أبشع هذه الحقيقة .

وأحس بأن التفكير المتصلب فيما جرى لا بد متلف صحته أو مودٍ بعقله .
لقد دله اختباراه على أن من الجرائم ما ترتاح النفس لذكره أكثر مما ترتاح
لاتيانه ، ويرضى الغرور أكثر مما يرضى الشهوات ، ويسعد به العقل أكثر
مما تسعد به الحواس ، ولكن هذه الجريمة لم تكن من تلك الجرائم ، هذه
الجريمة كابوس لا مناص من إبعاده عن مسكن الذكريات ، هذه الجريمة شبح
مزعج قائم لا بد أن ينام نوماً أكيداً أو يخنق بحبل النسيان وإلا خنق صاحبه .

ودقت الساعة التاسعة والنصف ومر بأصابعه على جبينه ثم نهض مسرعاً
وارتدى ملابسه بعناية فائقة تجاوزت كل ما عهد فيه من عناية ، وأضاع الوقت
الطويل فى اختبار ربطة رقبته والدبوس الذى يحلى صدره به ، وبدل خواتمه
مراراً ، ثم تناول فطوره وقضى فى ذلك الوقت الطويل كذلك متذوقاً
الصحاف ، متحدثاً إلى خادمه فى إطناب عن حلل الخدم الجديدة التى كان
يفكر فى شرائها لخدمه من سلبى ، قارئاً رسائل اليوم آناً فى ضجر ، وآناً فى متعة ،
وكانت بينها رسالة تلاها جملة مرات ثم مزقها فى شىء من الغيظ وهو يردد
كلمة اللورد هنرى «يا للرجل من ذاكره المرأة!» .

وبعد أن شرب فنجاناً من القهوة التركية مسح شفثيه فى الفوطة فى تودة
وأشار إلى خادمه بالانتظار ، ثم تحول إلى مكتبه وسطر خطابين وضع أحدهما
فى جيبه وسلم الآخر للخادم قائلاً :

- احمل هذا الخطاب إلى ١٥٢ شارع هرتفورد يا فرانسيس ، فإن وجدت
أن مستر كامبل قد غادر لندن فأحصل على عنوانه .

وانصرف الخادم فبقى فى الغرفة وحيداً ، وأشعل سيجارة وذهب يخطط
الرسوم على قطعة من الورق فبدأ أولاً برسم الأزهار ، ثم انتقل إلى رسم
قطاعات من العمائر ، ثم انتقل إلى رسم الوجوه الآدمية ، وفجأة لاحظ أن
كل وجه يخططه على الورق يحمل شهاً قوياً للامح بازيل هولوردد ، فتجههم
وجهه ونهض من مكانه وسعى إلى حمالة الكتب وانتزع منها كتاباً على غير
تحديد . لقد كان صادقاً العزف على أن ينسى ما حدث حتى تلزمه الضرورة

القصوى بتذكره ولما تمدد على الأريكة نظر إلى عنوان الكتاب فإذا به كتاب
تيوفيل جوتييه «إمو وكاميه» فى طبعة شريانيته على ورق يابانى وعليه رسوم
چاكمار ، وكانت جلدة الكتاب خضراء ليمونية عليها تصميم من خطوط ذهبية
متقاطعة ورمز منقوش ، وكان الكتاب هدية أهداها إليه أدريان سنجلتون .
وفيما هو يقلب صفحاته وقعت عينه على القصيدة التى تصف يد لاسنير ،
تلك اليد الباردة الشاحبة «ذات الآلام التى لم تغسل بعد» ، ذات الشعر
الأحمر الناعم كالرياش و «أصابع الوحوش» ونظر إلى إصابعه الدقيقة البيضاء
فارتجف بالرغم منه ، وما زال يطالع حتى بلغ هذه الفقرات الجميلة التى تصف
مدينة البندقية :

«خرجت زهراء الأدرياتيك من الماء بيضاء الجسد
وردية ومن ثدييها تساقط الدر على بساط تدرجت
فيه الألوان تدرج الأنغام فى السلم الموسيقى» .
«والقباب وارتفعت كصدر حسناء ناهد تنهد حسرة على
غرامها ، وارتفعت القباب على الأمواج
اللازوردية التى تترجرج فى لين كأنها بيت شعر
بديع التكوين» .

«ورسا بى الجندول وشده الملاح بالحبل إلى
العمود فوجدت نفسى على الدرج الرخامى أمام
واجهة قصر وردى» .

واضطربت نفسه لجمال هذه السطور ، وأحس وهو يقرأها أنه طاف على
وجه المياه الخضراء فى قنوات تلك المدينة الدرية الوردية يحمله جندول أسود
ذو مقدمة فضية وأستار ترفرف فى مهب النسيم ، وترجرجت أمام عينيه
السطور ذاتها فبدت له كالأمواج الفيروزية الزرقاء التى تتسلسل وراءه حين

يسبح فى جندوله إلى قصر اللیدو ، والألوان فیها تلمع أمام ناظریه فتذكره
ببریق الطیور ذات الرقاب الصفراء التى ترفرف بالقرب من برج الكامپانیل
العالى الذى يشبه خلايا النحل ، أو تخطر فى خیلاء تطرب لها النفوس فى
الشوارع المظلمة التى حط علیها غبار القرون ، وكان یغوص فى مكانه
من الأریكة یرخى جفینیه یردد قول الشاعر :

على الدرج الرخامى واجهة قشر وردى

فترسم أمامه صورة البندقية فى هذين البیتین ، وتذكر الخریف الذى قضاه
فى تلك المدينة والغرام الجمیل الذى ذاقه فى مغانیها فسدفعه إلى ارتكاب
الحماقات اللذیذة التى لا یقدم علیها إلا المجانین . لقد قرأ فى كل حجر من
أحجار المدينة قصة وكل ما فیها أثار الأحلام یعیشون على الحلم المستور ،
وللحلم المستور . لقد افقه بازیل شطراً من الرحلة وفتنه جمال تتوریت فیاله
من رجل تاعس ویاالمیتة من میتة شنعاء !

وتنهذ وفتح الكتاب مرة أخرى والتمس النسیان فى المطالعة ، وفى الكتاب
قرأ عن مقهى صغیر بأزمیر فیهِ طیور تخرج منه وتدخل فیهِ فى غیر حرج ،
والحجاج جالسون یعدون أسماء الله الحسنی على مسابحهم ، والتجار ذوو
العمائم یدخنون الشیشة یتحدثون فى وقار ، وقرأ عن المسلة القائمة بمیدان
الکونکورد بپاریس وهى تبكى بدموع من الجرائیت تندب وحدتها فى منفاها
الدائم الغیوم ، وتحن إلى ضفاف النيل القائظ الذى غطته أزهار اللوتس ،
حیث تمائیل أبی الهول وعجول آیس الحمراء والنسور الیضاء ذات المخالب
الذهبية والتماسیح ذات العیون الصغیرة الزبرجدية التى تزحف فوق الطین
الأخضر المتبخر ، وطفق یفكر فى قریض جوتیه الذى شبه فیهِ الشاعر تمثالا
من التماثل رآه بقاعة فى متحف اللوفر بالصوت الکونترالتو واستوحى رخامه
الذى لطخته القبل ، ولكن الكتاب سقط من یده أخيراً وبدأ یتململ تململ من

فقد السيطرة على أعضائه ثم غمره إحساس بالفزع الشديد . ترى ماذا يكون مصيره لو أن آلان كامبل كان خارج إنجلترا ؟ ستمضى إذاً الأيام الطوال قبل أن يتمكن من العودة إليها ، ثم أليس من الجائز أن يرفض الرجوع ؟ ماذا تراه يفعل لو أن آلان كامبل رفض أن يستجيب لدعوته ؟ إن كل ثانية تمر تدق في سمعه كناقوس القدر . إن آلان كامبل حقاً صديقه الأوفى الذى لازمه منذ خمس سنوات ثم فترت الصلة بينهما فجأة ، وهما الآن يلتقيان فى الأندية والحفلات فلا يتبادلان الحديث . حقاً إن دوريان يحييه بابتسامة كلما رآه ، ولكن آلان كامبل لا يرد له تحيته .

كان آلان كامبل شاباً ذكياً الفؤاد ولكنه خلا من إحساس بجمال الفنون التصويرية ، والقليل الذى اكتسبه من تذوق الشعر جاءه من دوريان جراى لا من سواه ، أما فضوله العقلى فكان يتجه نحو العلم ، وقد قضى الشطر الأكبر من وقته أيام الطلب بكامبريدج فى المعمل ، ونجح بامتياز فى التاريخ الطبيعى ، ولكن ميله الشديد إلى الكيمياء لم ينته بإنهاء فترة الدراسة ، بل لازمه بعد ذلك فأنشأ معملأً خاصاً به فى لندن كان ينقطع فيه للبحث طول النهار مما أحرق أمه عليه ، فقد كانت تأمل فى أن يتقدم لعضوية البرلمان ، ويخجل من اهتمام ولديها بالكيمياء لظنها أن الكيميائي رجل يركل الأدوية التى يوصى بها الأطباء ، كذلك كان آلان كامبل عازفاً من أمهر العازفين يتقن اللعب على البيانو والكمان على حد سواء ويبرز فى ذلك أكثر الهواة ، ولقد كانت الموسيقى فى الواقع هى التى ألفت بينه وبين دوريان جراى ، وبالطبع كان لقاؤهما فى دار الليدى بيركشاير ليلة أن كان روبنشتاين يعزف فى صالونها ، ثم بات يترددان على دار الأوبرا معاً فى كل مناسبة ، ويقصدان كل محفل تلتمس فيه الموسيقى الحية ، ودامت صلتهم القوية هذه ثمانية عشر شهراً كان كامبل إبائها يتردد بلا انقطاع على ميدان جروفنور حين يكون دوريان فى لندن ، وعلى قصر سلبى حين يكون دوريان فى الريف ، أما شغف كامبل بدوريان

جراى فقد كان عظيماً لأنه يرى فيه النموذج الحى لكل ما هو جميل فى الحياة ، شأنه فى ذلك شأن أنداده من الشبان ، ثم لاحظ الناس فجأة أنهما يلتقيان فلا يتبادلان الحديث إلا نادراً ، كما لاحظوا أن كامبل يعتمد التبكير فى الانصراف كلما وجد نفسه مع دوريان جراى فى حفل واحد ، ولم يعرف أحد سر هذه القطيعة ، كذلك انتاب كامبل تغير يلفت الأنظار ، فقد فقد الكثير من مرحه وبات يتململ كلما سمع الموسيقى كأنه لا يستطيعها ويرفض أن يعزف كلما طلب إليه ذلك ، معتذراً بأن أبحاثه فى العمل قد شغلته عن مواصلة المran ، وقد كان صادقاً فيما يقول ، واشتد كلفه بعلم الحياة يوماً بعد يوم حتى لقد ظهر اسمه فى أكثر من مناسبة فى بعض الدوريات العلمية مقترناً ببعض التجارب العجيبة التى كان يجريها .

هذا هو آلان كامبل الذى كان دوريان جراى ينتظر قدومه ، وكان دوريان يرفع بصره إلى ساعة الحائط كل ثانية ، ولما طال انتظاره ازداد جزعه ، وأخيراً نهض وذهب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ، كأنه حيوان جميل أسير ، واتسعت خطواته ولم يعد لها ديب وبردت يده إلى درجة غير مألوفة .

وأصبح الانتظار لا يطاق ، وبدأ له أن الزمن يزحف بأقدام من رصاص ثقيل ، وأحس بأن ريحاً هوجاء تدفع به إلى حافة هاوية مظلمة ، وكأنه يعرف ما ينتظره فى قاع الهوة من دمار أكيد ، بل لقد رأى الدمار رؤية العين فاضطرب اضطراباً عظيماً وضغط بكلتا يديه على عينيه فى غير إشفاق كأنه يريد أن يمحو منهما الرؤيا ، ولكن عبثاً كان ما حاول ، فالرؤيا فى عقله جاثمة وخياله المريض الذى نهشته الآلام تراقصت فيه الأشباح كأنها الدمى المسوخة ، وراحت تكايدته من وراء أقنعتها الشيطانية ، وفجأة أحس بأن الزمن يقف . أجل . أحس بأن هذا المخلوق الأعمى بطئ الأنفاس يكف عن الزحف ، لقد مات الزمن وبموته تسابقت فى عقل دوريان جراى الأفكار ، وأخرجت له صورة مروعة للمستقبل كانت من قبل مستورة وراء الحجب ، وعرضتها أمام عينيه عرضاً ، وحملق فيها فجدة كأنه كتلة من صوان .

ولكن الباب انفتح أخيراً ، ودخل منه خادمه ، فنظر إليه نظرة جامدة
لا حياة فيها . قال الخادم :

- مستر كامبل يل سيدى .

فتنفس دوريان فى ارتياح ، وعاد الدم إلى شفتيه الياستين وإلى خده
الشاحب . قال :

- أدخله حالا يا فرانسيس .

وعاد إليه هدوءه الأول وزال عنه الجزع .

وانحنى الرجل وانسحب وبعد لحظات دخل آلان كامبل عابساً عليه
اصفرار ، وقد زاد شعره الفاحم وحاجباه الناعمان من شحوب لونه .

قال كامبل :

- لقد كان عزمى ألا أدخل بيتك مرة أخرى يا جراى ، ولكنك تقول إنها
مسألة حياة أو موت .

وكان صوته جافاً ينم عن الاحتقار ، وجاءت كلماته بطيئة خرجت من
روية ، وألقى على دوريان نظرة فاحصة ثابتة فيها زراية ، وظلت يده
مدفونتين فى جيبيه ، كأنه لم ير الإشارة التى حياه بها رب الدار .

- نعم يا آلان ، إنها مسألة حياة أو موت ، وهى كذلك بالنسبة لأكثر من
شخص واحد . هلا جلست .

وجلس كامبل على مقعد بالقرب من المائدة وجلس دوريان قبالته ،
والتفت عيونهما ، فقرأ كامبل فى عيني دوريان معانى الألم الصادق ، فقد
كان يعلم أنه مقدم على قعدة رهيبة .

ومرت لحظة من الصمت الثقيل ، وأخيراً مال دوريان نحو كامبل وقال
فى هدوء بالغ متبعاً أثر كلماته :

- اسمع يا آلان ، فى غرفة بأعلى هذا البيت مغلقة لا يدخلها أحد إلا أنا
جثة رجل ميت جالسة على مقعد ، وقد مات الرجل منذ عشر ساعات ، الزم
مكانك يا آلان ولا تنظر إلى هذه النظرة ، أما هوية هذا الرجل ، ولم مات ؟
وكيف مات ، فأمور لا شأن لك بها . وكل ما عليك أن تفعله هو أن . . .

- هذا يكفى يا جراى ، فلست أريد أن أعرف بقية قصتك ، وسواء أكان
ما قلته صحيحاً أم كاذباً فهو لا يهمنى ، فأنا أبغض أن يكون لى بك شأن ،
ولتحتفظ بأسرارك الجهنمية لنفسك فهى لم تعد تهمنى الآن .

- بل هى تهتمك يا آلان ، وهذا السر بالذات يخصك ، إنى لأرثى
لحالك ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فأنت الشخص الوحيد الذى يستطيع أن
ينقذنى وهذا يلزمنى بأن أشركك معى فى هذا الأمر ، ولا اختيار لى فى ذلك ،
فأنت تدرس العلوم يا آلان وتعرف الكيمياء والأحماض وما شاكل ذلك ، وقد
أجريت التجارب المختلفة ، وكل ما عليك أن تفعله هو أن تفنى الجثة الموجودة
بالطابق العلوى إفناء حتى لا يتبقى منها أثر ، وليس هناك من رأى هذا
الشخص يدخل بيتى ، بل إن الناس يعتقدون أنه فى باريس فى هذه اللحظة ،
فلن يبحث أحد عنه إلا بعد أن تنقضى شهور ، وحين يبدأ البحث عنه يجب
ألا يسكون فى هذا البيت أثر من آثاره ، ولا بد أن تحيله يا آلان إلى قبضة من
رماد أذروها فى الهواء ، وتحيل معه متاعه كذلك .

- أنت مجنون يا دوريان .

- لقد كنت أنتظر اللحظة التى تسمينى فيها دوريان .

- أنت مجنون لأنك حسبت أنى أتحرك لأنقذك من ورطتك ، وأنت
مجنون لأنك أدليت بهذا الاعتراف الشائن . أنا لا دخل لى بهذه المسألة أياً
كانت ظروفها ، أو تحسب أنى سأجازف بسمعتى من أجلك ؟ ماذا يهمنى من
أعمالك الشيطانية .

- إن الرجل قد انتحر يا آلان .

- هذا يخفف من المسألة ، ولكن من ذا الذى دفعه إلي الانتحار ؟ أنت بكل تأكيد .

- ألا تزال مصرّاً على الرفض ؟

- بالطبع . أنا لا شأن لى بشئ من هذا القبيل ، ولن يثير إشفافى أن تجر على نفسك كل ما فى العالم من عار ، فإنت أهل لذلك . لن يؤسفنى أن يفتضح أمرى أمام جميع الناس فتسقط فى نظر المجتمع . كيف تجسر على أن تسألنى أن أقحم بنفسى فى هذه الجريمة الشنعاء ، وأنا آخر من يحق لك أن تطلب العون منه بعد ما أنزلت بى من خراب . لقد كنت أحسب أنك تعلم ما يكفى عن طبائع الناس ، ولعل صديقك اللورد هنرى وتون علمك شيئاً كثيراً ولكنه لم يعلمك بسائط النفس الإنسانية فيما علمك . كلا . لن يحركنى شئ لإنقاذك من محتتك ، فابحث عن غيرى لأنك قد أسأت الاختيار ، دعنى وشأنى وابحث عن صديق من أصدقائك .

- أن الرجل مات مقتولاً يا آلان . قتلته أنا بىدى ، قتلته لما أنزل بى من شقاء ، فهو الذى شكل لى كيانى وأفسد على حياتى . إن أثر هارى المسكين فى لا يقاس بإثر هذا الرجل ، ولعله لم يقصد سوءاً ، ولكن النتيجة كانت واحدة .

- أنت قتلته ؟ يا إلهى ! أهذا ما ألت إليه يا دوريان ؟ لن أبلغ أمرى إلى الشرطة فليس هذا من شأنى ، وهم لا شك قابضون عليك إذا لم أساعدك أنا ، فما من أحد ارتكب جريمة وإلا وارتكب معها حماقة تدل عليها ، ولكن هذا لا يعنينى .

- بل هو يعنك يا آلان . لحظة واحدة يا آلان . انتظر . اسمع ما أقول ، ثم أحكم بنفسك . كل ما أسألك أن تفعله هو أن تجرى تجربة من تجاربك العلمية . أنت تعمل فى المستشفيات وفى حجرات التشريح فلا يؤثر فىك ما تفعله من تقطيع وعبث بجثث الموتى ، ولو أنك وجدت هذا الرجل طريحاً

على مائدة فى معمل أو فى حجرة من حجرات التشريح المقبضة ، وفى المائدة أحواض حفرت ليسيل فيها دمه الجارى لنظرت إلى هذا الرجل نظرك إلى موضوع لذيذ للتجربة ، فلا تضطرب نفسك ، ولا يجول بخاطرک أنك تأتى أمراً تلام عليه ، بل على العكس من ذلك قد تشعر بأنك تسدى إلى النوع الإنسانى خدمة جليلة ، أو أنك تضيف إلى التراث العلمى الذى يحرص عليه البشر كل هذا الحرص ، أو أنك ترضى فضولك العقلى ، أو أى شىء يدخل فى حكم ذلك ، وكل ما أطلبه إليك هو أن تقوم بهذا الذى تقوم به كل يوم ، بل إن فناء جثة لا يقاس فى بشاعته بما ألفته من أعمال ، واذكر أن وجود هذه الجثة هو الدليل الوحيد على أنى قاتل هذا الرجل ، فإذا افتضح أمرها هلكت ، وأمرها لا شك مفتضح إلا أن تساعدنى يا آلان .

- ولكنك تنسى أنى لا أرغب فى مساعدتك . أنا لا أكرث بك أو بقصتك أو بمصيرك ، ولا علاقة لى أصلاً بهذا الموضوع .

- أضرع إليك يا آلان أن تساعدنى ، فكر فى حرج مركزى ، لقد كاد أن يصيبنى إغماء من فرط هلعى قبل مجيئك بدقائق ، ولقد تعرف معنى الهلع فى يوم من الأيام لو أصابك بعض ما أصابنى ، ولكن دعنا من هذه الأفكار السوداء ، دعنا من الهلع ، ولتفكر فى الأمر تفكيرك فى تجربة عملية لاغير ، وأنت لا تستقصى عن الأموات الذى تجرى تجاريك عليهم ، فلا تستقص الآن عن هذا الميت ، لقد بحث لك لما كان لا ينبغى أن أبوح به ، ولكنى أضرع إليك أن تنقذنى ، وتذكر يا آلان أننا كنا فى الماضى صديقين .

- لا تذكر تلك الأيام يا دوريان ، فلقد ماتت .

- إن بعض الموتى باقون ، فالرجل الميت بأعلى البيت باق ، وهو جالس بجوار المائدة محنى الرأس ممدود الذراعين ، استحلفك يا آلان أن تساعدنى ، فلو لم تساعدنى لكانت فى ذلك نهايتى . المشنقة يا آلان . ألا تفهم ؟ سوف أشنق جزاء ما فعلت .

- لست أرى ما يدعو لإطالة هذا المشهد فلنقصر القول . أنا أرفض رفضاً
باتاً أن تكون لى صلة بهذه المسألة ، وقد كان خبلاً منك أن تطلب هذا منى .
- أترفض .

- نعم .

- أصرح إليك يا آلان .

- لا تتعب نفسك .

فعادت دوريان جرائ معانى الألم العميق ، ومد يده وتناول قطعة من
الورق وخط عليها بعض الكلمات ثم قرأها مرتين وطواها بعناية وأراحها على
المائدة حتى استقرت أمام آلان كامبل ، ونهض من مكانه وسار إلى النافذة .
وأخذ كامبل يتأمله عاجباً ثم تناول الورقة وقرأ ما فيها فشحب وجهه حتى
أضحى يحكى وجوه الأموات وتخاذل فى مقعده ، وأحس بدوار شديد وسمع
قلبه يدق عنيفاً عالياً كأنه يدق فى صندوق فارغ .

ومرت دقائق من الصمت المروع ثم التفت إليه دوريان ومشى نحوه ووقف
خلفه ووضع يده على كتفه وقال :

- يؤسفنى أن أفعل يا آلان ، ولكنك لم تترك لى فرصة للاختيار ،
وها هو خطاب قد كتبته فعلاً وتستطيع أن تقرأ عنوانه بنفسك ، فإذا أنت
لم تساعدنى وجددتنى مضطراً إلى إرساله ، وأنت أدرى الناس بتتيجته ،
ولكنك ستساعدنى ، فمحال أن ترفض ذلك الآن . لقد كنت أود أن أعفك
من كل ذلك ولكنك ألزمتنى به إلزاماً ، ومن الإنصاف أن تشهد لى بذلك ،
وكنت أنت معى عنيداً خشناً جارحاً فى القول ، وما عاملنى أحد قط معاملة
إيائى ، على الأقل ممن لا يزالون أحياء يرزقون ، فاحتملت كل ذلك على
مضض والآن جاء دورى لأملى عليك شروطى .

فدفن كامبل وجهه فى كفيه وارتجف .

- نعم يا آلان . الآن جاء دورى لأملى عليك شروطى ، وأنت تعرف هذه الشروط ، والأمر ليس فيه تعقيد تشجع ولا تقتل نفسك بالحشرات فلا محيد عما أنت قادم عليه ، فأقدم عليه دون تفكير .

وصعدت من صدر كامبل أنه واهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وسمع الساعة القائمة على سطح المدفأة تدق ، فبدا له أن دقائقها تقسم الزمن إلى جزيئات من العذاب الذى لا سبيل إلى احتماله ، وأحس كأنها حلقة حديدية قد احتوى رأسه وأخذت تضيق تدريجاً وهى له أن الفضيحة التى يهدده دوريان جراى بها قد نزلت به فعلاً ، أما اليد التى ارتاحت على كتفه فقد خال أنها يد من البرصاص تبهظ كاهله وتوشك أن تسحقه سحقاً .

- وآلان يا آلان ، لابد أن تصل إلى قرار سريع .

فأجاب كامبل على صورة آية كأن الكلام يغير الحقائق :

- لا أستطيع أن أفعل ما تطلبه منى .

- بل لابد أن تفعله ، ولا خيار لك فى ذلك . احزم أمرك ولا تضيع الوقت .

فتردد كامبل لحظة ثم قال :

- أفى الغرفة العليا نار ؟

نعم ، فيها مدفأة بغاز الاستصباح والاسبستوس .

- سأذهب إذاً إلى المعمل لإحضار بعض الأدوات التى تلزم للعملية .

- كلا يا آلان ، لن تبرح هذا المكان ، فاكتب ما يلزمك من أشياء على ورقة ، وسيذهب خادمى فى عربة لإحضارها .

فكتب كامبل كلمة إلى مساعده وجفف الحبر ، وتناول دوريان الرسالة وقرأها بإمعان ، ثم دق الجرس وناول الورقة لخادمه الخاص وسأله ألا يضيع وقتاً فى إحضار محتويات الرسالة .

وما إن خرج الخادم وأقفل الباب وراءه حتى نهض كامبل فى سرعة عصبية مشى إلى المائدة وكانت فرائصه ترتعد كأنه محموم ، ومرت عشرون دقيقة كان الصمت فيها كاملاً لم تقطعه كلمة واحدة ، وطنت فى الغرفة ذبابة تسبح فى كل مكان ، وارتفعت دقائق الساعة فخالها الرجلان ضربات مطرقة . ودقت الساعة الواحدة ، والتفت كامبل إلى دوريان جراى فوجد الدموع تنهمر من عينيه ، وتأمل وجهه الرقيق الحزين فوجد فى رفته وحزنه ما أغضبه .

قال كامبل :

- أنت مخلوق منحط ، ما فى ذلك شك .

فأجاب دوريان :

- صمتاً يا آلان . لقد أنقذت حياتى .

- وما قيمة حياتك ؟ لقد تدهورت من سئ إلى أسوأ حتى انتهى بك الأمر إلى الإجرام ، وأنا إذ أقدم على هذه الفعلة التى تضطرنى إليها اضطراراً لا أفكر فى إنقاذ حياتك .

فتنهّد دوريان وقال :

- لیتك ترثى لخالى عشر معشار ما أرثى لخالك .

وفيما هو يقول ذلك انصرف إلى التأمل فى حديقة بيته ، أما كامبل فلم يجب بشيء .

وبعد عشر دقائق طرق الخادم الباب ودخل حاملاً صندوقاً جسيماً من خشب الموجنة يحوى العقاقير المطلوبة ولفة طويلة من الأسلاك المصنوعة من صلب ، وپلاتين ، وكلايتين من الحديد هيئتهما غريبة ، وقال مخاطباً كامبل :

- أترك هذه الأشياء هنا يا سيدى .

فقال دوريان :

- نعم يا فرانسيس ، ويوسفنى أن سأطلب منك شيئاً آخر . أتذكر اسم بائع الأزهار فى رتشموند المتعهد بتوريد زهر الأوركيد إلى قصر سلبى .

- اسمه هاردن يا سيدى .

- نعم ، هاردن . اذهب بلا توان إلى رتشموند ، وقابل هاردن شخصياً
وسله أن يرسل إلى سلبى ضعف الكمية التى يرسلها عادة ، وأن يقلل من
عدد الأوركيد الأبيض بقدر المستطاع ، بل إذ أمكن تجنب الأوركيد الأبيض
تماماً كان ذلك أنسب . إن اليوم صاف جميل يا فرانسيس ورتشموند حى أنيق ،
ولولا علمى بأنك ستستمتع بالذهاب إليه لما أزعجتك بهذا الطلب .

- ليس فى الأمر إزعاج يا سيدى . متى تريدنى أن أعود ؟

فنظر دوريان إلى كامبل وسأله فى هدوء تام ، فقد أكسبه وجود شخص
ثالث بالغرفة شجاعة عظمى .

- كم ساعة ستستغرق التجربة يا آلان ؟

فعبس كامبل وعض شفته وأجاب :

- نحو الخمس ساعات .

- إذا عدت فى السابعة والنصف نكون قد فرغنا من التجربة . اسمع
يا فرانسيس . أعد لى ملابس السهرة واتركها فى غرفتى ، وبعد ذلك تستطيع
أن تكون مطلق الحرية فى المساء فلن أحتاج إليك لأنى سأتعشى فى الخارج
هذه الليلة .

قال الرجل وهو ينصرف :

- شكراً يا سيدى .

والتفت دوريان إلى آلان كامبل ، وقال يستعجله بلهجة الأمر الناهى عما
جعل كامبل يحس بأنه آلة مسيرة :

- والآن يا آلان يجب أن نعمل بالعمل فالوقت ثمين . ما أثقل هذا
الصندوق . سأحمله أنا ، أما أنت فلتحمل الأشياء الأخرى .

وخرج الرجلان من الغرفة معاً ، ولما بلغا قمة السلم أخرج دوريان المفتاح من جيبه وأداره فى الباب ثم توقف واعتراه الجزع ، واضطرب أيما اضطراب .

وقال متخاذلاً :

- أعتقد أنى لن أقوى على الدخول يا آلان .

فقال كامبل ببرود :

- هذا لا يهمنى ، فلن أحتاج إليك .

وفتح دوريان الباب قليلاً ، فرأى وجهه فى الصورة تحت ضوء الشمس ينطق بالخبط والشهوة الصريحة ، ورأس الستار الممزق ملقى على الأرض أمام الصورة ، فتذكر أنه فى الليلة السابقة قد نسى للمرة الأولى فى حياته أن يحجب اللوحة النكراء ، وكاد أن يندفع إليه لينشر عليها الستار ولكنه ارتد واجف القلب فزعاً .

لقد رأى على إحدى يديه فى الصورة بقعة حمراء قبيحة المنظر تلمع كقطرات الدم البليل فمن أين للصورة هذه البقعة الحمراء ؟ كأنما اللوحة قد نضحت دمًا ؟ وأرعبه هذا أكثر مما قد يرعبه منظر الجثة الصامته التى تنتظره داخل الحجرة مسترخية على المائدة لو أنه رآها ، ورأى ظلها المسوخ ملقى على البساط الملطخ بالدم فعرف أنها لاتزال فى مكانها حيث تركها ليلة الأمس .

وملاً رثيه بالهواء لعله يتشجع ، ودفع الباب قليلاً واندفع فى الغرفة مغمض العينين يكاد لا يرى شيئاً ، وانصرف بوجهه عن جثة القتيل جاهاً ألا يراه ، وانحنى ورفع الستار الملون بالذهب والأرجوان ونشره على الصورة فأخفاها .

ثم توقف لحظة ، وخشى أن تقع عيناه على الجثة إن هوحاول العودة ، فذهب يتأمل الوشى المرسوم على الستار ، كل ذلك وكامبل يدخل الصندوق الثقيل والأشياء الأخرى فى جلبة مسموعة . وبدأ دوريان يفكر ، ترى هل

يعرف كامبل بازيل هولوردد ؟ فرضاً هو يعرفه ، ولكن كيف كانت صلته به ،
وأخيراً سمع الصوت الجاف يقول له :

- والآن ، فلتخرج .

فاستدار دوريان وخرج مسرعاً ، وفيما هو يفعل ذلك وقع بصره على
وجه القتل بعد أن رده كامبل إلى موضعه الطبيعي على المقعد ، ورأى كامبل
يتفكر في وجهه الأصفر اللامع ، وفيما هو ينزل على السلم سمع صوت
المفتاح يدار في قفل الباب .

وبعد الساعة السابعة بفترة طويلة دخل كامبل المكتبة ، وكان وجهه شاحباً
ولكنه كان مثلاً للهدوء . قال :

- لقد أنجزت ما طلبته مني ، والآن وداعاً ، وأرجو ألا نلتقى مرة
أخرى .

فقال دوريان في بساطة :

- أنت أنقذتني من موت محقق يا آلان ، ولن أنسى لك هذا الصنيع .
وبعد أن خرج كامبل صعد دوريان إلى الغرفة العليا ، فملأت أنفه رائحة
قبيحة هي رائحة حامض التريك ، ولكنه لم يجد الجثة التي كانت جالسة
بجوار المائدة .

الفصل الخامس عشر

فى الساعة الثامنة والنصف من تلك الليلة كان خدام اللىدى ناربورو يعلنون قدوم دوريان جراى وينحنون تحية له ، وكان دوريان جراى آية فى الأناقة ، يحلى عروته بمجموعة من بنفسج بارما ، وكانت عروق جبهته تدق دقا متواصلا وكانت نفسه شديدة الاضطراب ، ولكنه ظهر على سجيته الجميلة حين انحنى ليقبل يد ربة البيت ولم تخنه رشاقته المعهودة ، فلعل الإنسان لا يحس بأنه على سجيته إلا حين يمثل دورا ، ومهما يكن من شئ فما من أحد رأى دوريان جراى فى تلك الليلة كان يتوهم أنه مر بأساة فاجعة دونها كبار المآسى ، فتلك الأصابع الدقيقة ما كانت لتمسك مدية السفاح ، وتلكما الشفتان الباسمتان ما كانتا لتدنسا اسم الله أو تكفرا بخيره العميم ، ولقد روعه ما رآه فى نفسه من هدوء من المظهر واتزان فى السوك ومرت به لحظة تمنى فيها لو يحيا بشخصية مزدوجة .

وكان الحفل صغيرا يضم عددا قليلا من الناس دعتهم اللىدى ناربورو على وجه السرعة ، واللىدى ناربور امرأة نادرة الذكاء عليها ، بلغة اللورد هنرى - بقايا قبح قديم ، وقد كانت زوجة فضلى لسفير من سفرائنا الثقلاء ، وبعد أن دفنت زوجها بما يقضى به الواجب فى قبر من المرمر وضعت هى تصميمه بنفسها ، وبعد أن زوجت بناتها لبعض الأثرياء المتقدمين فى السن ، بعد أن فعلت هذا وذاك تفرغت للاستمتاع بالقصص الفرنسى ، وبالمطبخ الفرنسى ، وبالذكاء الفرنسى كلما وجدت إليه سبيلا .

وكان دوريان من المقربين إليها ، وكانت تقول له فى كل مناسبة إنها سعيدة الحظ لأنها لم تقابلها وهى فى شبابها . كانت تقول « لو أننى عرفتك

فى تلك الأيام يا صديقى دوريان لكان من المحقق أن أجن بحبك ، ولكان من المحقق أن أفسد كل شئ فى سبيلك ، فمن حسن حظى أنك لم تكن قد جئت بعد إلى الوجود ، ولكن الحياة فى تلك الأيام لم تكن كالحياة فى هذه الأيام ، وهكذا ضاع شبابى دون أن أغازل رجلا ولو على البعد ، فمن أين لى فرصة الحب ؟ لقد كان زوجى اللورد ناربورو قصير النظر إلى درجة كبيرة ، وأية لذة تجدها أمراه فى الزواج من رجل لا يرى شيئا أصلا .

على أن هذا كان عيبه الوحيد .

لكن الضيوف كانوا ثقلاء إلى حد كبير ، وقد شرحت لدوريان حقيقة الأمر ، فقالت من وراء مروحتها الزرية المهلهلة إن إحدى بناتها قد هبطت عليها فجأة بنية الإقامة واصطحبت معها زوجها من ضيقها ، ثم همست فى أذنه قائلة : « أعتقد يا عزيزى أن هذه وحشية منها لا تغتفر . صحيح أنى أهبط عليهما كل سنة وأقيم بينهما طول الصيف بعد عودتى من هومبرج ، لكن هذه مسألة أخرى ، فسيده عجوز مثلى تحتاج إلى تغيير الهواء من وقت إلى وقت ، ثم إنى أمنعها من النوم المبكر ، وهذه خدمة عظيمة أسديها لهما ، فأنت لا تستطيع أن تتصور كم الحياة مملة عندهما . هى حياة ريفية بكل ما فى الكلمة من معنى ، فهما يستيقظان مبكراً لكثرة الأعمال ، وهما ينامان مبكراً لقلة الأفكار ، وناحيتهما لم تحدث فيها فضيحة منذ عصر الملكة اليصابات ، ولهذا فهما ينامان بعد الظهر . سوف أنقذك يا دوريان من حديثهما الثقيل ، فمكانك من المائدة بجانبى لتفتح نفسى بحديثك الشهى . »

فرد عليها دوريان بمجاملة رقيقة وتلفت فى أنحاء الغرفة فلم يجد إلا جمعاً من ثقلاء القوم ، وكان بينهم شخصان لا يعرفهما ، أما الباقيون فقد تبين منهم إرنست هارودن وهو كهل تافه من أولئك الكهول التافهين الذين يملأون نوادى لندن ، ممن لا أعداء لهم ولكن أصدقاءهم يكرهونهم كرهاً تاماً ، ثم الليدى ركستون وهى امرأة فى السابعة والأربعين من عمرها مقوسة الأنف تتزين بلا حساب ، اجتهدت ما وسعها الاجتهاد أن تثير الغبار حول سمعتها ،

ولكن أحزنها أن الناس لا يصدقون ما يقال عنها لفرط دمايتها ، ثم مسز إرلين وهي امرأة لا قيمة لها ، كثيرة الجلبة ، في كلامها لثغة جذابة وشعرها أحمر ، ثم الليدى أليس تشايمان ابنة الليدى ناربورو ربة البيت ، وهي امرأة رثة الهيئة ملامحها في تلك الملامح الشائعة في بريطانيا ، إن رأيها مرة لم تذكرها بعد ذلك ، ثم زوجها اللورد رتشايمان وهو رجل أحمر الخدين أبيض السوالف ، يحسب أن الإفراط في التطرف يعوضه عن فقره الكامل في الأفكار .

وأحس دوريان بالندم على قبول الدعوة ، ثم رأى الليدى ناربورو تنظر إلى الساعة المذهبة القائمة على قمة المدفأة المكسوة بقطعة من القماش البنفسجى وسمعها تقول :

- أليس توحشاً من اللورد هنرى أن يتأخر كل هذا التأخير ؟ لقد أرسلت إليه دعوة هذا الصباح دون اتفاق سابق ، ولكنه وعد أن يقبل جميع دعواتى . فلما عرف دوريان أن هارى قادم وجد في هذا العزاء الكافى ، فلما أن سمع الباب يفتح وصوته الرخيم الهادئ يرتفع بالاعتذار على طريقته الجذابة ونفاقه المتقن هذا باله وزال ما به من الضيق .

ولكنه لم يأكل إلا قليلا في العشاء ، وجاءته الصحف واحدة بعد أخرى دون أن يمسه ، وأخذت الليدى ناربورو تعنفه على عزوفه هذا ، ووصفت امتناعه عن الأكل بأنه إهانة لطاھيها « أدولف المسكين الذى اختار قائمة الطعام خاصة ليناسب ذوق دوريان بالذات » ، أما اللورد هنرى فقد كان ينظر إليه من وقت إلى آخر عاجباً لصمته وشروء فكره ، على حين كان رئيس الخدم يمر به في فترات متقطعة ويملا كأسه بالشمبانيا فيشربها كالظمآن وما ارتوى ، بل زادته الخمر ظمأ إلى الخمر .

وأخيراً قال اللورد هنرى قرب انتهاء العشاء :

- ماذا دهاك الليلة يا دوريان ؟ يبدو أنك متوَعك المزاج تماماً .

قالت الليدى ناربورو :

- أعتقد أنه عاشق ، وهو يخشى أن يطلعننى على أمره فتثور فى صدرى
الغيرة ، وله العذر فى ذلك ، فأنا امرأة شديدة الغيرة .

فقال دوريان مبتسماً :

- يا سيدتى الليدى ناربورو . أنا لم أذق الحب أسبوعاً كاملاً ، أى منذ أن
تركت مدام فيرول لندن .

فصاحت به السيدة العجوز قائلة :

- عجباً لكم يا معشر الرجال ، كيف تستطيعون أن تحسبوا امرأة كهذه .
هذا ما يحيرنى فيكم .

قال اللورد هنرى :

- السبب بسيط ، وهو أنها تتذكرك حين كنت تلبسين فستاتين قصيرة
يالىدى ناربورو ، فهى حلقة الوصل الوحيدة الباقية بيننا وبين فساتينك القصيرة .

- هذا غير صحيح ، فهى لا تستطيع أن تتذكر فساتينى القصيرة مطلقاً
يالىورد هنرى ، أما أن فاستطيع أن أتذكرها تماماً حين كانت فى فيينا منذ ثلاثين
عاماً وقد كانت عندئذ تسرف فى كشف صدرها .

قال اللورد هنرى وهو يتناول زيتونة بأصابعه الطويلة :

- وهى لا تزال تسرف فى كشف صدرها ، وحين تهل علينا بفستان أنيق
تبدو كطبعة فاخرة من قطعة فرنسية تافهة . إنها لسيدة العجائب ، وإنى
لمعجب بها كل الإعجاب ، فهى تستطيع مثلاً أن تحب أهلها إلى حد يلفت
الأنظار ، وحين مات زوجها الثالث اصفر شعرها من فرط الحزن .

فصحا به دوريان قائلاً :

- هذا اجتراء منك يا هارى !

وضحكت ربة البيت وقالت :

- هذا تفسير ممتع ، ولكن كيف تقول إن زوجها الثالث مات ؟
- أتعنى أن السيد فيرول هو الرابع ؟
- بالتأكيد ياليدى ناربورو .
- هذا مستحيل .
- سلى مستر جراى إذا ، فهو من أقرب المقربين إليها .
- أصحيح ما يقوله اللورد هنرى يامستر جراى ؟
- فأجاب دوريان قائلا :
- هذا ما أكدته لى بنفسها ياليدى ناربورو ، وقد سألتها أكانت تحنط
- قلوب أزواجها وتعلقها فى زناها كما كانت تفعل مرغريت دى بافار ،
- فأجابتنى بالنفى لأن أزواجها لم تكن لهم قلوب .
- أربعة أزواج ! يالها من شهية عظيمة !
- قال دوريان :
- بل يالها من جراءة عظيمة ! هذا ما أقوله لها دائما .
- إن جراتها تتسع لكل شئ يا عزيزى ، ولكن حدثنى عن فيرول ، فأنا
- لم أره حتى هذه اللحظة .
- قال اللورد هنرى وهو يشرب بعض النبيذ :
- إن أزواج النساء رائعات الحسن ينتمون عادة لطبقة المجرمين .
- فضربته اللىدى ناربورو بمروحتها وقالت :
- لا غرو أن يصفك كل من فى العالم بأنك رجل شرير .
- قال اللورد هنرى متكلفاً الدهشة :
- ولكن أى عالم يصفنى بهذا الوصف ؟ : إن علاقاتى مع هذا العالم
- على أحسن ما يرام ، فلا بد أن يكون العالم الآخر .

فهزت السيدة العجوز رأسها وقالت :

- كل من أعرفهم يصفونك بأنك رجل شرير .

بدا الجد على وجه اللورد هنرى لحظة أو لحظتين ثم قال :

- هذه خسة من الناس أن يغتابوا المرأ بالحقائق الصادقة ، وأنا أستكرها .

ومال دوريان فى مقعده إلى الأمام وقال :

- إن اللورد هنرى لا رجاء فى إصلاحه . ألا توافقين يا ليدى ناربورو ؟

أجابت ربة البيت ضاحكة :

- ليته يبقى على حاله ، ولكن إذا ظل الرجال يهيمون بمدام دى فيرول

على هذا النحو المضحك ، فسوف أتزوج من جديد لأستفيد من ذوق العصر .

فقاطعها اللورد هنرى قائلاً :

- كلا يا ليدى ناروبورو . إن مثلك لا يتزوج مرتين ، فأنت فى سعادة

تحميك من هذا الخطأ ، إن المرأة تتزوج مرتين إذا كانت تمقت زوجها الأول ،

أما الرجل فيتزوج مرتين إذا كان يعبد زوجته الأول . فى الزواج تجرب النساء

حظهن ، أما الرجال فيقامرون بحظهم .

قالت السيدة العجوز :

- إن زوجى لم يكن كاملاً .

فأجاب اللورد هنرى :

- هذا من حسن حظه ، فلو أنه كان كاملاً لضقت به ياسيدتى العزيزة ؛

إن النساء يعشقننا لعيوبنا ، فكلما زادت عيوبنا اغتفرن لنا أخطاءنا حتى جريمة

التفكير يغفرننا ، وأنا أخشى يا ليدى ناربورو أن تكفى عن دعوتى للعشاء

بسبب ما قلت ، ولكنى ما قلت غير الحق .

- بالطبع أنت لم تقل غير الحق يا لورد هنرى ، ولو أننا معشر النساء

لم نعشق فيكم عيوبكم فكيف يكون حالكم إذا ؟ لولا ذلك لما وجد رجل واحد

امرأة تقبل أن تتزوجه . لولا ذلك لبقيتن جماعة من العزاب التعساء .

- ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئاً ، ففي هذه الأيام نجد أكثر المتزوجين يعيشون عيشة العزاب ، وأكثر العزاب يعيشون عيشة المتزوجين .

قال اللورد هنرى :

- هذه نهاية القرن .

فأجابت ربة البيت :

- بل هذه نهاية العالم .

وتنهى دوريان جراى وقال :

- ليتها كانت نهاية العالم . إن الحياة قد خيبت أملى فيها .

فصاحت الليدى نابورو وهى تلبس قفازها قائلة :

- لا تقل لا صديقى إنك قد أتيت على كل ما فى الحياة من أسباب السعادة ، فحين أسمع رجلاً يقول هذا الكلام أعرف أن الحياة قد أتت عليه . إن اللورد هنرى رجل شرير وإنى لأغبطه على ذلك أحياناً ، أما أنت فقد خلقت لتكون نموذجاً للخلق الجميل ، ووجهك الجميل يدل على ذلك . دعنى أبحث لك عن زوجة صالحة . ألا تعتقد يا لورد هنرى أن مستر جراى قد بلغ سن الزواج ؟

انحنى اللورد هنرى بأدب وأجاب :

- هذا رأى الثابت يا ليدى نابورو ، وطالما ذكرته له .

- إذًا ، فلنبداً فى البحث له عن زوجة تناسبه . سأحصر الليلة الفتيات اللاتى يصلحن لذلك بعناية وأعد له قائمة بأسمائهن .

فسألها دوريان قائلاً :

- وبأعمارهن كذلك يا ليدى نابورو !

- بطبيعة الحال ، ولكن أعمارهن ستكون محرفة تحريفًا طفيفًا .

ولا داعى للعجلة فأنا أحب أن أتوسط له فى زواج تصفه «المورننج پوست» بأنه زواج مناسب ، كما أحب له ولزوجته أن يسعدا بهذا الزواج .

فقال اللورد هنرى :

- إن الناس يكثرون من الكلام الفارغ فى موضوع السعادة الزوجية ، فالرجل يستطيع أن يسعد مع أى امرأة فى العالم إن كان لا يحبها .

قالت السيدة العجوز وهى تدفع مقعدها إلى الوراء وتحنى رأسها تحية لليدى ركستون :

- يالك من خاسر قاس . لا بد أن تأتى للعشاء ثانية فى المستقبل القريب فأنت خير دواء يزيل عنى الصداع ، بل أنت أنفع من الدواء المقوى الذى أوصانى به السير توماس أندروز ، ولكن أشير على بمن تحب أن تقابلهم من الضيوف حتى يكون الحفل بهيجاً .

فأجاب :

- أحب أن أقابل من الرجال من لهم مستقبل ، ومن النساء من لهن ماضٍ ، ولكن أخشى أن تقتصر حفلتك بهذا على النساء فقط .

فضحكت الليدى ناربورو ثم نهضت وهى تقول :

- هذا ما أخشاه أنا أيضاً .

ثم أضافت تعتذر على تركها المائدة :

- عفواً يا عزيزتى الليدى ركستون فقد حسبت أنك فرغت من التدخين .

- لا داعى للاعتذار يا ليلى ناربورو ، فالواقع أنى أدخن أكثر مما يجب ، وقد قررت أن أحدد الكمية التى أدخنها فى المستقبل .

قال اللورد هنرى :

- أرجو ألا تنفذى هذا القرار يا ليلى ركستون ، فالاعتدال يقضى على بهجة الحياة . الاعتدال يذكرنى بحياتنا اليومية ، أما الإفراط فيذكرنى بالولائم والأعراس .

- فنظرت إليه الليدى ركستون عاجبة وقالت وهى تنصرف :
- أرجوك أن تزورنى ذات مساء يا لورد هنرى لتشرح لى هذه النظرية .
- وصاحت الليدى ناربورو وهى تقف بالباب :
- سنصعد نحن إلى الصالون العلوى ونترككم لتحدثوا فى السياسية وفى أعراض الناس ، ولكن لا تطيلوا البقاء وإلا وجدتمونا فى معركة شديدة .
- فضحك الرجال ، وانتقل مستر تشايمان من نهاية المائدة إلى رأسها ، وانتقل دوريان جراى إلى جوار اللورد هنرى ، وبدأ مستر تشايمان يتكلم بصوت عال عما يحدث فى مجلس العموم ، وأخذ الحماس فى الرد على معارضيه حتى أنساه آداب المناقشة ، وأكثر من استعمال عبارة «أفكار نظرية» وهى الأفكار التى تخيف العقل البريطانى الضيق ، ولم ينس أن يفوّف أقواله بالتركيب البلاغية ، ولم ينس أن يضع العلم البريطانى على قمم التفكير الإنسانى ، ولم ينس أن يسمى غباوة الشعب البريطانى الموروثة بالذوق العام ، ويمتدحها ويزعم أنها درع المجتمع الراقى .
- وابتسم اللورد هنرى حين سمع هذا الكلام ثم انصرف إلى درويان وسأله :
- أتحسنت حالتك الآن يا دوريان ؟ لقد بدا عليك الأعياء أثناء العشاء .
- أنا على خير ما يرام ، وكل ما فى الأمر أنى متعب .
- لقد سحرت جميع الحاضرين فى حفلة الأمس يا دوريان ، والدوقة العجوز تحبك حبا جما ، وقد قالت لى إنها ستزورك فى سلبى .
- نعم ، وعدت بأن تأتى فى العشرين من هذا الشهر .
- وهل سيزورك مونماوث كذلك .
- نعم يا هارى .
- إنه شخص ثقیل على نفسى ثقیل على نفس الدوقة ، ورأبى فى الدوقة أنها نادرة الذكاء ، بل إنها أذكى مما يجوز لامرأة أن تكون ، ولكن ينقصها

ذلك السحر الذى يكمن فى ضعف النساء . يقولون إن المعبودات ذاتها لها أقدام من الصلصال ، وإن الصلصال يصلها بالأرض مما يفسد ألوهيتها ، ولكنى أقول إن الصلصال يزيد من ألوهية المعبودات ، وقدا الدوقة تفتن الناسكين ، ولكنها ليست من الصلصال بل من الصينى الأبيض إذا أحببت ، وقد احترقنا بنيران الحياة ، والنيران كما تعلم تقوى مالا تستطيع أن تتلفه ، إنها من صاحبات الاختبار الواسع .

فسأله دوريان قائلا :

- هل مضت على زواجها فترة طويلة ؟

- هى تقول إنه مرت على زواجها آباد ، ولكنى أقد هذه الآباد بعشر سنوات ، لأن زوجها لم يرث اللقب إلا منذ عشر سنوات ، وعشر سنوات فى عشرة رجل كمونماوث لابد تبدو آبادا وآبادا ، فتقديرها لا يدهشنى . ولكن حدثنى عن ضيوفك الآخرين .

- سيكون بينهم آل ويلبى واللورد رجبى وزوجته ، والليدى ناربورو ، وجفرى كلاوستون وبقية الربط الذى تعرفه ، وكذلك دعوت اللورد جروتريان .

قال اللورد هنرى :

- أنا أحب اللورد جروتريان وإن كان أكثر الناس لا يحبونه ، فهو فى نظرى رجل جذاب ، وإذا كان من رذائله الإسراف فى التزين فهو يكفر عن ذلك بالإسراف فى الاطلاع . إنه نموذج للرجل العصرى .

- لست واثقا من أن ظروفه ستسمح له بقبول الدعوة يا هارى ،

فقد يضطر إلى السفر مع أبيه إلى مونت كارلو .

قال اللورد هنرى :

- ما أثقل الآباء يادوريان ؟ أرجوك أن تلح عليه فى المجئ ، ولكن خبرنى يا دوريان ، لقد تركتنى فى وقت مبكر ليلة أمس ، تركتنى قبل الساعة الحادية عشرة ، فماذا ببقية الليلة ؟ أعدت إلى بيتك مباشرة ؟

فنظر إليه دوريان نظرة سريعة وأجاب عبساً :
- كلا ياهارى ، لم أعد إلى بيتى إلا قرب الساعة الثالثة .
- أذهبت إلى النادى ؟
- نعم .

ولكنه عض شفته وصحح كلامه قائلاً :
- كلا . أقصد أنى لم أذهب إلى النادى ، بل تجولت فى الطرقات . لقد نسيت الآن ما فعلته ليلة أمس . ما أشد فضولك يا هارى ! إنك تحب دائماً أن تعرف ما كنت أفعله ، وأنا أحب دائماً أن أنسى ما كنت أفعله . لقد عدت إلى بيتى فى الثانية والنصف بالضبط إذا كان تحديد الزمن يهملك ، ثم تبين لى أنى قد نسيت المفتاح فى البيت ففتح الباب لى خادemy ، وإذا شئت أن تتحقق من صدق هذه الرواية فعليك به ، سله كما تشتهى .

فقال اللورد هنرى مظهرأ عدم الاكتراث :
- وما شأنى بكل هذا ؟ هيا بنا إلى الصالون يا دوريان . أشكرك يا مستر تشابمان ، فلست أريد المزيد من النبيذ . لقد حدث لك حادث يا دوريان فقص على ما جرى ، إنك هذه الليلة لست على عهدى بك .
- لا تهتم بأمرى يا هارى ، فأنا الآن منحرف المزاج شديد التهيج وسأزورك غدا أو بعد غد على أكثر تقدير ، وأرجوك أن تعتذر عن انصرافى إلى الليدى نابورو نيابة عنى فأنا راجع إلى دارى . نعم . لا بد أن أرجع إلى دارى .

- حسنا يا دوريان . أرجو أن أراك غدا فى وقت الشاى ، ولسوف تجد الدوقة عندى .

وسأبذل كل المستطاع يا هارى .
وانصرف ، وفيما كانت عربته تخب به صوب بيته عاوده شعور الفزع الذى أظن أنه قد كبت فى نفسه ، فالأسئلة العارضة التى ألقاها عليه اللورد

هنرى قد أفقدته السيطرة على أعصابه ولو إلى حين ، وهو لا يزال بحاجة إلى اتزان الأعصاب ، ففي بيته أشياء قد تجره إلى المشنقة ، ولابد من القضاء عليها تماماً ، وكان مجرد التفكير فى أنه سيمسها يقبض نفسه ، ولكنه كان يعلم أنه لا مفر له من تدمير أمتعة بازيل هولوررد ، فما إن دخل المكتبة وأقفل بابها بالمفتاح حتى فتح الكوة الخفية واستخرج منها معطف بازيل هولوررد وحقيته ، وكانت فى المدفأة نار مشبوبة ، فألقى فيها قطعة أخرى من الخشب ليذكيها وامتلات الغرفة برائحة الملابس المحترقة والجلد المحترق ، ولم يفرغ من تدمير كل شىء إلا بعد ثلاثة أرباع الساعة ، وبعد أن انتهى كل شىء أحس بدوار شديد وإعياء موجه ، ثم أحرق بعض الطيوب المغربية فى إناء نحاسى محروق ، وغسل يديه وجبهته فى خل بارد معطر بالمسك .

وفجأة اضطرب قلبه ولمع فى عينيه بريق غريب وأنشأ يعض شفته السفلى بقوة عصبية ، وكان بين النافذتين خزانة ضخمة من فلورنسا صنعت من أبنوس مطعم بالعاج وحجر أزرق كريم . وشخص بصره إلى الخزانة كأن بها قوة سحرية أو قوة رهيبة ، وكان بها شيئاً تتوق نفسه إليه وتبغضه فى آن واحد . وتلاحقت أنفاسه فى سرعة وتملكه نهم شديد ، وأشعل سيجارة ، ثم قذفها بعيداً عنه ، وارتخى جفناه حتى كادت أهدابه الطويلة أن تمس خديه ولكن بصره لم يتحول على الخزانة ، وأخيراً نهض ومشى إليها وأدار فيها مفتاحاً ، ثم ضغط على زر خفى فبرز منها درج مثلث الشكل قليلاً قليلاً ، وامتدت أصابعه إلى الدرج على غير وعى منه وغاصت فيها وأمسكت بشىء ما ، أمسكت بصندوق صينى صغير دهانه أسود وذهبى دقيق الصنع جوانبه محلاة بخطوط تشبه الأمواج ، وقد ركبت فيه خيوط من حرير تدلت منها بلورات مستديرة وأسلاك معدنية كأنها الشعر المصفور ، وفتح الصندوق ، فوجد بداخله معجوناً أخضر يلمع لمعان الشمع له رائحة نفاذة لا تستهلك .

وتردد بضع لحظات ، وكانت على شفثيه ابتسامة ثابتة غريبة ، ثم مشت فى أوصاله رعدة برغم الحرارة الخانقة التى تملأ الغرفة ، وجمع أشتات قوته

ونظر إلى الساعة فوجدها قرب منتصف الليل ، وأعاد الصندوق إلى مكانه وأغلق الخزانة ، وآوى إلى غرفة النوم .

ودقت الساعة تؤذن بانتصاف الليل ، وكان دوريان جراى قد استبدل ثياب السهرة بثياب أخرى عادية ، ولف حول عنقه كوفية وانسل خارجاً من داره . وفى بوند ستريت وجد عربة فاستوقفها وهمس فى أذن الحوذى بالعنوان الذى يبغيه ، وهز الحوذى رأسه قائلاً :

- هذا مكان بعيد يا سيدى ولا أستطيع أن أحملك إليه .

فنفضه دوريان بجنيه وقال :

- أعدك بمثله إن أسرعت فى الطريق .

فأجاب الرجل :

- حسنًا يا سيدى . سوف تبلغ المنزل فى أقل من ساعة .

وبعد أن وضع أجره فى جيبه لوى أعنة جواده ، وركضت العربة فى اتجاه نهر التيمس .

الفصل السادس عشر

بدأت الأمطار الباردة تهطل وبدأت مصابيح الشارع كالأشباح المخيفة بعد أن ابتلت بالماء واختنق نورها ، وكانت الحانات لا تزال تغلق أبوابها ، وعند أبوابها تكاثر الناس فى جامعات متفرقة ، وقد أخفى الظلام معالمهم ، ومن بعض الحانات ارتفعت ضحكات مؤذية للسمع ، ومن حانات أخرى كان السكارى يتشارجون ويصرخون .

وفى العربة استلقى دوريان وقد جذب قبعته إلى الأمام حتى أوشكت أن تغطي عينيه ، وطفق يتأمل المدينة العظيمة ومخازيها فى أعجاز الليل ، وتذكر قول اللورد هنرى له يوم لقائهما الأول : « إن سر الحياة هو شفاء النفس عن طريق الحواس ، وشفاء الحواس عن طريق النفس » ، وتذكر أن هذا السر سره الذى جربه المرة بعد المرة فلم يخيب ظنه ، وها هو ذا يجربه من جديد فى هذه الليلة ويجربه فى أوكار الأفيون حيث النسيان يباع ويشترى ، ويجربه فى بؤر الفساد تمحو ذنوب اليوم الصارخة ذنوب الماضى القديم .

وتدلى القمر الشاحب حتى كاد أن يمس قمم المنازل ، وبدأ فى السماء كالجمجمة الصفراء ، وبين وقت وآخر مرت غيمة هائلة لا شكل لها ولا حدود وحجبتة عن الأرض ، وكلما تقدمت العربة فى المسير ضاقت الشوارع أمامها وقلت المصابيح وازدادت المدينة كآبة ، وضل الحوذى طريقه مرة فاضطر إلى أن يعود ما يقرب من نصف ميل ، وكلما خاض الجواد فى المياه المتخلفة من الأمطار ارتفع من حوله رشاش يشبه البخار ، أما نوافذ العربة فقد اكتست بالضباب الأغبر .

وترددت عبارة اللورد هنرى فى أنه طول الطريق . أجل . شفاء النفس عن طريق الحواس ، وشفاء الحواس عن طريق النفس . وهذه روحه مريضة تدب فيها المنية ، وكيف تشفى روحه الحواس وقد سفك الدم البرى ؟ وأى كفارة تغسل عنه هذا الذنب العظيم ؟ لا كفارة ؛ فمثل هذا الذنب لا تغسله أنهار الدموع ، ولكن إذا عز الغفران ، فالنسيان لا يزال مفتوحا سبيله ، وقد وطد العزم على أن ينسى ، على زن يسحق غضة الألم فى نفسه كما يسحق الأفعى بعد أن لدغته ، فبأى حق استحل بازيل لنفسه أن يقف منه موقف المعنف ؟ ومن ذا الذى أقامه من الناس قاضياً ؟ إن بازيل قد فاه بعبارات مفزعة ، عبارات لا تحمل .

والعربة فى ركضها دائبة ، وخيل إليه أنها تقلل من سرعتها فى كل شبر تجتازه ، فرفع الكبود وهتف بالحوذى أن يلهب جواده بالسوط ، وبدأ شوقه إلى الأفيون يأكله أكلا ، والتهب حلقه وانقبضت يداه الدقيقتان بحركة عصبية ، وضرب الجواد بعصاه بالمجنون وضحك الحوذى وضرب الجواد بسوطه فضحك دوريان جراى ، وتلا ذلك صمت .

وأحس بأن الطريق لا ينتهى ، وبدأ له الشوارع المظلمة المتشعبة كأنها نسيج عنكبوت وضاق بالرحلة المملة ، ورأى الضباب يتكاثر من حوله فأحس بالخوف .

ثم مر بخلوات يصنع فيها الطوب ، وفى هذه الخلوات كان الضباب أقل كثافة منه فى المدينة ، واستطاع أن يرى محارق الطوب التى تشبه الزجاجات فى هيئتها ، وأصبر السنة اللهب البرتقالية تصعد منها فى صورة مروحة من النار ، وسمع فى طريقه كلباً ينبح ، وسمع طائراً تائهاً يصرخ على البعد ، وكبا الجواد فى حفرة ثم انثنى وأسرع فى الركض .

وبعد قليل خرجت العربة من الطريق الريفى ، وبدأت عجالاتها تجلجل على طريق معبد خشن ، وكانت أكثر النوافذ مظلمة ، ولكن من وقت إلى آخر انبعث النور من غرفة مضاءة وظهرت على ستائرهما أشباح عجيبة ، وطفق

دوربان جرای يتأمل هذه الأشباح فى فضول فوجدها تتحرك كدمى الأراجور ، وتشير بأيديها كما يشير الأحياء ، وانقبضت نفسه لما رأى ، ومتلاً قلبه بغضب مكتوم ، ودارت العربى فى منعصف فسمع امرأة تصرخ به من مكانها فى أحد الأبواب ورأى رجلين يعدوان وراء العربى نحو مائة ياردة ، ولكن الحوذى أعمل سوطه فيهما .

يقولون إن الانفعال يجعل العقل يفكر بطريقة دائرية ، وهذا ما حدث لدوربان جرای وهو يعرض شفته ويكرر قول اللورد هنرى ويستخرج منه المعانى الدقيقة ، حتى وجد فى نظرية استشفاء الروح بالحواس خير معبر عن حالته وخير مبرر لما هو مقدم عليه ، ولو لم يجد المعبر أو المبرر لما غير هذا من أمره شيئاً . وانتقلت هذه الفكرة بين خلايا مخه واحدة إثر واحدة وطردت من رأسه كل ما عداها ، وشحذت أعصابه المضطربة وألياف جسده الراجفة رغبة عارمة فى الحياة ، وإرادة الحياة فى الإنسان تكتسح أمامها كل إرادة ، وبدأ يتذوق القبيح لأنه يقترب بالإنسان من الواقع بعد أن كان ينكر القبيح لأنه يقترب بالإنسن من الواقع ، بل وجد أن القبح هو الحقيقة الوحيدة فى الحياة ، فالألفاظ النابية التى يسمعها فى كل شجار ، والبؤر النكراء ، وفظاظه الحياة المضطربة وقسوتها ، وخسة اللصوص وضعة الأوباش والمنبوذين ، كل هذه بدت له أصدق تعبيراً عن الحياة الواقعة من النماذج الجميلة التى يخلقها الفن اختلافاً ، والظلال الخاملة التى تملأ قريض الشعراء ، وإذا كانت الحقيقة مرة شائنة فهو بحاجة إلى مرارتها وجوهرها الشائنة فهما تلهمانه النسيان . فليزل إلى الدرك السافل ، وبعد أيام ثلاثة سوف تبرا روحه من جراحها .

ثم توقف الحوذى فجأة عند مبدأ زقاق مظلم فارتجت العربى ، ورأى دوربان جرای صوارى السفن ترتفع سوداء من وراء سطوح المنازل الصغيرة ، ومن وراء مداخنها ، وفى الميناء رأى قطع الضباب الأبيض تحوم فى كل مكان كأنها قلع خرافية ، وسمع الحوذى يسأله بصوت أجش :

- العنوان فى هذه المنطقة . أليس كذلك ؟

وتنبه دوريان وبدأ يتلفت حوله ثم أجاب :

- هذا يكفي .

وخرج من العربة مسرعاً ونقد الحوذى بما وعده به من مال ثم سار مستعجلاً فى اتجاه رصيف الميناء ، وكانت المصابيح تلمع هنا وهناك فى مقدمة السفن التجارية الضمة ، واهتز النور وتفتت فى الماء المتخلف من المطر ، وجاء ضوء أحمر من باخرة خارجة من الميناء كانت تتزود بنصبيها من الفحم ، أما إفريز الشارع المغطى بالأوحال فبدأ كمعطف من الجلد مبتل .

وانعطف إلى اليسار وأسرع فى المسير وكان يتلفت إلى الوراء بين لحظة وأخرى ليرى من يقتفى أثره فلم يجد أحد ، وبعد سبع دقائق أو تزيد بلغ بيتاً حقيراً محشوراً بين مصنعين ضيقين ، ورأى مصباحاً منيراً فى أحد النوافذ العليا ، فتوقف ، ثم طرق الباب طرْقاً غير مألوف .

وبعد وقت قصير سمع ديبب أقدام فى الدهليز ، وسمع سلسلة الباب ترفع ، وانفتح الباب بهدوء فدخل دون أن يقول شيئاً للشخص الممسوخ وقصير القامة الذى فتح له الباب ، ثم توارى فى الظلام ، وفى نهاية القاعة تدلى ستار أخضر مهلهل أخذ يتأرجح يمنة ويسرة أمام الريح التى اقتحمت الباب أثناء دخوله ، وجذب الستار ، ثم دخل فى غرفة مستطيلة منخفضة السقف لعلها كانت فى يوم من الأيام قاعة رقص من الدرجة الثالثة ، واصطفت على جدران الغرفة مصابيح الغاز الموقدة التى تئز أزيزاً عالياً ، وقد طمست نورها وشوهته المرايا القذرة المصطفة قبالتها ، ومن خلف المصابيح كانت هناك ألواح من الصفيح المضلع تعكس أنوارها فى هيئة أقراص من النور المرتجف ، وكانت الأرض مغطاة بنشارة الخشب الصفراء معجونة فى مواضع عدة بأوحال الشارع التى حملتها أقدام الداخلين ، وملطخة فى مواضع أخرى بآثار النبيذ المسكوب ، وبالقرب من المدفأة قعد على الأرض رجال أصلهم من الملايو ذهبوا يعلبون بقطع من عظم على حين ظهرت أسنانهم بيضاء ناصعة أثناء الحديث ، وفى ركن الغرفة رقد بحار على مائدة ، وعند البار الطويل

الذى شغل جانباً كلاماً من جوانب الغرفة وقفت امرأتان شاحبتا الوجه تتهكمان بشيخ كان ينظف كمية من امتعاض واضح ، وفيما كان دوريان يمر بهما سمع إحداهما تقول ضاحكة : «إنه يتصور أن النمل قد ملأ كمية» ، ورأى الشيخ ينظر إليها فزعاً ، ثم يزمجر .

وكان فى نهاية الغرفة سلم صغيرة ، وكان السلم الصغير يفضى إلى غرفة مظلمة ، وفيما كان دوريان يقفز على درجات السلم الثلاث المتهافئة صعدت فى أنفه رائحة الأفيون القوية ، فملأ رثيته منها واختلج أنفه انشراحاً ، ودخل فوجد بالغرفة شاباً صغيراً أصفر الشعر ناعمه قد انحنى فوق مصباح ليوقد منه بيته ، ونظر الشاب إليه ، ثم أوماً إليه بعد تردد . قال دوريان :

- لم أكن أتصور أنك هنا يا أدريان !

فأجاب الشاب فى فتور :

- وهل بقى لى غير هذا المكان ؟ إن جميع أصدقائى قد أنكرونى .

- كنت أحسب أنك خرجت فى إنجلترا .

- لم أجد داعياً لذلك لأن دارلنجتون لن يرفع الأمر إلى القضاء ، فقد سدّد أخى جورج قيمة الصك ، وهو الآن يقاطعنى ، ولكنى لا أكثرث ، فما بى حاجة إلى الأصدقاء طالما أنى أحصل على هذا الجواهر السحري ناسخ الأحران ، ثم إنى أعتقد أنى أسرفت فى اختيار الأصدقاء .

وعبس دوريان حين سمع هذا الكلام ، وتلفت حوله ليتأمل الأجسام الزرية المستلقية على المراتب الممزقة فى أوضاع عجيبية ، فرأى السيقان المتفخخة ، والأفواه المفغورة ، والعيون المنطفئة الشاحصة وسحره مرآها ، فقد كان يعلم ما يشقون به من أحلام ذهبية ، وما يسعدون به من نيران الجحيم ، وخيل إليه أنهم أسعد منه حالا فهو البائس الذى يستهلك مهجته وتذهب نفسه حسرات ، وهو التاعس الحبيس فى سجن الذكريات . الذكريات ؟ نعم . الذكريات ، ذكرياته التى تلتهم روحه كالمرض الخبيث ، لقد رأى عينى بازيل هولوردد

تخلقان فيه مراراً ، وهو بحاجة إلى النسيان ، ولكنه أحس بأنه لا يستطيع البقاء فى ذلك المكان ، لأن وجود آدريان سنجلتون قد أزعجه وهو يرغب فى أن يكون فى مكان لا يعرفه فيه إنسان ، وأراد أن يتخلص منه فقال بعد صمت قليل :

- إنى ذاهب إلى المكان الآخر .

- عند رصيف الميناء ؟

- نعم .

- سوف تجد هناك البغى المجنونة ، ما فى ذلك ريب ، فقد طردوها من هذا المكان .

قال دوريان فى استخفاف :

- إن نفسى زهدت النساء اللائى يعشقننى فليت لى نساء يكرهننى ، ومن ناحية أخرى أجد أن البضاعة هناك أجود نوعاً .

- لا أعتقد أن هناك فرقاً .

- أنا أفضلها على أية حال . تعال واشرب معى كأساً فأنا بحاجة إلى الشراب .

قال الشاب :

- لست أرغب فى شىء .

- سراء على .

ونفض آدريان سنجلتون فى إعياء وتبع دوريان إلى البار ، وفى البار حياهما منبوذ من منبوذى الهنود على رأسه عمامة مهلهلة وعلى كتفيه معطف جسيم ، حياهما تحية خير منها الكسوت ، ووضع أمامها زجاجة من الكونياك وقدحين ، وانتحت المرأتان مكاناً جانبياً وبدأت تثرثران وأولاهما دوريان ظهره ، وهمس فى أذن آدريان سنجلتون ببعض الكلمات فابتسمت إحداهما ابتسامة تشبه خنجر الملايو المنحنى وقالت فى تهكم .

- شرفنا .

ولكن دوريان نهرها قائلا وهو يضرب الأرض بقدمه :

- خير لك ألا تتكلمى . ماذا تريد منى ؟ إن كنت تريد ما لا فها هو
ذا المال ، ولكن إليك عنى وحذار أن تكلمينى بعد الآن .

فلمع الشرر فى عيني المرأة الدامعتين قدر لحظة ، ثمن انطفأت عيناها
وعادتتا جامدتين لا معنى فيهما ، وهزت رأسها وخطفت النقود من الكونتوار
بأصابع جشعة ، وتحركت الغيرة فى قلب صاحبته .

وتنهذ آدریان سنجلتون وقال :

- لا جدوى من التفكير فى هذا فأنا لا أرغب فى العودة ، والأمر عندي
سواء لأننى سعيد هنا .

قال درريان بعد صمت قليل :

- أنا أنتظر منك أن تكتب إلىَّ كلما احتجت إلى شيء ، أليس كذلك ؟
- ربما .

- طاب مساؤك إذا .

- طاب مساؤك .

عاد الشاب إلى السلم الصغير يصعده وهو يمسح فمه الملتهب بمنديله .

أما دوريان فاتجه إلى الباب حزين القلب ، فلما جذب الستار ليخرج إلى
الدھليز سمع المرأة التى أخذت منه النقود تضحك ضحكة مفزعة ، وبلغه
صوتها الخشن يقول فى تقطع :

- ها قد ولى صنعية الشيطان .

فأجاب دوريان قائلا :

- لا تسمينى صنعية الشيطان ، أيتها اللعينة .

وطقطقت المرأة أصابعها وصاحت به :

- أنت تحب أن يسميك الناس الأمير الساحر . أليس كذلك ؟

فلما سمع البحار الراقد على المائدة كلماتها وثب من مكانه وأخذ يجول بعينه في أنحاء الغرفة كوحش الهائج ، وسمع باب القاعة يقفل فاندفع خارجاً من الغرفة كأنه يريد مطاردة دوريان جراً .

وأسرع دوريان جراً بالسير على رصيف الميناء والمطر ينهمر فوق رأسه . وقد أثارت رؤية أدريان سنجلتون شعور الشفقة فيه وخيل إليه أنه علة شقاء هذا الفتى والمسئول عن تحطيم حياته كما صارحه بازيل هولوردد بذلك في عبارات مهينة ، وعض شفته ألماً وارتسم الحزن في عينيه بضع ثوان ، ولكنه طرد عنه هذه الأفكار ، وأحس بأن حياة الإنسان أقصر من أن يبهظها بأوزار الآخرين ، فلتحى كل نفس حياتها ، ولتدفع كل نفس ثمن ما تجنيه من لذات . وما آله إلا أن ثمن الخطيئة يدفع مراراً وتكراراً ، فالقدر لا يرضى بأن يصفى حسابه مع الإنسان دفعة واحدة .

يخبرنا علماء النفس بأن الرغبة في الخطيئة أو ما يسميه الناس بالخطيئة حين تملك النفس تماماً فتملاً شعاب العقل وتملاً جنبات الجسد تقترب في طبيعتها من النزعات الإجرامية ، فترى الناس يفقدون كل قدرة على الاختيار ، ويندفعون إلى نهايتهم الأليمة مسوقين بقوة لا يملكون لها قهراً ، كأنهم آلات صماء ، وتتلاشى فيهم الإرادة ويموت فيهم الضمير ، فإن لم يمت فيهم الضمير عاش لتثور عليه الشهوات ويتمرد الجسد وهو صراع مسرحي يملأ الحياة بالحركة ويكسبها الطابع الفنى ؛ ذلك لأن جميع الخطايا جوهرها العصيان كما يحدثنا أهل اللاهوت في كل مناسبة ، وإبليس العظيم ، إبليس نجم الشر الوضاء ، لم يسقط من كنف الله إلى الهاوية إلا لثورته على الحكم المطلق .

وأسرع دوريان جراً في سيره ، وقد مات فيه الشعور وتركزت خواطره في الشر واثارت في عقله المسموم ونفسه المضطربة نوازع الثورة ، ولكن ما إن نفذ في بعض البواكى المظلمة كما اعتاد أن يفعل ليختصر الطريق إلى ذلك

المكان الجهنمي حتى أحس بيد وحشية تقبض على عنقه من الخلف فجأة وتلصقه بالحائط قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه .

وحاول أن ينجو بحياته في قوة جنونية حتى استطاع بمجهود جبار أن يخلص عنقه من قبضة غريمه ، ولكن لم تمض ثانية حتى سمع صوت مسدس يصوب إلى رأسه ورأي خزانة المسدس المصقولة تلمع في الظلام وتبين أمامه رجلاً بديناً قصير القامة طمس الليل معالمه . قال دوريان جراى وهو يلهث :

- ماذا تبغى يا هذا ؟

قال الرجل :

- صه . إن تحركت قتلتك .

- أنت مجنون ، كيف تقتلنى وما أذيتك .

- فأجاب الرجل :

- أنت حطمت حياة سيبيل فين ، وهى أختى ، وأنا أعلم أنها انتحرت ولم تمت خطأ كما زعم المحقق فأنت المسئول عن موتها . لقد أقسمت أنى قاتلك عند عودتى ، وقد فتشت عنك أرجاء المدينة فلم أهتد إليك . لقد ماتت أختى ومات اليهودى فلم أجد بعدهما من يستطيع أن يصفك لى . فكيف أهتدى إليك وأنا لم أعرف عنك شيئاً إلا أن سيبيل كانت تطلق عليك اسم الأمير الساحر ، فما إن سمعت اسمك يتردد الليلة مصادفة حتى علمت أنى ظفرت ببغيتى . صلى إلى الله واطلب منه الغفران فأنت الليلة هالك .

فأصاب دوريان جراى جزع شديد وانتابه دوار وطفق يقول :

- ما عرفت أختك قط ، وما سمعت بها . إنك مجنون .

- خليك بك أن تعترف بما فعلت ، لأنك ميت لا محالة .

وتبعت ذلك لحظة صمت كلها أهوال ، ولم يجد دوريان ما يقوله

أو يفعله ، وزمجر جيمس فين قائلاً :

- اسجد ، وصل إلى الله . وأمامك دقيقة واحد أقبض بعدها روحك .
إنى راحل الليلة إلى الهند ، ولابد أن أنجز مهمتى أولاً . أمامك دقيقة واحدة
لا أكثر .

وتخاذل ذراعاً دوريان من فرط الإعياء ، وسد الفرع عليه مسالك تفكيره
فلم يعرف ماذا يفعل ، ولكن فكرة خطرت له فجأة فرأى بصيصاً من الأمل
فى نجاته . قال :

- مهلا . متى انتحرت أختك هذه . أجبنى بسرعة !
- انتحرت منذ ثمانية عشر عاماً ، ولكن لم تسأل ، وما دخل السنين فى
كل هذا ؟

فضك دوريان جرای ضحكة المنتصر وقال :
- ثمانية عشر عاماً ! أنظر إلى وجهى يا هذا واحكم بنفسك . هيا خذنى
إلى المصباح .

وتردد جيمس فى برهة ولم يفهم لقوله معنى ، ثم أمسك بدوريان جرای
وخرج به من البواكى ، ومضى به إلى مصباح من مصابيح الشارع ، وكانت
الريح تلعب بنور المصباح ولكن النور رغم ذلك كان كافياً ، وتبين جيمس فى
خطأه الفاحش ، فقد رأى أمامه وجهاً اجتمعت فيه نضارة الصباح وطهارة
الشباب ، رأى أمامه فتى لا يتجاوز العشرين ربيعاً إلا بأيام قليلة ، فتى لا يزيد
عمره عن عمر سيبيل حين تركها وذهب يجول البحار ، فكيف يكون هذا
الفتى الرجل الذى حطم حياتها ! مستحيل .

ففك عنه قبضته وتراجع بسرعة قائلاً :
- يا إلهى ! يا إلهى ! لقد كدت أن أقتل نفساً بريئة .
وتنفس دوريان الصعداء وقال له فى تحد :
- لقد كدت أن ترتكب جريمة منكرة يا هذا . فليكن هذا درساً لك رادعاً
فلا تتولى قصاص الناس بنفسك .

قال جيمس فين بصوت متقطع :

- أرجو أن تصفح عنى يا سيدى ، لقد خدعتنى كلمة عابرة سمعتها فى ذلك الوكر اللعين فجعلتنى أتعقب رجلاً بريئاً .

فقال دوريان وهو ينصرف عنه :

- خير لك أن تعود إلى بيتك ، وأن تخفى ذلك المسدس وإلا جرّ عليك المتاعب .

ووقف جيمس فين على إفريز الشارع مذعوراً يرتجف كل جزء من أجزاء جسمه ، وبعد فترة قصيرة برز من الظلام ظل قاتم كان يرتجف بجوار الحائط الذى بللته الأمطار ، وخرجت إلى النور امرأة تسترق الخطى ، وأمسكت بذراعه فالتفت إليها فزعاً ، وكانت المرأة هى البغى التى كانت تحتسى الخمر عند البار .

واقترب وجهها الشاحب من وجهه وهمست فى أذنه قائلة :

- لماذا لم تقتله ؟ لقد عرفت أنك تطارده حين خرجت على عجل من بار دالى . يا لك من أحمق ! كان يجب أن تقتله فهو يحمل مالا كثيراً وهو أشبه خطراً من إبليس نفسه .

فأجاب جيمس فين :

- ليس هذا الرجل الذى أبحث عنه ، وأنا لست قطاع طريق أسلب الناس أموالهم ، إنما أطلب الثأر ، والرجل الذى أريد قتله لا بد أن يكون فى الأربعين من عمره ، أما هذا الفتى فهو حدث صغير . شكراً لله الذى جعلنى أتبين خطئى .

ولكن المرأة ضحكت ضحكة تفيض بالمرارة ، وقالت فى احتقار :

- كيف تقول إنه حدث صغير ؟ إن هذا هو الأمير الساحر الذى حطم حياتى كما ترى منذ ثمانية عشر عاماً .

صاح بها جيمس فين :

- أنت تكذبين !

فرفعت يديها إلى السماء وقالت :

- بل أقسم أمام الله أنى ما قلت إلا الصدق .

- أتقسمين أمام الله ؟

- نعم . فإذا كنت كاذبة فليخرس الله لسانى . إن الأمير الساحر أفجر

رواد هذا المكان ، ولقد سمعت الناس يروون عنه أنه باع روحه للشيطان فى

مقابل وجه جميل ، فحين عرفته منذ ثمانية عشر عاماً كان كما هو الآن ،

وهو لم يتغير إلا قليلاً ، أما أنا فقد تغيرت .

ولم فى عينيها بريق الشهوة وهى تقول هذه العبارة الأخيرة .

- أتقسمين على ذلك ؟

فأجابت بصوت خشن خرج من فمها القبيح :

- نعم أقسم على ذلك .

ثم قالت فى استعطاف :

- ولكن لا تشى بى عنده ، فأنا أخشى شره ، هيا اعطنى بعض المال

لأدفع أجر المبيت هذه الليلة .

فتزل جيمس فين ذراعه من قبضتها وهو يلعن ، واندفع إلى منعطف

الشارع باحثاً عن فريسته ، ولكنه لم يجد لدوريان جراى أثراً ، فلما تلفت

وراءه وجد أن المرأة قد اختفت كذلك .

الفصل السابع عشر

بعد أسبوع كان دوريان جراى جالساً فى صالون الموسيقى بقصر سلبى ، يتحدث إلى دوقة مونماوث الجميلة التى نزلت فى ضيافته مع زوجها الدوق ، وهو رجل فى الستين من عمره بادى الإعياء . وكان الوقت وقت الشاى ، وكان المصباح الضخم المغطى بالحرير القاتم على المائدة يخرج منه نور رقيق يضىء أدوات الشاى بين أوان صينية وقطع من فضة مطروقة ، وكانت الدوقة على رأس المائدة ، وذهبت يداها البيضاءوان تتقلان برشاقة بين الفناجين ، وهمس دوريان فى أذنها بكلمة فابتسمت شفتاها الحمران الممتلئتان ، أما اللورد هنرى فقد كان يتأملها وهو مستلق على كرسى صنع من فروع الشجر مكسو بالحرير ، وعلى أريكة لونها كلون الخوخ جلست الليدى ناربورو وتكلفت الإصغاء إلى كلام الدوق فى وصف جعران برازىلى أضافه إلى مجموعة جعارينه ، وذهب ثلاثة من الشبان فى ملابس السهرة يقدمون الكعك إلى بعض السيدات ، وقد بلغ عدد الضيوف اثنى عشر ضيفاً ، وكان ينتظر قدوم ضيوف آخرين فى اليوم التالى .

ثم نهض اللورد هنرى وسار إلى المائدة ووضع عليها فنجانه قائلاً :
- فيم تتحدثان ؟ أرجو يا جلاديس أن يكون دوريان قد حدثك عن مشروعى الذى وضعته لأغير جميع الأسماء ، فهو مشروع جميل .
فأجابت الدوقة وهى تنظر إليه بعينها الساحرتين :
- ولكنى لا أحب أن أغير اسمى يا هارى ، فأنا راضية به وأعتقد أن مستر جراى راض باسمه كذلك .

- إن اسمك يا عزيزتى جلاديس اسم جميل ، وكذلك مستر جراى اسمه جميل ، ولن أقبل أن يدخل عليهما أى تعديل ، إنما كنت أفكر فى الأزهار خاصة حين وضعت مشروعى لتغيير الأسماء ، فبالأمس قطفت زهرة من أزهار الأوركيد لأضعها فى عروة سترتى ، وكانت الزهرة رائعة المنظر ذات نقط ، لها فتنة الرذيلة وسحر الخطايا السبع ، وفى لحظة طيش سألت البستاني عما يسمونها فأجابنى بأنها ضرب نادر من الروبنسو نيانا ، أو ما أشبه ذلك من الأسماء المنكرة ، وقد تأملت لذلك أبلغ الألم وعرفت أننا قد فقدنا القدرة على ابتكار الأسماء الجميلة . إن الأسماء هى كل شئ يا عزيزتى جلاديس ، وأنا لا أكرث قط لأفعال الناس ، فكل ما يعينى هو أقوالهم ، وهذا سر بغضى للابتذال الذى نجده فى الأدب الواقعى ، والإنسان الذى يسمى الأشياء بأسمائها يفسد طعم الحياة .

فسألته الدوقة قائلة :

- إذاً فماذا تحب أن نسميك يا هارى ؟

قال دوريان :

- فلنسمه أمير النقائض .

قالت الدوقة :

- هذا اسم على مسمى .

فأجاب اللورد هنرى ضاحكاً وهو يغوص فى أحد المقاعد .

- أرجو أن أعفى من هذا الاسم ، وإذا لم يكن هناك مفر من ماركة مسجلة ، فأنا أرفض هذا اللقب .

قالت الدوقة الجميلة محذرة :

- تذكر أن الملوك لا يملكون التنازل عن ألقابهم .

- تحبين أن أدافع عن عرشي ؟

- نعم .

- أنا الكاشف عن حقائق الغد .

قالت الدوقة :

- ليتك كنت الكاشف عن أخطاء اليوم .

فصاح قائلاً وهو يجادلها بأسلوبها :

- أنت تجرديني من سلاحى ، يا جلاديس .

- أجردك من درعك لا من رمحك يا هارى .

قال بإشارة مؤدبة :

- أنا لا أسدد رمحى إلى الجمال .

- هذا خطأ منك يا هارى ، فأنت تبالغ فى تقدير الجمال .

- هذا غير صحيح ؛ فأنا أعترف حقاً بأننى أفضل الجمال على الخير ،

ولكنى أول من يفضل الخير على القبح .

قالت الدوقة :

- إذاً فالقبح أحد الخطايا السبع القاتلة ؟ وكيف يتفق ذلك مع قولك بأن

زهرة الأوركيد كانت تشبه الخطايا السبع القاتلة فى جمالها .

- بل القبح أحد الفضائل السبع القاتلة ، يا جلاديس ، وأنت وأشياعك

من الأرستقراط آخر من يحق له أن يجهل قيمة هذه الفضائل ، فالبيرة

والكتاب المقدس والفضائل السبع القاتلة هى التى جعلت إنجلترا ما هى الآن .

فسأله قائلة :

- إذاً فأنت تكره إنجلترا ؟

- أنا أعيش فى إنجلترا .
- لتفصح عيوبها بأمانة ؟
- فسألها قائلاً :
- أتحبين أن أقبل حكم أوروبا علينا ؟
- وما حكم أوروبا علينا ؟
- أن طرطوف ملك المافقين هاجر إلى إنجلترا ففتح فيها متجرأ .
- أهذا رأيك يا هارى ؟
- قد تنازلت لك عنه .
- ولكنى لن أستطيع أن أعلن هذا الرأى بين الناس ، فهو يصف الحقيقة .
- لا تخشى شيئاً ؛ فمواطنونا الكرام لا يفهمون الأوصاف .
- لأنهم قوم عمليون .
- بل لأنهم قوم ماكرون ، وفى ميزانهم التجارى تعوض الثروة عن الغباوة ، والنفاق عن الرذيلة .
- ولكننا أتينا بالعجائب برغم كل ذلك .
- بل أوتينا العجائب ياجلاديس ، فقد فرضت علينا العجائب فرضاً .
- هذا جائز ، ولكننا حملنا عبء المجد ، وهو ثقيل .
- نعم ، حملنا عبئه حتى البورصة ، ثم تخلينا عنه .
- فهزت الدوقة رأسها وقالت :
- أنا أوقن بسلالتنا .
- إن سلالتنا لا تمثل بقاء الأصلح ، بل تمثل بقاء الأقوى .

- إنها تتقدم .
- ليتها تنحل ؛ فالانحلال عندي خير من التقدم .
- قالت :
- وما رأيك في الفن .
- الفن مرض .
- وما رأيك في الحب ؟
- الحب وهم .
- وما رأيك في الدين ؟
- الدين هو الاسم الحديث للعقيدة .
- أنت إذا من الشكاك ؟
- حاش لله ! فالشك مبدأ الإيمان .
- ما أنت إذا ؟
- التعريف يفسد المعرف .
- أريد أن أهتدى إلى شخصيتك .
- إن خيوط الشخصية تتشابك ، ولسوف تضلين في التيه .
- أنت تحيرني ، ومع ذلك فلتكلم عن شخص آخر .
- نعم ، وإن مضيفنا لموضوع شائق للحديث . منذ سنوات طويلة سمى بالأمير الساحر .
- فصاح دوريان جرای قائلا :
- لا تذكرني بذلك .

أجابت الدوقة وقد اصطبغ وجهها بالدم :

- إن مضيفنا ضيق الصدر هذا المساء ، وأظن أنه يعتقد أن مونماوث وقد تزوجنى لأسباب عملية ، حين وجد فى أحسن نموذج من نماذج الفراش الحديث .

قال دوريان ضاحكاً :

- أرجو ألا يضع فيك الدبايس يا سيدتى الدوقة كما يضع الدبايس فى فراشاته الأخرى .

- لا حاجة به إلى ذلك ، فوصيفتى تغرس فى الدبايس بنفسها كلما غضبت منى يا مستر جراى .

- ولم تغضب وصيفتك منك ؟

- أؤكد لك يا مستر جراى أنها تغضب لأتفه الأسباب . تغضب مثلاً حين أعود إلى المنزل فى الساعة التاسعة ، ثم أقول لها إن على أن أستبدل ثيابى قبل الثامنة والنصف .

- هذا تعنت منها ! ويجب أن تنذريها بالطرد إن هى عادت إلى ذلك .

- لست أجرؤ على ذلك يامستر جراى ، فهى تبتكر لى قبعاتى . أتذكر القبعة التى لبستها فى حفلة الليدى هيلستون ؟ طبعاً أنت لا تذكرها ، ولكنى أشكر لك ادعاءك أنك تذكرها . تلك القبعة صنعتها لى من لا شىء . إن جميع القبعات الجميلة تصنع من لا شىء .

فقاطعها اللورد هنرى قائلاً :

- شأنها شأن السمعة الطيبة ياجلاديس ، فكل أثر يتركه المرء فى الوسط المحيط به يكسب المرء عدواً جديداً ، ولا سبيل إلى اكتساب قلوب الناس إلا بأن تكون من الأوساط التافهين .

قالت الدوقة وهى تهز رأسها :

- هذا الكلام لا ينطبق على النساء ، والنساء يحكمن العالم ، وأنا أؤكد لك أن أوساط الناس لا يكتسبون قلوب النساء ، وقد قال حصيف إننا معشر النساء نعشق بآذاننا كما تعشقون أنتم معشر الرجال بعيونكم ، إن كنتم تعشقون .

فقال دوريان :

- يبدو لى أن العشق هو كل عملنا فى الحياة .

أجابت الدوقة وهى تتكلف الحزن :

- إذا كانت الحال كذلك فأنتم لا تعرفون الحب .

قال اللورد هنرى :

- أنا أحتج يا عزيزتى جلاديس ، فالحب يحيا بالتكرار ، والتكرار يصقل الرغبة ويكسبها صفة الفن . إن الحب واحد مهما تعدد موضوعه ، وفى كل مرة يحب القلب لا يبقى فيه إلا حب واحد ، والتعدد لا يضعف الحب ، بل يذكىه ، فالحياة لا تتسع إلا لاختبار واحد عظيم ، وسر السعادة أن نكرر هذا الاختبار ما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

وسألته الدوقة بعد صمت قليل :

- وإذا كان الاختبار أليماً ، فهل نسعى إلى تكراره ؟

أجاب اللورد هنرى :

- بل يجب أن نسعى إلى الاختبار الأليم قبل سواه .

وتحول نظر الدوقة إلى دوريان جراى ، وبدأ فى محياها تعبير غريب

وسألته قائلة :

- ما رأيك فى هذا الكلام يامستر جراى ؟
- وتردد دوريان لحظة ثم دفع برأسه إلى الوراء ، وقال ضاحكاً :
- أنا أوافق دائماً على ما يقوله هارى يا سيدتى الدوقة .
- حتى إذا أخطأ ؟
- هارى لا يخطئ يا سيدتى الدوقة .
- وهل جاءتك فلسفته بالسعادة التى تنشدها ؟
- أنا لم أنشد السعادة فى يوم من الأيام ، فما بى حاجة إليها ، إنما نشدت اللذة .
- وهل وجدت اللذة يامستر جراى ؟
- نعم وجدتها . وجدت منها أكثر مما أحتمل .
- وتنهدت الدوقة ، ثم قالت :
- أما أنا فأنشد الهدوء ، وإذا لم أسرع باستبدال ثيابى ، فلن أذوق طعم الهدوء فى هذه الليلة .
- فنهض دوريان وسار إلى أقصى الصالون قائلاً :
- اسمحى لى أن آتيك ببعض أزهار الأوركيد يا عزيزتى الدوقة .
- وقال اللورد هنرى لابنة عمه الدوقة :
- إنك تغازلينه مغازلة مكشوفة ، وأنصحك أن تحتاطى فهو شخص فائن .
- لو لم يكن فائناً لما كان هناك صراع .
- إذا فهذه معركة بين آخيل وآخيل .
- كلا ، فأنا فى جانب الطرواديين لأنهم حاربوا من أجل امرأة .

- وقد هزموا .

فأجابت :

- السبى أهون ما فى الحرب .

- إنك تركضين على جواد بلا زمام .

أجابت :

- هذا يجدد الحياة .

- سأدون هذا فى يومياتى الليلة .

- وماذا ستكتب ؟

- سأكتب أن الطفل يحب النار التى تحرق أصابعه .

- هذا غير صحيح ، فأنا لم أكتو بعد ، فكيف تقول إنى احترقت ،
وهذه أجنحتى سليمة .

- أنت تستخدمين أجنحتك فى كل شىء إلا الطيران .

- إن الشجاعة قد انتقلت من الرجال إلى النساء ، وهذا اختبار لم نألفه .

- إن لك غريمة .

- ومن تكون هذه ؟

فضحك وقال :

- الليدى ناربورو .

ثم همس فى أذنها قائلاً :

- إنها تحبه إلى حد العبادة .

- أخشى أن يجذبه جمال الأطلال ، فنحن الخياليين يسحرنا القدم .

- ولكنك لست من الخياليات فأنت تملكين كل معدات العلم .
- لقد تعلمنا فى مدرسة الرجال .
- نعم . لقد علّمناكنّ ، ولكننا لم نفسر من طبيعتكن شيئاً .
- قالت بتحد :
- ما رأيك فينا كجنس ؟
- المرأة أبو هول بغير سر .
- فنظرت إليه باسمه وقالت :
- لقد غاب مستر جراى طويلا ، فهيا بنا نساعدته على اختبار الأوركيد ، ولعله حائر فيما يختار لأننى لم أخبره بلون الفستان الذى سألبسه .
- فتلختارى الثوب الذى يناسب أزهاره .
- إن فعلت هذا كان ذلك تسليماً منى قبل الأوان .
- ولكن الفن الخيالى يبدأ حيث يجب أن ينتهى .
- لابد أن أحفظ لنفسى خط الرجعة .
- طبقاً لخطة موضوعة على طريقة البارثين ؟
- لقد اعتصم البارثيون بالصحراء ، وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك .
- فأجاب قائلاً :
- قد لا تجد النساء مجالا للاختيار بين تراجع وتراجع .
- ولكنه ما كاد أن يتم قوله حتى سمع أنه مخنوقة آتية من أقصى الصالون ، وتلاها صوت جسم ثقيل يسقط مكتوماً فاضطرب كل من الغرفة ، وثبتت الدوقة فى مكانها جزعاً ، وشق اللورد هنرى طريقه فزعاً بين الأشجار المضطربة فوجد دوريان جراى مستلقياً على وجهه فوق البلاط فى إغماء يشبه الموت .

وحمل دوريان جراى إلى غرفة الاستقبال الزرقاء ، وهناك وضعه على إحدى الأرائك ، ثم أفاق بعد قليل ، وتلفت حوله زائغ العينين ، وقال :

- ماذا حدث ؟ نعم تذكرت الآن ما حدث . أنا هنا فى أمان ياهارى ؟

وأخذت أوصاله ترتجف . فأجابه اللورد هنرى قائلاً :

- لقد أغمى عليك يا عزيزى دوريان ، هذا كل ما فى الأمر فلا تجزع .

لابد أنك أنهكت نفسك إنهاكاً بالغاً ، ومن الخير ألا تتعشى معنا الليلة ، وسأملأ أنا مكانك فى المائدة .

وغالب دوريان نفسه حتى استطاع أن يقف على قدميه وقال :

- بل سأتعشى معكم . نعم ، إنى أفضل أن أتعشى معكم فليس من الخير أن أبقى وحيداً .

ومضى إلى غرفته وارتدى ملابس السهرة ، ثم أخذ مكانه فى صدر المائدة ، وكان يبدو عليه المرح الشديد كأنه لا يبالي بشيء ، ولكنه كان يرتجف من وقت إلى آخر حين يفكر فى أنه لمح وجه جيمس فى شاحباً كأنه منديل أبيض ملتصقاً بزجاج النافذة فى صالون الموسيقى .

الفصل الثامن عشر

وفى اليوم التالى لزم دوريان جراى داره ، بل لزم غرفته الشطر الأكبر من الوقت ، كان يحس بفزع من الموت شديد ، ومع ذلك فقد رخصت فى نظره الحياة ، وبدأ يحس بأنه مطارذ ، وبدأ يرى الفخاخ تنصب حوله ، وملأت هذه الفكرة شعاب عقله ، فما اهتز فى بيته ستار أمام الريح إلا اهتزت أوصاله ، وشاهد أوراق الأشجار الذابلة تضرب زجاج نافذته المعشق بالرصاص فتذكره بنواياه الضائعة وأحزانه المبرحة ، وحين أطبق جفنيه رأى وجه البحار من جديد يتتبع حركاته من وراء الزجاج المغطى بالضباب ، فخفق قلبه هلعاً .

ولكن لعل ما رآه كان طيفاً منتقماً نسجه فى الظلام وهمه ، ولعل أشباح القصاص انطلقت من خياله المريض لترقص أمام عينيه وترعبه . إن الحياة الواقعية قوامها الفوضى ، أما الخيال فمنطقى ومرتب ، فالخيال هو الذى جعل الندم يتبع الخطيئة ، والخيال هو الذى جعل لكل جريمة أحلامها المزعجة ، وفى الحياة اليومية ينجو الأشرار من العقاب ، ويضيع على المحسنين الثواب ، ويجنى الأقوياء ثمار النجاح ، أما الضعفاء فلهم الخيبة وسوء المآل ، وهذه قصة الحياة ، فلتطمئن نفس دوريان جراى ؛ إذ لا قصاص إلا فى خيال المذنبين ، وإن الوجه الذى يراه من وراء الزجاج ليس إلا صورة فى خياله المحموم . ولو أن رجلاً كان يتربص به خارج المنزل لرآه الخدم لا محالة ، ولو أن أقداماً غريبة تركت آثارها فى الحديقة لأخبره البستاني بأمرها . نعم ، لم يكن ما رآه إلا نسج الخيال ، وأخو سييل فى لا يتعقبه ليفتك به ، فقد رحل فى سفينته ولعله الآن غريق فى بحر من بحار الجليد ، وهو فى مأمن منه ، هو فى مأمن من جيمس فىن على الأقل . إن جيمس فىن لم يعرف هويته ولم يستطع أن يعرفها ، ولقد أنقذه قناع الشباب .

ولكن هب ما رآه دوريان جراى لم يكن إلا وهمًا ، فما أقسى هذا الضمير الذى يملأ الدنيا بالأشباح المخيفة ، ويعطى للهواجس أجسادًا تراها العيون ، ويجعلها تتحرك أمام الإنسان ، وأى جحيم هذا الذى قدر له أن يعيش فيه إذا كانت أشباح القصاص تتلصص عليه ليل نهار من الأركان الساكنة ، وتسخر به من الدهاليز المهجورة ، وتهمس فى أذنه الويل والثبور فى المآدب والحفلات ، وتوقظه من منامه بأصابع من جليد ! وفيما يفكر فى ذلك شحب لونه جزعًا ، وأحس فجأة بالهواء يلذعه ببرودة لم تكن فيه من قبل . لقد قتل صديقه فى ساعة جنون ، فأى نجم دام عبوس ذلك ارتفع فى السماء وسلب منه لبه ! ويا له من الذكرى فهى موجعة ! وعادت إلى ذهنه تفاصيل تلك الليلة المشؤومة فخلعت فؤاده رعبًا ، وخرجت عليه من كهف الزمن المظلم صورة جريمته فى وشاح أحمر ، وحين دخل عليه اللورد هنرى فى الساعة السادسة وجده ينتحب فى مرارة وقد أوشك قلبه أن ينفطر .

ولم يجسر على الخروج من قصره إلا فى اليوم الثالث ، فالصباح النادى جميل عاطر بأريج أشجار الصنوبر رد مرحة ورغبته فى الحياة . ولم تكن الطبيعة وحدها هى التى أغرته بالخروج لأن طبعه تمرد على كل هذه الآلام المبرحة التى كدّرت صفاء نفسه ، فأصحاب المزاج الرقيق لا يحتملون المحن ، وعواطفهم القوية إن لم تنحن أمام النكبات تنكسر ، ولا يشفيهم إلا قتل النفس أو قتل الغير ، وأصحاب العواطف التافهة يحبون ويشقون فحبهم مديد وشقاؤهم مديد ، أما أصحاب العواطف الجبارة ، فغرامهم الجبار يذبح نفسه لأنه مارد عملاق وكذلك أحزانهم الجبارة ، ولقد أقنع دوريان جراى نفسه بأن الرؤى التى رآها لم تكن إلا زيفًا من عمل خياله السقيم ، ونظر إلى مخاوفه نظرة لا تخلو من الرثاء والاحتقار .

وبعد أن تناول فطوره خرج إلى الحديقة ، وتحسّث إلى الدوقة ساعة أو بعض ساعة ، ثم ركب عربته وقطعت به المنتزه ليلحق بجماعة الخارجين

إلى الصيد ، وكان الصقيع الهش يغطي الحشائش كأنه الملح المنشور ، وبدت السماء كأنها كأس مقلوبة صنعت من معدن أزرق ، وطففت طبقة رقيقة من الجليد على سطح البحيرة الساكنة التي نما فيها البوص .

ووقع بصره على السير جفرى كلوستون ، أخى الدوقة عند ركن الغابة الصنوبرية ، فرآه يقذف بخرطوشتين فارغتين من بندقيته ، فوثب خارجاً من العربة ، وأمر السائس أن يعود بالمهر إلى القصر ، ثم سعى إلى أضيافه شاقاً طريقه بين الأعشاب الشيطانية والشجيرات الخشنة .

قال :

- أوجدت صيداً طيباً يا جفرى .

- كلا يا دوريان ، وأظن أن أكثر الطيور ذهبت إلى الخلاء ، وأعتقد أننا سنصادف توفيقاً أعظم بعد الغداء حين نغير المكان .

وسار دوريان وجفرى جنباً إلى جنب ، وشع في نفس دوريان إحساس جميل بالحرية حين قرسه الهواء العاطر ، ورأى الأنوار الحمراء والأنوار البنية تلمع في بطن الغابة ، وسمع أصوات العمال الخشنة تعلو بالصياح وهم يضربون الأغصان لتخرج منها الطيور . كان خلى البال سعيداً مشرق النفس مقبلاً على الحياة .

وفجأة أبصر أرنباً منتصب الأذنين أسودهما يقفز على بعد عشرين ذراعاً بين الأعشاب الذابلة بعد أن تحفز على رجليه الخلفيتين ، واندفع الأرنب صوب دغل من الأدغال ، فرفع السير جفرى بندقيته إلى كتفه وهم بأن يطلق عليه النار لولا أن دوريان جرای ارتاع لرشاقة حركته فصاع بصاحبه قائلاً :

- لا تقتله يا جفرى . دعه يعيش .

فضحك صاحبه وقال :

- ما هذا الكلام الفارغ يا دوريان ؟!

وفيما كان الأرنب يقفز داخلا الدغل أطلق عليه النار ، وارتفعت صرختان ، صرخة أرنب جريح وصرخة رجل مصاب .

صاح السير جفرى قائلا :

- يا للسموات ! لقد أصبت أحد الحراس . إن وقوفه أمام البنادق غباوة شديدة . لا تطلقوا النار فقد أصبت أحد الرجال .

وجاء رئيس الحراس يعدو حاملا بيده عصا ، وصاح :

- أين ياسيدى؟ أين؟

وبطل إطلاق النار بطول الخط ، وأجاب السيد جفرى غاضباً وهو يسرع نحو الدغل :

- فى هذا المكان ، لم لا تبعد أتباعك عن مرمى النار؟ ها أنت ذا قد أفسدت شهيتى للصيد فى هذا الصباح .

وأنشأ دوريان يتأملهما وهما يدخلان الدغل ويبعدان الأغصان عن طريقهما ، وبعد لحظات خرجا وهما يجران جثة رجل من الدغل إلى العراء ، ولم يحتمل دوريان جراى أن يرى هذا المنظر فأشاح بوجهه ، وخيل إليه أنه يجلب الرزايا أينما سار ، وسمع السير جفرى يسأل رئيس الحراس عما إذا كان الرجل قد مات فعلا ، وسمع رئيس الحراس يجيبه بالإيجاب ، وخيل إليه فجأة أن الغابة يسكنها ألف شبح ، وسمع ألف قدم تدك الأرض بوطئها . وطنّ فى أذنه همس كثير ، وجاء طائر صدره نحاسى اللون ورفرف بين الأغصان فوق رؤوسهم .

ومرت لحظات خالها دهوراً من الآلام فى حالته المضطربة تلك ، وفى النهاية أحس بيد ترتكز على كتفه فانتبه من غفلته وتلفت حوله فإذا اللورد هنرى قد جاءه يقول :

- لعل من الأصوب يا دوريان أن أقول لضيوفك إن الصيد قد انتهى اليوم عند هذا الحد ، فاستمرارهم لن يحدث أثراً طيباً فى الناس .

أجاب دوريان بمرارة :

- ليتته ينتهى إلى الأبد يا هارى ، فهذا لهو إجرامى بشع . والرجل ،
هل ...

ووقفت الكلمة فى حلقه ، فأجابه اللورد هنرى :

- نعم يا دوريان ، مات الرجل ، فقد أصابه الرش كله فى صدره ولا بد
أن يكون قد مات فوراً . هيا بنا ، فلنعد إلى البيت .

وسار الرجلان جنباً إلى جنب صامتين نحو خمسين ذراعاً فى اتجاه الطريق
الظليل ، ثم التفت دوريان إلى اللورد هنرى وتنهد من أعماقه ، وقال :

- هذا نذير شؤم يا هارى ، هذا لنذير شؤم .

فسأله اللورد هنرى قائلاً :

- ماذا تقصد ؟ أتقصد الحادثة ؟ لا تبتس يا صديقى فلم يكن هناك سبيل
لتفاديها . لقد كان الخطأ خطأ الحارس فهو الذى وقف فى مرمى النار ، ثم إن
الأمر لا يهمنا ، لأن جفرى هو المسئول عن الحادث بطبيعة الحال ، ومن الخطأ
أن ندلل الحراس وإلا حسبك الناس مهملاً فى الرماية ، وما جفرى بمهملاً فهو
يحسن التصويب ، ولكن دعنا من هذا الموضوع ، فالكلام فيه لا ينفع .

وهز دوريان رأسه قائلاً :

- إن هذا نذير شؤم يا هارى ، وأنا أحس بأن شراً ما سيحقيق بأحدنا ..
بى أنا مثلاً .

وفيما هو يقول ذلك مر بأصابعه على عينيه فى ألم واضح .

وضحك اللورد هنرى وقال :

- إن الشر الوحيد فى العالم هو الملل يا دوريان ، والملل هو الخطيئة
الوحيدة التى لا تغتفر ، ولكن الملل لن يصيب أمثالنا ، اللهم إلا إذا رأى

ضيوفك أن يتحدثوا فى موضوع هذا الرجل أثناء الغداء ، ولسوف أخبرهم بأن الكلام فى هذا الموضوع محرم عليهم ، أما النذير الذى تتحدث عنه فلا وجود له لأن القدر لا يرسل لنا الرسل لتحذرننا ، بل يأخذنا على غرة ، ولعل هذه حكمة منه ولعلها إجرام ، ثم إنك بمأمن من كل شر يا دوريان ، ولقد أوتيت كل ما فى الدنيا من أسباب السعادة ، وليس بين الناس من لا يقبل أن يستبدل مكانه بمكانك .

- بل ليس بين الناس من لا أقبل أنا أن أستبدل مكانه بمكانى يا هارى ، وكفاك ضحكًا ، فما قلت غير الحق . إن الحارس المسكين الذى قتل منذ هنيهة أسعد منى حالا ، وأنا لا أخاف الموت ، ولكنى أخاف مقدم الموت ، وأحس بجناحيه الشيطانيين يطنان حولى فى هذا الهواء الثقيل . انظر يا هارى ! ألا ترى رجلا يتحرك خلف الأشجار متربصًا بى؟

- فالتفت اللورد هنرى إلى الناحية التى أشارت نحوها يده المرتجفة ذات القفاز . ثم قال مبتسمًا :

- نعم . أرى البستانى واقفًا فى انتظارك ، وأحسب أنه يود أن يسألك عن الأزهار التى تريده أن يضعها على المائدة هذا المساء . إن أعصابك متوترة إلى حدّ بعيد يا دوريان ، وهى توحى لك بأسخف الخيالات ، وأنصحك أن تستشير طبيبى حين نعود إلى لندن .

ورأى دوريان البستانى يتقدم منه فعاد إليه هدوءه ، وهمّ الرجل برفع قبعته تحية لسيده ، ونظر إلى اللورد هنرى فى تردد لحظة أو لحظتين ، ثم أخرج من جيبه خطابًا وسلمه إلى دوريان قائلاً :

- إن سيدتى الدوقة تنتظر الرد على هذا الخطاب .

ووضع دوريان الخطاب فى جيبه وقال فى برود :

- قل لسيدتك الدوقة إنى سألحق بها .

وانصرف الرجل مسرعاً وسار فى اتجاه القصر .

قال اللورد هنرى ضاحكاً :

- ما أشد كلف النساء بالأعمال الغريبة يا دوريان! إن هذه هى الصفة الوحيدة التى تعجبني فيهن ، والمرأة تغازل أى رجل فى العالم إذا تأكدت من أن هناك من يراها .

- وما أشد كلفك بالأقوال الغريبة يا هارى ! وأعتقد أنك مخطئ هذه المرة ، فأنا أميل إلى الدوقة أشد الميل ، ولكنى لا أحبها .

- والدوقة تحبك أشد الحب ، ولكنها لا تميل إليك ، فأنتما كما ترى يكمل أحكما الآخر .

- أنت تنشر الفضيحة بهذا الكلام يا هارى ، والفضائح لا أساس لها فى الواقع .

فأجاب اللورد هنرى وهو يشعل سيجارة :

- أساس كل فضيحة ليس الشك الأخلاقى ، بل اليقين الذى يتنافى مع الأخلاق .

- إنك تضحى أى مخلوق فى مقابل قول طريف .

فأجاب اللورد هنرى قائلاً :

- أنا لا أضحى أحداً لأن الناس يسرون إلى المذبح من تلقاء أنفسهم .

قال دوريان وفى صوته رنة من الحزن العميق :

- ليتنى أستطيع أن أحب ، ولكن يبدو لى أنى قد قتلت العاطفة ونسيت الرغبة ، فأفكارى كلها مركزة فى نفسى ، وشخصيتى قد أصبحت عبثاً على ثقيل ، فكيف الهرب من هذه الأنا ، وكيف النسيان؟ أظن أنى سأبرق إلى هارفى طالباً إليه أن يعد اليخت لى ، ففى اليخت أكون بمأمن من الخطر .

- أى خطر هذا الذى لا تفتأ تتحدث عنه؟ لا بد أنك فى محنة ، ويجمل بك أن تفضى إلى بكل شئ ، فأنت تعرف أنى سأقف إلى جانبك .

أجاب الفتى فى حزن :

- لا أستطيع أن أفضى إليك بشئ يا هارى ، ثم إن هذا الخطر الذى يتهددنى قد يكون خطراً وهمياً . إن هذه الحادثة المشؤمة قد أثارت أعصابى ، وأنا أحس بأن مكروهاً من هذا النوع سينزل بى .

- دع عنك هذه الخزعبلات !

- أرجو أن تكون هذه خزعبلات حقاً ولكن أفكر فيها برغمى . انظر ! هذه الدوقة مقبلة علنا وهى تبدو كالإلهة ارتميس لابسة چاكتة تايسر . لقد عدت من الصيد يا عزيزتى الدوقة .

أجابت :

- نعم يا مستر جراى ، لقد عملت بما حدث ، وچفرى المسكين فى اضطراب شديد ، وقد قالوا لى إنك سألته ألا يطلق النار ، فما أغرب هذه المصادفة .

- نعم . إنها لمصادفة عجيبة ، ولا أستطيع أن أفسرها ، ولعلها نزوة طارئة فقد كان الأرنب آية فى الرشاقة ، وربما عز على أن يقتل ، مهما يكن من شئ فيؤسفنى أنك علمت بخبر هذا الرجل ، فالموضوع كله بغىض .

قال اللورد هنرى :

- نعم ، إنه لموضوع ممل ، وليست له أية قيمة من الناحية النفسية ، فلو أن چفرى قتله عامداً لاستحق أن نهتم له كل هذا الاهتمام ، وكم أحب أن أعرف رجلاً ارتكب جريمة قتل حقيقية .

فصاحت الدوقة قائلة :

- هذه وحشية منك يا هارى . ألا توافقنى على ذلك يا مستر جراى؟ إن مستر جراى قد عادت إليه النوبة يا هارى ، وها هو ذا يوشك أن يدركه الإغماء .

وجمع دوريان أشتات قوته المتخادلة وقال مبتسماً :

- لا تنزعجى يا عزيزتى الدوقة ، فما بى مرض ، كل ما فى الأمر أن أعصابى منهكة ، فقد أسرفت فى السير هذا الصباح ، ماذا قال هارى ؟
إنى لم أسمع كلماته ، فهل قال شيئاً فظيماً ؟ لا بد أن تعيدى على ما قاله هارى فى مناسبة أخرى ، أما الآن فأعتقد أن من الأصوب أن أستريح .
هل تأذنان لى بالانصراف ؟

وسار اللورد هنرى والدوقة حتى بلغا درجات السلم الكبير التى تؤدى إلى الشرفة من صالون الموسيقى ، وبعد أن أقفلا الباب الزجاجى بينهما وبين دوريان نظر اللورد هنرى إلى الدوقة بعينه الناعستين وسألها قائلاً :

- كم تحبين دوريان ؟

فلم تجب ومرت دقائق لم يقل أحد فيها شيئاً ، ووقفت الدوقة تتفرس فى الطبيعة المترامية أمامها ثم أجابت أخيراً :

- ليتى كنت أعلم .

قال اللورد هنرى وهو يهز رأسه :

- العلم يفسد كل شئ ، فاحتفظى بهذا الشك ، لأن فى الشك سحراً خاصاً ، وقليل من الضباب يزيد جمال الحياة .
- وماذا أفعل لو تهت فى الضباب ؟

- لن تنتهي يا عزيزتي جلاديس ؛ فكل الطرق تؤدي إلى نقطة واحدة .
- وما هي هذه النقطة ؟
- الاستفاقة إلى الحقيقة .
- قالت وهي تنهد :
- لقد بدأت حياتي بهذه الاستفاقة .
- وقد جاءتك الاستفاقة متوجة في شخص دوق .
- لقد تعبت من أوراق الغار .
- إنها تناسبك .
- في الحفلات الرسمية فقط .
- قال اللورد هنري :
- لو نزلت عنها لافتقدتها في مستقبل الأيام .
- لن أنزل عن ورقة واحدة منها .
- ولكن مونغاوث له أذنان .
- الشيخوخة سمعها بطيء .
- ألم تثر غيرته قط ؟
- ياليتها ثارت .
- وتلفت اللورد هنري في كل مكان باحثًا عن شيء فسأله قائلة :
- عم تبحث ؟
- عن زرار سقط مني .

- ولكن قناعى لم يسقط بعد .

أجاب اللورد هنرى :

- وهو يزيد عينيك سحراً .

فضحكت ثانية وبدأت أسنانها كالحبوب البيضاء فى فاكهة حمراء .

وكان دوريان جراى مستلقياً على أريكة فى غرفته بالطابق العلوى مرتجف الأوصال ينهشه الفزع ، وأحسن فجأة بأن حياته قد أصبحت عبثاً ثقيلاً لا سبيل إلى احتمالها ، وبدأ له موت الحارس المسكين الذى سقط فى الغابة قتيلاً كأنه حيوان برى ، بدا له موت الحارس كنبوءة بموته ، ولقد كاد أن يصيبه الإغماء حين سمع مقاله اللورد هنرى عرضاً من باب العبث .

ولما بلغت الساعة الخامسة دق الجرس ، واستدعى خادمه بأن يحزم أمتعته استعداداً للرحيل إلى لندن بإكسبريس الليل ، وأن يعد له عربته فى الساعة الثامنة والنصف ، فقد قرر ألا ينام ليلة أخرى فى سلبى ، ذلك القصر المشؤم الذى مشى الموت فى كنفه فى رابعة النهار ، وخضبت الدماء حشائش غاباته .

ثم سطر رسالة كتبها إلى اللورد هنرى معتذراً بأنه راحل إلى لندن ليستشير طبيبه ، سائلاً إياه أن ينوب عنه فى القيام بواجب الضيافة نحو أصحابه أثناء غيابه ، وفيما هو يضع الرسالة فى غلاف طرق الباب خادمه وأخبره بأن رئيس الحراس يطلب مقابله ، فعبس دوريان وعض شفتيه وقال بعد تردد قليل :

- أدخله .

ولما دخل رئيس الحراس أخرج دوريان دفتر الشيكات من أحد الأدراج وفتحه قائلاً :

- أظنك جئت لتحديثى فى شأن الحادثة الأليمة التى وقعت هذا الصباح يا ثورنتون ؟

أجاب الحارس :

- نعم ياسيدى .

قال دوريان وقد بدا عليه الملل :

- أكان هذا الرجل متزوجاً ؟ أكان يقول أحداً ؟ إذا كان يقول أحداً فلست أحب أن يتعرض عياله للفاقة ، وسأرسل لهم أى مبلغ من المال تراه أنت كافياً .

- لم نتعرف على شخصيته ياسيدى ، وهذا ما دفعنى إلى إزعاجك الآن .

قال دوريان فى فتور :

- وكيف كان ذلك ؟ ألم يكن القتل رجلاً من رجالك ؟

- كلا يا سيدى ، وأنا لم أراه قبل اليوم ، ويلوح لى أنه بحار ياسيدى .

فسقطت الريشة من يد دوريان جراى ، وأحس بقلبه يتوقف عن الخفقان ، وصاح قائلاً :

- بحار ؟ أتقول إنه بحار ؟

- نعم يا سيدى ، إن مظهره يدل على أنه بحار ، ففى ذراعية وشم ، وعليه سمات البحارة .

فمال دوريان جراى إلى الأمام ، وأخذ يتفرس فى الرجل متزعجاً .

وقال دوريان جراى :

- ألم تجدوا معه ما يثبت شخصيته أو يدل على اسمه ؟

- وجدنا بعض النقود يا سيدى ، ووجدنا مسدساً ذا ست طلقات ، ولكننا لم نجد اسمه ، ومرآه يدل على أنه رجل فاضل ، ولكن عليه سيماء الخشونة ، ونحن نظن أنه بحار .

ونهض دوريان واقفاً وداعب خاطره أمل شيطاني فلم يغير الموضوع بل قال في إصرار :

- أين وضعتم الجثة ؟ لا بد أن أراها فوراً .

- إنها في مزود الخيل الفارغ بالحقل ياسيدى .

وضعتها هناك لأن أهل القرية رفضوا أن يقبلوها في منازلهم قائلين إن الجثث تجلب الشؤم .

- اقصد إلى الحقل فوراً وانتظرني هناك وقل للسائس أن يأتيني بجوادى ، ولكن من الأفضل أن أمضى بنفسى إلى مزود الخيل ففى هذا توفير للوقت .

لم تمض ربع ساعة حتى كان دوريان جراى يركض على فرسه فى الطريق الظليل بسرعة قصوى ، وكانت الأشجار على جانبيه تبدو له وهو ينهب الأرض نهباً كأنها صفان من الأشباح ، ورأى ظلالها الماردة فى طريقه فيطوؤها وطئاً ، وانحرفت به الفرس مرة عند عمود أبيض فكادت أن تلقيه أرضاً ، وأخذ يضربها بسوطه على عنقها فمزقت الهواء كأنها السهم المنطلق ، وطارت من وقع حوافرها الأحجار .

وأخيراً بلغ العربية فوجد رجلين يتسكعان فى الفناء ، وترجل وسلم عنان الفرس إلى أحدهما ، ولمح نوراً ينبعث من آخر مزود فهتف به هاتف إن الجثة ملقاة فيه وأسرع إلى بابه ووضع يده على المزلاج .

ثم تردد قليلاً وأحس بأنه يوشك أن يكشف عن حقيقة عظمى قد تنقذه من محتته ، وقد تودى بما بقى له من هناء ، ثم دفع الباب ودخل .

وفى نهاية المزود رأى جثة رجل ميت يلبس قميصاً خشناً وبنطلوناً أزرق مستلقية على كومة من الخيش ، ورأى منديلاً عليه نقط يغطى وجه الرجل ، ورأى شمعة من النوع الردىء مثبتة فى عنق زجاجة تبصق نارها بجانب الجثة .

وشاعت فى جسده رعدة ، وعرف أن قواه سوف تخونه إن هو تقدم لرفع المنديل ، فنادى على أحد الفلاحين ، ولما دخل الرجل قال له وهو يعتمد على الباب حتى لا يتهافت :

- اكشف وجه هذا الرجل ، فأنا أريد أن أعرف من يكون .

ورفع الفلاح المنديل عن وجه الرجل وتقدم دوريان جراى خطوات ، وحين تبين وجه الميت لم يستطع أن يكتم صيحة الفرح الذى مشى فى بنيانه فلقد عرف أن الرجل الذى سقط فى الغابة قتيلا لم يكن إلا جيمس فين .

وثبت فى مكانه بضع دقائق متفرسا فى الجثة ، ثم اعتلى فرسه وعاد أدراجه إلى داره ، وفى الطريق فاضت عيناه بالدموع ، دموع الفرح ، وغمره الفرح ، فرح السلامة .

الفصل التاسع عشر

قال اللورد هنرى وهو يضع أصابعه البيضاء فى إناء من النحاس الأحمر
مملوء بماء الورد :

- لا تحاول أن تفهمنى يا دوريان أنك ستصبح رجلاً صالحاً ، إنك على
غاية ما يرام كما أنت الآن فلا تحاول أن تغير من طبيعتك .

فهز دوريان جراى رأسه وأجاب :

- كلا يا هارى . لقد أتيت فى حياتى كثيراً من الذنوب المخجلة ، ولن
أضيف إلى قائمة جرائمى شيئاً بعد الآن ، وقد بدأت حياتى الجديدة أمس
بفعل الخير .

قال اللورد هنرى وهو يتسم :

- وأين كنت أمس ؟

- اسمع يا عزيزى دوريان ، إن أى إنسان يستطيع أن يكون صالحاً فى
الريف ، لأن الريف خال من أسباب الغواية ، وهذا هو السر فى أن الناس
الذين يعيشون بعيداً عن المدينة متأخرين فى المدنية ، فالمدينة ليست شيئاً سهل
المنال إطلاقاً ، وهناك طريقتان لا ثلاثة لهما يصل بهما الإنسان إلى المدينة ،
الأولى ، هى الثقافة والثانية ، هى الانحطاط ، وأهل الريف لا سبيل لهم إلى
الثقافة أو إلى الانحطاط ، ولذا تراهم يتعفنون من فرط الركود .

قال دوريان :

- أنت تتحدث عن الثقافة والانحطاط ، ولقد أصبت من كليهما شيئاً
مذكوراً ، ويبدو لى الآن أن اجتماعهما فى شخص واحد وخيم العاقبة ، فقد

اتخذت لنفسى مثلاً أعلى جديداً يا هارى ، وقررت أن أغير من طبعى ، بل أعتقد أنى قد غيرت من طبعى فعلاً .

ووضع اللورد هنرى بعض الشليك ذى البذور فى طبقه ، ورش عليه بعض السكر الناعم من ملعقة ذات ثقب تشبه المحارة فى هيئتها ، وقال :
- أنت لم تخبرنى بعد بالعمل الصالح أو الأعمال الصالحة التى قمت بها أمس .

- سأقص عليك ما حدث لأنك تعلم أكثر أسرارى ، وهى قصة لا أستطيع أن أطلع عليها أحداً غيرك . وقعت فى يدى فريسة ولكنى لم أفتك بها بل تركتها وشأنها ، وقد يبدو لك ذلك فخراً حيث لا موضع للفخر ، ولكنك تفهم ما أقصد إليه ، عرفت فتاة تدعى هيتى بارعة جميلة ، وفيها شبه قوى من سييل فين . وأعتقد أن هذا الشبه هو الذى جذبنى إليها أول الأمر . أنت تذكر سييل دون شك؟ لقد مضت على حكايتها أيام طويلة كأنها دهور . مهما يكن من شئ فقد كانت هيتى من طبقة غير طبقتنا بطبيعة الحال ، ولم تكن غير فتاة قروية ساذجة ، ولكنى أحببتها من أعماق قلبى ، نعم لست أشك فى أنى أحببتها ، وقد دأبت على الخروج إلى الريف للقائها مرتين أو ثلاث مرات من كل أسبوع طوال شهر مايو الجميل الذى سعدنا به هذا العام ، وقد قابلتها البارحة فى بستان صغير ، وبينما نحن جالسان كانت الأزهار تتساقط من شجرة التفاح فوق شعرها فتضحك ، وقد وضعنا الخطة لنهرب معاً هذا الصباح عند انبلاج الفجر ، ولكنى قررت فجأة أن أتركها كما وجدتتها طاهرة كالزهرة البيضاء .

فقاطعه اللورد هنرى قائلاً :

- أعتقد أن هذه العاطفة الجديدة التى لما تألفها قط ملأتك بإحساس اللذة الحقيقية يا دوريان ، ولكنى أستطيع أن أتم هذه القصة الغرامية نيابة عنك لقد زودتها بالنصائح الأخلاقية وكسرت قلبها ، وهكذا بدأت حياتك الصالحة .

- ما أقساك يا هارى ! أرجوم أن تقلع عن قول هذه العبارات الساخرة ،
فقلب هيتى لم ينكسر ، وكل ما هنالك أنها بكّت وتألّت إلى آخره ، ولكنى
تركّتها نقيّة كما وجدتها ، وهى تستطيع أن تعيش الآن كبرديتا فى حديقتهما بين
أوراق النعناع وأزهار الأقحوان .

قال اللورد هنرى ضاحكاً وهو يغوص فى مقعده :

- وتبكى على فلوريزيل عاشقها الخائن . إن لك يا عزيزى دوريان نزوات
صبيانية لا أفهمها .

أتحسب أن هذه الفتاة سترضى الآن برجل من طبقتها ؟ كلا ولعلها تتزوج
فى يوم من الأيام بحوذى فظ أو فلاح عبوس ، ولكنها ستحتقر زوجها
وتعيش فى شقاء لأنها عرفتكَ وأحبّتكَ ، فمن الناحية الأخلاقية لست أرى فى
توبتك العظيمة ما يستحق الإكبار ، بل إن البداية نفسها بداية سيئة ، ثم
ما أدراك بأن هيتى ليست الآن طافية على وجه بركة ساكنة انعكست فيها نجوم
السماء ، تحيط بها أقاحى الماء مثل أوفيليا صاحبة هاملت؟

- هذا لا يحتمل يا هارى ، فأنت تمزق كل شئ إرباً بتهكمك اللاذع ،
ثم تتوج كل شئ بمأساة فظيعة من نسج خيالك ، وإنى لأسف على الإفضاء
لك بما حدث ، ولم يعد حكمك يهمنى لأننى واثق بأنى قد فعلت ما فيه الخير .
يالهيتى من فتاة مسكينة! فيما كنت عائداً على جوادى هذا الصباح مررت
بالحقل ورأيت وجهها فى نافذة بيتها أبيض كباقة الياسمين . كفى حديثاً فى
هذا الموضوع ، وإياك أن تحاول أن تقنعنى بأن القليل من إنكار الذات الذى
أبديته لأول مرة فى حياتى هو فى الواقع خطيئة جديدة ، فأنا أريد أن أذهب
من طبيعتى ، بل إنى لمهذبها مهما كانت الظروف ، فلتحدثنى الآن عن نفسك .
حدثنى عن لندن وما يجرى فيها فأنا لم أزر النادى أياماً وأياماً .

- إن أعضاء النادى لا يزالون يتحدثون عن اختفاء بازيل المسكين .

قال دوريان عابسًا وهو يصب بعض النبيذ فى كأسه :

- حسبتهم قد سئموا الكلام فى هذا الموضوع بعد هذه الأسابيع الطويلة .
- إنهم لم يتحدثوا فى هذا الموضوع إلا ستة أسابيع يا عزيزى دوريان ،
والجمهور فى بريطانيا أغبى من أن يتحدث فى أكثر من موضوع واحد كل
ثلاثة أشهر ، ولقد كان حظه لا بأس به فى الأيام الأخيرة ، فقد وجد قصة
طلاقى أنا ، وقصة انتحار آلان كامبل ، ثم لغز اختفاء أحد الفنانين .
وسكوتلانديارد لا تزال تصر على رأيها القائل بأن الرجل الذى سافر إلى
باريس بقطار منتصف الليل لابسًا معطفًا رماديًا كبيرًا هو پازيل المسكين ،
والبوليس الفرنسى لا يزال يقول إن پازيل قد شوهد يتجول فى شوارع سان
فرانسيسكو ، وهذا شئ غريب ، ولكن كل من يختفى يقال إنه يشاهد فى سان
فرانسيسكو فلا بد أن تكون سان فرانسيسكو مدينة جذابة فيها كل مغريات العالم
الآخر .

فسأله دوريان وهو يرفع نبيذه البورغونى إلى النور ويتأمله عاجبًا من قدرته
على الكلام فى موضوع پازيل هولوورد دون انزعاج :

- كيف تعلق اختفاء پازيل؟

- ليست لدى أية فكرة عن هذا الموضوع ، فإذا كان پازيل يريد إخفاء
نفسه عن الناس فهذا ليس من شأنى ، وإذا كان قد مات فلست أحب أن أفكر
فيه ، فالموت هو الشئ الوحيد الذى يزعبنى وأنا أمقته مقتًا شديدًا .

قال دوريان فى إعياء :

- ولم تكره الموت؟

أجاب اللورد هنرى وهو يدنى من أنفسه علة قارورة للعطور مفتوحة
مخططة بماء الذهب :

- لأننا نستطيع فى هذه الأيام أن نقهر كل شئ إلا الموت . نعم . الموت والابتدال هما كل ما بقى فى القرن التاسع عشر من ظواهر لا نستطيع تفسيرها وإزالتها . هيا نتناول قهوتنا فى صالون الموسيقى يا زوريان وأرجوك أن تعزف شيئاً من شوبان فأنا أتوق إلى سماعه . إن الرجل الذى هربت معه زوجتى كان يعزف موسيقى شوبان بمهارة لا تجارى . يالفكتوريا المسكينة ! كم كنت أميل إليها ! إن البيت يبدو مهجوراً بعد أن تركته ، ولا شك أن الحياة الزوجية مجرد عادة ، عادة سيئة ، ولكن الإنسان يأسف على فقدان عاداته ، حتى الخبيثة منها ، بل لعل الإنسان يأسف على فقدان عاداته الخبيثة قبل أن يأسف على فقدان عاداته الحسنة ، لأن العادات الخبيثة جزء متمم لشخصية الإنسان .

لم يجب دوريان بشئ بل نهض من مكانه فى المائدة ومضى إلى الغرفة المجاورة وجلس أمام البيانو وترك أصابعه تجول بين مفاتيحه العاجية البيضاء ومفاتيحه العاجية السوداء ، وجاءت القوة فتوقف عن العزف ثم نظر إلى اللورد هنرى وقال :

- اسمع يا هارى ألم يخطر لك قط أن پازيل مات قتيلاً؟

فتشاءب اللورد هنرى وقال :

- إن پازيل كان محبوباً من الجميع ، فما الداعى إلى قتله؟ وهو لم يكن ذكياً فيكون له أعداء . أنا لا أشك فى عبقريته كرسام ، ولكنك تستطيع أن تكون لك مهارة فيلاسكيز فى الرسم ، وتبقى برغم ذلك نموذجاً للغباوة ، ولقد كان پازيل فى الواقع على شئ من الغباوة ، ولم أجد فى تفكيره ما أثار اهتمامى إلا مرة واحدة ، أعنى حين باح لى منذ سنوات طويلة بأنه يحبك حباً يقرب من العبادة ، وبأنك النفس الجبار الذى يلهم فنه .

قال دوريان فى وجوم :

- وأنا كذلك كنت أحب بازيل حبًا جمًّا ، ولكن ألا يقول الناس إنه مات مقتولا يا هارى؟

- نعم . هذا ما تقوله بعض الصحف ، ولكنى استبعدته . صحيح أن باريس ملأى بالأوكار الجهنمية ، ولكن بازيل لم يكن بالرجل الذى يتردد عليها ، فالفضول عنده كان ميتًا ، وهذا كان عيبه الرئيسى .
قال الشاب :

- لو أنى قلت إنى قتلت بازيل فماذا تقول يا هارى؟

ثم أخذ يتفرس فى اللورد هنرى ليرى وقع كلماته فى نفسه .

- أقول إنك تحاول أن تمثل شخصية لا تناسبك يا صديقى ، فالجريمة بكل أنواعها مبتذلة ، كما أن الابتذال بكل أنواعه جريمة ، وليس فى طبيعتك ارتكاب الجرائم يا دوريان . أقول هذا راجيًا أن تغتفر لى جرحى لكبريائك ، ولكنى أؤكد لك أن الإجرام ليس فى طبيعتك . الإجرام اكتياز خاص تملكه الطبقة الدنيا فى المجتمع ، وأنا لا ألوم أبناء هذه الطبقة على ذلك ، فالإجرام عندهم يقوم مقام الفن عندنا ، أى أنه وسيلة لإشباع الحواس بالاختبارات غير المألوفة . هذا ما أتصوره أنا على الأقل .

- وكيف يكون هذا؟ أعتقد إذاً أن من قتل مرة يستطيع أن يقتل ثانية؟
هذا بعيد الاحتمال .

قال اللورد هنرى ضاحكًا :

- إن أى عمل قد يصبح مصدر لذة إذا اكتسب قوة العادة ، وهذا سر من أهم أسرار الحياة ، على أنى أعتقد أن القتل خطأ مهما كانت ظروفه ، فالإنسان يجب ألا يفعل شيئًا يتأفف من الكلام فيه بعد العشاء ، ولكن دعنا من موضوع بازيل المسكين . ليتنى أستطيع أن أحمل نفسى على الاعتقاد بأنه انتهى هذه النهاية المثيرة للخيال كما تقول ، ولكنى عاجز عن ذلك ، وإذا كان

پازیل قد مات فعلا فأرجح أنه سقط من الأتوبيس فى نهر السين مثلا ، وأن الكمسارى نجح فى إخفاء هذه الحقيقة . نعم ، أرجح أن نهايته كانت شيئا من هذا القبيل ، وإنى لأتصوره الآن مستلقيا على ظهره فى قاع ذلك النهر الأخضر المنطفئ ، وقد اشتبكت فى شعره الأعشاب الطويلة وطففت من فوقه الزوارق الكبيرة ، وإنى أعتقد يا دوريان أن فنه كان فى اضمحلال مستمر فى السنوات العشر الأخيرة ، ولم يكن يرجى منه أن ينتج شيئا آخر ذا قيمة حقيقية .

وتنهد دوريان وقطع اللورد هنرى أرض الغرفة وأنشأ يداعب رأس بيغاء جاءه من جاوه ، وهو طائر هائل أشهب الرياش وردى الصدر والذيل ، يقف على غصن من الخيزران ، وحين مسته الأصابع الدقيقة أغمض جفنيه المتكسرين على عينيه السوداوين اللتين تشبهان الزجاج وبدأ يتأرجح يمنة ويسرة ، ثم التفت اللورد هنرى إلى الخلف وأخرج منديله من جيبه قائلا :

- نعم ، إن فنه قد انحط ، ويبدو أن شيئا ضاع منه . يبدو أن المثل الأعلى ضاع منه ، وحين فترت الصداقة بينكما خمدت جذوه فنه ، فماذا فرق بينكما يا دوريان؟ أظن أنه أضجرك بمواعظه وتفاهاته؟ إذا كان الأمر كذلك فلا بد أنه ألقى عليك اللوم دائما ، فهذه عادة الناس المضجرين . وبهذه المناسبة يا دوريان ، ماذا كان مصير تلك الصورة الرائعة التى رسمها لك ؟ أظن أنى لم أرها منذ أن أتم پازیل رسمها . اذكر أنك قلت لى منذ سنوات عديدة إنك أرسلتها إلى قصر سلبى وفى الطريق اختفت ، ضاعت أو سرقها سارق . ألم تستردها يا دوريان؟ إن ضياعها لشيء محزن ، فقد كانت صورة من بدائع الفن الخالدة ، وإنى لأذكر أنى رغبت فى شرائها ، ويا ليتنى اشتريتها فهى من إنتاج پازیل إبان عنفوانه الفنى ، ولقد صار فنه منذ أن رسم تلك الصورة مزيجاً من الأسلوب الركيك والنوايا الطيبة وهو المزيج الذى يؤهل صاحبه فى كل عصر لأن يكون فناناً بريطانياً من الطراز الأول . قل لى : أعلنت

عن ضياع الصورة؟ إن كنت لم تعلن بعد ، فالواجب يقضى عليك بأن تفعل ذلك .

قال دوريان :

- لست أذكر يا هارى ، ولكنى أرجح أنى أعلنت عن ضياعها ، وإن كنت لم أحبها قط ، بل إنى لآسف على أنى سمحت لپازيل أن ينقلها عنى ، وذكرها تثير فى نفسى أبغض الخواطر . لم تتحدث عنها؟ لقد كانت تذكرنى ببيت من الشعر فى مسرحية من المسرحيات ، أعتقد أنها مسرحية «هاملت» كانت تذكرنى بهذا البيت :

هى صورة الأحران ،

هى وجه بلا قلب .

نعم يا هارى ، هذا وصف صادق لتلك الصورة .

وضحك اللورد هنرى وأجاب وهو يغوص فى مقعده :

- لو أن رجلاً عامل الحياة معاملة فنان لقام عقله مقام قلبه .

ولم يجب دوريان جراى بل هز رأسه وعزف لحنًا حنونًا على البيانو وأنشأ يردد :

هى صورة الأحران ،

هى وجه بلا قلب .

واستلقى اللورد هنرى إلى الوراء وأغمض جفنيه قليلاً وأدمن النظر إلى دوريان ، ثم قال بعد صمت قليل :

- ما رأيك يا دوريان فى قول المسيح : «ماذا يستفيد الإنسان لو خسر روحه وربح العالم أجمع؟» .

واضرب اللحن ، والتفت دوريان جراى إلى اللورد هنرى متزعجاً وحملق فيه طويلاً ، ثم قال :

- لم تسألنى هذا السؤال يا هارى؟

قال اللورد هنرى وهو يرفع حاجبيه دهشة :

- سألتك هذا السؤال لأنى حسبت أنك قد تعرف الجواب عليه .

وهذا كل ما فى الأمر يا صديقى . ففى يوم الأحد الفائت كنت أمر فى هايد پارك ، ولما كدت أبلغ الماربل آرتش رأيت نفرًا من الناس قليلا ، ثيابهم رثة ، يستمعون إلى واعظ يطرح هذا السؤال على سامعيه ، وقد خيل إلى أن فى المشهد الذى رأيته قوة مسرحية بليغة . إن لندن ملأى بمثل هذه الظواهر الغريبة ، ومن المألوف أن تخرج كما خرجت فى يوم مطير من أيام الأحد فترى مسيحيًا خشن المنظر يرتدى معطفًا من الجلد ومن حوله اجتمع رهط من الناس وجوههم شاحبة وفوق رؤوسهم مظلات مبللة تنحدر عليها مياه المطر ، وتستمع عبارة بليغة يطلقها فى الهواء صوت عصبى حاد . لقد كانت الكلمة جميلة على طريقتها الخاصة ، وكانت تحمل معنى قويًا ، وقد عن لى أن أجيب على سؤال هذا النبى الصغير قائلاً بأن للفن روحًا ، أما الإنسان فلا روح له ، ولكنى خشيت ألا يفهم معنى كلامى ، فمضيت لحالى .

- لا تشك فى وجود الروح يا هارى ، فالروح حقيقة رهيبة لا مرأى فيها ، وهى تباع وتشتري وتستبدل بشتى الأشياء ، وهى تقبل أن تسمم وهى تقبل أن تهذب . إن فى كل منا روحًا ، وأنا على يقين من ذلك .

- أنت واثق تماما من وجود الروح يا دوريان؟

- تمام الوثوق .

- لابد إذا أن تكون الروح وهمًا ، فكل ما نثق منه لا أساس له من الصحة ، وهذه مأساة الإيمان ، وهذه عظة الخيال . لم كل هذا الوجوم

يا دوريان ؟ هيا انفضه عنك . هذه ترهات العصر ونحن لا نكثر لها . نعم ،
لقد تخلينا عن إيماننا بالروح . هيا اعزف لى شيئاً على البيانو ، اعزف لى
ليلة من ليليات شوبان يا دوريان ، وقص على بصوت مهموس كيف استطعت
أن تحتفظ بشبابك . لا شك أن لديك سرّاً تصون به الجمال ، فأنا أكبرك بعشر
سنوات لا غير ، ومع ذلك ترانى مغضن الوجه متعب الجسد شاحب اللون ،
أما أنت يا دوريان فتمودج للجمال الحى ، وما رأيك قط أشد فتنة مما أنت
الآن ، فأنت تذكرنى الليلة بيوم لقائنا الأول . لقد كنت يومئذ شديد الخجل
لا مثل لك فى الدنيا ، ولقد تغيرت ، ولكن فى شخصيتك لا فى مظهرك ،
وليتك تبوح لى بهذا السر العظيم الذى يديم عليك الشباب ، فأنا على
استعداد لأن أفعل أى شئ لأسترد شبابى ، إلا أن أصحو مبكراً أو أقوم
بالتمرينات الرياضية أو أصطنع مظهر الرجل المحترم ، فيا ليت الشباب يعود ،
فهو النعمة الأولى فى هذه الحياة ، ومن السخف أن يتحدث الناس عن حماقة
الشباب ، فأنا لا أقيم وزناً لرأى أحد إلا إذا كان يصغرنى بسنوات عديدة . إنى
أرى الشبان يتقدمون الكهول من أمثالى ، لأن الحياة قد كشفت لهم عن
أحداث عجائبها وضنت به علينا ، أما الشيوخ فأنا اختلف معهم فى كل شئ ،
وهذه سنة أتبعها ، فلو أنك سألتهم عن رأيهم فى شئ وقع بالأمس رددوا
لك الآراء التى كانت منتشرة فى عام ١٨٢٠ ، أيام أن كان الناس يلبسون
الجوارب حتى الركبة ، ويؤمنون بكل ما يقال لهم ، ويجهلون كل شئ فى
الوجود . ما أعذب هذا اللحن الذى تلعبه يا دوريان . لعل شوبان وضعه
وهو فى ميوركا وهو يسمع البحر يتحب حول بيته ورشاشه المالح يلطم زجاج
نافذته . كم يحرك هذا اللحن خيالى يا دوريان . يجب أن نشكر الآلهة
يا دوريان على أنها أبقت لنا فناً واحداً لا يقوم على التقليد . استمر يا دوريان

فنفسى تحن إلى الموسيقى هذه الليلة ، ويبدو لى أنك أپولو الإله الصغير وإنى مارسىاس استمع إليك . إن نفس حزينة ، وأحزانها خبيثة لا يعرف عنها أحد شيئاً حتى أنت يا دوريان . إن مأساة الشيخوخة ليست فى شيخوختنا ولكن فى شبابنا . هذا قول صادق أقوله وأعجب لإخلاصى فى القول . وما أسعدك يا دوريان بهذا الشباب الذى لا ينضب ، وما أجمل حياتك ، فلقد شربت من كل شئ حتى الثمالة ، ولقد عصرت عناقيد السعادة على لسانك فما أبقىت منها شيئاً ، ولقد عرّت الحياة صدرها أمامك ولم تستر عنك شيئاً ، ومع ذلك فقد جاءتك السعادة مجئاً لحن جميل بعيد فلم تفقد توازنك ، ولم تفسد طبيعتك .

أجل . أنت لم تتغير برغم كل ما مر بك .

- ولكنى تغيرت يا هارى !

- كلا . أنت لم تتغير بل بقيت على حالك . ترى كيف تكون حياتك المستقبلية؟ مهما يكن من شئ فلا تفسدها بالتوبة . أنت الآن نموذج للكمال ، فلا تنقص من نفسك يا دوريان . أنت الآن سالم من كل خدش أو عطب . لا تهز رأسك فأنت تعرف أنى صادق فيما أقول ، ولا تخدع نفسك يا دوريان ، فالحياة لا تخضع للإرادة أو للنوايا ، ولكنها تضجع للأعصاب والألياف الخلايا التى تنمو رويداً رويداً وتختبئ فيها الأفكار ونيسج القلب أحلامه ، ولقد تخال نفسك بمأمن من صوت الماضى ، ولقد تحسب نفسك حديدى العزمات ، ولكنك فى الواقع خاضع لأتفه الأمور . لون تراه صدفة فى غرفة من الغرف ، أو صفاء تراه فى السماء ذات صباح ، أو عطر كنت تحبه فى يوم من الأيام يعود إليك بخفى الذكريات أو بيت من قصيدة مناسبة أو تنعيم بقى لك من لحن قديم ، مثل هذه الأشياء تتوقف عليها حياتنا يا دوريان لقد كتب براوننج شيئاً بهذا المعنى ، ولكننا لسنا بحاجة إلى شعره ذلك ، فحواسنا لها قدرة التصور . ولقد يهب فى أنفى أرية الليلة الأبيض فأبقى شهراً كاملاً سجين

الذكريات وأعود بخلدى إلى أغرب شهر مر بى فى حياتى . ليتنى كنت مكانك يا دوريان . إ المجتمع شائئى وشائئك ، ولكن المجتمع يعبدك ولا يعبدنى ، ولسوف يمضى المجتمع فى عبادتك فأنت نموذج كل ما يصبو إليه العصر وكل ما يخشاه من حقائق الحياة ، وإنى لمغبط بأنك لم تخرج من نفسك لتنحت تمثالا أو ترسم صورة أو تنتج أى شئ تنزل فيه عن جزء من شخصيتك . لقد كانت الحياة فنك ، فكان كل يوم من أيام عمرك لحن جميل .

ونهض دوريان من مكانه أمام البيانو ومر بأصابعه خلال شعره وقال :

- نعم . لقد كانت حياتى الماضية جميلة ولكن حياتى المستقبل لن تكون كحياتى الماضية يا هارى ، وأنا أسألك ألا تردد على مسامعى هذه الأقوال الطنانة فأنت لا تعرف بعض نواحي حياتى ، ولو قد عرفتها لانصرفت عنى . ها أنت ذا تضحك ، ولكنى أرجوك ألا تضحك .

- لم توقف عن العزف يا دوريان؟ عد إلى البيانو والعب هذه الليلة مرة أخرى ، وانظر إلى القمر الكبير تر لونه كلون الشهد ، انظر إليه وهو معلق فى السماء الظلماء تر أنه ينتظر منك أن تسحره بألحانك ، فعد إلى اللعب يقترب القمر من الأرض . أراك تصر على رفضك . إذاً فهيا بنا إلى النادى حيث نختم هناك الليلة الجميلة ختاماً جميلاً . إن فى نادى هوايت فتى مشوقاً إلى التعريف بك هو اللورد پول الشاب وهو الابن الأكبر للورد بورنموث ، وقد بدأ فعلاً بتقليد ربطات الرقبة التى تلبسها ، ورجانى رجاء حاراً أن أقدمه إليك ، وسوف تجد فيه أنيساً مسلياً ، ولا أكتملك أنه يذكرنى بك إلى درجة ما .

قال دوريان فى حزن :

- أرجوك ألا يكون هذا صحيحاً ، ولكنى الليلة متعب يا هارى ولن أستطيع الذهاب إلى النادى . لقد أوشكت الساعة أن تبلغ الحادية عشرة ، وأنا أفضل أن أوى إلى فراشى مبكراً .

- أرجوك أن تبقى معى يا دوريان ، فأنا لم أسمعك قط تلعب بهذا الحنان وبهذه المهارة ، ولقد كان أسلوبك أقوى تعبيراً منه فى أى وقت مضى .

فأجاب دوريان وهو يبتسم :

- ذلك لأننى قررت أن أقلع عن الشر ، ولقد تغيرت فعلاً كما ترى ولو بقدر قليل .

قال اللورد هنرى :

- ولكن علاقتنا لن تتغير يا دوريان ، وصداقتنا لن يصبىها شئ .

- أنت نسيت أنك سممت أفكارى بكتاب أرسلته إلىّ ، ولا يصح أن أغتفر لك ذلك ، فعذنى يا هارى بالأ تعير هذا الكتاب لأحد فهو خبيث الأثر .

- أرى أنك قد بدأت تعظ الناس فعلاً فيما تجيزه الأخلاق ومالاً تجيزه ، وسوف تصبح بعد قليل كأولئك التائبين وأصحاب حركة إحياء الدين المسيحى ، تسير فى الناس محذراً إياهم من الخطايا التى شبت منها حتى زهدت فيها ، فلا تفسد شخصيتك الجميلة بهذا العبث ، ثم أنك لم تنجح فى قولك بأن كتابى سممك فهذا لغو لأن الفن لا أثر له فى سلوك الإنسان ، فإن كان له أثر فى سلوك الإنسان فهو أنه يشلّ الرغبة فى العمل . الفن عقم جميل ، والكتب التى ينعثها الناس بأنها منافية للأخلاق هى التى تكشف للإنسانية عن عوراتها . هذا كل ما فى الأمر ، ولكن دعنا الآن من حديث الأدب . سأنتظرك غداً . وأنا خارج للترهة سأخذك إلى دار اللىدى برانكسوم حيث نتغذى على مائدتها ، فهى سيدة لطيفة المعشر ، وهى تحب أن تستشيرك فى بعض المنسوجات المصورة التى ترغب فى شرائها . لا تنس أن تأتى ، وإن كنت تفضل أن نتغذى مع الدوقة الرشيقة كان بها . إنها تقول إنك قد احتجبت عنها تماماً فى هذه الأيام الأخيرة ، فلعلك قد مللتها كما كنت أتوقع ، فمهارتها فى الحديث تتعب الأعصاب . على أية حال تعال فى الساعة الحادية عشرة ولنتصرف بعد ذاك كما تشاء .

- وهل هناك ضرورة لمجيئي غداً يا هاري؟
- نعم ، بلا جدال فهناك بركة في هذه الأيام في أجمل حلة ، وفيه من البنفسج ما لم أراه منذ أن قابلتك أول مرة .
- قال دوريان :
- إذا ساكون هنا في الحادية عشرة ، فإلى اللقاء يا هاري .
- وبلغ الباب ثم تردد قليلاً كأن بنفسه شيئاً يرى أن يبوح به لصاحبه ولكنه تنهد وخرج .

الفصل العشرون

كان الليل ساجياً فحمل دوريان جراى معطفه على ذراعه إذ لم تكن به إليه حاجة ، كذلك لم يحتمل أن يضع كوفيته الحريرية حول عنقه ، وسار قاصداً بيته وكان يدخن ، وفيما هو سائر مر به شابان يلبسان ثياب المساء ، وسمع أحدهما يقول للآخر : «هذا هو دوريان جراى» وتذكر دوريان جراى أيامه الخاليات حين كان يغتبط إذا أشار الناس إليه أو حملقوا فيه أو تحدثوا عنه . أما الآن فقد مج كل ذلك وأصبح يسوءه أن يسمع اسمه يتردد ، وكان يرتاح إلى القرية ، قرية هيتى التى أكثر من زيارتها فى الأسابيع الأخيرة ، لأنه كان مجهولاً فيها ، وكم من مرة قال لتلك الفتاة التى ساقها إلى حبه سوقاً إنه رقيق الحال لا يملك من متاع الدنيا شيئاً فصدقته ، ولقد ذكر لها مرة أخرى أنه مخلوق شرير ، فضحكت وقالت إن المخلوقات الشريرة لا بد أن تكون دميمة الخلقة طاعنة فى السن . نعم . ضحكت ملء رئتيها ورنّت ضحكتها كأنها زقزقة عصفور . كم كانت هيتى جميلة فى ثيابها وقبعاتها الكبيرة! ولم يكن علم هيتى كثيراً ، ولكنها لم تكن بحاجة إلى العلم ، فقد اجتمع لها كل ما ضاع منه من فضائل .

ولما بلغ بيته وجد الخادم فى انتظاره ، وصرفه لينام ثم تمدد على أريكة بالمكتبة وبدأ يفكر فى بعض ما قاله اللورد هنرى .

هل سيعجز حقاً عن تغيير طبيعته كما زعم اللورد هنرى؟ إن به شوقاً أكلاً إلى صباه الطاهر الطير ، إلى صباه الذى أشبه باقة من الورد الأبيض والورد الأحمر ، بلغة اللورد هنرى . إنه يعلم أنه لو ث نفسه ، وأفسد عقله وشحن

خياله بالأشبح المخيفة ، وهو يعلم أنه كان ينشر الانحطاط حوله أينما ذهب ، وأنه كان يسر بذلك سروراً عظيماً ، وأنه كان ينتخب من رفاقه أذكاهم وأصلحهم للحياة فيلقى بهم في أتون الشر كأنه إبليس الرجيم ، ويجردهم من الشرف . ولكن هل فات الأوان حقاً؟ وهل ضاع كل أمل في التوبة؟

لقد أخذه الغرور وأعماه حب الدنيا فصلى إلى الآلهة أن تجعل الصورة تحمل أوزار حياته ، وأن تبقى له على شبابه الناضر إلى يوم يموت ، وقد كان ، وهكذا بدأت مأساة حياته فياليت ذنوبه حفرت على وجهه آثارها النكراء وشوخته أولاً بأول ، ولو قد حدث هذا لجاء عقابه آجلاً سريعاً رادعاً ، وفي القصاص تطهير للنفس الآثمة ، ولخير للإنسان أن يصلى أمام عدالة الله قائلاً : «أبانا الذى فى السموات ! ابطش بنا لذنوبنا» من أن يصلى قائلاً : «أبانا الذى فى السموات ! اغفر لنا ذنوبنا» .

وكانت المرأة العجيبة التى أهدها إليه اللورد هنرى منذ سنوات طويلة لا تزال قائمة على المائدة ، وكانت رسوم كوييد التى تزينها لا تزال تضحك كما كانت تضحك قديماً ، وتناول دوريان جراى المرأة ، تناولها كما تناولها فى تلك الليلة العصيبة حين لاحظ التغير الذى أدرك الصورة المشئومة ، ونظر إلى خياله فيها بعين زائغة دامعة ، وذكر الكلمات الوثنية التى كتبتها إليه عاشقة مجنونة فى خطاب محموم : «إن العالم يتغير لأن الآلهة صاغت من عاج وذهب : إن خطوط شفتيك تكتب التاريخ من جديد» . عادت هذه الكلمات إلى خاطره فرددها خاطره المرة تو المرة ، ثم سئمت نفسه جمال وجهه فقذف بالمرأة على الأرض وداس عليها بقدمه فهشمها إلى شظايا تلمع كقطع الفضة . لقد حطم هذا الجمال حياته وأجهز شبابه على سعادته ، ولولا جماله وشبابه لعاش أبيض الصفحة لا يعرف الدنس . وإن جماله لم يكن إلا قناعاً ، وشبابه لم يكن إلا حلة مسمومة فماذا أفاد من الشباب؟ زمان الصبوات المتلفة والثمار الفجة ، والعواطف السطحية المريضة . لقد فسد دوريان جراى وما أفسده إلا شبابه .

ولكن كان من الخير ألا يفكر فى الماضى ، فما كان كان ، ولن تمحوه قوة على الأرض أو فى المساء ، فليفكر إذاً فى نفغسه وفى مستقبله . إن جيمس فين راقد فى قبر بغير شاهد فى فناء كنيسة سلبى . إن آلان كامبل قد أطلق النار على نفسه ذات ليلة وهو فى معمله ، ولكنه لم يبح بسرهما لأحد ، ولسوف تسكن الضجة التى أثّرت حول اختفاء بازيل هولوررد عما قريب ، بل لقد خفتت فعلاً ، إذاً فهو سالم لا يخشى افتضاحاً ، ولكن اضطرابه لم يأت من تفكيره فى موت هولوررد لقد كان اضطرابه من إحساسه بأنه ميت حتى فى روحه . إن بازيل رسم له صورة قضت على حياته ، ولن يغتفر له تلك الإساءة . نعم . كل ما نزل به علته الصورة . إن بازيل أباح لنفسه أن يزجره زجراً لا يحتمل ، ومع ذلك فقد احتمل ما قاله بازيل بصبر عظيم . إن قتل بازيل كان فى لحظة جنون استولى عليه ، أما آلان كامبل فقد قتل نفسه بيده ، وهو الذى شاء أن يموت ، فكيف يسأل دوريان جراى عنه؟

إلى الحياة الجديدة إذاً ، فالحياة الجديدة هى ما تصبو إليه نفسه ، ولقد بدأ هذه الحياة الجديدة فعلاً . أو لم يظفر بفريسة بريئة ثم يطلقها؟ إن نفسه لن تسول له بعد الآن أن يلوث زهرة نقية . إن نفسه تطلب عمل الخير .

وفيما هو يفكر فى هيتى مرتون اتجهت أفكاره إلى الصورة القائمة فى الغرفة المقفلة ، وخطر له أنها لا بد أن تكون قد تغيرت ، فمحال أن تحتفظ الصورة بكل بشاعتها بعد أن فعل ما فعل مع هيتى ، وأخذ يحلم بالتوبة وأثرها فى اللوحة ، فظن أنه لو طهر نفسه من آثامها إثمًا بعد إثم لاستطاع أن يمحو من الصورة كل ما فيها من معالم الشر ، وأن يرد إليها الرونق المفقود . بل ما يدريه أن الصورة لم تتغير فعلاً وأن معالم الشر لم تزل عندها؟ إذاً فليفحصها لفوره .

وحمل المصباح القائم على المائدة ودب ديباً خفيفاً إلى الغرفة العليا ،
وشد المزلاج وهو يبتسم ابتسامة الفرح وداعبت خياله الخواطر الجميلة ، فأضاء
وجهه الدائم النضرة فهو لن يفزع بعد اليوم من مرآي الصورة لأنه تائب ،
ولأن الصورة المسوخة سوف تسجل توبته كما سجلت إجرامه ، وأحسن
بالراحة الكبرى .

ودخل في هدوء ، وأقفل الباب وراءه كعادته ، ونزع الستار الأرجواني
فكشف اللوحة ، وخرجت منه صيحة المتألم وصيحة الغاضب في وقت واحد
ذلك لأنه لم ير في الصورة التحول المنشود ، فكل ما جد فيها بريق في العينين
هو بريق المكر والتواء في الشفتين ينم عن النفاق : لقد كانت الصورة كما
تركها آخر مرة ، مسخاً حياً ، بل لعل مسخها اشتط إن كان قد بقى فيها
مجال لذلك ، ورأى البقعة الحمراء التي تلتطخ اليد أشد احمراراً مما كانت ،
ورأى فيها آثار دم جديد . ومشيت في أوصاله رعدة فقد تذكر ما قاله اللورد
هنرى ، إن اللورد هنرى زعم أن غرورة قد ساقه إلى فعل الخير ، أفهذا
صحيح؟ إن اللورد هنرى زعم أن رغبته في الحصول على لون جديد من ألوان
الإحساس هي التي دفعته إلى فعل الخير . أفهذا صحيح؟ لعله كان يمثل دوراً
سامياً لا حباً في السمو بل كلفاً بالتمثيل . لعل هذه العوامل مجتمعة هي التي
ألهمته أن يفعل ما فعل ، ثم البقعة الحمراء التي تلتطخ أصابعه الشوهاء .
كيف اتسعت هذه البقعة الحمراء . وشاهد على قدميه آثار دماء كأنما سالت
القطرات من يده قطرة قطرة . كذلك اليد الأخرى التي لم تمسك بالمدية شاهد
عليها دماء . ترى ما معنى هذا؟ الاعتراف؟ هل يراد به أن يعترف ، أن يشمل
نفسه إلى العدالة؟ وضحك دوريان جراً ، لأنه علم أن هذا محال ، ولو أنه
اعترف لما صدقه أحد ، فأين جثة القتيل؟ لا أثر لها ، أين أشياؤه؟ لا أثر لها
لقد أحرقها دوريان جراً بنفسه ولو أنه تجوّد على الناس بهذه القصة لظنه
الناس مخبولاً ، ولو أنه أصرف على دعواه لأدعوه في مستشفى المجاذيب ،

ولكن الواجب يقضى عليه بأن يعترف ، وبأن يعلن على الناس عاره ، وأن يكفّر أمام الناس عما اقترفت يده ، فإله يأمره أن يعترف أمام الأرض كما يعترف أمام السماء ، ولن يغسل عنه خطاياهم إلا أن يعترف بها . وما هي خطاياهم؟ إن موت بازيل هولوردد لم يزعهجه كثيراً ، لأنه يفكر في هيتى ميرتون . يالها من مرآة خائنة ، هذه المرآة التي يرى فيها روحه ! أكان غروزه أم فضوله أم رياؤه هو الذى دفعه إلى توبته المزعومة؟ ألم يكن فى توبته ذرة واحدة من الإخلاص؟ نعم لقد كان فى توبته شئ من الإخلاص ، أو هذا ما كان يتوهمه قبل أن يرى الصورة . ترى من يستطيع أن يدلّه على الحقيقة؟ الصورة . والصورة تقول إن توبته لم يكن فيها ذرة واحدة من الإخلاص ، فهو لم يفتك بهيتى ميرتون إلا إرضاء لغروزه ، وهو قد لبس قناع التقوى من باب الرياء ، وهو قد جرب إنكار الذات من باب الفضول . وهذه هي الحقيقة ، وهو يدركها الآن .

ولكن ما سبيله إلى الخلاص من آثار جريمته ، وهل قتله بازيل هولوردد مطارده بقية حياته؟ وكيف يفعل بماضيه؟ أو يحمل عبئه دائماً ، دائماً؟ وهل هناك ما يلزمه بالاعتراف؟ كلا . فلم يبق ن الأدلة التى تدينه إلا دليل واحد ، وهذا الدليل هو الصورة ، فلتدمر الصورة تدميراً . ترى ماذا حمله على الإبقاء عليها كل هذا الزمن؟ لقد كان فى وقت من الأوقات يجد لذة فى تتبع التغير الذى يطرأ عليها ، ولكنه فقد هذه اللذة أخيراً ، ولكم أرقت الصورة جفنيه ، ولكم امتلأ جزعاً كلما غازر لندن خشية أن تقع عليها عينان ، لكم أوجت له الصورة بالأفكار السوداء ولكم هيجب الأحزان ، لقد كانت الصورة عنده بمثابة ضميره الحى ، ما فى ذلك شك ، فليحطم ذلك الضمير الذى يفسد عليه طعم الحياة .

وتلفت حوله فرأى المديّة التى قتل بها بازيل هولوردد . كم غسل هذه المديّة ومسحها حتى لم يبق عليها أثر لدم ، رآها تلمع . إنها المديّة التى قتلت الرسام ، فلتقتل إذاً عمل الرسام ، ولينته بذلك الأمر ، فلتقتل المديّة الماضى ،

وحين يموت الماضى ينعم دوريان جراى بحريته مرة أخرى ، ولولا هذه الروح اللعينة الحية فى الصورة لوجد الطمأنينة الكاملة ، فلتزهق إذا هذه الروح اللعينة الحية . وأمسك دوريان جراى بالمديّة وطعن بها الصورة .

وارتفعت صرخة وعقبها سقوط جسم .

وكانت الصرخة مفاجئة حتى لقد أيقظت الخدم من نومهم وانسلوا خارجين من غرفهم ليقفوا على ما كان ، وكان بالميدان رجلان عابران سمعا الصرخة العالية ، فتوقفا عن المسير ونظرا إلى البيت الكبير فى ارتياب ، ثم مضيا يبحثان عن شرطى ، وعادا بالشرطى إلى البيت ، ودق الشرطى الجرس عدة مرات ، فلم يتلق جواباً وكان البيت مظلماً ليس فيه مظهر من مظاهر الحياة إلا النور المنبعث من النافذة العليا ، وبعد قليل انصرف الشرطى ووقف عند مدخل بيت مجاور ، وأنشأ يترقب الحوادث .

وسأله أحد الرجلين قائلاً : بيت من هذا ؟

فأجاب الشرطى :

هذا بيت دوريان جراى ياسيدى .

وتبادل الرجلان النظر وعبا ، ثم انصرفا . وكان أحدهما عم السير هرى أشتون .

وفى داخل البيت كان الخدم المذعورون فى ملابس النوم يتهامسون وكانت المديرّة العجوز مسز ليف تبكى وتعصر يديها عصراً ، وكان فرانسيس شاحباً شحوب الأموات .

وبعد ربع ساعة خف الحوذى وأحد الخدم إلى فرانسيس وصعدوا جميعاً إلى الغرفة العليا بخطى واجفة ، وطرقوا الباب فلم يجبهم مجيب ، ونادوا على سيدهم فلم يجبهم مجيب ، وحاولوا أن يفتحوا الغرفة عنوة ولكن

الباب كان عنيداً ، فلما يئسوا تسلقوا إلى السطح ومنه إلى الشرفة ودفَعوا النوافذ فلانت مزاليجها البالية .

ودخلوا الغرفة فشاهدوا على الحائط صورة رائعة لسيدهم ، وقد سجلت جماله الفذ وشبابه الناضر ، وعلى الأرض شاهدوا رجلاً ميتاً في ثياب السهرة ، وقد غارت في قلبه مديّة ، وكان الرجل مغضن الوجه يابس البدن كريحه الملامح ، ولم يتبينوا هويّته إلا بعد أن فحصوا الخواتم التي يلبسها .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل



يتألف هذا المجلد من ثلاث روايات ترجمها الدكتور لويس عوض
في الأربعينيات ، وهى :

«الوادي السعيد» لصمويل چونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) ، وتمثل
المذهب الكلاسيكى فى أنضج إبداعاته فى القرن الثامن عشر.
و « شبح كانترفيل» و «صورة دوريان جراى» لأوسكار وايلد
(١٨٥٦ - ١٩٠٠) زعيم مدرسة الفن للفن فى نهاية القرن التاسع
عشر.

وترجمات لويس عوض للأدب الأوروبى القديمة والحديثة تتميز
بالأمانة والدقة والطلاوة ، التى تتبع من خبرة عالية بأسرار اللغة،
ومن قدرة فائقة على الأداء الذى يعكس جمال النصوص الأصلية.